الطبعة الثالثة

الدكتور الشيخ
عدنان فرحان آل قاسم
«أبو أنس»

دروس في السيرة النبوية

منهج تحليلي لدراسة أحداث السيرة النبوية
واستلهام المعطيات والدروس والعبر منها

العهد المدني

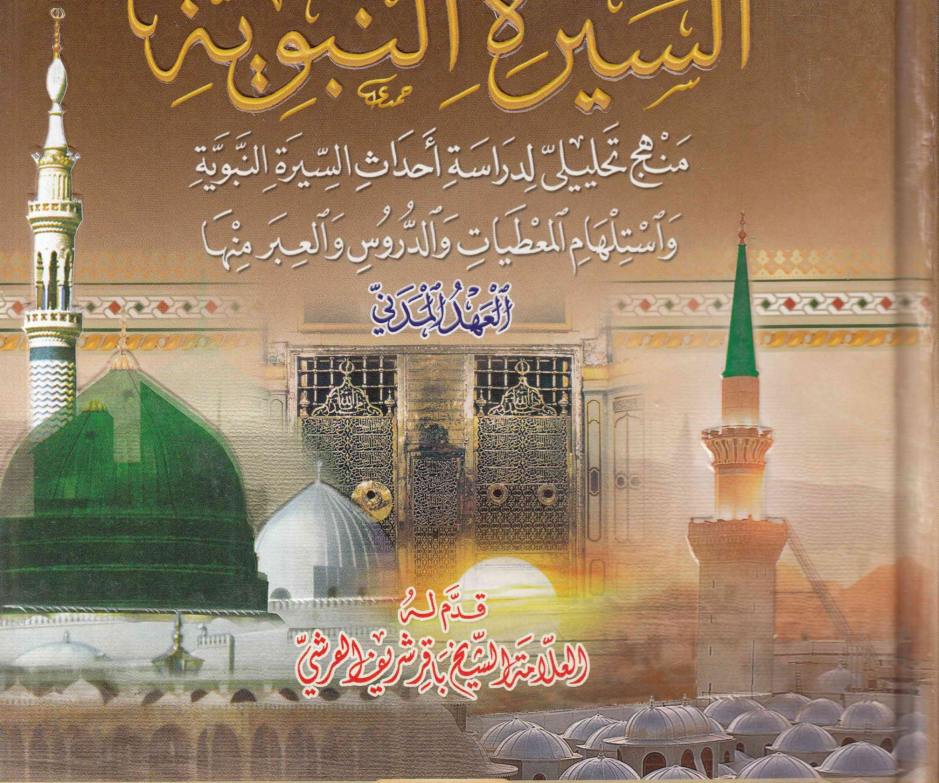

قدم له
العلامة الشيخ باقر شريف القرشي

دار السلام

العهد المدني
٤

دُرُوسٌ
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

دُرُوسٌ
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

طبعة جديدة
مصحّحةٌ ومنقّحةٌ ومَزيدة
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

جميع حقوق النشر محفوظة ومسجلة للناشر
ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة طبع
أو ترجمة أو نسخ الكتاب أو أي جزء منه إلا بترخيص
خطي من الناشر تحت طائلة الشرع والقانون

دار السلام
بيروت - لبنان
لبنان : 009611472192 -009613461595
العراق : 009647802150376
E-mail:daralsalamco@hotmail.com

للتواصل مع المؤلف:
العراق 009647810957670
009647901849809
ايران 00989121536411
aboanasir@yahoo.com

دُرُوسٌ
فِي السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ

مَنْهَجٌ تَحْلِيلِيٌّ مَوْضُوعِيٌّ لِدِرَاسَةِ أَحْدَاثِ السِّيرَةِ النَّبَوِيَّةِ
وَاسْتِلْهَامِ المَعْطَيَاتِ وَالدُّرُوسِ وَالعِبَرِ مِنْهَا

العَهْدُ المَدَنِيُّ - القِسْمُ الثَّالِثُ

الدكتور الشيخ عدنان فرحان آل قاسم
« أبو أنس »

قدَّم لهُ
العلامة الشيخ باقر شريف القرشي

دار السلام
بيروت - لبنان

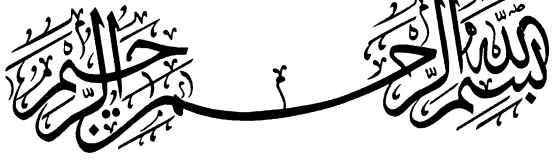
بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

هذا هو القسم الثالث من دروس السيرة النبوية في عهدها المدني.

ويبدأ هذا القسم من الدرس الثامن والعشرين، وينتهي بالدرس الرابع والثلاثين.

وتعتبر الأحداث والوقائع التي تناولتها هذه الباقة من الدروس من أهم أحداث السيرة النبوية، لأنها كانت تهدف إلى حامية الإسلام والدعوة الإسلامية؛ وضمان مستقبل الدعوة وما حققّته من انجازات ومكتسبات.

فمع بدايات السنة التاسعة كانت هنالك أحداث جديدة، منها: سرايا الدعوة، وغزوة تبوك، وبعث الجبات والمصدِّقين.. كل ذلك من أجل حماية مكتسبات الدولة الإسلامية وتقويتها داخلياً وخارجياً.

كذلك كانت السنة التاسعة حافلة بالوفود القادمة إلى المدينة لاعلان إسلامها وبيعتها لرسول الله ﷺ حيث عرف هذا العام بـ «عام الوفود».

ومع بدايات السنة العاشرة نجد رسول الله ﷺ يستعد للرحيل للقاء الله سبحانه، ولهذا كان ﷺ يرتب خلال هذه السنة مستلزمات هذه الرحلة، من خلال اللقاء بالأُمة الإسلامية على صعيد واحد، وابلاغهم آخر بيانات الإسلام، وتعيين من يتولى قيادتها ويصل بها إلى شاطئ الأمان، فكان هذا اللقاء في حجة الوداع، التي كان مسك ختامها في غدير خم وتلك البيعة التاريخية المعروفة ببيعة الغدير، والتي بها تمّ الدين وكملت النعمة. ليعود بعدها رسول الله ﷺ إلى المدينة قرير

العين مطمئن القلب بعد ترتيب الأوضاع المستقبلية للإسلام والمسلمين.

وكانت بدايات السنة الحادية عشرة قد أَزِفَتْ بالرحيل النهائي لرسول الله ﷺ، فلابد له ﷺ من توكيد ما تمَّ في بيعة الغدير، وايجاد الضمانات اللازمة لتنفيذه، من خلال توثيقه في كتاب لا تضل الأُمة من بعده. إلاّ أنّ رسول الله ﷺ ودع هذه الأُمة، وكتابه لم يكتَب.

وكان يجب على الأُمة أن تسلك طريق هدي نبيها الذي رسمه لها من خلال التمسك بما تركه لها من الثقلين: (كتاب الله، وعترته عليهم السلام) فهل تمسكت الأُمة بهما فنجت من الزيغ والضلال والانحراف؟

هذا ما تجيب عنه أحداث ما بعد رحيل رسول الله ﷺ، والتي لم نتعرض لها في هذه الدروس، وتركناها لفرصة أُخرى من عمر الزمن؛ آملين أن نوفق لها مستقبلا إن شاء الله.

هذا هو مجمل ما يتضمنه هذا القسم من دروس السيرة النبوية، وبه تختتم هذه الدروس. أما منهجية البحث ومصادره ومراجعه، والصعوبات التي واجهتنا... فقد تحدثنا عنها في بداية القسم الأول من العهد المدني. والله ولي التوفيق والسداد.

والحمد لله رب العالمين

المؤلف

الدرس الثامن والعشرون
أحداث السنة التاسعة من الهجرة

(غزوة تبوك)
«القسم الأول»

محاور البحث:

١ - تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها
٢ - أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتهيّؤ لغزو الروم وكراهية المسلمين لذلك!
٣ - المنافقون ودورهم التخذيلي في هذه الغزوة
٤ - حث رسول الله ﷺ المسلمين على المشاركة في الغزوة والانفاق من أجلها
٥ - المتخلفون عن غزوة تبوك:
البكائون، المعذِّرون، المنافقون، ومن أبطأت بهم النية!
المعذُورون وقصة أبي ذرٍّ الغفاري
٦ - أسباب بقاء علي بن أبي طالب في المدينة، وارجاف المنافقين، ودلالات حديث المنزلة
- الأسئلة

غزوة تبوك / ق ١

١ - تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها

تعتبر غزوة تبوك من الغزوات المهمة جداً، وإن لم يكن فيها قتال! وتأتي أهميتها من خلال ما سوف نذكره من أسباب ومعطيات ونتائج لهذه الغزوة.

كما أنّ لهذه الغزوة خصوصيات انفردت بها من بين غزوات رسول الله ﷺ، فهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ، وهي أقصى موضع بلغه رسول الله ﷺ في غزواته، وحظيت باهتمام القرآن الكريم من خلال الآيات التي تحدثت عن ملابساتها، واشخاصها، وما جرى فيها من أحداث ووقائع.

«وبالجملة فقد كانت لهذه الغزوة أهميّة كبيرة في السيرة النبوية وتاريخ الدعوة الإسلامية، وتحقّقت منها غايات كانت بعيدة الأثر في نفوس المسلمين والعرب، ومجرى الحوادث في تاريخ الإسلام»[١].

تاريخ الغزوة:

حدَّد المؤرخون تاريخ هذه الغزوة بشهر رجب سنة تسع من الهجرة[٢]، إلاّ أن البخاري في صحيحه ذكرها بعد حجة الوداع، لكن الحافظ ابن حجر قال في فتح الباري في شرح صحيح البخاري: «وهو خطأ، ولا خلاف أنها قبلها، ولا

---

(١) النَّدوي - أبو الحسن، السيرة النبوية: ٤٨٦ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٥، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٢٣ .

أظن ذلك إلاّ من النُساخ، فإنّ غزوة تبوك كانت في رجب سنة تسع قبل حجة الوداع بلا خلاف»[١].

ومن خلال نصوص الأحاديث التي تقول: «إنّ رسول الله ﷺ غزاها في حرٍّ شديد حين طابت الثمار والظلال» ونص القرآن الكريم الذي نقل لنا قول المنافقين في سورة التوبة، ثمّ ردّ عليهم، فقال - سبحانه -: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾[٢]. كلّ هذه الشواهد تدل على أنَّ وقوع هذه الغزوة كان في فصل الصيف.

مكان الغزوة وأسماؤها:

سميت هذه الغزوة باسم المكان الذي قصده رسول الله ﷺ «تبوك» فهي اسم موضع حدده الحموي في المعجم: «تبوك بين الحِجر وأول الشام على بُعد أربعة مراحل من الحِجر، وهي في طرف الشام، من جهة القبلة، وبينها وبين المدينة المشرفة اثنا عشرة مرحلة...»[٣].

وخلاصة الأمر، أنّ هذا الموضع معروف في ذلك الزمن بهذا الاسم في جزيرة العرب وفي الحدود الشمالية المتاخمة لبلاد الشام، ومعروفة اليوم بهذا الاسم أيضاً فهي من المدن العامرة في المملكة العربية السعودية «وتقع على بعد (٧٦٠) كيلومتراً تقريباً من المدينة المنورة»[٤].

---

(١) انظر صحيح البخاري: ٥ / ١٥٠ الحديث ٤٤١٥ والأحاديث التي بعدها، وذكر أحاديث حجة الوداع برقم ٤٣٩٥ والأحاديث التي بعدها، وفتح الباري: ١ / ٣٦٩ و ٨ / ٢٣٨، والسيرة الحلبية: ٣ / ١٨٣ .

(٢) التوبة: ٨١ .

(٣) الحموي - ياقوت، معجم البلدان: ٢ / ١٥ .

(٤) الندوي، السيرة النبوية: ٤٨٣ .

ونتيجة لبعض الملابسات والأحداث التي أحفَّت بهذه الغزوة فقد سميت من قبل المؤرخين بأسماء أُخرى، منها: غزوة العسرة، أو غزوة عين تبوك، أو الفاضحة! لافتضاح المنافقين فيها[١].

أسبابها:

لقد تحدثنا في بداية غزوة مؤتة عن خلفيات تلك الغزوة وأسبابها[٢]، والتي يشكل بعضها خلفيات وأسباب لهذه الغزوة أيضاً لاتحاد جهة العدو فيهما.

إلاّ أنّ المؤرخين ذكروا لهذه الغزوة جملة من الأسباب يمكن إيجازها بما يلي:

أولا: إنّ رسول الله ﷺ اتصل به نبأ تهيّؤ الروم لغزو حدود الجزيرة الشمالية، قال الواقدي وابن سعد: «إنّ رسول الله ﷺ بلغه من الأنباط - الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة - أنّ هرقل رزق أصحابه لسنة، وأجلبت معهم لخم وجذام وعاملةُ وغسان وغيرهم من متنصِّرة العرب، وجاءت مقدّمتهم إلى البلقاء»[٣].

ثانياً: لما منع المشركون من أن يقربوا المسجد الحرام في الحج وغيره، احتجت قريش وقالت: «لتقطعن عنا المتاجر والأسواق، وليذهبن ما كنا نصيب منها! فعوضهم الله عن ذلك بالأمر بقتال أهل الكتاب حتى يسلموا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون! كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦٓ إِن شَآءَ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٨﴾

(١) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ١٩٥، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٢٣ .

(٢) انظر الدرس الرابع والعشرون: غزوة مؤتة خلفياتها وأسبابها .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠، وابن سعد الطبقات: ٢ / ٣٣٢ .

قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾(١).

وعزم رسول الله ﷺ على قتال الروم، لأنهم أقرب الناس إليه، وأولى بالدعوة إلى الحق لقربهم إلى الإسلام»(٢).

ثالثاً: ما رواه البيهقي من أن اليهود أتوا رسول الله ﷺ يوماً، فقالوا: يا أبا القاسم، إن كنت صادقاً أنك نبي فالحق بالشام، فإنّ الشام أرض المحشر وأرض الأنبياء! فصدّق ما قالوا، فغزا غزوة تبوك لا يريد إلاّ الشام، فلما بلغ تبوك أنزل الله.. ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَـٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾﴾(٣) فأمره الله تعالى بالرجوع إلى المدينة، وقال: «فيها محياك ومماتك ومنها تبعث..»(٤).

رابعاً: ما روي من أنَّ: «متنصِّرة العرب كتبت إلى هرقل: إنّ هذا الرجل الذي قد خرج يدّعي النبوة هلك! وأصابت أصحابه سنون أهلكت أموالهم، فَبَعَث رجلا من عُظمائهم، وجهز معه أربعين ألفاً(٥)».

هذه هي أهم الأسباب التي ذكرها المؤرخون لهذه الغزوة، وهي قابلة للمناقشة من جهات متعددة، وخاصة الثلاثة الأخيرة منها، ويبقى السبب الأول والذي نص عليه أكثر المؤرخين من الأسباب الوجيهة لهذه الغزوة، إلاّ أنه لم

---

(١) التوبة: ٢٨ / ٢٩ .

(٢) ابن كثير، البداية والنهاية: ٥ / ٥، والسيرة النبوية: ٤ / ٣ .

(٣) الاسراء: ٧٦ .

(٤) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٥٤ باب ما روي من سبب خروج النبي ﷺ إلى تبوك .

(٥) السيرة الحلبية: ٣ / ١٨٣ .

يكن السبب الوحيد لها.

فلابدَّ من التماس أسباب هذه الغزوة على ضوء المعطيات الجديدة التي افرزتها الساحة السياسية والعسكرية في الجزيرة العربية بعد فتح مكة، واخضاع هوازن وثقيف وما اعقبتها من سرايا أدت في النتيجة إلى سيطرة المسلمين على الجزيرة كلها، واخضاع سكانها لدولتهم في المدينة، وتنظيم شؤونها العسكرية والاجتماعية والدينية. فعلى ضوء هذا الواقع الجديد وانتشار الإسلام في الجزيرة العربية، نجد رسول الله ﷺ يخطط لمرحلة جديدة من الدعوة والجهاد، ابتداءاً من الحدود الشمالية للجزيرة التي كانت مستعمرة من قبل الامبراطورية الرومانية، ولها النفوذ الواسع فيها من خلال القبائل العربية النصرانية. ثمّ بعد ذلك يتم ارسال رُسُل الدعوة والجهاد إلى الحدود الجنوبية للجزيرة والتي تتمثل في بلاد اليمن التي كانت الامبراطورية الفارسية تستعمر جزءً منها ومن خلال عملائها أيضاً، وسوف يأتينا ذلك من خلال أحداث السنة العاشرة والتي فيها انطلقت رُسُل الدعوة إلى بلاد اليمن.

فعلى ضوء هذا الواقع يمكن تقسيم أسباب غزوة تبوك إلى قسمين:

القسم الأول: الأسباب المباشرة لهذه الغزوة: ويمكن تلخيصه بما ذكره المؤرخون من أنّ رسول الله ﷺ قد بلغه أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة وحشدت القبائل الساكنة في بلاد الشام من أجل غزو المسلمين.

القسم الثاني: الأسباب غير المباشرة: وهي مجموعة الأسباب التي أفرزها الواقع الجديد للدولة الإسلامية والتي يمكن تلخيصها بما يلي:

أولا: حماية حرية نشر الإسلام خارج شبه الجزيرة العربية بعد انتشاره داخلها.

ثانياً: تقوية معنويات القبائل العربية الخاضعة لسلطان الروم؛ والتي أَخذت تُقبل على اعتناق الإسلام، على الرغم من مقاومة الروم لهذا الاتجاه.

ثالثاً: محو آثار انسحاب المسلمين من (مؤتة) من نفوس المسلمين وتقوية معنوياتهم.

رابعاً: استطلاع قوة الروم وحلفائهم في أرض الشام استعداداً للفتح القريب[١].

والقرآن الكريم عندما يتحدث عن غزوة تبوك نجد فيه هذا الايحاء المنسجم مع الواقع الجديد للمسلمين، يقول تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُواْ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٢].

فقد تكون هذه هي الأسباب الواقعية لغزوة تبوك من قبل رسول الله ﷺ وجيش المسلمين.

أما من جهة قيصر ملك الروم فيأتي السؤال عن الأسباب التي دفعته إلى تجيش الجيوش وجلب القبائل، والأغداق عليهم بسخاء، وسوقهم إلى محاربة المسلمين؟

مما لا شك فيه أن هنالك أسباباً كثيرة، دفعت بملك الروم للقيام بهذا التحرك العسكري، الكبير! ويمكن تلخيص هذه الأسباب بما يلي:

أولا: حماية مصالحه التجارية التي كانت تمرّ من خلال الجزيرة بين الشمال والجنوب، وبين الشرق والغرب.

ثانياً: حماية اتباعه من العرب ممن يدينون بالديانة النصرانية، سواءً ممن كانوا يسكنون شمال الجزيرة والذين كانوا يأتمرون بأمرهم ويخضعون لسلطانهم، أو من الذين كانوا في بلاد الشام كالغساسنة وغيرهم.

ثالثاً: حماية الديانة النصرانية من انتشار الإسلام من خلال وضع العقبات أمام الدعاة، ومعاقبة كلّ من يعتنق الإسلام بأشد العقوبات واتهامه بالخيانة.

---

(١) انظر: خطاب، الرسول القائد: ٣٩٧.

(٢) التوبة: ١٢٣.

كانت هذه أهم مصالح الدولة الرومانية، وكانت تحرص على بقائها من خلال المحافظة عليها وحمايتها من أي خطر يهددها.

ولهذا كانوا ينظرون إلى واقع الجزيرة العربية الجديد بجدٍّ واهتمام كبيرين، وجعلوا يتعرفون على أخبار المسلمين ويتابعونها متباعة دقيقة، وكان لهم عيون وجواسيس ينقلون إليهم هذه الأخبار، ويوقفونهم أولا بأول على كل ما يجري بين رسول الله وأصحابه.

فهذا «كعب بن مالك» يذكر من حديثه حين تخلف عن رسول الله ﷺ في «غزوة تبوك» ونهى رسول الله ﷺ أصحابه أن يكلموه - كما يأتينا - يقول: «إن نبطي من نبط الشام.. دفع إليّ كتاباً من ملك غسان جاء فيه: «فقد بلغني أنّ صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة، فالحق بنا نواسيك».

قال كعب: فقلت حين قرأته: «هذا من البلاء أيضاً، قد بلغ منّي ما وقعت فيه أن طمع فيّ رجال من أهل الشرك، فذهبت بها إلى تنوّر فسجرته بها»[1].

ودولة الغساسنة كانت حينذاك تابعة لدولة الروم، فلولا أن الروم كانوا يتابعون أخبار رسول الله ﷺ وأصحابه، لما كان من المحتم أن يصل مثل هذا النبأ إليهم، ولا كان من الطبيعي - لو أنه وصل - أن يهتم به ملك غسان هذا الاهتمام.

وفي قصة مسجد ضرار - كما تأتينا أيضاً - طرف آخر لهذا الاهتمام الذي كان يوليه الروم بأخبار المسلمين، وتشير إلى ما كان من صلة بين الروم وبين المنافقين من أهل المدينة.

«فلم يكن الروم إذن بمعزل عن دعوة الإسلام، ولم يكونوا بحيث يجهلون

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٤ - ٥٣٥ .

ما يجدُّ من أخبارها وحوادثها، فلما فتح الله على رسوله مكة، وأخذت دعوة الإسلام تنتشر فياضة في نواحي الجزيرة، أيقن الروم أن الخطر يوشك أن يواقعهم، وأنه لابد من عمل سريع لدرء هذا الخطر قبل أن يستفحل أمره.. ومن أجل ذلك أعدَّ الروم عدتهم.. فجمعوا ما شاؤوا من الجموع، وأعدوا ما شاؤوا من العتاد، وأخذوا أهبتهم لقطع تلك الفيافي البعيدة، والصحارى الواسعة لمهاجمة المسلمين في عُقر دارهم»[١].

٢ - أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتهيؤ للخروج

روى الواقدي: «كانت أخبار الشام عند المسلمين كلّ يوم! لكثرة من يقدم عليهم من الأنباط - بجلب الزيت للمدينة - فقدمت قادمة فذكروا أنّ الروم قد جمعت جموعاً كثيرةً بالشام، وأنّ هرقل قد رَزق أصحابه لِسنة، وأجلبت معه لخم، وجذام، وغسان، وعاملة، وزحفوا وقدّموا مقدّماتهم إلى البلقاء وعسكروا بها، وتخلّف هرقل بحمص. ولم يكن ذلك، إنما ذلك شيء قيل لهم فقالوه! ولم يكن عدوٌّ أخوف عند المسلمين منهم، من العدد والعُدّة والكراع، وكان رسول الله ﷺ لا يغزو غزوةً إلاّ ورّى بغيرها.. حتى كانت غزوة تبوك، فغزاها رسول الله ﷺ في حرّ شديد، واستقبل سَفراً بعيداً، واستقبل عدداً كثيراً، فجلّى - أي كشف - للناس أمرهم، ليتأهّبوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يُريد، وبعث إلى القبائل وإلى مكة يستنفرهم إلى غزوهم...»[٢].

وروى ابن إسحاق: «أن رسول الله ﷺ أمر أصحابه بالتهيّؤ لغزو الروم، وذلك في زمان من عُسرة الناس، وشدّة الحرّ، وجدب من البلاد، وحين طابت الثمار، والناس يحبّون المقام في ثمارهم وظلالهم، ويكرهون الشخوص على الحال من

---

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٦٠.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠.

الزمان الذي هم عليه، وكان رسول الله ﷺ قلّما يخرج إلى غزوة إلاّ كنى عنها.. إلاّ ما كان من غزوة تبوك، فإنه بيّنها للناس.. وأخبرهم أنه يريد الروم»[١].

هذان النصان التاريخيان يسلطان الأضواء بشكل جيد على الأجواء التي كانت في المدينة زمن الاعلان عن غزوة تبوك، ويعطيان فكرة واضحة عن الأوضاع النفسية عند المسلمين حال إعلان الرسول الأكرم لحالة التهيؤ والاستعداد لغزو الروم. حيث كان السواد الأعظم من المسلمين كارهين لهذا الخروج! إلاّ أن سبب هذه الكراهية في النَّصين مختلف!

والذي نعتقده أن السبب الذي يذكره الواقدي لهذه الكراهية بقوله: «.. ولم يكن عدوٌّ أخوف عند المسلمين منهم - أي من الروم -!» أكثر واقعية من السبب الذي ذكره ابن إسحاق وأشار له الواقدي في ذيل روايته: «من عُسرة الناس، وشدة الحرّ، وجدب في البلاد...» فهذه كلها ذرائع تذرع بها السواد الأعظم من المسلمين ممن كرهوا الخروج، ويكمن السبب الرئيسي فيما ذكره الواقدي، والذي له شواهد تاريخية، تدل بوضوح على مدى الخوف المسيطر على المسلمين آنذاك من الدولة الرومانية!

فهذا «الجدّ بن قيس» يقول لولده: «يا بُنيّ، مالي والخروج.. إلى بني الأصفر؟ والله، ما آمن خوفاً من بني الأصفر وإنّي في منزلي.. فاذهب إليهم فأغزوهم؟! إني والله يا بُنيّ عالم بالدوائر»[٢].

ولعل في الكلمات التي ينقلها المؤرخون عن ابن أُبي ما يعكس لنا مدى مقدار هذا الخوف الذي كان مسيطراً على المسلمين آنذاك! يقول ابن أُبي: «يغزو محمدٌ بني الأصفر! مع جَهد الحال والحرّ والبلد البعيد، إلى ما لا قِبَلَ له به!

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٦ .

(٢) المصدرين السابقين معاً: ٢ / ٩٩٥ - ٩٩٦ و ٢ / ١٠٠٣ .

يَحسب محمّدٌ أنّ قتال بني الأصفر اللّعب؟ ثمّ يضيف قائلا: والله لكأني أنظرُ إلى أصحابه غداً مقرّنين في الحبال»[١]!

ومهما شككنا في نيات ابن أُبي رأس المنافقين، وإنه كان من المرجفين برسول الله وأصحابه، فإنا لا نشك في كونه يعبر عن مكنونات نفسه وجو الخوف السائد آنذاك من الروم!

يقول أحد كتّاب السيرة: «وكان العربُ لا يحلمون بغزو الروم والزَّحف عليهم، بل كانوا يخافون أن يغزوهم في عُقر دارهم، بل كانوا يَرون أنفسهم أصغر من ذلك، وكان المسلمون في المدينة إذا حزبهم أمر، أو دهمهم خطر، ابتدرت أذهانهم إلى هجوم غسان وغزوهم، وهم تبع لقيصر ملك الروم وعماله»[٢].

وكشاهد على ذلك الخوف والهول العظيم الذي كان يستشعره المسلمون من الروم ما يرويه البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب حيث يقول: «. . . كان لي صاحب من الأنصار إذا غبتُ أتاني بالخبر، وإذا غاب كنتُ آتيه بالخبر، ونحن حينئذ نتخوّف ملكاً من ملوك غسّان ذُكر لنا أنّه يريد أن يسير إلينا، فقد امتلأت صدورنا منه، فأتى صاحبي الأنصاري يدقُّ الباب، فقال: افتح افتح، فقلت: جاء الغسانيّ؟!»[٣].

فإذا كان الفاروق عمر بن الخطاب، مع ما يذكرون له من مواقف وشجاعة! يعيش هذا الكابوس المخيف من ملك من ملوك الغساسنة الذين هم تبع للدولة

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٩٩٢ - ٩٩٣ .

(٢) الندوي - أبو الحسن، السيرة النبوية: ٤٨٤ .

(٣) اخرجه البخاري في تفسير سورة التحريم برقم (٤٩١٣) ج ٦ / ٨٢، وصحيح مسلم بشرح النووي: ١٠ / ٨٦ .

الرومانية! فكيف يكون خوفه من هرقل ملك الروم؟ وكيف يكون خوف غيره من عامة المسلمين؟

وخلاصة الأمر: «فالعرب ينظرون إلى دولة الروم - آنذاك - نظرة أهل أفريقية اليوم إلى أُوروبا وأمريكا، إنها قوة لا تنال ولا تناوش»[١].

إذن نستطيع أن نقرر - وباطمئنان - أنّ سبب التخلف عند بعض المسلمين عن هذه الغزوة، وتباطئ البعض الآخر، وكراهية فريق ثالث، هو الخوف الجامع الذي كان مسيطراً عليهم من منازلة دولة الروم وحلفائهم في الشام.

وإنّ سبب اصرار النبيﷺ على تسيّر هذه الغزوة هو كسر حاجز الخوف عند المسلمين من الدولة الرومانية، ويستطلع لهم قوة هذه الدولة الحقيقية، وذلك من خلال دخولهﷺ مع جيشه في حدودهم متحدِّياً لامبراطوريتهم. وهذا ما تمّ في هذه الغزوة المباركة وإن لم يقع فيها قتال، ومن قبل ذلك حققت غزوة مؤتة جزءاً من هذا الهدف وكانت تمهيداً للفتوح الاسلامية في بلاد الشام بعد ذلك.

«وقد مهّد الله بهذا الغزو الذي كان له أثرٌ عميق في نفوس العرب، لغزو المسلمين الشام في عهد الخليفتين أبي بكر وعمر، وكان ذلك سنداً له»[٢].

٣ - المنافقون ودورهم التخذيلي في هذه الغزوة

لم تنتهِ حركة النفاق والمنافقين في المدينة برغم كلِّ ما شاهدوه من انتصارات للإسلام والمسلمين، ورغم سماحة الرسولﷺ في التعامل معهم بالحسنى والمعروف، وعدم التعرض لهم أو محاربتهم أو إجلائهم من المدينة... فإن كل ذلك لم تردعهم عن غيهم، وتربصهم الشر برسول اللهﷺ والمسلمين.

---

(١) الغزالي - محمد، فقه السيرة: ٤٠١.

(٢) الندوي، السيرة النبوية: ٤٨٥.

وفي هذه الغزوة وجد هؤلاء المنافقون فرصتهم في الكيد بالمسلمين من خلال الأساليب التخريبية المعروفة عنهم، والتي تمرّسوا عليها وابتكروا لها أساليب جديدة متعددة.

والذي نلاحظه من خلال مفردات «غزوة تبوك» أن الأساليب التي انطلق من خلالها المنافقون قد اتخذت أشكالا شتى، بعضها قد يكون عفوياً مرتجلا إلاّ انه يعبر عن مكنونات نفسياتهم، وبعضها الآخر مخطط له ومدروس وله بُعد مستقبلي واستراتيجي في حركة النفاق.

وعندما نتتبع هذه الأساليب من خلال نصوص المؤرخين لغزوة تبوك نجدها تتمحور في جملة من الأُمور، وتتخذ اشكالا وصوراً متعددة يمكن ايجازها بما يلي:

أولا: تخذيل المسلمين:

وذلك من خلال إطلاق كلمات التهويل والتخويف والارجاف بالمسلمين، وقد نقلنا سابقاً طرفاً من هذا التهويل الذي قاله عبد الله بن أُبي.

روى ابن إسحاق: «وقال قوم من المنافقين بعضهم لبعض: لا تنفروا في الحرِّ، زهادة في الجهاد، وشكاً في الحق، وارجافاً برسول الله ﷺ، فأنزل الله تبارك وتعالى فيهم: ﴿وَقَالُواْ لَا تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ﴾...»[1].

ثانياً: التجمعات المريبة:

وهو أُسلوب جديد يبرز لدينا في هذه الغزوة، حيث اتخذ المنافقون أحد البيوت في المدينة كمقر للتجمع والتخطيط وعقد الجلسات لتخذيل المسلمين

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٧، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٣، والآية التوبة: ٨١.

وبث الاشاعات بينهم، يروي ابن هشام عمّن حدثه قال: «بلغ رسول الله ﷺ أنّ ناساً من المنافقين يجتمعون في بيت سُوَيلم اليهوديّ.. يثبّطون الناس عن رسول الله ﷺ في غزوة تبوك، فبعث إليهم النبي ﷺ طلحة بن عبيد الله، في نفر من أصحابه، وأمره أن يحرّق عليهم بيت سُويلم، ففعل طلحة، فاقتحم الضَّحاك بن خليفة من ظهر البيت، فانكسرت رجله، واقتحم أصحابه، فأفلتوا»(١).

ثالثاً: الانسحاب المفاجي من الجيش:

وهو أُسلوب قديم اتبعه المنافقون في معركة أُحد حيث سار ابن أُبي بأصحابه نحو أُحد، ثمّ انسحب بثلث المقاتلين.. فنجد هنا يتكرر نفس الأُسلوب في المسير مع المسلمين ثمّ الانسحاب في اللحظات الحرجة، وهدفهم من ذلك في كلا الموقفين (أُحد وتبوك) هو تخذيل المسلمين!

قال ابن إسحاق: «فلما خرج رسول الله ﷺ ضرب عسكره على ثنية الوداع وضرب عبد الله بن أُبي معه على حدة عسكره أسفل منه، وكان فيما يزعمون ليس بأقل العسكرين، فلما سار رسول الله ﷺ، تخلّف عنه عبد الله بن أُبي، فيمن تخلّف من المنافقين وأهل الرِّيب»(٢).

رابعاً: استخدام أُسلوب السخرية بالله وبرسوله وبالمؤمنين:

ويتضح لنا ذلك جلياً في جملة من مواقف المنافقين في هذه الغزوة.

يروي الواقدي: «وكان رَهط من المنافقين يسيرون مع النبيّ ﷺ في تبوك، منهم وديعة بن ثابت، والجلاس بن سويد، ومخشّى بن حُميِّر، وثعلبة بن حاطب

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٧، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٢٤، والكلاعي، الاكتفاء: ١ / ٥٤٨، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٥ - ٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩١، والطبري: ٣ / ٣.

فقال - أي الأخير منهم -: «تحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم؟ والله لكأنّا بكم غداً مقرّنين في الحبال!» ارجافاً برسول الله ﷺ، وترهيباً للمؤمنين فقال وديعة بن ثابت: «ما لي أرى قُراءنا هؤلاء أوعبنا بطوناً، وأكذبنا ألسنة، وأجبننا عند اللِّقاء؟ وقال الجُلاس بن سويد: هؤلاء ساداتنا وأشرافنا وأهل الفضل منّا! والله، لئن كان محمّد صادقاً لنحن شرٌّ من الحمير!».

فقال رسول الله ﷺ لعمار بن ياسر: «أدرك القوم فإنهم قد احترقوا! فَسَلهُم عمّا قالوا، فإن أنكروا فقل: بلى، قد قلتم كذا وكذا! فذهب إليهم عمّار فقال لهم، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه، فقال وديعة بن ثابت: . . . يا رسول الله، إنما كنّا نخوض ونلعب! ولم يلتفت إليه رسول الله ﷺ، فأنزل الله عزّ وجل فيه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾﴾ (١) (٢).

والذي نلاحظه في هذا النص أن المنافقين لم ينسحبوا بكاملهم مع ابن أُبي، وإنما بقي منهم من صاحب النبي ﷺ إلى تبوك لتخذيل المؤمنين، والاستهزاء والسخرية بهم كما لاحظنا ذلك من خلال كلمات أُولئك النفر منهم.

وفي حادثة أُخرى نجد لوناً آخر من هذا الأُسلوب الساخر الذي يستبطن التشكيك في نبوة النبي ﷺ! يقول الراوي: «. . ضَلّت ناقة النبي ﷺ - في الطريق - فخرج أصحابه في طلبها. . فقال زيد بن اللُّصيت: «أليس محمّد يزعم أنّه نبيٌّ ويخبركم عن خبر السماء، وهو لا يدري أين ناقته؟ فقال رسول الله ﷺ: إنّ منافقاً يقول. . كذا وكذا. . وإني والله ما أعلم إلاّ ما علّمني الله، وقد دلني عليها، وهي في الوادي في شِعب كذا وكذا. . حبستها شجرةٌ بزمامها، فأنطلقوا حتى تأتوا بها، فذهبوا فجاءوا بها»(٣).

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٠٥ .

(٢) التوبة: ٦٥ - ٦٦ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٠٨ .

وفي حادثة أُخرى يرويها أبو سعيد الخدري يقول: «ارتحل رسول الله ﷺ فلمّا أصبح ولا ماء معهم.. فشكوا ذلك لرسول الله ﷺ .. فاستقبل القبلة فدعا - ولا والله ما أرى في السماء سحاباً - فما برح رسول الله ﷺ يدعو حتى إنّي لأنظر إلى السَّحاب تأتلف من كل ناحية، فما رام مقامه حتى سحّت علينا السماء بالرواء - أي الماء الكثير - فسقى الناس وارتووا عن آخرهم.. يقول الراوي: فقلتُ لرجل من المنافقين: ويحك، أبعدَ هذا شيء؟ فقال: سحابةٌ مارّة»[1].

فهذا التخريب الداخلي في صفوف المسلمين من خلال السخرية والتشكيك في نبوة النبي ﷺ بالاضافة إلى نشر الأكاذيب والشائعات الهدامة.. كل هذه الأساليب استخدمها المنافقون، ولها مفردات ومصاديق كثيرة في هذه الغزوة وفي غيرها من وقائع الإسلام.

خامساً: اتخاذهم مسجد ضرار:

وهو أُسلوب ماكر جديد اتخذته حركة النفاق لتخريب المجتمع الإسلامي من الداخل، من خلال اعتماد مؤسساته نفسها كالمسجد الذي هو رمز للعبادة، وله قدسية في نفوس المسلمين، والمنطلق الذي يضم نشاطات المسلمين كافة.. إلاّ أنهم أرادوا أن يتخذوا منه بؤرة لنشاطاتهم التخريبية.. ففضحهم القرآن الكريم في قصة تأتينا في نهاية هذا الدرس.

هذه هي أهم المفردات والعناوين التي انطلق منها المنافقون لتخريب الصفِّ الإسلامي، والتي حدثنا عنها القرآن الكريم ونقلها لنا كتّاب السيرة والأثر، ولهذا سميت هذه الغزوة «الفاضحة»؛ لأنها كشفت أساليب المنافقين العدائية وفضحتهم.

---

(١) المصدر نفسه: ٢/ ١٠٠٩ و ١٠١٠ .

٤ - حثّ رسول الله ﷺ المسلمين على المشاركة في الغزوة والانفاق بالمال من أجلها

لقد كانت لغزوة تبوك خصوصياتها في الاستعداد والتهيؤ، فالمسافة التي سوف يقطعها المسلمون مسافة طويلة تتوغل في صحارى وفيافي فتحتاج إلى المؤونة الكافية للحركة.

والعدو الذي سوف يواجهونه لا يتمثل في قبيلة صغيرة محدودة العَدَد والعِدَّة، وإنما هي دولة تبسط نفوذها وسلطانها على مساحة واسعة من الأرض، ولها جيشها في عدده وعدته!

لهذا كلّه كان استعداد النبي ﷺ لهذه الغزوة يختلف عن غيرها من الغزوات. يقول المؤرخون في بيان أوجه هذا الاستعداد:

أولا: «فجلّى للناس أمرهم، ليتأهبّوا لذلك أهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يُريد».

ثانياً: «وبعث إلى القبائل وإلى مكّة يستفزهم إلى غزوهم».

ثالثاً: «وحضّ المسلمين على القتال والجهاد، ورغّبهم فيه، وأمرهم بالصدقة..»[1].

وكان رسول الله ﷺ يريد من المهاجرين والأنصار - وهم المسلمون الأوائل - ومن مسلمة ما بعد الفتح، ومن القبائل أن يكون لهم حضورهم الواسع في هذه الغزوة - وهي مما لا شك فيه رحلة شاقة طويلة عسيرة، يتعلم فيها المقاتل الصَّبر والحزم والتحمّل وروح المواجهة والتحدي - استعداداً لما بعدها من فتوحات الإسلام التي سوف تنطلق إلى مشارق الأرض ومغاربها كما كان

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٢.

يخبرهم بذلك رسول الله ﷺ وهو في أحرج الظروف من حصار الخندق وغيرها من وقائع الإسلام.

وقد تكون المشاركة الواسعة في هذه الغزوة وإظهار القوة أمام الأعداء هي المطلوبة في حد ذاتها وإن كانت النتائج معروفة سلفاً لرسول الله ﷺ من خلال ما يطلعه الله سبحانه وتعالى عليه.

وقد تكون الحكمة في الدعوة إلى هذه المشاركة الواسعة، وعدم تخلف أحد عنها، ثمّ مقاطعة من تخلف عنها - كما سيأتي - كل ذلك من أجل: «امتحان أصحابه بالخروج معه، واختبارهم، ليتميزوا بذلك، وتظهر به سرائرهم، فاستفزهم النبي ﷺ إلى بلاد الروم.. فأبطأ أكثرهم عن طاعته، رغبة في العاجل، وحرصاً على المعيشة وإصلاحها، وخوفاً من شدة القيظ، وبعد المسافة ولقاء العدو، ثمّ نهض بعضهم على استثقال للنهوض، وتخلف آخرون..» كما يقول الشيخ المفيد في الإرشاد[1].

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الحقيقة في آيات طويلة من سورة التوبة التي نزلت معظم آياتها في هذه الواقعة ومنها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[2].

أما المشاركة بالأموال التي ندب رسول الله ﷺ المسلمين إليها، فهي بلا شك من مظاهر اعداد القوة التي أوجبها الله سبحانه على عباده في قوله تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٤١﴾[3].

---

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٥٤ - ١٥٥.

(٢) التوبة: ٣٨ - ٣٩، وانظر أسباب النزول للواحدي النيسابوري.

(٣) التوبة: ٤١.

والخير كلّ الخير في هذه المشاركة والمواساة بالأموال التي لا تقل شأناً عن المواساة بالأنفس.

وتحدثنا الروايات التاريخية عن مشاركة واسعة من المسلمين والمسلمات في تجهيز المقاتلين والانفاق في سبيل ذلك.

يقول الواقدي: «ورغب أهل الغنى في الخير والمعروف، واحتسبوا في ذلك الخير، وقوّوا أُناساً دون هؤلاء من هو أضعف منهم، حتى أنّ الرجل ليأتي بالبعير إلى الرجل والرجلين فيقول: هذا البعير بينكما تتعاقبانه، ويأتي الرجل بالنَّفقة فيعطيها بعض من يخرج، حتى إن كنّ النساء ليُعِنَّ بكلِّ ما قدرنَ عليه، قالت أُم سِنان الأسلميّة: لقد رأيت ثوباً مبسوطاً بين يدي رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فيه: مسك، ومعاضد وخَلاخِل وأقرطة وخواتيم، وخَدمات[١]، ممّا يبعث به النساء يُعنّ به المسلمين في جهازهم»[٢].

وهكذا ساهم المسلون والمسلمات وجادوا بأموالهم في سبيل الله، كلّ بحسب طاقته ووسعه.

ويكفينا هذا القدر المسلَّم من روايات الانفاق في هذه الغزوة، ولا نريد أن ندخل في الأسماء والمسميات التي قد بالغ المؤرخون كثيراً في ذكرهم وما أنفقوا، واتسع لهم ميدان الفضائل! إلى درجة غير معقولة، ورتبوا عليها آثاراً أُخروية في الجزاء تتنافى مع المسلمات العقائدية في الوعد والوعيد والعمل الصالح؛ والمبينة بوضوح من خلال آيات القرآن الكريم[٣].

---

(١) الحُلي التي تلبسها المرأة.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٢.

(٣) للتوسع في هذا الإجمال: انظر: الأميني، الغدير: ٩ / ٣٣٠ وما بعدها و ٩ / ٤٧٢ - ٤٧٤، فقد ناقش هذه القضية بموضوعية وتوسع، وبين طرفاً من تناقض هذه الروايات وعدم صحة أسانيد الكثير منها.

إلاّ أنّه يبقى التساؤل عن مصطلح العُسرة، التي ذكرها القرآن الكريم بمناسبة هذه الغزوة في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ . . .﴾[1].

فهل المقصود منها العسرة المالية فقط؟ أم أنّ وعاء هذا المصطلح يتسع ليشمل أُموراً أُخرى رافقت هذه الغزوة؟

في الواقع نجد مجموعة من الظروف الموضوعية والتي أشارت الروايات التاريخية لها قد اجتمعت ورافقت مجريات الأحداث في هذه الغزوة فسميت في أحد أوجهها «بجيش العسرة» وقد يكون الجانب المالي أحدها! فالخوف من العدو - وهو السبب الأهم -، وطول الطريق، وحرُّ الصيف، واينا ع الثمار.. كل هذه الأُمور عسّر على المسلمين الخروج «فتثاقلوا إلى الأرض» بتعبير القرآن الكريم.

والنبيﷺ عندما ندب المسلمين والمسلمات للمشاركة في تجهيز جيش تبوك، أراد بذلك أن يُشعرهم بمسؤولياتهم في الدفاع عن الإسلام، وليس من الضروري أن يكون ذلك الحث من النبيﷺ على الانفاق لحاجة وضيق وعسرة مالية! وإلاّ أين ذهبت الأموال التي غنمها المسلمون في خيبر والطائف؟! وهي غنائم كبيرة وسعتهم ووسعت أولادهم وأحفادهم والأجيال من بعدهم.

فما يقال من وجود عسرة مالية في هذه الغزوة، وما رُتّب عليها من روايات في نفقات هذا الصحابي أو ذاك؛ ومن ثمّ جعل ذلك من الفضائل التي تُدخل صاحبها الجنة بلا حساب، وإن فعل ما فعل بعد ذلك! كلّ هذا محل شك وترديد وقابل للمناقشة من وجوه عديدة.

---

(١) التوبة: ١١٧ .

٥ - المتخلفون عن غزوة تبوك

رغم أنّ النبيﷺ قد أمر الناس بالتهيّؤ لغزو الروم، وبعث إلى القبائل وإلى مكة يتسفزهم إلى غزوهم[١]، إلاّ أننا لا نرى في النصوص التاريخية أيَّ استجابة من أهل مكة لدعوة رسول اللهﷺ في الخروج، ولا كانت مشاركة القبائل في هذه الغزوة تتناسب مع دعوته لهم، وإرسال الرُسل إليهم.

وفي مقابل ذلك تحدثنا النصوص التاريخية عن المتخلفين عن هذه الغزوة، بعضهم لعذر - وهم القليل - والبعض الآخر من دون عُذر، وهم الكثرة الساحقة منهم.

ويمكن تصنيف أُولئك المتخلِّفين إلى أصناف أربعة: البكائون، والمعذرون، والمنافقون، ومن أبطأت بهم النية.

الصنف الأول: البكائون:

قال ابن إسحاق: «ثمّ إن رجالا من المسلمين أتوا رسول اللهﷺ، وهمُ البكّاؤون، وهم سبعة نَفر من الأنصار وغيرهم.. فلان وفلان[٢]..، فاستحملوا - أي طلبوا منه ما يحملهم عليه - رسول الله وكانوا أهل حاجة، فقالﷺ: ﴿لَآ أَجِدُ مَآ أَحۡمِلُكُمۡ عَلَيۡهِ تَوَلَّواْ وَّأَعۡيُنُهُمۡ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمۡعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُواْ مَا يُنفِقُونَ﴾[٣].

وفي رواية ابن إسحاق أن اثنين من هؤلاء وجدا من أعطاهما ناضحاً - أي جملا - وزوّدهما شيئاً من التمر، فخرجا مع رسول الله.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٦، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠.

(٢) في تسمية بعض البكائين خلاف، انظر شرح الزرقاني على المواهب اللدنية.

(٣) التوبة: ٩٢.

وفي رواية الواقدي أن الخمسة الآخرين وجدوا أيضاً من يحملهم»[١].

وليس من العجيب أن تجد في المدينة ومن بين المسلمين من هو بهذه الدرجة من الفقر والفاقة حتى لا يجد ما يزود به للالتحاق بركب الجهاد مع رسول الله ﷺ ، فيلتمسون ذلك من رسول الله ﷺ فلا يجد رسول الله ما يحملهم عليه!

ولكن العجيب في الروايات المتناقضة التي تقول إن فلاناً وفلاناً، قد جهزوا جيش العسرة من أموالهم فقدموا الإبل والذهب والدنانير. . فأين كانوا من هؤلاء المساكين البكائين الذين لم يتجاوز عددهم السبعة أشخاص؟!

الصنف الثاني: المعذِّرون[٢]:

وهؤلاء هم الذين «يتعللون وينتحلون الأعذار ليتخلفوا عن ركب الجهاد مع رسول الله ﷺ . والذي يبدو من الروايات أنهم كانوا من الأغنياء القادرين على تجهيز أنفسهم وتجهيز غيرهم، إلاّ أنهم لجأوا إلى الحيلة يعتذرون، وجعلوا يستأذنون رسول الله ﷺ في القعود فيأذن لهم ويُعرضُ عَنهُم»[٣].

قال ابن إسحاق والواقدي: «وجاءه المعذّرون من الأعراب، فاعتذروا إليه، فلم يعذرهم الله تعالى، وقد ذكر أنهم نفر من بني غفار»[٤].

ويذكر المؤرخون الجدّ بن قيس كنموذج لهؤلاء المعذِّرين، فيذكر قصته

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٨، والواقدي: ٢ / ٩٩٤ .

(٢) المعذِّرون: جمع معذِّر بتشديد الذال المعجمة، وقد يكون صادقاً، وقد يكون كاذباً، فالصادق أصله المعتذر، ولكن التاء قُلبت ذالا، فأُدغمت في الذال، والكاذب معذر على أصله، وهو المعرض المقصر، الذي يتعلل بغير عذر صحيح . (انظر لسان العرب: مادة عذر) .

(٣) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٦٢ .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٥ .

ابن إسحاق فيقول: «فقال رسول الله ﷺ وهو في جهازه ذلك للجدّ بن قيس: يا جد، هل لك العام في جلاد بني الأصفر؟ فقال: يا رسول الله، أو تأذنُ لي ولا تفتني؟ فوالله لقد عَرَفَ قومي أنه ما من رجل بأشد عُجباً بالنساء مني، وإني إن رأيتُ نساء بني الأصفر أن لا أصبر! فأعرض عنه رسول الله ﷺ وقال: قد أذنتُ لك».

ففي الجد بن قيس نزلت هذه الآية: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّيٓ ۚ أَلَا فِي ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾[1] أي إن كان خشي الفتنة من نساء بني الأصفر، وليس ذلك به - إنما تعذّر بالباطل - فما سقط فيه من الفتنة أكبر، بتخلفه عن رسول الله ﷺ والرغبة بنفسه عن نفسه..».

وزاد الواقدي في روايته: فجاءه ابنه عبد الله بن الجدّ - وكان بدرياً - فقال لأبيه: «لم تردّ على رسول الله مقالته؟ فوالله ما في بني سَلمة أكثر مالا منك، ولا تخرج ولا تحمل أحداً!

قال: يا بُنيّ، مالي والخروج في الريح والحرّ والعُسرة إلى بني الأصفر؟ فلما نزلت هذه الآية جاء ابنه إليه فقال: ألم أقل لك سوف ينزل فيك القرآن يقرأه المسلمون؟ فقال له: اسكت عني يا لُكَع! والله، لا أنفعك بنافعة ابداً! والله لأنت أشدُّ عليَّ من محمّد!»[2].

فهؤلاء المعذِّرون شريحة اجتماعية واسعة نجد نموذجها في عصر رسول الله ﷺ ولا نعدم وجودها في زماننا هذا، وهم يجيدون وببراعة سبك الاعذار الواهية للتملّص من المسؤولية ونموذجهم الجد بن قيس، وهو نسخة مكررة على مرِّ التاريخ والزمان، وقد ابتلي بهم رسول الله ﷺ في عصره، وابتلي بهم الإسلام من بعده.

---

(١) التوبة: ٤٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٦، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٢ - ٩٩٣.

الصنف الثالث: المنافقون:

لقد تحدثنا عن المنافقين ودورهم التخريبي في هذه الغزوة ضمن المحور السابق، إذ كانت أحد أساليبهم التخذيلية والتخريبية هو الانسحاب المفاجئ من صفوف المقاتلين، وهو أُسلوب قديم جديد لهم.

والذي يبدو أن استراتيجية المنافقين في هذه الغزوة والتي وضعوا خطوطها الأولية من خلال اجتماعاتهم في دار «سويلم» كانت تتمحور في المحاور التي ذكرناها سابقاً، والتي منها الانسحاب من صفوف المقاتلين بعد الالتحاق بهم. وهذا الدور قام به ابن أُبي مع مجموعة كبيرة من المنافقين تقول الرواية: «وأقبل عبد الله بن أُبي بعسكره، فضربه في ثنية الوداع.. معه حُلفاؤه من اليهود والمنافقين ممّن اجتمع إليه، فكان يقال: ليس عسكر ابن أُبيّ بأقل العسكرين.. فلما سار رسول الله ﷺ تخلّف ابن أُبي.. فيمن تخلّف من المنافقين..».

وهنالك قسم آخر من المنافقين كان لهم دور المعذِّرين، إذ روي: «وجاء ناسٌ من المنافقين يستأذنون رسول الله ﷺ من غير علّة فأذن لهم، وكان المنافقون الذين استأذنوا بضعةً وثمانين»[1].

أما القسم الثالث منهم فهؤلاء خرجوا مع رسول الله ﷺ ليس إيماناً منهم برسول الله ﷺ ومشروعية المعركة وحقانيتها، وإنما من أجل الفتنة واشاعة الأراجيف والتخذيل في صفوف المسلمين، وقد مرّ بنا نماذج من ذلك سابقاً.

الصنف الرابع: من أبطأت بهم النيّة:

هكذا يعبر ابن إسحاق والواقدي عن هذا الصنف المتخلف عن رسول الله ﷺ، فيقولان: «وتخلّف نفر من المسلمين، أبطأت بهم النيّة عن رسول

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٥.

اللهﷺ حتى تخلّفوا عنه من غير شكٍّ ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، ومُرارة بن الربيع، وهلالُ بن أُميّة، وأبو خيثمة، وكانوا نفر صِدق، لا يتهمون في إسلامهم»[١].

وعاش هؤلاء النفر صراعاً نفسياً مريراً نتيجة تخلفهم عن رسول اللهﷺ فيقول أحدهم: «وجعلت لا أرى في الدار - أي المدينة - ولا في غيرها إلاّ معذوراً أو منافقاً مُعلناً، فأرجع مغتماً بما أنا فيه..»[٢]. وأحد هؤلاء الأربعة وهو «أبو خيثمة» قد تدارك الموقف والتحق برسول اللهﷺ في الطريق، وبقي أُولئك الثلاثة الذين سوف تأتينا قصتهم لاحقاً.

الصنف الخامس: المَعْذورون:

وهؤلاء هم ذوو الأعذار المانعة لهم من السفر والجهاد، والذين نص القرآن على عذرهم في قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾﴾[٣].

فهؤلاء لهم أعذارهم الحقيقية التي تمنعهم من المشاركة، وفرق كبير بينهم وبين أُولئك الذين يلتمسون الأعذار الواهية للتملص من أمر الله ورسولهﷺ.

قصة أبي ذر الغفاري:

وكان رسول اللهﷺ لا يُعير أهمية للذين تخلفوا، ففي رواية: «ولما مضى رسول اللهﷺ من ثنية الوداع سائراً - إلى تبوك - فجعل يتخلّف عنه الرجال فيقولون: يا رسول الله، تخلّف فلان! فيقول: دعوهُ، فإن يك فيه خيرٌ فسيلحقه

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٩، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٦.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٨.

(٣) التوبة: ٩١.

الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أراحكم الله منه»[١].

إلاّ أنه كان من بين من تخلف - مؤقتاً ولعذر - عن رسول اللهﷺ من كان يعزُّ على رسول اللهﷺ تخلفه، كما هو في قصة أبي ذر الغفاري الذي يرويها المؤرخون باسهاب عنه.

«وكان أبو ذر يقول: ابطأتُ في غزوة تبوك من أجل بعيري، كان نِضواً أعجف[٢]، فقلت: أعلفه أياماً ثمّ الحق برسول اللهﷺ، فعلفته أياماً ثم خرجتُ، فلما كنتُ بذي المروة عَجَزني، فتلوّمتُ عليه يوماً فلم أَرَ به حركة، فأخذت متاعي فحملته على ظهري، ثمّ خرجت أتبع رسول اللهﷺ ماشياً في حر شديد، وقد تقطّع الناس فلا أرى أحداً يلحقنا من المسلمين، فطلعتُ على رسول اللهﷺ نِصف النهار وقد بلغ منّي العَطش، فنظر ناظر من الطريق، فقال: يا رسول الله، إنّ هذا الرجل يمشي على الطريق وحده! فجعل رسول اللهﷺ يقول: كَن أباذر! فلما تأمّلني القوم قالوا: يا رسول الله، هذا أبو ذرٍّ! فقام رسول اللهﷺ حتى دنوتُ منه فقال: «مرحباً بأبي ذرٍّ! يمشي وَحده، ويموت وحده، ويُبعث وحده! فقال: ما خلّفك يا أباذر؟ - فأخبره خبرَ بعيره - ثمّ قالﷺ: إن كنت لَمِن أعزِّ أهلي عليَّ تخلُّفاً، لقد غفر الله لك يا أباذرّ بكلِّ خُطوة ذنباً إلى أن بلغتني».

ثمّ يكمل الراوي قصة هذا العبد الصالح أبي ذر الغفاري بقوله: «فلما أخرجه عثمان إلى الرَّبذة فأصابه قدره لم يكن معه أحدٌ إلاّ امرأته وغلامه، فأوصاهما فقال: اغسلاني وكفناني، ثمّ ضعاني على قارعة الطريق إذا أنا مت....

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٠٠.

(٢) النضو: الدابة التي أهزلتها الأسفار وأذهبت لحمها (النهاية لابن الأثير: ٤ / ١٥٢).

يقول الراوي وأقبل ابن مسعود في رَهط من العراق عُماراً - أي لأداء العمرة - فلم يَرُعهم إلاّ بالجنازة على قارعة الطريق قد كادت الإبل تطؤها، فسلّم القوم فقام إليهم غلامه فقال لهم: هذا أبو ذرٍّ صاحب رسول الله ﷺ فأعينوني عليه! فاستهل ابن مسعود يبكي ويقول: صدق رسول الله ﷺ: «أبو ذر، يمشي وحده، ويموت وحده، ويبعث وحده».

ثمّ نزل هو وأصحابه حتى وارَوه، ثمّ حدّثهم ابن مسعود حديثه، وما قال له رسول الله ﷺ في مسيره إلى تبوك»[1].

هذا ملخص قصة هذا الرجل المجاهد الذي لم تأخذه في الله لومة لائم فقام لله في وجه الظلم والظالمين الذين استأثروا بمال الله واتخذوهُ دولا، وعباد الله خولا، فدفع ضريبة جهاده أذى في جسده، وغربة عن وطنه؛ فمشى وحده في طريق الحق، ومات وحده في دار نفيه وغربته، وسوف يبعثه الله وحده، ليكون الشاهد والشهيد على من ظلمه! رضوان الله تعالى عليه.

٦ - أسباب بقاء علي بن أبي طالب في المدينة وارجاف المنافقين

لم يتخلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن غزوات رسول الله ﷺ بل كان السباق فيها، وقطب رحاها، وفارس ميدانها بلا منازع، إلاّ أنّه في هذه الغزوة بقي في المدينة، ولم يخرج مع رسول الله ﷺ برغم أهمية الغزوة هذه، وأمر رسول الله ﷺ بخروج الجميع إليها!

فهل كان بقاء أمير المؤمنين علي عليه السلام في المدينة من أمر نفسه؟ أم أنه كان بأمر من رسول الله ﷺ ؟ وإذا كان بأمر رسول الله ﷺ - كما هو ثابت قطعاً - فما هي أسباب ذلك؟

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٠٠ - ١٠٠١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٣ - ٥٢٤ .

فهنا لابد لنا من وقفة - ولو قصيرة - عند هذه القضية لما لها من آثار عقائدية ومناقبية، تتعلق بمستقبل الإسلام بعد رحيل رسول الله ﷺ .

فنقف أولا عند كلمات المؤرخين في بيان حيثيات القضية، ثمّ نحاول أن نستكشف من هذه النصوص الأسباب الواقعية لبقائه عليه السلام في المدينة، ونختم ذلك بدلالات الحديث الذي قاله رسول الله ﷺ في هذه الواقعة.

قال ابن هشام: «واستعمل على المدينة محمد بن مَسلمة الأنصاري.. وروي: أن رسول الله ﷺ استعمل على المدينة، مَخرجه إلى تَبوك، سباع بن عُرفطة.

قال ابن إسحاق: وخَلَّف رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب - رضوان الله عليه - على أهله، وأمرهُ بالإقامة فيهم فأرجف به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلاّ استثقالا له، وتخفّفاً منه.

فلما قال ذلك المنافقون، أخذ عليّ بن أبي طالب «رضوان الله عليه» سلاحه، ثمّ خرج حتى أتى رسول الله ﷺ وهو نازل بالجُرف[1]، فقال: يا نبيّ الله، زعم المنافقون أنّك إنّما خلّفتني أنك استثقلتني وتخفّفت مني!

فقال ﷺ : كذبوا، ولكنني خلّفتُك لما تركتُ ورائي، فارجع فاخلُفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى؟ إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي.

فرجع علي عليه السلام إلى المدينة، ومضى رسول الله ﷺ على سفره».

قال ابن إسحاق: وحدّثني محمد بن طلحة.. عن إبراهيم بن سعد بن أبي وقّاص، عن أبيه سعد: «أنه سمع رسول الله ﷺ يقول لعليّ هذه المقالة»[2].

---

(١) الجُرف: موضع على ثلاثة أميال من المدينة .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥١٩ - ٥٢٠ .

هكذا روى ابن إسحاق قصة تخلف علي بن أبي طالب عن هذه الغزوة وأسبابها وملابساتها وما قاله له رسول الله ﷺ فيها.

أما الواقدي فقال: «. . استخلف على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري - ويقال: محمد بن مسلمة - لم يتخلّف عنه غزوةً غير هذه»[١]. ولم يزد على ذلك مع ما عرف عنه من تفصيل وذكر للجزئيات التي ليس لها أهمية كما هو الحال في هذه الغزوة، إلاّ أنّه أهمل هذه القضية على أهميتها ووقوع الأخذ والردِّ فيها!

أما ابن سعد، فقد نحا منحى أُستاذه الواقدي فقال: «واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة، وهو أثبت عندنا ممّن قال استخلف غيره»[٢] ولم يزد على ذلك شيئاً.

أما خليفة بن خياط، فقد أهمل ذكر من استخلفه رسول الله ﷺ في هذه الغزوة مع أنه يذكر من يستخلفهم النبي في الغزوات الأُخرى[٣]!

وقال المسعودي (ت ٣٤٥ هـ): «وكان - أي النبي ﷺ - استخلف عليها - أي المدينة - علي بن أبي طالب، وقد ذهب قوم إلى أنّه استخلف عليها أبا رَهم الغفاري وعلى أهله علي بن أبي طالب، وقيل: بل استخلف عليها ابن أُم مكتوم، وقيل محمد بن مسلمة، وقبل سباع بن عرفطة. . . وفي هذه الغزاة قال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب، لما خلفه بالمدينة ولم يخلفه قبلها، وقد رأى كراهية على ذلك: «أفلا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلاّ أنّه لا نبي بعدي».

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٥ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٢ .

(٣) خليفة بن خياط، تاريخ خليفة: ٥٦ .

ثمّ يضيف المسعودي: والأشهر أن رسول الله ﷺ استخلف علياً على المدينة، ليكون مع من ذكرنا من المتخلفين. وقد ذكرنا السبب الذي له ومن أجله خلفه.. في كتاب (الاستذكار، لما جرى في سالف الأمصار»[١].

ومع الأسف لم يصلنا هذا الكتاب، حتى نرى ما قاله من سبب في تخلف الإمام عليه السلام.

وقال اليعقوبي في تاريخه: «وخرج رسول الله غرة رجب سنة تسع واستخلف علياً على المدينة»[٢].

وقال الكلاعي في الاكتفاء: «وخلف رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب على أهله، وأمره بالاقامة فيهم، فارجف به المنافقون، وقالوا ما خلفه إلاّ استثقالا، وتخففاً منه، فلما قالوا ذلك أخذ عليٌّ سلاحه ثمّ خرج حتى أتى رسول الله - فأخبره بما قالوا -... فقال ﷺ: «كذبوا ولكني خلفتك لما تركت ورائي، فارجع فاخلفني في أهلي وأهلك، أفلا ترضى يا عليُّ أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي» فرجع عليّ إلى المدينة رضي الله عنه، ومضى رسول الله ﷺ على سفره»[٣].

وهكذا روى أغلب المؤرخين قصة استخلاف علي عليه السلام في هذه الغزوة، ولم يزيدو على ما نقلناه عن مؤرخي الصدر الأول من أمثال ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، والمسعودي...

والذي نلاحظه في هذا النص التاريخي جملة من الأُمور:

أولا: إنّ تخلف أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام في هذه الغزوة لم تكن

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢٣٦.

(٢) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٦٧.

(٣) الكلاعي، الاكتفاء: ١ / ٥٥٠.

برغبة منه، ولا التماساً لغدر، ولا لعلة مناعة له من المشاركة.. وإنما كان امتثالا لأمر رسول الله ﷺ له باستخلافه في المدينة.

ثانياً: إنّ قضية بقاء عليٍّ في المدينة، واستخلافه لرسول الله ﷺ فيها أمر مسلم بين المؤرخين والمحدثين، ورويت في المصادر الأساسية للسيرة، وحوتها كتب الصحاح والسنن[1].

ثالثاً: روى بعض المؤرخين استخلاف غير عليّ على المدينة واختلفوا في أسمائهم، مع تسليمهم باستخلاف علي أيضاً إلاّ أنهم قالوا استخلفه رسول الله ﷺ في أهله. وبعض آخر من المؤرخين ذكر استخلاف علي ولم يذكر معه شخصاً آخر، وتبنى المسعودي وبعض آخر القول باستخلاف علي على المدينة وذكر الأقوال الأُخرى، وجعل قوله هو الأشهر من بين الأقوال.

رابعاً: إنّ ما ورد من اختلاف لدى المؤرخين في استخلاف علي عليه السلام بمفرده على المدينة من قبل رسول الله ﷺ - والذي هو الأصح والأرجح لدى المؤرخين - أو مع غيره ممن ذكرت أسماؤهم، لا يقلل من شأن هذا الاستخلاف، لاختلاف السبب الذي استخلف من أجله عليّ عليه السلام، عن السبب الذي استخلف من أجله غيره في هذه الغزوة وفي غيرها من الغزوات - على فرض ثبوت استخلاف غيره في هذه الغزوة - وسوف يأتينا في سبب هذا الاستخلاف لعلي عليه السلام مما يوضح عمق المسؤولية التي أُنيطت به في

---

(١) انظر الحديث في: صحيح البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة تبوك: الحديث رقم (٤٤١٦) من المجلد الثالث، الجزء الخامس: ١٥١ وصحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل علي، الحديث (٣١ و ٣٢)، ودلائل النبوة للبيهقي: ٥ / ٢٢٠ . انظر المراجعات للسيد عبد الحسين شرف الدين، المراجعة: ٢٥ إلى المراجعة ٣٤، وانظر مستدرك المراجعات المسمى ب- «سبيل النجاة في تتمة المراجعات» للشيخ حسين الراضي، المطبوع في آخر كتاب المراجعات: ١١٧ وما بعدها، الطبعة الثانية، بيروت، (١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م).

المدينة بعد خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك.

خامساً: اصطلح المحدثون والمؤرخون على الحديث الذي قاله رسول الله ﷺ لعليّ عليه السلام وهو يعيده إلى المدينة بحديث «المنزلة» وقد عرف هذا الحديث بهذا الاسم في كتب الحديث والمسانيد والصحاح وكتب العقائد.

سادساً: هنالك إذعان بصحة حديث المنزلة واستفاضته، وثبوته باجماع المسلمين على اختلافهم في المذاهب والمشارب، حتى قال فيه ابن عبد البر في الاستيعاب: «وهو من أثبت الآثار وأصحها، رواه عن النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص، وطرق حديث سعد فيه كثيرة جداً قد ذكرها ابن أبي خيثمة وغيره ورواه ابن عباس وأبو سعيد الخدري، وأُم سلمة وأسماء بنت عميس وجابر بن عبد الله وجماعة يطول ذكرهم..»[1].

سابعاً: بعد هذا الاذعان بثبوت الحديث وصحته جاء بعضهم ليشكك في مداليل الحديث من حيث عمومه، ودلالته! فقال بعضهم إنه استخلفه على أهله فقط ولم يستخلفه على المدينة. فلا يعم الناس جميعاً! أو أن حديث المنزلة خاص بغزوة تبوك، ولا ربط له بما بعد وفاة رسول الله ﷺ[2]!

والهدف من هذا التشكيك هو تحريف حديث المنزلة عن وجهته الحقيقية التي يدل عليها بوضوح تام وهو مقام استخلاف رسول الله ﷺ والإمامة الكبرى على المسلمين.

ثامناً: وقد أجاب العلماء الأفذاذ عن هذه التشكيكات الواهية من خلال جملة من الأدلة المسلمة عند المسلمين، فكل من له معرفة باللغة العربية والعرف اللغوي لا يشك ولا يتوقف عند عموم المنزلة في قول رسول الله ﷺ: «أنت منّي

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب، المطبوع على هامش الاصابة لابن حجر: ٣/ ٣٤.

(٢) انظر إلى هذين الاشكالين وجوابهما في المراجعات: ٢٠٣، المراجعة ٢٩.

بمنزلة هارون من موسى» ولا سيما بعد استثناء النبوة فإنه يجعله نصاً في العموم. وبعد عموم الحديث فإنّ مورده الذي صدر فيه لا يخصصه، لأنّ المورد لا يخصص الوارد كما هو مقرر في محله. ثمّ إن هذا الحديث لم تنحصر موارده باستخلاف عليٍّ على المدينة في غزوة تبوك ليتشبّث الخصم بتخصيصه به وإنما ورد في موارد أُخرى كثيرة[١]، فقول المعترض بأن سياق الحديث دال على تخصيصه بغزوة تبوك، مما لا وجه له».

إلى غيرها من الأجوبة المفصلة التي أخذت من علمائنا الأبرار الوقت الكثير، وكتبوا في ذلك المجلدات الكثيرة دفاعاً عن الدين وسنّة سيد المرسلين وخلافة سيد الوصيين والأئمة الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

السبب الواقعي لبقاء عليٍّ عليه السلام في المدينة:

بعد هذه الجولة المختصرة في حديث المنزلة نعود إلى السبب الأقرب إلى الواقع لبقاء علي عليه السلام في المدينة بأمر من رسول الله صلى الله عليه وآله.

عندما نعود إلى الظروف الموضوعية التي أحاطت بتجهيز جيش غزوة تبوك في السنة التاسعة من الهجرة، نجد اتساع رقعة الدولة الإسلامية لتشمل كلّ الجزيرة العربية تقريباً، ودخول القبائل والأعراب المشركة والوثنية في الإسلام، والكثير من هؤلاء أسلموا خوفاً وطمعاً، وكان من المحتمل انقلابهم على الإسلام وأهله في أول فرصة تتاح لهم!

بالاضافة إلى تصاعد نشاط حركة النفاق أثناء الإعداد لهذه الغزوة، وتخلف الكثير منهم عن هذه الغزوة وعودتهم إلى المدينة وبأعداد كبيرة تصفهم الرواية التاريخية بأنهم «ليسوا بأقل من العسكرين»[٢]، «وهب أن هذا العدد مبالغ فيه -

(١) انظر هذه الموارد: المراجعات: ٢٠٧، المراجعة ٣١ وتتمة المراجعات.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٥.

كما هو ليس ببعيد - ولكن من المتيقن أنهم كانوا عدداً كبيراً، وبإمكانهم أن يعبثوا بالمدينة وخارجها، إذا لم تكن إدارتها بيد شخص مرهوب الجانب لا يحسب لأحد حساباً مهماً بلغ من القوة والمكانة، وهذه الناحية لا تتوفر في غير علي بعد رسول الله ﷺ »[1].

فالنبي ﷺ - وبحكمته العالية وحُسن تدبيره للأُمور - قد ترك علياً في المدينة خوفاً من أن ينقض عليها المنافقون والأعراب ممن أسلموا خوفاً وطمعاً، والنبي ﷺ يعلم بأنه لا يصلح لهذه المهمة غيره.

فما يقال من أن رسول الله ﷺ إنما استخلف علياً لإدارة شؤون أهله وشؤونه الخاصة، لا يمكن الأخذ به أو الركون إليه، إذ لم يُعرف عن رسول الله ﷺ أنه استخلف من يقوم بشؤون أهله في غزواته! وإنما كان يستخلف من يقوم بشؤون المدينة، ولم يجعل لأهله ﷺ امتيازاً واستخلافاً خاصاً بهم. ثمّ ما هي هذه الشؤون الخاصة للأهل؟ وما مقدار أهميتها حتى يترك لها علياً عليه السلام ، رغم أهمية وجوده في عسكر رسول الله ﷺ ، بل هو عسكر وحده؟

ولو عدنا إلى نص حديث المنزلة برواياتها الأُخرى لوجدنا بعض الاضافات التي تشير إلى أهمية هذا الاستخلاف وخطورته!

ففي مستدرك الصحيحين أضاف الحاكم أن النبي ﷺ قال لعليٍّ: «إنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك». وأضاف إلى ذلك المحدث أحمد بن حنبل في مسنده أنه قال: «لا ينبغي أن أذهب إلاّ وأنت خليفتي»[2].

ولهذا يقول الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في سبب استخلاف عليّ على المدينة: «. . . عَلِم ﷺ أنّه لا يقوم مقامهُ في إرهاب العدوّ وحراسة دار الهجرة

(١) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٦٤٤ .

(٢) المصدر نفسه: ٦٤٥ عن المستدرك والمسند .

وحياطة من فيها، إلاّ أميرُ المؤمنين عليه السلام ، فاستخلفه استخلافاً ظاهراً، ونصّ عليه بالإمامة من بعده نصّاً جلياً. . . وأن أهل النفاق لمّا علموا استخلاف رسول الله صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام على المدينة. . عَظُم عليهمُ مقامه فيها بعد خروجه، وعلموا أنها. . تنحرس به. . فساءهم ذلك، وكانوا يؤثرون خروجه معه، لما يرجونه من وقوع الفساد والاختلاط عند نأي النبي صلى الله عليه وآله عن المدينة، وخلوّها من مرهوب مخوف يَحرُسُها.

فأرجفوا به عليه السلام وقالوا. . فلما بلغ أمير المؤمنين إرجاف المنافقين به، أراد تكذيبهم وإظهار فضيحتهم، فلحق بالنبي صلى الله عليه وآله فقال: «يا رسول الله، إنّ المنافقين يزعمون أنّك إنّما خلّفتني استثقالا ومقتاً! فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله : ارجع يا أخي إلى مكانك، فإنّ المدينة لا تصلح إلاّ بي أو بك، فأنت خليفتي في أهلي ودار هجرتي وقومي، أما ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبي بعدي».

ثمّ يبين الشيخ المفيد دلالات حديث المنزلة على إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخلافته بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، فيقول: «فتضمّن هذا القول من رسول الله صلى الله عليه وآله نصّه عليه بالإمامة، وإبانته من الكافّة بالخلافة، ودلّ به على فضل لم يشركه فيه سواه، وأوجب له به عليه السلام جميع منازل هارون من موسى، إلاّ ما خصّه العُرف من الاخوّة واستثناه هو عليه السلام من النبوّة.

. . وقد علم كلُّ من تأمل معاني القرآن وتصفح الروايات والأخبار، أنّ هارون عليه السلام كان أخا موسى لأبيه وأُمه وشريكه في أمره، ووزيره على نبوّته وتبليغه رسالات ربّه، وأن الله شدّ به أزره، وأ نّه كان خليفته على قومه، وكان له من الإمامة عليهم وفرض الطاعة كإمامته وفرض طاعته، وأنه كان أحبّ قومه إليه، وأفضلهم لديه.

قال الله عزّ وجل حاكياً عن موسى عليه السلام : ﴿قَالَ رَبِّ ٱشۡرَحۡ لِي صَدۡرِي ﴿٢٥﴾

وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُواْ قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِيٓ أَمْرِي ﴿٣٢﴾﴾.

فأجاب الله تعالى مسألته وأعطاه سؤله في ذلك وأُمنيّته حيث يقول - سبحانه -: ﴿قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿٣٦﴾﴾[1]. وقال - سبحانه -: حاكياً عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[2].

فلما جعل النبي صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام منه بمنزلة هارون من موسى، أوجب له بذلك جميع ما عددناه، إلاّ ما خصّه العُرف من الاخوّة، واستثناه من النبوّة لفظاً»[3].

نتوقف عند هذا المقدار من أحداث غزوة تبوك لنكمل ما بقي منها في الدرس القادم، مع ما يستفاد منها من دروس وعبر وعظات.

---

(١) طه: ٢٠ - ٣٢ و ٣٦.

(٢) الأعراف: ١٤٢.

(٣) المفيد، الارشاد: ١ / ١٥٤ - ١٥٧ (بتلخيص).

الأسئلة:

١ - متى وقعت غزوة تبوك؟ ولماذا سميت بهذا الاسم؟ وما هي الاسماء الأُخرى لها؟ وما هي مناسبتها؟

٢ - ما هي الأسباب الواقعية لغزوة تبوك؟

٣ - ما هي الأسباب الحقيقية والواقعية لكراهة المسلمين الخروج إلى تبوك؟

٤ - ما هو الدور الذي قام به المنافقون في هذه الغزوة؟ وما هي أوضح مصاديق هذا الدور؟

٥ - كيف تقيِّم مشاركة المسلمين في هذه الغزوة من حيث جهوز يتهم ومساهمتهم بأموالهم؟

٦ - كيف تقيّم ظاهرة التخلف عن غزوة تبوك؟ وإلى كم قسماً يمكن تقسيم المتخلفين؟

٧ - ما هي الأسباب الواقعية لاستخلاف علي بن أبي طالب عليه السلام على المدينة في هذه الغزوة؟

٨ - ما هي الدلالات العقائدية والإيمانية لحديث المنزلة؟

الدرس التاسع والعشرون
أحداث السنة التاسعة من الهجرة

(غزوة تبوك)
«القسم الثاني»

محاور البحث:

١ - من حوادث الطريق إلى تبوك
٢ - رسول الله ﷺ في تبوك وانسحاب جيش الروم منها
٣ - رسول الله ﷺ يتخذ المساجد في تبوك
٤ - سرية خالد إلى الأكيدر ومصالحة يُحَنَّة بن رؤبة
٥ - من حوادث العودة إلى المدينة:
الحادثة الأُولى: محاولة اغتيال رسول الله عند العقبة
الحادثة الثانية: هدم مسجد ضرار
٦ - رسول الله ﷺ في المدينة وقصة الثلاثة الذين خلفوا وأمر المَعذِّرين
٧ - ما نزل من القرآن في غزوة تبوك
٨ - من آثار ونتائج غزوة تبوك
٩ - الدروس والعبر
- الأسئلة

غزوة تبوك / ق ٢

١ – من حوادث الطريق إلى تبوك

مرّ بنا في الدرس السابق «أنّ رسول الله ﷺ لم يكتم على المسلمين وجهته في غزوة تبوك، وإنما جلّى للناس أمرهم ليتأهّبوا لذلك أَهبة غزوهم، وأخبر بالوجه الذي يُريد، وبعث إلى القبائل وإلى مكّة يستفزهم إلى غزوهم»[١].

ومن أجل تحشيد أكبر قوة لهذه الغزوة نجد رسول الله ﷺ يبعث إلى القبائل المجاورة وإلى أهل مكة وحلفائها رُسلا – يذكر الواقدي أسمائهم – ويضرب عسكره في ثنية الوداع خارج المدينة لاستكمال تحشيد القوات وانجاز الاستعدادات اللازمة لذلك.

إلاّ أن الملفت للنظر أننا لا نجد لرجال قريش وسادات أهل مكة حضوراً في هذه الغزوة! رغم أن رواية الواقدي تنص على أنه ﷺ «بعث إليهم يستفزهم إلى غزوهم»!

والذي يبدو أن عامل الخوف من بني الأصفر هو السبب الرئيسي لذلك، بالاضافة إلى العامل التجاري، إذ كانت تجارة قريش الرئيسية تمرُّ ببلاد الشام، فأرادت قريش المحافظة على علاقاتها مع بلاد الشام حفاظاً على مصالحها وتجارتها!

ومهما يكن من أمر: لما أكمل رسول الله ﷺ استعدادات جيش تبوك عقد

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠ .

الألوية والرايات، فتحرك إلى تبوك في جيش تعداده ثلاثون ألفاً معهم عشرة آلاف فرس.

وروى الواقدي عمن حدثه... قال: «جلستُ مع زيد بن ثابت فذكرنا غزوة تبوك.. فقلتُ: يا أبا سعيد، كم ترى كان المسلمون؟ قال: ثلاثون ألفاً، لقد كان الناس يرحلون عند مَيل الشمس فما يزالون يرحلون والسّاقة[١]، مقيمون حتى يرحل العسكر، فسألت بعض من كان بالساقة فقال: ما يرحل آخرهم إلاّ مساءً، ثمّ نَرحَل على أثرهم فما ننتهي إلى العسكر إلاّ مصبِّحين من كثرة الناس».

وفي نصٍّ آخر له: «وكان الناس مع رسول اللهﷺ ثلاثين ألفاً، ومن الخيل عشرة آلاف فرس، وأمر رسول الله كلَّ بطن من الأنصار أن يتخذوا لواءً ورايةً، والقبائل من العرب فيها الرايات والألوية»[٢].

هذا وقد ذكر الواقدي وغيره من المؤرخين لأحداث هذه الغزوة الكثير من الوقائع والقصص التي حصلت - كما يقولون - في الطريق إلى تبوك، ولا نرى ضرورة للدخول في كل تفاصيلها، وإثبات صحتها أو سقمها لخروجها عن أحداث هذه الغزوة الرئيسية وما ترتب عليها من آثار مستقبلية، إلاّ أننا نتوقف عند بعض هذه الأحداث لما فيها من وجوه العبرة والعظة، أو لردّها لمنافاتها مع مقام النبيﷺ، وأخلاقه العالية.

ومن هذه الأحداث ما رواه أبو رُهم الغفاري.. قال: غزوت مع رسول اللهﷺ تبوكاً، فسرتُ ذات ليلة معه.. وأنا قريب من رسول اللهﷺ، وأُلقيَ عليَّ النُّعاس، وقد دنت راحلتي من راحلة رسول اللهﷺ، فزاحمت راحلتي راحلته ورجلُه في الغَرز، فما استيقظتُ إلاّ بقوله: حَسٍّ[٣]! فقلت: يا رسول الله،

---

(١) السّاقة من الجيش: مؤخرته.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٦ و ٢ / ١٠٠٢، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٢.

(٣) حَسٍّ: كلمة تقولها العرب عند وجود الألم.

استغفر لي، فقال ﷺ سِرْ!

ثمّ قال: فجعل رسول الله ﷺ يسألني عمّن تخلَّف من بني غِفار، فأخبره بهم، وهو يسألني ما فعل النَّفرُ الحُمْرُ الطِّوال النَّطانِط[١]؟ فحدّثتُه بتخلّفهم، قال ﷺ: فما فعل النَّفرُ السُّود القِصار الجعاد الحُلس[٢]؟ فقلت: والله يا رسول الله ما أعرف هؤلاء! قال: بلى، الذين هم بشبكة شَدّخ، قال - الراوي - فتذكَّرتهم في بني غفار.. فقلت: يا رسول الله، أُولئك رَهطٌ مِن أسلم حلفاء لنا.

فقال رسول الله ﷺ: «ما مَنع أحدٌ أُولئك حينَ تخلَّف أن يحمل على بعير من إبله رجلا نشيطاً في سبيل الله ممَّن يخرج معنا، فيكون له مثلُ أجرِ الخارج! إن كان لَمِن أعزِّ أهلي عليَّ أن يتخلَّف عنّي المهاجرون من قُريش والأنصار، وغِفار، وأَسلم»[٣].

وفي هذه القصة نتوقف عند سؤال رسول الله ﷺ عمّن تخلّف عن هذه الغزوة، ومعرفته الواسعة بقبائلهم وصفاتهم مما خفي على الراوي نفسه وهو من هؤلاء القوم! وهذا إن دلّ على شيء فهو يدل على الحس الاجتماعي والمعرفة الاجتماعية بطبقات الناس ومنازلهم التي كان يَتميّزُ بها رسول الله ﷺ، وهي مسألة مهمة في القيادة وإدارة المجتمع كما هو واضح.

والمسألة الأُخرى التي نلاحظها في هذه القصة هي تأسف رسول الله ﷺ على من تخلف عن هذه الغزوة من الذين ذكرتهم الرواية، مما يدل على سعة مساحة التخلف لتشمل قبائل كثيرة!

ورسول الله ﷺ لا يأسف على عدم مشاركتهم فالله سبحانه يغني عنهم،

---

(١) النطانط: جمع نطناط، وهو الطويل المديد القامة (النهاية).

(٢) الحلس: جمع أحلس، وهو الذي لونه بين السواد والحمرة (الصحاح).

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٠٢.

وإنما يأسف لما فاتهم من ثواب جزيل أعدّه الله سبحانه لمن جاهد في سبيله بأمواله أو بنفسه.

ومن الأحداث الأُخرى ما يرويه الواقدي وغيره عن معاذ بن جبل، قال: «قال رسول الله ﷺ إنّكم ستأتونَ غداً إن شاء الله عينَ تبوك، وإنّكم لن تنالوها حتى يضحى النهار، فمن جاءها فلا يمسَّ من مائها شيئاً حتى آتي».

قال معاذ بن جبل: فجئناها وقد سبق إليها رجلان، والعين مثل الزُّلال تَبُضُّ[١]، بشيء من الماء، فسألهما - أي النبي -: هل مَسَستُما من مائها شيئاً؟ قالا: نعم.

فسبَّهما النبي ﷺ! فقال لهما ما شاء الله أن يقول!! ثمّ غَرفوا بأيديهم قليلا قليلا حتى اجتمع في شنٍّ[٢]، ثمّ غسل النبي ﷺ فيه وجهه ويديه، ثمّ أعاده فيها، فجاءَت العينُ بماء كثير فاستقى الناس.

ثمّ قال النبي ﷺ: يُوشك يا مُعاذ إن طالت بكَ حياةٌ أن ترى ما هاهنا قد مُلئ جنانا»[٣].

وهذه الرواية فيها معجزة للنبي ﷺ أو كرامة من كراماته الكثيرة، وأخبار عن أمر غيبي قد حصل بعد ذلك حتى أن تلك المنطقة النائية القليلة المياه تحولت إلى بساتين وجنائن.

وهذه المعجزات والكرامات النبوية - وما أكثرها - من الأُمور الثابتة والتي

---

(١) بض الماء: أي سال قليلا قليلا (الصحاح).

(٢) الشن: القربة الخلقة.

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠١٢ - ١٠١٣، والبيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٣٦، وصحيح مسلم بشرح النووي: المجلد الثامن: ١٥ / ٤١، كتاب فضائل النبي ﷺ باب في معجزات النبي ﷺ. وابن قيم، زاد المعاد: ٣ / ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٠.

لا يمكن التشكيك فيها فضلا عن إنكارها بعد أن تناقلتها الروايات المعتبرة التي بلغ مجموعها التواتر كما يقول النووي في شرحه[١].

إلاّ أنّ الذي نلاحظه في هذه الرواية ما جاء فيها من أنّ النبيﷺ قد سبَّ الرجلين اللذين مسا ماء عين تبوك «وقال لهما ما شاءَ الله أن يقول!».

وفي رواية ابن إسحاق لهذه القصة - والتي تختلف في بعض تفاصيلها عن رواية الواقدي الأُولى وفي بعض المصادر الأُخرى - ورد: «ثمّ لعنهم رسول اللهﷺ ودعا عليهم وإنّ هؤلاء كانوا نفراً من المنافقين» وذكر الواقدي هذه الرواية الثانية بتفاصيل أكثر[٢].

وعلى كلٍّ حال سواء كانت القصة واحدة يرويها كلُّ راوي بحسب ما نقل له، أو كانت قصَّتين، فلا يمكن أن نقبل ما جاء فيها من نسبة السباب أو اللعن إلى النبيﷺ، بالاضافة إلى الكلام الآخر الذي نسب إلى النبيﷺ والذي تجنب الراوي ذكره حيث نسب إليهﷺ إنه: «قال لهما ما شاء الله أن يقول». فما الذي دعا النبيﷺ إلى استخدام أُسلوب السباب واللعن في حق رجلين من المسلمين ظاهراً؟

فهل كان هذا هو أُسلوب النبيﷺ مع أصحابه؟ أم أن حالة الغضب قد دفعته إلى استخدام هذا الأُسلوب؟ أم أن مخالفتهما لأوامر النبيﷺ كانت بدرجة من الخطورة استحقا بموجبه السب أو اللعن؟

ومن الواضح أن الجواب عن هذه الأسئلة وغيرها هو النفي، فالنبيﷺ كان خلقه القرآن، وأدَّبه ربه فأحسن تأديبه، ولم يكن من أُسلوبه في التعامل مع

---

(١) النووي، شرح صحيح مسلم: ١٥ / ٣٨ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٧، والواقدي، المغازي: ١٠٣٩ .

الصحابة استخدام الألفاظ الجارحة الشديدة، فضلا عن أُسلوب السباب واللعن.

وحالته البشرية من الغضب والرضى لم تخرجه عن حالة الاستقامة في منطقه وأخلاقه، ولا الفعل الذي أقدم عليه الرجلان كان يستوجب هذا الأُسلوب المفرط في القسوة معهما.

وهذه سيرة رسول الله ﷺ وأخلاقه الحميدة بين أيدينا تنفي ما تنسبه إليه هذه الرواية وأمثالها من بذاءة القول والفحش في الكلام مع أصحابه حتى ولو كانوا من المنافقين.

فكيف تنسب الرواية إليه ﷺ السباب، وهو الذي يروى عنه عشرات الأحاديث في النهي عن سب الناس، والتفوه بالألفاظ الفاحشة...

قال رسول الله ﷺ : «سبابُ المؤمن فسوق، وقتالهُ كفر»[١].

وعنه ﷺ : «سابُّ المؤمن كالمشرف على الهلكة»[٢].

وعنه ﷺ : «المتسابّان شيطانان يتعاويان ويتهاتران»[٣].

وعنه ﷺ : «إياكم والفحش فإنّ الله لا يحبّ الفحش والتفحّش»[٤].

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة قال: قيل يا رسول الله ادعُ على المشركين، قال: «إنّي لم أبعث لعاناً وإنما بعثتُ رحمة»[٥].

والذي يدعوا للعجب أن الذين رووا هذا الحديث لم يتوقفوا عند هذه

---

(١) و (٢) كنز العمال: ٨٠٩٣، ٨٠٩٤ .

(٣) ورام، مجموعة ورام، تنبيه الخواطر: ١ / ١١٩ .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ١١٨ .

(٥) صحيح مسلم بشرح النووي: المجلد الثامن: ١٦ / ١٥٠ .

الفقرة من الحديث، ولم يوجهوه التوجيه المناسب الذي يليق بمقام النبيﷺ وأخلاقه الكريمة الفاضلة! وكأ نّه أمر طبيعي عندهم أن تصدر من النبيﷺ كلمات السباب واللعن!

وقد يكون الأمر كذلك عندهم! فهذا الإمام مسلم يروي في صحيحه - بعد الرواية التي نقلناها عنه سابقاً مباشرة - عن عائشة قالت: «دَخل على رسول اللهﷺ رجلان فكلماه بشيء لا أدري ما هو فأغضباهُ فلعنهما وسبَّهُما! فلما خَرجا، قلتُ: يا رسول الله مَن أصاب من الخير شيئاً ما أصابه هذان؟ قال: وما ذاك؟ قلت: لَعنتهما وسَبَبتَهما! قال: أو ما علمتِ ما شارطتُ عليه ربِّي؟ قلتُ: اللّهمُ إنّما أنا بشرٌ فأيُّ المسلمين لعنتهُ أو سببتهُ فاجعله له زكاةً وأجراً»[1].

ولا نريد أن نتوقف عند هذا الحديث وأمثاله التي تساوي بين النبيﷺ وبين غيره من البشر! فإنّ لهذه الأحاديث أسبابها ومبرراتها وخلفياتها المعروفة عند من تحدث بها!

ومهما يكن من أمر، فإنا نكتفي بهاتين القصتين من قصص الطريق إلى تبوك، وهنالك وقائع وقصص أُخرى ذكرنا بعضها في ثنايا الدرس السابق.

٢ - رسول اللهﷺ في تبوك، وانسحاب جيش الروم

بعد رحلة طويلة شاقة عانا فيها رسول اللهﷺ وأصحابه حرَّ الصيف الشديد، وقطعوا فيها مسافات طويلة في صحراء قاحلة.. وصل جيش المسلمين إلى تبوك، إلاّ أنهم لم يجدوا قوات الروم هناك!

فأين ذهبت قوات الروم والقبائل المتحالفة معها؟

---

(١) المصدر نفسه: ١٦ / ١٥٠، وانظر الأحاديث الأُخرى بنفس المضمون التي يذكرها النووي في المصدر نفسه.

ذهب بعض المؤرخين إلى القول بأن ما أُخْبِر به النبيﷺ من تعبئة هرقل لأصحابه، ومن دنوه إلى أدنى الشام كان باطلا، وأن هرقل لم يُرِد ذلك ولا همَّ به.

ذكر الواقدي هذا الرأي في موضعين من مغازيه قال في أولها: «فقدمت قادمة - إلى المدينة - فذكروا أنّ الروم قد جمعت جموعاً كثيرة في الشام.. ولم يكن ذلك، وإنما ذلك شيءٌ قيل لهم فقالوه..».

وفي الموضع الثاني يذكر أن هرقل..: «دعا قومه إلى التصديق به - أي بالنبيﷺ - فأبوا حتى خافهم على مُلكه، وهو في موضعه لم يتحرّك ولم يزحف، وكان الذي خَبَّر النبيﷺ - من بعثته أصحابه ودنوِّه إلى أدنى الشام - باطلا، ولم يُرد ذلك ولم يَهُمّ به»[1].

وليس ببعيد أن يكون الأمر كذلك فقد تكون الأخبار التي سربت إلى المدينة بواسطة الأنباط عن استعدادات جيش الروم لم تكن واقعية! وكان الغرض من تسريبها هو تخويف المسلمين وشلّ حركتهم؛ لكي لا يفكروا بغزو بلاد الروم كما فعلوا في غزوة مؤتة.

وقد يكون رسول اللهﷺ قد عَلم من أول الأمر بعدم واقعية هذه الأخبار وبطلانها، إلاّ أنّهﷺ كان يريد أن يكسر حاجز الخوف المستحكم في نفوس المسلمين من مواجهة جيش الروم، فقام بتجهيز جيش تبوك برغم الظروف القاسية التي تحكي لنا طرفاً منها روايات السيرة، وتحرك إلى تبوك لتحقيق هذا الهدف المهم، وأهداف أُخرى لا تقل أهمية منها كما سوف يأتينا.

وهنالك رأي آخر لبعض الباحثين يقول: «وكانت الروم قد بلغها أمر هذا

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٠ و ٢ / ١٠١٩، والمقريزي، امتاع الاسماع: ٢ / ٦١ .

الجيش وقوته - أي جيش المسلمين - فآثرت الانسحاب بجيشها الذي كانت وجّهت [هكذا] إلى حدودها ليحتمي داخل بلاد الشام في حصونها»[١].

وهذا الرأي معقول في حد ذاته، إلاّ أنّ انسحاب جيش الروم - على فرض وقوعه - قد لا يكون سببه الخوف من جيش المسلمين وقوتهم، وإنما مجرد تكتيك عسكري لحمل جيش المسلمين على التوغل داخل بلاد الشام ومن ثمّ قطع المدد عنهم ومحاصرتهم والاجهاز عليهم! ولم تكن هذه الخطة العسكرية لتخفى على رسول الله ﷺ ولهذا لم يتجاوز تبوك ولم يتوغل في بلاد الشام.

يروي الواقدي: «.. وشاور رسول الله ﷺ في التقدّم - أي في مسيرهم إلى بلاد الشام - فقال عمر بن الخطاب: إن كنت أُمِرتَ بالمسير فَسِر! قال رسول الله ﷺ لو أُمِرتُ به ما استشرتكم فيه! قال - أي عمر -: يا رسول الله، فإنّ للروم جُموعاً كثيرةً، وليس بها أحد من أهل الإسلام، وقد دنوت منهم حيث ترى، وقد أفزعهم دُنوّك، فلو رجعت هذه السَّنة حتى ترى، أو يحدث الله عزّ وجل لك في ذلك أمراً»[٢].

ومهما يكن من أمر، فإنّ رسول الله ﷺ قد وقف بجيشه عند تبوك ولم يتجاوزها، إلاّ أنّه قام بمجموعة من المهام الكبيرة التي كانت تشكل في مجموعها أهداف هذه الغزوة.

٣ - رسول الله ﷺ يتخذ المساجد في تبوك ويعظ المسلمين فيها

بعد أن استقرّ المقام برسول الله ﷺ والمسلمين في تبوك، اتخذ للمسلمين

---

(١) هيكل، حياة محمد: ٤٥٨، وخطاب، الرسول القائد: ٤٠١، وسبحاني، سيرة سيد المرسلين: ٢ / ٥٦٨، والحسني، سيرة المصطفى: ٦٥١ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠١٩ .

مسجداً ليكون محلا لعبادتهم وارشادهم ووعظهم.

قال الواقدي: «ولمّا انتهى رسول الله ﷺ إلى تَبوك وضع حَجراً قبلة مسجد تَبوك بيده وما يلي الحَجَر»، ثمّ صلّى الظّهر بالناس، ثمّ أقبل عليهم فقال: «ما هاهنا شام، وما هاهنا يمن».

وفي رواية المقريزي: «ونظر بتبوك نحو اليمن، ورفع يديه يشير إلى أهلها وقال: الإيمان يمان، ونظر نحو المشرق، وأشار بيده وقال: إن الجفاء وغليظ القلوب في الفدّادين[١]، أهل الوَبَر من المشرق حيث يطلع الشيطان قرنيه»[٢].

ويذكر أن رسول الله ﷺ قد اتخذ مجموعة من المساجد خلال مسيره إلى تبوك، ذكر أسماءها ومواضعها الواقدي وابن إسحاق، والمقريزي قال: «وكانت مساجده في سفره إلى تبوك معروفة»[٣].

ويذكر الرواة جملة من المواعظ والارشادات لرسول الله ﷺ أثناء مكوثه في تبوك، منها ما رواه الواقدي عن عبد الله بن عمر قال: كنّا مع رسول الله ﷺ بتبوك، وكان يُصلّي من الليل، وكان يُكثر التهجّد من الليل، فصلّى ليلة من تلك الليالي، فلمّا فرغ أقبل على مَن كان عنده، فقال: «أعطيتُ خمساً ما أُعطيهنَّ أحد قبلي: بُعثتُ إلى الناس كافّةً، وإنما كان النبيّ يُبعث إلى قومه، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما ادركتني الصلاة تيمّمت وصلّيت، وكان من قبلي يُعظمون ذلك ولا يُصلّون إلاّ في كنائسهم والبِيَع، وأُحلَّت لي الغنائم آكُلُها، وكان من كان قَبلي يُحرّمها، والخامسة هي ما هي، هي ما هي، هي ما هي! ثلاثاً، قالوا: وما هي يا رسول الله؟ فقال ﷺ: قيل لي: سَل، فكلّ نبيٍّ قد

---

(١) الفدادون: أصحاب الإبل الكثيرة.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠١٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٠ - ٥٣١، والمقريزي، امتاع الاسماع: ٢ / ٦٠.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٩٩٩.

سأل، فهي لكم ولمن شهد أن لا إله إلاّ الله»[١].

ويروى أن رسول الله ﷺ كان يطوف على الناس في تبوك وهو على ناقة حمراء ويقول: «أيّها الناس، يدُ الله فوق يد المُعطي ويَد المُعطي الوسطى، ويد المُعطى السُّفلى. أيها الناس، اقنعوا ولو بحزم الحَطَب! اللّهم، هل بلّغت؟ ثلاثاً»[٢].

ومن الخطب الجليلة لرسول الله ﷺ في تبوك ما يرويه الواقدي في مغازيه والبيهقي في الدلائل، وغيرهما من المحدثين:

قال الواقدي: «أصبح - رسول الله - في تبوك، فجمع الناس فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثمّ قال: أيّها الناس! أما بعد، فإنّ أصدق الحديث كتاب الله، وأوثق العُرى كلمة التقوى، وخير الملل ملّة إبراهيم عليه السلام، وخير السنن سُنَن محمّد، وأشرف الحديث ذكرُ الله، وأحسن القَصص هذا القرآن، وخير الأُمور عواقبها...»[٣].

وتعتبر هذه الخطبة من أجمع خطب رسول الله ﷺ في الأخلاق، وتتجلى فيها حكمة النبوة، وخُلق الرَّسول الأكرم ﷺ.

إلاّ أن الحافظ ابن كثير قال فيه: «هذا حديث غريب فيه نكارة وفي إسناده ضعف، والله أعلم بالصواب»[٤].

ولعل الذي دعا ابن كثير إلى القول بنكارة الحديث هو روايته مجتمعاً وطول الفصول فيها، وكثرة وصاياها، إلاّ أنّ كلّ ذلك لا يستدعي إنكار الحديث بمجمله بعد صدق مضمونه وما جاء فيه من جوامع الكلم.

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٢١ - ١٠٢٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٠١٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٠١٦ - ١٠١٧، والبيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٤١.

(٤) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢٥.

٤ - سريّة خالد إلى الأكيدر، ومصالحة يُحَنَّة بن رؤبة

أراد رسول الله ﷺ أن يؤمّن حدود الدولة الإسلامية من ناحية الشمال، وذلك من خلال بعث سرية إلى نواحي تبوك والتي يسكنها بعض نصارى العرب التابعين لدولة الروم، فكان له ذلك حيث أسفرت هذه السرية عن أَسْرِ ملك كندة الأكيدر» ثمّ مفاداته وعقد معاهدة معه، وكان من نتيجة ذلك مصالحة «يَحنة بن رؤبة» عن أهل أيلة.. حيث صالحه ﷺ هؤلاء على أن يعطوا الجزية ويدخلوا في أمان الإسلام وعهده.

وفيما يلي ملخص لكلا الحادثتين من مصادرهما الأساسية:

أولا: سريّة خالد بن الوليد إلى الأكيدر بدومة الجَندل:

روى الواقدي، وابن إسحاق: «أنّ رسول الله ﷺ بعث خالد بن الوليد من تَبوك في أربعمائة وعشرين فارساً إلى أكيدر بن عبد الملك بدومة الجندل، وكان أُكيدر من كندة قد ملكهم وكان نصرانياً.

فقال خالد: يا رسول الله، كيف لي به وَسط بلاد كَلب؟ فقال رسول الله ﷺ: «ستجده يصيد البقر فتأخذه» فخرج خالد حتى إذا كان من حصنه بمنظر العين في ليلة مقمرة صائغة، وهو على سطح له ومعه امرأته.. فأقبلت البقرُ تَحُكُّ بقرونها بابَ الحصن.. فقالت له امرأته: هل رأيت مثل هذا قط؟ قال: لا والله! ثمّ قالت: من يترك هذا؟ قال: لا أحد.

فنزل فأمر بفرسه فأُسرج.. وركب معه نفرٌ من أهل بيته، معه أخوه حسّان ومملوكان، فخرجوا من حصنهم بمطاردهم[1]، فلمّا فصلوا من الحصن، وخيل خالد تنظرهم لا يَصهل منها فرسٌ ولا يتحرك، فساعة فَصل أخذته الخيل، فاستأسر أُكيدر وامتنع حسّان، فقاتل حتى قُتل، وهرب المملوكان ومَن كان معه من أهل بيته فدخلوا الحصن. وكان على حسّان قَباءُ ديباج مُخوَّصٌ بالذّهب،

(١) المطارد: جمع المطرد، وهو رمح قصير يطرد به الوحش (لسان العرب).

فاستلبه خالد فبعث به إلى رسول الله ﷺ !

قال أنس بن مالك، وجابر بن عبد الله: رأينا قَباءَ حسّان أخي أُكيدر حين قُدم به إلى رسول الله ﷺ ، فجعل المسلمون يتلمّسونه بأيديهم ويتعجّبون منه، فقال رسول الله ﷺ : «أتعجبون من هذا؟ فوالذي نفسي بيده لمناديل سعد بن مُعاذ في الجنّة أحسنُ من هذا»!

قال ابن إسحاق: ثمّ إنّ خالداً قدم بأُكيدر على رسول الله ﷺ فحقن له دمه، وصالحه على الجزية، ثمّ خلّى سبيله، فرجع إلى قريته..

وفي رواية الواقدي: وكتب رسول الله ﷺ كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم وختمه يومئذ بظفره»[1].

والذي يبدو من رواية ابن إسحاق، ورواية الواقدي أيضاً، أنّ الأُكيدر بقي على نصرانيته ولم يُسلم حيث ورد عند ابن إسحاق: «فحقن دمه، وصالحه على الجزية» وفي رواية الواقدي: «صالحه على الجزية وحقن دمه.. وكتب ﷺ كتاباً فيه أمانهم وما صالحهم..». فإعطاءُ الجزية، وكتاب الأمان، يدلان على أن الأُكيدر من أهل الذمة، وهو في ذمة الإسلام وميثاقه.

إلاّ أنّ الواقدي يروي بعد ذلك عن شيخ من أهل دومة - الجندل - أنّ رسول الله ﷺ كتب له - أي للأُكيدر - هذا الكتاب: «بسم الله الرحمن الرحيم، هذا كتاب محمّد رسول الله لأُكيدر حين أجاب إلى الإسلام وخلع الأنداد والأصنام مع خالد ابن الوليد.. في دومة الجندل وأكنافها، وإنّ لنا الضاحية.. تقيمون الصلاة لوقتها وتؤتون الزكاة لحقّها، عليكم بذلك العهد والميثاق، ولكم بذلك الصِّدق والوَفاء، شَهِد الله ومَن حضر من المسلمين..».

ثمّ يقول - بعد توضيح المصطلحات الواردة في كتاب رسول الله -:

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٢٥ - ١٠٢٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٦ .

«وكتب له - أي للأُكيدر رسول الله ﷺ كتاباً آمنه فيه، وفيه الصلح! وآمن أخاه ووضع عليه فيه الجزية، فلم يَكُ في يد النبيّ ﷺ خاتمٌ فختمه بظفره!»[١].

فالتناقض واضح في مرويات الواقدي في قضية الأُكيدر، والذي يبدو أن الأُكيدر بقي على دين النصرانية ففرض عليه رسول الله ﷺ الجزية وواثقه وآمنه.

ولم يقتصر هذا التناقض على مرويات الواقدي في قصة الأُكيدر، وإنما تجد ذلك عند البلاذري في فتوح البلدان والعسقلاني في الإصابة وأبي نُعيم في الحلية حيث قالوا باسلامه وذكروهُ في عداد الصحابة! وردّ عليهم ابن الأثير في كتابه أُسد الغابة فقال: «أما سريّة خالد فصحيح، وإنما أهدى أُكيدر لرسول الله ﷺ وصالحه ولم يُسلم، وهذا لاختلاف فيه بين أهل السير، ومن قال أنّه أسلم فقد أخطأ خطأً فاحشاً، وكان أُكيدر نصرانياً، ولما صالحه النبي ﷺ عاد إلى حصنه وبقي فيه»[٢].

ثانياً: مصالحة يُحَنَّة بن رؤبة ملك أَيلَة:

وروى الواقدي وابن إسحاق: «وكانت دومة، وأيلة[٣]، وتيماء، قد خافوا النبي ﷺ لمّا رأوا العرب قد أسلمت، وقدم يُحنَّة بن رؤبة على النبي ﷺ، وكان ملك أَيلة، وأشفقوا أن يبعث إليهم رسول الله ﷺ، كما بعث إلى الأُكيدر، وأقبل معه أهل جَرباء وأذرُح[٤] فأتوه فصالحهم فقطع عليهم الجزية، جزيةً معلومة، وكتب لهم كتاباً: بسم الله الرحمن الرحيم، هذا أمنةٌ من الله ومحمّد النبيّ رسول الله، ليُحنَّة بن رؤبة وأهل أَيلة، لِسُفُنهم وسائرهم في البرِّ والبحر، لهم ذمة الله

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٣٠.

(٢) انظر: ابن الأثير، أُسد الغابة: ١ / ١١٣، والبلاذري، فتوح البلدان، وابن حجر، الاصابة: ١ / ٦١، ١٢٤، وللتوسع انظر: الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٣ / ٣٠٣ وما بعدها.

(٣) أيلة: على ساحل بحر القلزم مما يلي الشام (معجم البلدان).

(٤) جرباء وأذرح: قريتان بالشام، بينهما مسير ثلاثة أيام (معجم ما استعجم للبكري).

وذمّة محمّد رسول الله، ولمن كان معه من أهل الشام وأهل اليمن وأهل البحر، فمن أحدث حدثاً فإنّه لا يحلّ مالُه دون نفسه، وإنه طيّبٌ لمن أخذه من الناس، وإنّه لا يحلّ أن يُمنَعوا ماءً يريدونه، ولا طريقاً يريدونه من برٍّ أو بحر»[١].

وروى الواقدي: «وكتب رسول الله ﷺ لأهل جَرباء وأذرُح هذا الكتاب: مِن محمد النبيّ رسول الله لأهل أذرح، أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد، وأنّ عليهم مائة دينار في كلِّ رجب وافيةً طيبةً، والله كفيلٌ عليهم».

قالوا: «وكتب لأهل مَقنا أنّهم آمنون بأمان الله وأمان محمّد، وأنّ عليهم رُبعَ غُزولهم ورُبع ثمارهم»[٢].

وهكذا أثمرت جهود رسول الله ﷺ في تبوك عن هذه المعاهدات والمواثيق المهمة التي أمّن بها حدود الدولة الإسلامية الشمالية، فكانت أيام قلائل في عمر الزمن قضاها رسول الله ﷺ في تبوك، إلاّ أنّها كانت حافلة بالعطاء «فما انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة حتّى أوطأوا مَن حولهم ودانُوا بالإسلام»[٣].

٥ - من حوادث العودة إلى المدينة

روى ابن إسحاق: «فأقام رسول الله ﷺ بتبوك بضع عشرة ليلة، لم يجاوزها، ثمّ انصرف قافلا إلى المدينة».

وروى ابن هشام والمقريزي والطبري: «وأقام عليه السلام بتبوك عشرين ليلة - وقيل بضعة عشرة ليلة - يصلي ركعتين»[٤].

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٣١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٥ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٣٢، والمقريزي، إمتاع الأسماع: ٢ / ٦٦ - ٦٧ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٣٥ .

(٤) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٧، والمقريزي، إمتاع الأسماع: ٢ / ٧٠، والطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٣ / ١٠٩ .

فبعد أن أنجز رسول الله ﷺ مهمة غزوته تحرك ركبه من تبوك عازماً المدينة، وروى المؤرخون أنّ رسول الله ﷺ : «قطع المسافة من المدينة إلى تبوك في عشرين ليلة، وأقام بها عشرين ليلة»[١]. ومن الواضح أنّه ﷺ يحتاج إلى عشرين يوماً وليلة للعودة إلى المدينة. فكان قدومه إلى المدينة في شهر رمضان المبارك[٢].

وقد ذكر المؤرخون جملة من الحوادث والقضايا ادعوا وقوعها أثناء العودة إلى المدينة، ولا يسعنا الوقوف عند كلِّ هذه الوقائع، ولا التحقيق في صحة وقوعها، إلاّ أنّنا نقف عند حادثتين منها لأهميتهما في سياق أحداث السيرة النبوية:

الأُولى: محاولة اغتيال رسول الله ﷺ عند العقبة.

والثانية: هدم مسجد ضرار.

وسوف نحاول أن نستجلي حقيقة هذين الحادثتين وملابساتهما وما يستخلص منهما من دروس وعبر.

الحادثة الأُولى: محاولة اغتيال رسول الله ﷺ :

لقد رويت جملة من المحاولات التي كانت تستهدف اغتيال النبي ﷺ ، وهذه الحادثة واحدة منها، بل ومن اهمها!!

وحيث روى هذه الحادثة أغلب المؤرخين والمفسرين، وحوتها كتب التاريخ والسيرة، والتفاسير المعتبرة، عند مختلف المذاهب الإسلامية، وذلك عند الحديث عن غزوة تبوك وعودة الرسول إلى المدينة.

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠١٥ و ١٠٦١ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٧ .

إلاّ أنّ هذه القضية - كغيرها من القضايا الحساسة - ابتليت رواياتها بمجموعة من المتناقضات، والتعمية المتعمَّدة لطمس حقيقة ما جرى فيها، واخفاء أشخاص من تلبس بها!!

فلابد لنا من استعراض النص التاريخي لهذه الواقعة، وتسليط الأضواء على ما هو أقرب للواقع منها.

قال الواقدي: «قالوا: لمّا كان رسول الله ﷺ ببعض الطريق مَكَر به أُناسٌ من المنافقين وائتمروا أن يطرحوهُ من عقبة في الطريق. فلمّا بلغ رسول الله ﷺ تلك العَقبة أرادوا أن يسلكوها معه فأُخبر رسول الله ﷺ خَبرهم، فقال للناس: اسلكوا بَطنَ الوادي، فإنّه أسهل لكم وأوسع! فسلك الناسُ بطنَ الوادي وسلك رسول الله ﷺ العَقَبة، وأمر عمّار بن ياسر أن يأخذَ بزمامِ الناقة يقودها، وأمر حُذيفة بن اليمان يسوق من خَلفه.

فبينا رسول الله ﷺ يسير في العَقبة إذ سمع حِسَّ القوم قد غَشوه، فغضب رسول الله ﷺ وأمر حُذيفة أن يردّهم، فرجع حُذيفة إليهم وقد رأوا غضب رسول الله ﷺ، فجعل يضرب وجوه رواحلهم بمحجَن في يده، وظنّ القوم أنّ رسول الله ﷺ قد أُطلع على مَكرِهم، فانحطّوا من العَقبة مُسرعين حتى خالطوا الناس، وأقبل حذيفة حتى أتى رسول الله ﷺ فساقَ به.

فلمّا خرج رسول الله ﷺ من العَقبة نزل الناس، فقال النبي ﷺ: يا حُذيفة، هل عرفتَ أحداً من الرَّكب الذين رددتهم؟ قال: يا رسول الله، عرفتُ راحلة فلان وفلان!! وكان القوم مُلثَّمين فلم أبصِرهم من أجل ظلمة الليل.

فلمّا أصبح قال له أُسيد بن الحُضير: يا رسول الله، ما منعك البارحة من سُلوك الوادي، فقد كان أسهل من العَقبة؟

قال: يا أبا يحيى، أتدري ما أراد البارحة المنافقون وما أهمّوا به؟ قالوا:

نتبعه في العَقبة، فإذا أظلم الليل عَلَيَّ قطعوا أنساع[١] راحلتي ونَخَسوها حتى يطرحوني من راحلتي.

فقال أُسيد: يا رسول الله، فقد اجتمع الناس ونزلوا، فمُر كلَّ بطن أن يقتل الرجل الذي همّ بهذا، فيكون الرجل من عشيرته هو الذي يقتله! وإن أحببت.. فنبئني بهم، فلا تبرح حتى آتيك برؤوسهم.. فإنّ مِثل هؤلاء يُتركون يا رسول الله؟ حتى متى نُداهنهم وقد صاروا اليوم في القلّة والذِّلّة...

قال رسول الله ﷺ: إنّي أكره أن يقول الناس إنّ محمّداً لمّا انقضت الحرب بينه وبين المشركين وضع يده في قتل أصحابه! فقال: يا رسول الله، فهؤلاء ليسوا بأصحاب!

قال رسول الله ﷺ: أليس يُظهرون شهادة أن لا إله إلاّ الله؟ قال: بلى، ولا شهادةَ لهم! قال ﷺ: أليس يُظهرون أني رسول الله؟ قال: بلى، ولا شهادة لهم! قال: فقد نُهيتُ من قتل أُولئك».

أما عن عدد المشاركين في هذه الجريمة فقد اختلفت الروايات في ذلك، ففي رواية الواقدي عمّن حدثه: «قال: كان أهل العقبة الذين أرادوا بالنبيّ ﷺ ثلاثة عشر رجلا، قد سمّاهم رسول الله ﷺ لحُذيفة وعمار رحمهما الله».

إلاّ أنّه يروي عن جابر عن أبيه: «قال: تنازع عمّار بن ياسر ورجلٌ من المسلمين في شيء فاستبّا، فلمّا كادَ الرَجل يعلو عمّاراً في السِّباب قال عمّار: كم كان أصحابُ العقبة؟ قال: اللهُ أعلم!

قال - عمّار -: أخبرني عن علمكَ بهم! فسكت الرجل، فقال من حَضر: بيِّن لصاحبك ما سألك عنه! وإنما يريد عمّار شيئاً قد خَفي عليهم، فكره الرجل أن يُحدّثه، وأقبل القوم على الرجل، فقال الرجل: كنّا نتحدّث أنّهم كانوا أربعة

---

(١) الأنساع: جمع نسعة، وهي سير مضفور يجعل زماماً للبعير وغيره (النهاية لابن الأثير).

عشر رجلا.

فقال عمّار: فإنك إن كنتَ منهم فَهُم خمسة عشر رجلا! فقال الرجل: مهلا، أذكرك الله أن تفضحني!

فقال عمّار: والله ما سميتُ أحداً، ولكني أشهد أنّ الخمسة عشر رجلا، اثنا عشر منهم حَربٌ لله ولرسوله في الحياة الدنيا، ﴿وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾[1].

وفي رواية أُخرى: أنّ رسول الله ﷺ قال لحذيفة: «إني مُسِرُّ إليك أمراً فلا تذكُرنَّه، إني نهيتُ أن أُصلّي على فلان، وفلان، وفلان» رهطٌ عدّة من المنافقين، ولا يُعلم رسول الله ﷺ ذكرهم لأحد غير حذيفة. فلمّا توفي رسول الله ﷺ، كان عمر بن الخطاب في خلافته إذا مات رجلٌ ممَّن يظنُّ أنّه من أُولئك الرهط، أخذ بيد حُذيفة فقاده إلى الصلاة عليه، فإن مشى معه حُذيفة صلّى عليه عمر، وإن انتزع يده وأبى أن يمشي انصرف معه.

ويختتم الواقدي رواياته عن هذه القضية برواية عن نافع بن جُبير، قال: لم يُخبر رسول الله ﷺ أحداً إلاّ حذيفة؛ وهم اثنا عشر رجلا ليس فيهم قرشيّ! وهذا الأمر المُجتمع عليه عندنا»[2].

والملاحظ في مرويات الواقدي للواقعة - والتي نقلناها مع بعض الاختصار - أنه تحاشى ذكر أسماء أُولئك النفر الذين أقدموا على هذه الجريمة!

وقد يكون الواقدي معذوراً في تحاشي ذكر الأسماء لحساسية القضية، أو

---

(١) غافر: ٥٢.

(٢) الواقدي: ٢ / ١٠٤٢ - ١٠٤٥. وتجد بعض هذه الروايات في المصادر التالية: المقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ٧٤ - ٧٦، والبيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٥٦ - ٢٥٩، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٣٤ - ٣٦، وغيرها من المصادر.

إنه لم تصله من مرويات الواقعة سوى ما رواه في كتابه! أو لأمر رسول الله ﷺ لحذيفة بعدم الاخبار عن أسمائهم!

إلاّ أنّ بعض المصادر التاريخية - من السنة والشيعة - تذكر قائمة؛ أو بالأحرى قوائم بأسماء أُولئك النفر، مع اختلاف في عددهم وقبائلهم التي ينتسبون إليها، بالاضافة إلى ذكر أسماء أشخاص لم يكن لهم حضور في غزوة تبوك مثل عبد الله بن أُبي، والجلاس بن سويد، وأبو عامر الراهب! وبعض آخر لم يعرف له إسلام مثل: سعد بن أبي سرح! بالاضافة إلى وجود أسماء عجيبة غريبة مثل: أبو الشرور! وأبو الدواهي! وأبو المعازف! وأبو الأعور! وفِعَل! وفُعَيل! في بعض هذه القوائم[1]!

فمن الصعوبة بمكان الاعتماد على هذه المرويات من أجل معرفة أسماء أُولئك النفر الذين أقدموا على هذه الجريمة بعد كون القضية من الأسرار التي أودعها رسول الله ﷺ عند حذيفة وأمره باخفائها، ولهذا كان يُقال لحذيفة: إنه صاحب السرِّ الذي لا يعلمه غيره.

إلاّ أن الملاحظ أن الروايات التي تذكر قائمة بأسماء هؤلاء كما هو عند الطبراني، وابن قيم وغيرهما، تنص على أسماء مجهولة لا يعبأ بهم أحد! في محاولة منها لصرف الأنظار عن بعض الشخصيات التي قد توجد لديها دواعي كثيرة للاقدام على هذه الجريمة! بل إنّ بعض المرويات تحاول أن تصرف الأنظار عن المهاجرين وقريش قاطبة! كما في الرواية التي يرويها السيوطي في تفسيره حيث يقول: «لم يخبر رسول الله ﷺ بأسماء المنافقين الذين نخسوه ليلة العقبة

(١) انظر المصادر التالية: الطبراني، المعجم الكبير: ٣ / ١٦٦، ومحمد رشيد رضا، تفسير المنار: ١٠ / ٥٥٥، ومكاتيب الرسول: ١ / ٦٠٠ وما بعدها، والسيوطي، الدر المنثور: ٤ / ٢٢١، وابن قيم، زاد المعاد: ٦٨٣ - ٦٨٤، والمجلسي، بحار الأنوار: ٢١ / ٢٢٣، والمجلد ٩ / ٣٨٦ من الطبعة الحديثة، والبياضي العاملي، الصراط المستقيم: ٣ / ٤٤ .

بتبوك غير حذيفة رضي الله عنه ، وهم اثنا عشر رجلا ليس فيهم قرشي! وكلهم من الأنصار ومن حلفائهم»[١] . وقد نقلناها عن الواقدي أيضاً.

والمصادر الشيعية التي تذكر أسماء أُولئك النفر ابتليت أيضاً بالاضطراب الواضح في متونها، بالاضافة إلى ضعف روايات الكتب التي روتها، كروايات البحار للمجلسي، وروايات التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام ، وروايات الخرايج للرواندي. .[٢].

ومهما يكن من أمر فإنّ ظواهر الأُمور تدل على أنَّ الإقدام على مثل هكذا جريمة شنعاء؛ من خلال استهداف القيادة الإسلامية المتمثلة في شخص رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقدم عليها شخص أو أشخاص إلاّ ولهم مصلحة دنيوية يطمحون إليها، أو من الحاقدين والمبغضين، أو لهم عداوات قديمة. . وأين الأنصار من كلِّ هذه الأُمور؟ وأين هؤلاء النفر الذين تذكرهم الروايات والذين لم يكن لهم أي أثر اجتماعي أو سياسي يذكر من هذا الأمر الخطير الذي قد يكلفهم حياتهم!!

ثمّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يكن ليعمد إلى إخفاء أسماء هؤلاء، إلاّ لكونهم من الشخصيات المعروفة في أوساط المسلمين، «وذكر أسمائهم كان يورث مفاسد اجتماعية من تفريق وحدة المسلمين، أو الفتّ في عضدهم أو جرأة الاعداء عليهم، وليس ذلك في هؤلاء المذكورين أبداً»[٣] .

فمن المرجح جداً أن يكون الذين عزموا على هذه الجريمة من أصحاب الطموحات السياسية والدنيوية ويعملون للوصول إليها بعد رسول الله صلى الله عليه وآله فارادوا

---

(١) السيوطي، الدر المنثور: ٤ / ٢٢١ .

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ٢١ / ٢٢٣، والتفسير المنسوب إلى الإمام العسكري: ٣٨٠ - ٣٨٩، الحديث ٢٦٥ .

(٣) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ١ / ٦٠١ .

التخلص منه باغتياله، وأنهم كانوا من الوجوه الاجتماعية والسياسية المعروفة وليسوا من الخاملين في المجتمع! وقد يكون من بين الذين أقدموا على التلبس بهذه الجريمة وتنفيذها من المستأجرين لتلك الوجوه الاجتماعية والسياسية.

هذه خلاصة قصة محاولة اغتيال رسول الله ﷺ عند عودته من تبوك، ولنا عودة لهذه القصة للتأمل في بعض مفرداتها واستلهام الدروس والعبر منها.

الحادثة الثانية: هدم مسجد ضرار:

مرّ بنا في الدرس السابق بعض أوجه نشاط المنافقين في هذه الغزوة والتي كانت تستهدف ضرب وحدة المسلمين من خلال مؤسساتها الدينية والتي يمثل المسجد أبرز معالمها.

وقصة مسجد ضرار التي ذكرها القرآن الكريم، وفصل الحديث عنها المؤرخون يمثل حلقة في هذا الاتجاه الجديد للمنافقين.

ومن خلال التأمل في النص التاريخي الذي يحكي لنا قصة بناء هذا المسجد نلاحظ أن اقدام المنافقين على هذا اللون الجديد من التخريب في الوسط الإسلامي لم يكن عفوياً وبمحض الصدفة! وإنما انطلق هذا العمل من خلال تخطيط وأهداف واضحة، رسمها أبو عامر الراهب، والذي سماه رسول الله بالفاسق، وقام بتنفيذها زمرة من المنافقين ذكرت الروايات أسماءهم.

فعن خلفيات ودوافع وأهداف بناء مسجد ضرار يحدثنا النص التاريخي المروي عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا . . .﴾[1] قال: هُم أُناسٌ من الأنصار ابتنوا مسجداً فقال لهم أبو عامر: «ابنوا مسجدكم، واستمدّوا ما استطعتم من قوة ومن سلاح، فإني ذاهبٌ إلى

(١) التوبة: ١٠٧ .

قيصر ملك الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخرج محمداً وأصحابه. . .»[١].

وفي رواية الواقدي عن عاصم بن عديّ قال: «وقيل لعاصم بن عَديّ: ولِمَ أرادوا بناءَهُ - أي مسجد ضرار -؟ قال: كانوا - أي المنافقين - يجتمعون في مسجدنا، فإنما هم يَتناجون فيما بينهم ويَلتفت بعضهم إلى بعض، فيلحظهم المسلمون بأبصارهم، فشقَّ ذلك عليهم وأرادوا مسجداً لا يُغشاهم فيه إلاّ مَن يريدون ممَّن هو على مثل رأيهم. . .».

وفي نص آخر له قال الراوي: «وكانوا إنما بَنوه، قالوا بينهم: يأتينا أبو عامر فيتحدّث عندنا فيه، فإنّه يقول: لا أستطيع آتي مسجد بني عمرو بن عوف، إنما أصحاب رسول الله يلحظوننا بأبصارهم. .»[٢].

ومن خلال ضمّ هذه الروايات بعضها إلى بعض يتبين لنا بوضوح خلفيات وأهداف بناء هذا المسجد، ولهذا وصف الله سبحانه هذا المسجد بوصف ينطبق تمام الانطباق على الأهداف التي بُني من أجله فسمّاه «ضراراً» في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي إنه أسس وأُنشئ لهذا الهدف، في مقابل ذلك المسجد الذي: (أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْم. . .)[٣].

ثمّ إن الوقت الذي اختاره المنافقون لبناء هذا المسجد يدل على دقة تخطيطهم واحتياطهم للأمر! فهم اختاروا وقت انشغال رسول الله ﷺ في الاستعداد للخروج إلى تبوك، مما يعني تفويت الفرصة على النبي ﷺ والمسلمين للتحقيق في أمر القائمين على بناء هذا المسجد، وصدق نواياهم وخلفياتهم التي

---

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ٣ / ٦٨٥ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٤٦ و ١٠٤٨ - ١٠٤٩ .

(٣) التوبة: ١٠٧ - ١٠٨ .

انطلقوا منها.. فتمّ لهم بناء المسجد في زحمة الحدث المهم، وتحت ستار الانشغال بتجهيز جيش تبوك.

كذلك نجد الدقة والتخطيط الماكر في الاعلان عن هدف بناء هذا المسجد، ومحاولة كسب شرعيته من خلال طلبهم من النبيﷺ الصلاة فيه!

روى الواقدي، وابن إسحاق: «وكان أصحاب مسجد الضِّرار قد كانوا أَتوه - أي النبيﷺ - وهو يتجهّز إلى تبوك، فقالوا: يا رسول الله - إنّا رُسُل مَن خَلفَنا من أصحابنا - إنّا قد بنينا مسجداً لذي العِلّة والحاجة والليلة المطيرة والليلة الشاتية! وإنّا نُحبُّ أن تأتينا، فتصلّي لنا فيه! ورسول الله يتجهّز إلى تبوك - فقالﷺ: (إنّي على جَناح سَفر، وحالِ شُغل، ولو قَدمنا إن شاء الله لأتيناكم، فصلَّينا لكُم فيه»)[1].

ويروي الواقدي أسماء الوفد الذي جاء لرسول اللهﷺ ليعلن له بناء المسجد ويطلب منه الصلاة فيه ومن هؤلاء عبد الله بن نبتل بن الحارث، الذي كان مكشوفاً لدى المسلمين نفاقه!

يروي الواقدي عن عاصم بن عديّ يقول: «كنّا نتجهّز إلى تبوك مع النبيﷺ، فرأيتُ عبد الله بن نَبتل، وثعلبة بن حاطب قائمين على مسجد الضِّرار، وهما يصلحان ميزاباً قد فرغا منه، فقالا: يا عاصم، إنّ رسول اللهﷺ قد وعدنا أن يصلّي فيه إذا رجع! يقول عاصم: فقلتُ في نفسي: والله، ما بنى هذا المسجد إلاّ منافقٌ معروفٌ بالنِّفاق، أسسهُ أبو حبيبة بن الأزعر، وأُخْرِج من دار خذام بن خالد، ووديعة بن ثابت، في هؤلاء النفر!.. فوالله ما رجعنا من سفرنا حتى نزل القرآن بذمّه، وذمّ أهله الذين جمعوا في بنائه وأعانوا فيه..»[2].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٩، والواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٢٦، وابن قيم، زاد المعاد: ٣ / ٦٨٥.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٤٨.

أما عن كيفية هدم مسجد الضِّرار هذا، فيحدثنا ابن إسحاق والواقدي: «ثمّ أقبل رسول الله ﷺ حتى نزل بذي أُوان - بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار - أتاهُ خبر المسجد - وَخَبر أهله من السماء - فدعا رسول الله ﷺ مالك بن الدّخشم، ومَعن بن عديّ، أو أخاه عاصم بن عديّ، فقال ﷺ: انطلقا إلى هذا المسجد الظالمُ أهله فاهدماهُ ثمّ حرِّقاه! فخرجا سريعين حتى أتيا بني سالم بن عوف، وهم رهط مالك بن الدَّخشم، فقال مالك لمعن: أُنظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل إلى أهله، فأخذ سعفاً من النخل، فاشعل فيه ناراً، ثمّ خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله، فحرّقاه وهدّماه، وتفرقوا عَنه، ونزل فيهم من القرآن ما نزل: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾»[1].

وهكذا حَسمَ رسول الله ﷺ أمر هذا المسجد، واقتلع الفتنة من جذورها.

٦ - رسول الله ﷺ في المدينة، وقصة الثلاثة الذين خلفوا..

قدم رسول الله ﷺ المدينة في رمضان سنة تسع[2]، بعد أن حقّق جميع الأهداف التي خرج من أجلها إلى تبوك كما سوف يأتينا في بيان نتائج الغزوة.

ويروى أن أهل المدينة خرجوا لاستقبال رسول الله ﷺ إلى ثنية الوداع، ولما قدم النبي ﷺ، المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن:

طلع البدرُ علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكرُ علينا ما دعا لله داع

وعن أبي حميد السعدي، قال: أقبلنا مع رسول الله ﷺ من غزوة تبوك

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٤٦، وابن هشام: ٤ / ٥٢٩ - ٥٣٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٥٦ .

حتى إذا أشرفنا على المدينة، قالﷺ : «هذه طابة، وهذا أُحدٌ جبلٌ يُحبنا ونحبه»[١].

وقد ذكرنا في الدرس السابق أصنافاً من الذين تخلفوا عن رسول اللهﷺ في هذه الغزوة، ولكلِّ صنف من أُولئك المخلفين سبب في تخلّفه.

فمنهم من تخلّف لعذر وهم البكاؤون وأصحاب الاعذار، أو المأمورون بالبقاء في المدينة كالإمام علي بن أبي طالبعليه السلام ، فهؤلاء عزَّ عليهم أن يتخلفوا عن الجهاد بين يدي الله ورسوله، فكانت قلوبهم ونياتهم برفقة رسول الله في رحلته وإن لم يصحبوه بأبدانهم.

ففي رواية أنس بن مالك: «أنَّ رسول اللهﷺ لما رجع من غزوة تبوك حتى دنا من المدينة قال: إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرتُم من مسير، ولا قطعتم من واد إلاّ كانوا معكم فيه، قالوا: يا رسول الله! وهم بالمدينة؟ قال: نعم، وهم بالمدينة، حبسهم العذر»[٢].

وفي رواية الواقدي: «وقدم رسول اللهﷺ المدينة.. فقال: الحمدُ لله على ما رَزقنا في سفرنا من أجر وحسنة، ومَن بَعدنا شركاؤنا فيه. فقالت عائشة: يا رسول الله، أصابكم السفر وشدّة السفر، ومَن بَعدكم شركاؤكم فيه؟ فقال رسول اللهﷺ : إنّ بالمدينة لأقواماً ما سرنا من مسير ولا هبطنا وادياً إلاّ كانوا معنا، حبسهم المَرض، أو ليس الله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً﴾[٣] فنحن غُزاتهم وهم قَعدتُنا، والذي نفسي بيده، لدعاؤهم انفذ في

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٦٥ - ٢٦٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٥ / ٢٦٧، وروى الحديث البخاري، وأبو داود، والإمام أحمد في المسند، وابن ماجة . . . كما في هامش الصفحة من المصدر .

(٣) التوبة: ١٢٢ .

عدونا من سلاحنا»[١].

«بهذه المواساة الرقيقة كرّم النبيﷺ الرجال الذين شيَّعوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم، فأصلح بالهم وأزاح هماً ثقيلا عن أفئدتهم. أما المنافقون من مؤملي الشر ودعاة الهزيمة، والأعراب الذين اعتبروا الإسلام نكبة حلّت بهم، فهم يتربصون الدوائر بأهله! أما هؤلاء وأُولئك فأمامهم عناء طويل»[٢].

وعمد رسول اللهﷺ إلى الذين تخلّوا عن هذه الغزوة بلا عذر، فضرب عليهم عزلة اجتماعية خانقة كانت أشدّ عليهم من وقع السيف والقتل، وذلك من أجل أن يؤدبوا الأدب الذي يردعهم ويردع أمثالهم حتى يرعووا: «فالذين يضعفون ويتخلفون يجب نبذهم بعيداً عن الصف، وقاية له من التخلخل والهزيمة. والتسامح مع الذين يتخلفون عن الصف في ساعة الشدة، ثمّ يعودون إليه في ساعة الرخاء، جناية على الصف كلّه، وعلى الدعوة التي يكافح في سبيلها كفاحهُ المرير»[٣].

يروي الواقدي عن طريق كعب بن مالك، قال: «... وصبّح رسول اللهﷺ المدينة، وكان إذا قدم من سَفر بدأ بالمسجد فركع فيه ركعتين ثمّ جلس للناس، فلمّا فعل ذلك جاءه المخلّفون، فجعلوا يعتذرون إليه ويحلفون له، وكانوا بضعة وثمانين رجلا، فقبل منهم رسول اللهﷺ علانيتهم وأيمانهم، ويكل سرائرهم إلى الله تعالى».

قال الواقدي: ويقال من غير حديث كعب: «إنّ رسول اللهﷺ لما نزل بذي أوان، خرج عامّة المنافقين الذين كانوا تخلّفوا عنه، فقال رسول اللهﷺ :

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٦ - ١٠٥٧، والمقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ٧٩ .

(٢) الغزالي، فقه السيرة: ٤١٠ .

(٣) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤ / ٢٦٥ .

«لا تكلّموا أحداً منهم تخلّف عنّا ولا تجالسوه حتى آذن لكم»، فلم يكلّموهم، فلمّا قدم المدينة جاءه المعذّرون يحلفون له، وأعرض عنهم، وأعرض المؤمنون عنهم، حتى أنّ الرجل ليُعرض عن أبيه وأخيه وعمّه، فجعلوا يأتون النبيّ ﷺ ويعتذرون إليه بالحُمّى والأسقام! فيرحمهم رسول الله ﷺ فيقبل منهم علانيتهم وأيمانهم، وحلفوا فصدّقهم واستغفر لهم، ويَكل سرائرهم إلى الله عزّ وجل»[١].

ومن الواضح أنّ هذه النصوص تشير إلى عودة قسم من المخلّفين إلى رسول الله للاعتذار منه، وليس جميع من تخلّف عنه في هذه الغزوة، والذي كان عددهم يفوق «عدد البضعة والثمانين رجلا» الذي تذكره الرواية، وذلك بملاحظة تخلّف عبد الله بن أُبي ومن معه والذي قيل عن عسكره بأ نّه «ليس بأقل العسكرين» أي إنه كان يوازي عدد العسكر الذي خرج مع رسول الله!

إلاّ أنّ ابن حزم قد ناقش في قول من قال بأن عسكر ابن أُبي لم يكن أقل العسكرين: وقال: «هذا باطل، لأنّه لم يتخلف معه إلاّ ما بين السبعين إلى الثمانين قط»[٢].

ومهما يكن من أمر فحتّى لو شككنا في رواية عدد العسكر من المتخلفين مع ابن أُبي عن تبوك، فلا نشك بأن رقعة التخلّف عن هذه الغزوة كانت واسعة جداً؛ وشملت أفراداً وقبائل وجماعات كثيرة!

ولهذا نجد القرآن الكريم يولي هذه القضية عناية فائقة من خلال سورة التوبة؛ التي تحدثت أكثر آياتها عن المنافقين والمتخلفين وأَنَّبتهم على نفاقهم

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٣، والمقريزي، إمتاع الأسماع: ٢ / ٨٠ .

(٢) انظر ابن حزم الأندلسي، جوامع السيرة: ١٩٨، طبعة دار ابن كثير، دمشق - بيروت، طبعة الثانية، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م) .

وتخلفهم، وبيّنت للنبيﷺ وللمسلمين المؤمنين أخطارهم وكيفية التعامل معهم كما سوف يأتينا لاحقاً.

قصّة الثلاثة الذين خلّفوا:

نصَّ القرآن الكريم وضمن سياق آيات سورة التوبة على الثلاثة الذين خُلِّفوا في قوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾﴾[1].

وحيث إنّ القرآن الكريم لم ينص على أسماء هؤلاء الثلاثة ولم يدخل في بيان جزئيات وسبب تخلفهم - كما هو منهج القرآن الكريم في بيان العمومات والكليات - فإنّ النصوص التاريخية وروايات أسباب النزول قد استوفت لنا بالشرح والتفصيل قصة أُولئك النفر.

فروى ابن إسحاق فقال: «وقدم رسول اللهﷺ المدينة، وقد كان تخلّف عنه رهطٌ من المنافقين، وتخلّف أُولئك الرهط الثلاثة من المسلمين من غير شكّ ولا نفاق: كعب بن بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أُميّة، فقال رسول اللهﷺ لأصحابه: «لا تكلّمنَّ أحداً من هؤلاء الثلاثة»، وأتاهُ من تخلَّف عنه من المنافقين فجعلوا يَحلفون له ويعتذرون، فصفح عنهم رسول اللهﷺ، ولم يعذرهم الله ولا رسوله، واعتزل المسلمون كلام أُولئك النفر الثلاثة»[2].

ويحدثنا الواقدي بشيء من التفصيل عن قصة تخلف أُولئك النفر فيقول:

---

(١) التوبة: ١١٧ - ١١٨.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣١، والمقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ٧٩.

«قالوا: وتخلّف نفرٌ من المسلمين، أبطأت بهم النِّية عن رسول الله ﷺ من غير شكٍّ ولا ارتياب، منهم: كعب بن مالك، وكان كعب يقول: كان من خبري حين تخلّفتُ عن تبوك أني لم أكُ قطُّ أقوى ولا أيسر منّي حين تخلفتُ عنه في تلك الغزوة، فتجهز رسول الله ﷺ، وتجهّز المسلمون معه، وجعلتُ أعدو لا أتجهّز معهم فأرجع ولم أقض حاجةً..، فلم أزل يتمادى بي حتى أسرعوا.. وقلت: ارتحل فأدركهم، ويا ليتني فعلتُ! ولم أفعل، وجعلتُ إذا خرجتُ في الناس فطفتُ فيهم يَحزنني ألاّ أرى إلاّ رجلا مغموصاً عليه بالنفاق، أو رجلا ممّن عذّر الله. ولم يذكرني رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك، فقال وهو جالس في القوم: ما فعل كعب بن مالك؟ فقال رجل من بني سَلمة: يا رسول الله، حبسه بُرادهُ والنظر في عطفيه، فقال معاذ بن جبل: بئسما قلت! والله ما علمنا عليه إلاّ خيراً..»[1].

وعن قصة تخلف هلال بن أُمية، ومرارة بن الربيع، يروي الواقدي عن الأول قوله: «والله ما تخلّفت شكّاً ولا ارتياباً، ولكن كنتُ مُقوياً في المال، قلتُ: اشتري بعيراً. ولقيني مرارة بن الرَّبيع، فقال: أنا رجلٌ مقو، فابتاع بعير وأنطلق به، فقلتُ: هذا صاحبٌ أُرافقه، فجعلنا نقول: نغدو فنشري بعيرين فنلحق بالنبي ﷺ، ولا يفوت ذلك.. فلم نزل ندفع ذلك ونؤخّر الأيام حتى شارف رسول الله ﷺ البلاد..»[2].

والذي يبدو من خلال هذا المقطع من النص التاريخي أنّ هؤلاء الثلاثة لم يكونوا من المنافقين ولا من ذوي الاعذار.. وإنما كان تخلفهم بسبب التساهل والتسامح والتسويف كما هو ظاهر من روايتهم لقصة تخلفهم عن هذه الغزوة!

أما قصة توبتهم فهي مرويّة باسهاب في الكتب الروائية والتاريخية والراوي

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٩٧ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٩٩٧ - ٩٩٨ .

المباشر لها هو «كعب بن مالك» نفسه، الذي احتل المساحة الواسعة في هذه القصة وترك هامشاً صغيراً لصاحبيه في نهايتها، وفيما يلي مختصر موجز لهذه القصة من حين لقاء كعب بن مالك برسول الله ﷺ بعد عودته من تبوك إلى حين نزول آيات توبته وبرواية المقريزي في الإمتاع:

قال: «وجاء كعب بن مالك إلى رسول الله ﷺ وهو جالس في المسجد، فلمّا سلم عليه تبسَّمَ تبسُّم المُغضب ثمّ قال: تعالَ! فجاء فجلس بين يديه، فقال: ما خلفك؟ ألم تكن ابتعتَ ظهرك[1]! فقال - كعب -: بلى يا رسول الله ﷺ، والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أنّي سأُخرج من سخطه بعذر، لقد أعطيتُ جدلا، ولكن والله لقد علمتُ لئن حدثتك اليوم حديثاً كاذباً لترضى عني، ليوشكنَّ الله أن يسخط عليَّ، ولئن حدثتك اليوم حديثاً صادقاً تجد[2] عليَّ فيه، إني لأرجو عقبى الله فيه. لا والله ما كان لي عذرٌ! والله ما كنتُ أقوى ولا أيسر مني حين تخلفتُ عنك!

فقال ﷺ: أمّا أنت فقد صدقت! فقُم حتى يقضي الله فيك.

فقام ومعه رجال من بني سلمة، فقالوا له: والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا! ولقد عجزت ألا تكون اعتذرت بما اعتذر به المخلّفون، قد كان كافيكَ ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك. حتى كاد أن يرجع فيكذِّب نفسه، فلقيه معاذ بن جبل وأبو قتادة فقالا له: لا تطع أصحابك وأقم على الصدق، فإنّ الله سيجعل لك فرجاً ومخرجاً إن شاء الله تعالى، فأما هؤلاء المعذرون، فإن كانوا صادقين فسيرى الله ذلك ويُعلم نبيه، وإن كانوا غير ذلك يذمهم أقبح الذم ويكذِّب حديثهم.

---

(١) الظهر: الركاب التي تحمل الأثقال.

(٢) تجد: أي تغضب (النهاية).

فقال لهم: هل أتى هذا أحد غيري؟ قالا: نعم! رجلان قالا مثل مقالتك، وقيل لهما مثل ما قيل لك! قال: من هما؟ قالا: مرارة بن ربيع العمري، وهلال بن أُمية الواقفيّ.

ونهى رسول الله ﷺ عن كلام الثلاثة من بين من تخلّف عنه، فاجتنبهم الناس وتغيّروا لهم، حتى تنكّرت لهم أنفسهم، فلبثوا على ذلك خمسين ليلة.

وقد قعد مرارة وهلال في بيتيهما، وكان كعب يخرج فيشهد الصلوات الخمس مع المسلمين ويطوف بالأسواق فلا يكلّمه أحد. ويأتي رسول الله ﷺ - وهو في مجلسه بعد الصلوات - فيسلم عليه ويصلّي قريباً منه يُسارقه النظر وهو معرض عنه.

.. فلما مضت أربعون ليلة بعث إليه رسول الله ﷺ - وإلى هلال بن أُمية ومرارة ابن الربيع - يأمرهم أن يعتزلوا نساءهم، فقال كعب لامرأته: ألحقي بأهلك فكوني عندهم حتى يقضي الله في هذا الأمر ما هو قاض!!

وبكى هلال بن أُمية وامتنع عن الطعام وواصل اليومين والثلاثة ما يذوق طعاماً.. ويصلي الليل ولم يخرج من بيته لأنّ أحداً لا يكلّمه.. وجاءت امرأته فقالت: يا رسول الله، إنّ هلال بن أُمية شيخ كبير ضائع لا خادم له، وأنا أرفقُ به من غيري، فإن رأيتَ أن تدعني أخدُمهُ فعلتُ! قال ﷺ: نعم، ولكن لا تدعيه يصل إليك...

فلما كملت خمسون ليلة - وهم كما قال الله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ - أنزل الله توبتهم بقوله تعالى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ..﴾ ثمّ قوله: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ...﴾ الآيات»[1].

(١) المقريزي، امتاع الاسماع: ٢ / ٨٠ - ٨٢، وتجد الرواية بتفاصيلها الأُخرى في أغلب المصادر التاريخية وكتب الرواية والأثر.

هذه هي خلاصة للخلاصة التي ذكرها المقريزي لقصة الثلاثة الذين خلفوا، وقد حذف المقريزي من القصة، رسالة ملك غسان لمالك والتي ذكرها أغلب المؤرخين وذكرناها في الدرس السابق كشاهد على نفوذ الروم ومتابعتهم لأخبار المسلمين في المدينة!

وخلاصة الأمر في أصناف الذين خلفوا في المدينة في غزوة تبوك:

الصنف الأول: المعذرون الصادقون وأصحاب المهام الخاصة.. فهؤلاء قد شاركوا المجاهدين في ثواب جهادهم.

الصنف الثاني: المعذرون الكاذبون، أعرض عنهم رسول الله ﷺ أولا، ثمّ قبل ظاهر عذرهم وأُوكل سرائرهم إلى الله.

الصنف الثالث: المنافقون، فهؤلاء لم يعتذر القسم الأكبر منهم، ومن اعتذر منهم كاذباً عاملهم النبي ﷺ معاملة القسم الثاني.

الصنف الرابع: المخلفون المرجون لأمر الله، ومصداقه هؤلاء الثلاثة الذين تاب الله عليهم.

وقد روى الواقدي وابن إسحاق عن كعب بن مالك قوله: «وكنّا خُلِّفنا الثلاثة عن أمر هؤلاء الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا فعذرهم، واستغفر لهم، وأرجأ رسول الله ﷺ أمرنا حتى قضى الله فيه ما قضى، فبذلك قال الله عزّ وجل: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾، قال - كعب -: ليس عن الغزوة، ولكن بتخليفه إيّانا، وإرجائه أمرنا عمّن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه»[1].

ومهما يكن من أمر التفسير الذي ذكره كعب بن مالك للآية القرآنية والتي قد يقال إنه خلاف ظاهر الآية، فإنّ هنالك ما يدعو للتساؤل في شأن هؤلاء

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٢٧ .

الثلاثة، فما هي الخصوصية كانوا يتمتعون بها حتى تعامل معهم النبيﷺ بهذه الكيفية؟

وبتعبير آخر، إنّ غزوة تبوك قد سجلت لنا تخلف طبقة واسعة عن قافلة المجاهدين، بعضهم لعذر، وبعضهم من دون عذر، والقسم الثاني منهم قد خالفوا أمر رسول اللهﷺ فأصبحوا من العصاة لله ولرسولهﷺ ، وبعد انتهاء الغزوة وعودة رسول اللهﷺ إلى المدينة، قاطعهم رسول اللهﷺ والمسلمون ولم يكلموهم.. فجاؤوا واعتذروا.. فقبل رسول اللهﷺ ظاهر عذرهم وأَوكل سرائرهم إلى الله. إلاّ هؤلاء الثلاثة، فلم يعذرهم النبيﷺ ، ولا استغفر لهم، ولا رحمهم.. وإنما شدّد عليهم وضرب عليهم عزلة اجتماعية خانقة، كانت عليهم أشد من القتل! مع أن كعباً وصاحبيه لم يكذبوا على رسول اللهﷺ وإنما اعترفوا بتخلفهم لا لعلة وإنما عن تسويف وتقصير وتماهل!!

ففي الوقت الذي نجد رسول اللهﷺ يقبل عذر غيرهم مع اعذارهم الواهية وكذبهم الواضح. نجده يضيق على هؤلاء الثلاثة مع صدقهم فيما قالوا لرسول اللهﷺ من سبب تخلّفهم! فهل كان جزاء صدقهم أن يعاملوا بهذا اللون من الشدة؟

قد يقال إن ما قام به رسول اللهﷺ اتجاه أُولئك الثلاثة كان بأمر من الله سبحانه ليمحص ايمانهم بالتوبة والندم! ولهذا قال رسول اللهﷺ لكعب: «أمّا أنت فقد صدقت، فقُم حتى يقضي الله فيك» وقد نقل إنهﷺ قالها لصاحبيه أيضاً.

وقد تكون هنالك خصوصية في أُولئك الثلاثة دون سواهم ممن تخلّف عن هذه الغزوة، فكعب بن مالك من المسلمين الأوائل، ومن أهل بيعة العقبة، ولم يتخلّف عن غزوات رسول اللهﷺ إلاّ في بدر - التي لم يعاتب الله ولا رسوله أحداً ممن تخلّف عنها - بالاضافة إلى كونه شاعر رسول اللهﷺ الذي كان يذود

عن رسول الله ﷺ وعن الإسلام بلسانه وشعره، وقد يكون اهتمام ملك غسان به وارسال رسول إليه يدل على مكانة كعب الدينية والاجتماعية.

أما صاحباه، «مرارة بن الربيع، وهلال بن أُمية» فهما رجلان صالحان ومن أهل السابقة في الإسلام والجهاد وقد شهدا بدراً..[1].

ولا نتصور أن أحداً من المخلفين في هذه الغزوة - من دون عذر - كان له خصوصيات ومزايا أُولئك الثلاثة! ولهذا نجد الرواية تصف أُولئك الثلاثة بأنهم «كانوا نفر صدق لا يتهمون في إسلامهم».

فإذا كانوا بهذه المثابة فإنّ تخلفهم عن الغزوة ليس كتخلف غيرهم من الذين لم يعبأ النبي ﷺ بتخلفهم وكان ﷺ يقول - لمن يقول له: يا رسول الله تخلّف فلان - «دعوهُ، فإن يك فيه خيراً فسيلحقه الله بكم، وإن يكُ غير ذلك فقد أَراحكم الله منه». فهؤلاء الثلاثة من المسلمين الأوائل، ومن البدريين ومن أهل بيعة العقبة وتخلفهم عن الجهاد بلا عذر وجيه، سوف يسري عَدواه إلى بقية المجاهدين ممن هم أقلّ شأناً منهم، ولهذا كان على النبي ﷺ أن يؤدبهم بالأُسلوب الحكيم الذي اختاره ﷺ في تأديبهم ليضمن عودتهم إلى استقامتهم وثباتهم الذي كانوا عليه من خلال توبتهم، وهذا هو الذي حصل حيث تابوا، وتاب الله عليهم، وهو التواب الرحيم.

هذه هي قصة الثلاثة الذين خلفوا كما رواها أحدهم، ونقلها عنه المؤرخون والمفسرون ودونوها في كتبهم وتفاسيرهم، وفي قصتهم دروس وعبر سوف نتوقف عند بعضها لاحقاً.

فلاينبغي أن نحمّل نصوص هذه القصة من الاسقاطات والتأويلات البعيدة التي تخرج بها عن سياقها التاريخي، ونكتب بخط عريض: بأنّ هؤلاء «الثلاثة لم

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٤ (الهامش).

يتوبوا»! لأنّ الآية قد اكتفت بقوله: ﴿ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ﴾! وهل أنّ الله، قبل توبتهم أم لم يقبلها؟!

ثمّ نخرج بنتيجة عجيبة مفادها التشكيك في صحة توبة كعب بن مالك! ونقول: «إذ لو كان قد تاب فعلا، وكان الله قد قبل توبته لجاءت الآية هكذا: ثمّ تاب عليهم ليتوبوا، فلما تابوا قبل توبتهم.. ولكن الله لم يقل ذلك!»[١]، مؤيّدين استنتاجنا بالروايات المرسلة والضعيفة بالاضافة الى عدم وثاقة الكتب التي حوتها! مع وانعدام التأني والتروي، بل عدم التقوى في اصدار الأحكام القاسية المسبقة وتحميلها على النصوص! متناسين كل كلمات المؤرخين والمفسرين التي تنص على توبتهم وقبولها؛ وتبشيرهم بها من قبل النبيﷺ!

وقبل أن نودع قصة الثلاثة الذين خلفوا وأصحابها ينبغي أن نشير إلى أن قصتهم قد تشابكت واختلطت في بعض النصوص بقصة أبي لبابة وتوبته[٢]، التي أشرنا إليها في غزوة بني قريظة.

والذي يبدو من خلال سياق النص القرآني الذي تحدث عن «الثلاثة الذين خُلِّفوا» أنّ قصتهم لا تنطبق على قصة أبي لبابة وخيانته وتوبته التي ذكرناها في محلّها.

٧ - ما نزل من القرآن في غزوة تبوك

لقد حدثنا القرآن الكريم وفي كثير من سوره وآياته عن بعض غزوات رسول اللهﷺ مع بيان لبعض ملابساتها وأحداثها ونتائجها ومعطياتها، إلاّ أننا قد لا نجد غزوة من هذه الغزوات - رغم أهمية بعضها - قد حظيت بهذه المساحة الواسعة من

---

(١) انظر ما كتبه السيد جعفر مرتضى العاملي في كتابه الصحيح من سيرة النبي الاعظم: ٢٩ / ٢١١ - ٢٥٧ حول قصة الثلاثة . . وما نقلناه أعلاه جزء من كلامه حول القصة .

(٢) انظر: البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٧٠ - ٢٧٢ .

الآيات المباركة كما حظيت به غزوة تبوك! مع أن هذه الغزوة لم يكن فيها قتال!

وينص المفسرون[١] للقرآن الكريم والمؤرخون على أن القسم الأكبر من سورة التوبة (براءة) قد نزلت بعد هذه الواقعة، لتحدثنا عن ملابساتها وتعرض لنا أحداثها، وترسم لنا معالمها، ثمّ تنبهنا إلى الدروس والعبر التي ينبغي أن تستخلص منها.

وبما أن حركة النفاق والمنافقين قد ظهرت مرّة أُخرى في هذه الغزوة وبشكل واسع وضمن حركة تخريبية متعددة الاشكال والصور.. جاءت الآيات الكثيرة في هذه السورة «في فضح المنافقين وأفاعيلهم في المجتمع المسلم، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم في غزوة تبوك وقبلها وفي أثنائها وما تلاها وكشف حقيقة نواياهم وحيلهم ومعاذيرهم في التخلف عن الجهاد وبث الضعف والفتنة والفرقة في الصف، وإيذاء رسول الله ﷺ والخُلص من المؤمنين. يصاحب هذا الكشف تحذير الخلصاء من المؤمنين من كيد المنافقين، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء، والمفاصلة بين الفريقين وتمييز كل منهما بصفاته وأعماله..»[٢].

ولهذا ذكر المفسرون أن لسورة التوبة أو براءة، أسماء وصفات أُخرى مستوحاة من الأحداث والوقائع التي تحدثت عنها آياتها، فسميت: «الفاضحة، وسورة العذاب، والمقشقشة، والمنفِّرة، والبَحُوث، والحافرة، والمثيرة، والمبعثرة، والمخزية، والمنكِّلة، والمشدّدة...»[٣] ولكل من هذه الأسماء والصفات التي أطلقت على هذه السورة مناسباتها إذ إنها تشير لأهم ما اشتملت

---

(١) انظر: أسباب النزول للواحدي: ١٦٦ وما بعدها، والواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٢٢ - ١٠٢٥، ١٠٦٠ - ١٠٧٦.

(٢) سيد قطب، في ظلال القرآن: ٤ / ٨٥.

(٣) انظر: السيوطي، الاتقان في علوم القرآن: ١ / ١٩٢ - ١٩٣، وابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير: ١٠ / ٦.

عليه السورة من أحداث.

يقول الواقدي: «وكشفت «براءة» عنهم - أي عن الذين أبطأُ عن غزوة تبوك - ما كان مستوراً، وأبدت أضغانهم ونفاق من نافق منهم».

وعن ابن إسحاق: «وكانت براءة تسمى في زمان النبيﷺ وبَعده المبعثرة، لما كشفت من سرائر الناس»[١].

وينص المؤرخون[٢] على أن ما نزل من سورة التوبة في شأن غزوة تبوك يبدأ من قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ . . .﴾ إلى آخر السورة في قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُۖ وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ ١٢٩﴾[٣].

ولا يسعنا أن ندخل في الاستعراض الاجمالي فضلا عن البيان التفصيلي لهذه الآيات المباركة، ونكل ذلك إلى كتب التفسير التي استوعبت هذه الآيات الكريمة بالبحث التفصيلي لها من حيث معانيها ولغتها ومناسباتها، ومنهج القرآن الكريم في عرض أحداثها[٤].

٨ - من آثار ونتائج غزوة تبوك

لم تقع في هذه الغزوة أيّ مواجهة قتالية مع جيش الروم، سوى ما حصل

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٢٢، ١٠٦٠، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٥٤ .

(٢) انظر: الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٦٠ - ١٠٧٦ .

(٣) التوبة: ٣٨ إلى الآية ١٢٩ .

(٤) للتوسع انظر كتب التفسير الآتية، في ظلال القرآن سيد قطب، تفسير المنار لمحمد رشيد رضا، وتفسير الأمثل لمكارم شيرازي. بالاضافة إلى تفسير الميزان للطباطبائي، ومجمع البيان للطبرسي.

في سريّة خالد بن الوليد إلى الأُكيدر حيث تعد هذه السرية من توابع هذه الغزوة، إلاّ أنّ هذه الغزوة كانت لها آثارها ونتائجها الآنية والمستقبلية، على الصعيدين السياسي والعسكري، بالاضافة إلى آثارها المهمة في الوسط الاجتماعي والديني للمجتمع المدني.

ومن أهم هذه الآثار والنتائج التي يمكن أن نشير إليها هي:

أولا: كسر حاجز الخوف عند المسلمين:

وقد أشرنا إلى هذه المسئلة في ثنايا حديثنا عن أسباب التباطؤ والتردد عند المسلمين في هذه الغزوة وقلنا أن سببها الحقيقي لا يكمن في كونها جاءت في وقت غير مناسب حيث الحرّ الشديد، وأوان ظهور الاثمار.. وإنما كان السبب يكمن في حالة الخوف والتهيب، أو الهزيمة النفسية من مواجهة الروم وحلفائهم من نصارى العرب في الشام، لما كان للروم من بأس وسمعة تاريخية بين أهل الجزيرة.

فأراد رسول الله ﷺ أن يكسر حاجز الخوف هذا، وأن يزيل من نفوس المسلمين الهزيمة النفسية وحالة التهيب والوجل من مواجهة الروم وجيش بني الأصفر، فكان له ذلك؛ حيث دكت جيوش المسلمين أسوار جيش الروم في الشام من خلال الفتوحات الإسلامية التي جاءت بعد فترة وجيزة من هذه الغزوة المباركة. «فلم يكن العرب يحلمون قبل الرسول ﷺ بأنهم يستطيعون صدّ اعتداء الروم عليهم في عقر دارهم، فأصبحوا «يعتقدون» بعد تبوك بأن في مقدورهم محاربة الروم في بلاد الروم نفسها والقضاء على جيوشهم هناك»[1].

ثانياً: تأمين الحدود الشمالية للجزيرة العربية:

تمكن رسول الله ﷺ خلال مكوثه في تبوك من عقد المحالفات مع سكان

(١) خطاب، الرسول القائد: ٤١٨ .

تلك المنطقة، والتي تشكل نقاط الارتكاز الأساسية التي تربط حدود الجزيرة بحدود بلاد الشام من الجهة الشمالية.

«إنّ نقاط الارتكاز هذه سهّلت مهمّة الفتح الإسلامي على عهد الخلفاء الراشدين، فمنها انطلقت قوات المسلمين إلى الشمال وعليها ارتكزت لتحقيق هدفها العظيم في فتح أرض الشام»[١].

ثالثاً: التمهيد لدخول القبائل العربية الشاميّة في الإسلام:

لقد كانت تسكن بلاد الشام آنذاك قبائل عربية كبيرة كغسان، ولخم، وجذام، وكانت هذه القبائل متحالفة مع الروم وعاملة لها في بلاد الشام، وكانت متخوفة ومترددة في فك ارتباطها وتحالفها بالدولة الرومانية والدخول في الإسلام لما يرون لهذه الدولة من قوة عسكرية ونفوذ واسع.

«فجاء انتصار المسلمين «المعنوي» على الروم - في هذه الغزوة - ليقضي بشكل حاسم على تردد تلك القبائل عن الإسلام.. لذلك أقبلت وفود أكثر تلك القبائل إلى المدينة بعد عودة الرسولﷺ من تبوك إليها معلنة إسلامها، وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجاً، ولهذا سمي هذا العام بعام الوفود»[٢].

رابعاً: اللقاء الفكري بين الإسلام والنصرانية:

يقول الشيخ أبو زهرة: «إنّ تبوك كانت موضع الاتصال الفكري الذي التقت حقائق الإسلام بما عند النصارى، وأصلحت الأفهام وتشفت الأوهام.. وتميزت الحقائق الإسلامية لدى كبراء النصارى، ومن أسلم منهم كان له إسلامه، ومن لم يُسلم كان له عقد الهدنة.. ولعل أبرز اتصال بين مبادئ الإسلام والنصارى

---

(١) المصدر نفسه: ٤١٨.

(٢) المصدر نفسه: ٤١٨ (بتصرف).

مكاتبة قيصر للنبي ﷺ[١] - وكذلك مصالحته عليه السلام مَلك أيلة -»[٢].

خامساً: الكشف عن حقيقة المنافقين وإفشال كيدهم وخططهم:

لقد أوضحت وقائع غزوة تبوك منذ بدايتها إلى حين عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد الفراغ منها، إنّ حركة النفاق في المدينة لم تنتهِ! وإنما تحولت وتطورت من حالتها النفسية والعقديّة، إلى سلسلة من المؤامرات والكيد المدبّر ضد الإسلام والمسلمين، وشخص رسول الله ﷺ .

وقد أشرنا في الدرس السابق إلى أساليب المنافقين الجديدة لتنفيذ كيدهم، والخطوات التي ساروا عليهم في هذا المجال.

وكانت هذه الغزوة وما نزل بشأنها من القرآن الكريم، وما اتخذه النبي ﷺ من مواقف في تعامله مع هؤلاء المنافقين، كلُّ ذلك قد كشف حقيقتهم، وفضحهم على رؤوس الاشهاد، وأفشل خططهم وشلَّ حركتهم، ولكنها لم تقضِ عليهم بشكل كامل! وإنما بقي أُولئك المنافقون يتحينون الفرصة ويبتكرون وسائل الكيد بالمسلمين!

٩ - الدروس والعبر المستفادة من غزوة تبوك

بعد هذا الاستعراض - الموجز - لوقائع غزوة تبوك ونتائجها وآثارها والتي نحاول استيعاب أحداثها من دروس السيرة النبوية، لابد لنا من التوقف عند بعض هذه الوقائع والأحداث لاستخلاص بعض الدروس والعبر منها:

أولا: أهمية الجهاد في سبيل الله:

عندما نستعرض مفردات غزوة تبوك وأحداثها نجدها تمثل قمة الجهاد في

---

(١) انظر نص الرسالة عند ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢٧ - ٢٩، ومحمد حميد الله، مجموعة وثائق العهد النبوي: ١١١ - ١١٤ .

(٢) أبو زهرة، خاتم النبيين: ٢ / ١٣٠٤ - ١٣٠٦ .

سبيل الله تعالى ومن أجل اعلاه كلمته، وكل ما جرى في هذه الغزوة من بدء الاستعداد لها، وإلى حين الانتهاء منها، مروراً بالأحداث اللاحقة لها والتي تعتبر من متمماتها.. يرسخ في أذهاننا ووعينا ووجداننا الأهمية الكبرى لهذه الفريضة الإلهية.

ولهذا نجد النبيﷺ يأمر الجميع بالمشاركة فيها، والبذل والعطاء من أجلها، ومن ثمَّ يجهز ذلك الجيش الجرار وفي تلك الظروف القاسية التي تصفها لنا النصوص التاريخية، ثمّ تلك المقاطعة الاجتماعية للذين تخلفوا عنها... كل ذلك من أجل أن يرسخ في وعي الأُمة أن الجهاد لم ينتهِ بفتح مكة كما تصور بعضهم، بل إنه لم ينتهِ بغزوة تبوك - وهي آخر غزوات الرسولﷺ - كما تصور بعض الصحابة «وجعل المسلمون يبيعون سلاحهم، ويقولون: قد انقطع الجهاد! فجعل القويّ منهم يشتريها لفضل قوّته، فبلغ ذلك رسول اللهﷺ فنهاهم عن ذلك، وقال: لا تزال عصابةٌ من أُمّتي يجاهدون على الحقّ حتى يخرج الدجّال»[1].

وعندما نستعرض آيات القرآن الكريم في تقريرها لأحداث هذه الغزوة نجدها تستنهض همم المسلمين للقيام من أجل الله وفي سبيله، وعدم التثاقل أو التكاسل عن هذه الفريضة الإلهية، فتبدأ الآيات التي ينص المفسرون والمؤرخون على نزولها في هذه الغزوة بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾.

ثمّ يقول تعالى: ﴿ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[2].

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٧.

(٢) التوبة: ٣٨ - ٤١.

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي حوتها سورة براءة والتي تحدثت آياتها عن هذه الغزوة.

فالجهاد بكل ألوانه له أهميته الكبرى، لأنّ فيه عزة وكرامة الأُمة الإسلامية، وهذا ما قررته وأكدت عليه حيثيات وملابسات هذه الغزوة.

ثانياً: مراقبة حركة المنافقين وافشال خططهم:

والذي نلاحظه في هذه الغزوة هو ذلك النشاط المكثف لحركة المنافقين في المدينة، وضمن خطط وأساليب جديدة.. استعرضنا أوجهها في ثنايا هذين الدرسين.

ولكن في المقابل نجد اليقظة الشديدة والمراقبة الدقيقة التي انتهجها رسول الله ﷺ لرصد تحركاتهم واجتماعاتهم ومن ثمَّ الاجهاز عليهم وإفشال مخططاتهم، وما هدم وحرق دار سويلم اليهودي الذي كان يجتمع فيه أُولئك المنافقون إلاّ مثال واضح على هذه الرقابة واليقظة، ويتكرر الأمر في قصّة مسجد ضرار الذي أمر رسول الله ﷺ بهدمه وحرقه...

ومن هذا المنهج النبوي في القيادة نتعلم كيفية مراقبة ورصد التحركات المشبوهة والمضللة في داخل المجتمع الإسلامي، ومن ثمّ كيفية التعامل معها بحزم وعزم راسخين، لأنّ في التساهل معها تعريض لأمن الأُمة الإسلامية لمخاطر جسيمة من داخلها لا تقل أضرارها عن مخاطر العدوان الخارجي عليها.

«والعظة التي ينبغي أن يأخذها المسلمون من هذا الدرس، هو أن يحذروا عدوّهم الخارجي مرة، على أن يحذروا المنافقين فيهم ألف مرة، وأن يحاربوا أول ما يحاربون، ما قد يشيع بينهم من النفاق»[1].

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٤٧ - ٤٤٨.

ثالثاً: رصد الاعداء لحركة المجتمع الإسلامي:

في قصة الثلاثة الذين خلّفوا جوانب كثيرة يستلهم منها أكثر من درس وعبرة وعظة، إلاّ أن الذي يلفت النظر في أحد جوانب هذه القصة هي تلك الرسالة التي بعث بها ملك غسان لكعب بن مالك – وهو أحد هؤلاء الثلاثة – يستفزه فيها ويطلب منه الالتحاق بالشام لمواساته! وهذه القصة تدل في أحد جوانبها على أن العدو يرصد تحرك الصف الإسلامي بدقة، ويحاول أن يستفيد من أي ثغرة للنفوذ إليه، فوجدها في ذلك الوقت في شخص كعب بن مالك الذي تخلّف عن رسول الله ﷺ فتعرض إلى قطيعة اجتماعية خانقة. . ويجدها اليوم في كل من هو على هذا المستوى في معترك الحياة السياسية.

وفي جانب آخر من هذه القصة نجد أن كعب بن مالك قد رفض عرض ملك غسان واعتبره من البلاء الذي ألحقه بنفسه – كما في الرواية – إلاّ أنّ في مجتمعاتنا الإسلامية نجد – وللأسف – الكثير الكثير من مرضى النفوس وأصحاب المطامع ممن تغريهم مثل هذه العروض والصلات فيتحولون وبكل ثقلهم إلى الصف المعادي، وينفذون مخططاتهم.

رابعاً: المنهج النبوي في التربية والتأديب:

لقد بيّنا في ثنايا الدرسين أصناف الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في هذه الغزوة، وكيف تعامل معهم رسول الله ﷺ بعد عودته إلى المدينة، وكان من بين هؤلاء: «الثلاثة الذين خلفوا» فاستعمل معهم النبي ﷺ أُسلوب المقاطعة الاجتماعية أو «الهجر التَّربوي». وهو منهج استعمله النبي ﷺ في تربية أزواجه كما يحدثنا المؤرخون والمحدثون عن ذلك[1]، واستعمله في تربية أصحابه في

(١) صحيح البخاري: تفسير سورة التحريم، وصحيح مسلم، الحديث: ١٤٧٤، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٢٢ .

هذه القضية، وفي بعض القضايا المتشابهة الموارد، وكان له الأثر الكبير في التربية.

يقول أحد الباحثين في السيرة النبوية: «إنّ الهجر التربويّ له منافعه العظيمة في تربية المجتمع المسلم على الاستقامة، ومنع أفراده من التورّط في المخالفات التي تكون إمّا بترك شيء من الواجبات، أوفعل شيء من المحرّمات، لأنّ مَن توقّع أنّه إذا وقع في شيء من ذلك سيكون مهجوراً من جميع أفراد المجتمع، فإنّه لا يفكّر في الإقدام على ذلك»[١].

وهذا المنهج والأُسلوب النبوي في التربية والتأديب والمحاسبة، يمكن الاستفادة منه في الظروف المشابهة لحياة المسلمين في العهد النبوي المدني، وقد يكون هذا التشابه صعب المنال في زماننا هذا، إلاّ أنّه أُسلوب نافع ومؤثر في تربية خواصنا والدائرة القريبة منّا وخاصة في نطاق الأُسرة والأولاد وبعض الأصدقاء.

هذه أهم الدروس والعبر المستفادة من هذه الغزوة المباركة والتي هي خاتمة الغزوات التي غزاها رسول الله ﷺ[٢] - وهناك الكثير من الدروس والعبر الأُخرى أشرنا إلى بعضها في ثنايا هذين الدرسين.

---

(١) الصلابي، السيرة النبوية: ٢ / ٦٢٦.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٥٤.

الأسئلة:

١ - كم كان عدد جيش المسلمين في غزوة تبوك؟ وما هي أهم الأحداث التي رافقت إعداد هذا الجيش؟

٢ - ما هي أهم الكرامات والمعجزات التي ظهرت على يدي النبيﷺ في هذه الغزوة.

٣ - كيف نناقش حديث سبّ النبيﷺ لأصحابه! بحسب ما ورد في رواية الواقدي والبيهقي؟

٤ - ما هي الأسباب التي دعت جيش الروم وحلفاؤها إلى الانسحاب من تبوك؟

٥ - ما هي أهم المساجد التي أقامها النبيﷺ في سفره إلى تبوك؟

٦ - ما هي الأسباب التي دعت النبيﷺ إلى مصالحة يحنة بن رؤبة عن النصارى؟

٧ - ما هي قصة سرية خالد إلى الأُكيدر؟ وما هي نتائجها؟

٨ - ما هي أهم حوادث الطريق عند عودة النبيﷺ المدينة؟

٩ - كيف تعامل النبيﷺ مع من تخلّف عن هذه الغزوة بعد عودته إلى المدينة؟

١٠ - كيف تعامل القرآن الكريم مع غزوة تبوك؟ وما هي السورة التي نزلت أغلب آياتها في هذه الغزوة؟

١١ - ما هي أهم آثار ونتائج غزوة تبوك؟

١٢ - ما هي أهم الدروس والعبر المستفادة من غزوة تبوك؟

الدرس الثلاثون

أحداث السنة التاسعة من الهجرة

(عام الوفود، وقصة براءة)

محاور البحث:

١ - الواقع السياسي الجديد بعد غزوة تبوك
٢ - وفود القبائل العربية الى المدينة
٣ - نظرة عامة حول هذه الوفود
٤ - من أهم وفود السنة التاسعة
٥ - من معطيات عام الوفود
٦ - قصة براءة وحج السنة التاسعة
٧ - حوادث ووفيات:
وفاة أُم كلثوم بنت النبي ﷺ
وفاة عبد الله بن أُبي رأس المنافقين
٨ - الدروس والعبر
- الأسئلة

عام الوفود، وقصة براءة

١ - الواقع السياسي الجديد بعد غزوة تبوك

من الملاحظ ونحن نساير وقائع الإسلام من خلال غزوات الرسول الأكرمﷺ ، أنّ لكلّ واقعة من هذه الوقائع نتائج وآثاراً جديدة تظهر على الساحة السياسية والاجتماعية والدعوية للمسلمين، ومما لا شك فيه أنّ غزوة تبوك كان لها أثرها على مستوى الجزيرة العربية، وكذلك تركت آثارها على المستوى الاقليمي في الدول المجاورة للمسلمين وخاصة الدولة الرومانية التي كانت في أَوج قوتها وعنفوانها في ذلك الوقت.

لقد «كان لهذه الغزوة أعظم الأثر في بسط نفوذ المسلمين وتقويته على جزيرة العرب، فقد بيّن للناس أنّه ليس لأي قوة من القوات أن تعيش في العرب سوى قوة الإسلام، وبطلت بقايا أمل وأُمنية كانت تتحرك في قلوب بقايا الجاهلين والمنافقين الذين كانوا يتربصون الدوائر بالمسلمين، وكانوا قد عقدوا آمالهم بالرومان، فقد استكانوا بعد هذه الغزوة، واستسلموا للأمر الواقع، الذي لم يجدوا عنه محيداً ولا مناصاً.

ويعرف مدى أثر هذه الغزوة من أن العرب وإن كانت قد أخذت في التوافد إلى رسول اللهﷺ بعد فتح مكة، إلاّ أن تتابع الوفود وتكاثرها بلغ إلى القمة بعد هذه الغزوة»[١].

---

(١) المباركفوي - صفي الرحمن، الرحيق المختوم: ٤٠٢ - ٤٠٣ .

٢ - وفود القبائل العربية الى المدينة

عُرف العام التاسع من الهجرة بين المؤرخين وكتّاب السرية النبوية بـ «عام الوفود»، وخصّص كل من ابن هشام وابن سعد والطبري وابن شبّه وغيرهم فصلا خاصاً للوفود التي قدمت إلى رسول الله ﷺ تعلن اسلامها أصالةً عن نفسها ونيابة عن عشائرها[١].

وقبل أن ندخل في التفاصيل والأحداث التي رافقت مقدم هذه الوفود إلى المدينة، لابدّ لنا من القاء نظرة عامة على الأسباب التي دعت هذه الوفود إلى القدوم إلى المدينة لتعبر عن ولائها واسلامها، ثمّ عدد هذه الوفود، وزمن وفادتها، وما يرد على النصوص التاريخية من نقد.

أسباب مقدم الوفود إلى المدينة:

هنالك نص تاريخي مهم لابن إسحاق يسلط فيه الأضواء على الأسباب الحقيقية التي دعت القبائل العربية إلى إرسال وفودها إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: «لما افتتح رسول الله ﷺ مكة، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت، ضربت إليه وفود العرب من كلِّ وجه. (قال ابن هشام: إن ذلك في سنة تسع، وإنّها كانت تسمى سنة الوفود).

ثمّ قال ابن إسحاق محللا أسباب ذلك، بقوله: وإنما كانت العرب تتربَّص بالإسلام أمرَ هذا الحيّ من قُريش وأمر رسول الله ﷺ، وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم، وأهل البيت الحرام، وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام، وقادة العرب لا يُنكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٥٩ وما بعدها، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١ وما بعدها، والطبري، تاريخ الأُمم: ٢ / ١١١ وما بعدها، وابن شبّة، تاريخ المدينة المنورة: ٢ / ٤٩٩ وما بعدها.

لحرب رسول الله ﷺ وخلافه.

فلما افتتحت مكة، ودانت له قريش، ودوَّخها الإسلام، وعرفت العرب أنّه لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته، فدخلوا في دين الله - كما قال عزّ وجل - أفواجاً، يضربون إليه من كلّ وجه..»[١].

لم يزد أحد سبباً آخر لمقدم هذه الوفود على ما ذكره ابن إسحاق في هذا النص، فلم يكن هنالك أي مصدر قوة أو تهديد حمل هذه الوفود إلى القدوم للمدينة، «وإنما قدمت من ذاتها سلمياً من غير ارعاب أو تهديد، إذ لم يُنفذ الرسول ﷺ في العامين التاسع والعاشر أية حملة عسكرية إلى الجنوب»[٢].

فلم تكن هنالك حاجة لذلك بعد فتح مكة واندحار قريش ووثنيتها وجبروتها أمام قوة وعزة الإسلام والمسلمين، فلم يمض وقت طويل حتى وفدت تلك الوفود وأعلنت اسلامها وبيعتها لله ولرسوله ﷺ.

زمن قدوم الوفود:

تشير بعض النصوص التاريخية إلى قدوم بعض الوفود إلى المدينة في تاريخ مبكر عن السنّة التاسعة، ويتبين مما ذكرته النصوص أن قبائل مزينة، وسعد بن بكر قدمت وفودها في السنة الخامسة بعد غزوة الخندق[٣]، أما سليم وأشجع فإنّ وفودها قدمت إلى الرسول ﷺ عندما كان في طريقه لفتح مكة في السنة الثامنة، وعام فتحها.

أما العام التاسع فقد عرف بعام الوفود لأنّ معظم القبائل العربية قد قَدمت وفودها فيه، واستمر وفود القبائل إلى السنة العاشرة، كما سوف يأتينا من حديث نصارى نجران والمباهلة، ضمن أحداث السنة العاشرة من الهجرة.

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩٩ ٥٦٠ .

(٢) العلي - صالح أحمد، دولة الرَّسول في المدينة: ٣٤١ .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١، ١٤٥، ١٤٨ .

عدد الوفود، وتاريخ وفادتها:

اختلف المؤرخون في عدد هذه الوفود تبعاً لاختلافهم في تاريخ مقدمها على رسول الله ﷺ ، فلا ينقل لنا المؤرخون ارقاماً دقيقة عن عدد هذه الوفود، وقد يكون هذا الاختلاف طبيعياً في مثل هكذا حوادث تاريخية يصعب ضبطها بدقة، ونجد بعض المؤرخين يحددها بثلاثة وسبعين وفداً ويرتفع العدد ليبلغ العدد أكثر من ذلك عند آخرين، فيما نجد بعضاً آخر يقتصر على ذكر المشهور من هذه الوفود فينقص العدد عنده إلى أقل من ذلك بكثير[١]!

ولعلّ أوسع من كتب في موضوع الوفود من قدماء المؤرخين هو ابن سعد في طبقاته، حيث استقصى في جمع المعلومات عن الوفود، وقدّم ترجمات وافية ومختصرة عن رجال كلِّ وفد منها، ثمّ من كانت له صحبة منهم، بالاضافة إلى معلومات جانبية أُخرى[٢].

ويمكن تعزيز أخبار ابن سعد عن هذه الوفود بما هو مرويّ عنها في كتب الصحاح والمغازي، فقد أورد البخاري معلومات عن بعض هذه الوفود، كذلك نجد أغلب أخبار هذه الوفود أيضاً عند مسلم في صحيحه، بالاضافة إلى وجودها في الكتب الحديثية الأُخرى وبمعلومات أوسع وأشمل مما ذكره ابن سعد في طبقاته[٣].

وفي المصادر التاريخية اللاحقة لابن سعد توجد معلومات إضافيّة أُخرى يمكن أن نتمم بها المعلومات التي ذكرها ابن سعد.

---

(١) انظر: ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١ وما بعدها، وابن شبة، تاريخ المدينة المنورة: ٢ / ٤٩٩ - ٦٠٢، والطبري، تاريخ الأُمم: ٣ / ١٣٠ وما بعدها .

(٢) انظر: ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١ وما بعدها .

(٣) انظر: البخاري: المجلد ٣ / الجزء ٥ / ١٣٥ وصحيح مسلم: ١ / ١٨١ (بشرح النووي) .

٣ - نظرة عامة حول هذه الوفود

النقد التاريخي لأخبار الوفود:

تعتبر قضية الوفود، وأخبارها، وكيفيّة تعامل النبيﷺ معها، من القضايا المهمة جداً في تاريخ السيرة النبوية، وتكمن أهميتها في هذا التحول الكبير الذي شهدته الجزيرة العربية في أواخر حياة الرسول الأكرمﷺ ورسالته الخاتمة.

ولهذا أولى المؤرخون والمحدثون هذه القضية الأهمية اللازمة، فدونوها في موسوعاتهم التاريخية والروائية، وحاولوا جَهدَ الإمكان استقصاء أخبارها وأحداثها. إلاّ أنّ هذه الأخبار والأحاديث بحاجة إلى نقد لمتونها وابعاد ما هو مبالغ فيه، أو مكذوب منها.

فعلى سبيل المثال نجد ابن سعد يعقد فصلا حول هذه الوفود تحت عنوان: «وفادات العرب على رسول الله» إلاّ أنّه يذكر من الوفود «وفد السِّباع»! فيذكر عمّن حدثه قال: «بينما رسول اللهﷺ جالس في المدينة في أصحابه أقبل ذئب فوقف بين يدي رسول اللهﷺ، فعوى بين يديه! فقال رسول اللهﷺ: هذا وافد السِّباع إليكم فإن أحببتُم أن تعرضُوا له شيئاً لا يعدوه إلى غيره، وإن أحببتم تركتموهُ وتحرزتُم مِنهُ فما أخَذ فهو رِزقُهُ! فقالوا: يا رسول الله ما تطيب أنفسنا له بشيء، فأومأ إليه النبيﷺ بأصابعه، أي خالسهم، فولّى وله عَسلان»[1].

ولا ندري وجه المناسبة لادراج وفد السباع ومن يمثلهم ضمن وفادات العرب؟! ولماذا كان الذئب هو الذي يمثلهم ولم يمكن غيره من الحيوانات الضارية كالأسد مثلا؟.. ولماذا لم يفد على رسول اللهﷺ ممثل الحيوانات الأُخرى والطيور..؟

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٧٣.

وهنالك وفادات أُخرى يذكرها بعض آخر من المؤرخين والمحدثين لا يمكن الاستناد إلى مضمونها وفيها من المتناقضات التي تدل على كذبها، منها: إرسال النبيﷺ لأنس بن مالك إلى الخضر طالباً منه الاستغفار له! وقول الخضر لأنس: أنا كنت أحق أن آتيه!

كذلك رواية وفادة إلياس على النبيﷺ الذي يرويها أنس بن مالك أيضاً والتي جاء فيها: كنا مع رسول اللهﷺ في سفر فنزلنا منزلا فإذا رجل في الوادي يقول: اللهم اجعلني من أُمة محمد المرحومة.. فأشرفت على الوادي، فإذا رجل طوله أكثر من ثلاثمائة ذراع!.. إلى أن يقول: جاءه - أي النبي - فعانقه، وسلم عليه، ثمّ قعدا يتحدثان.. فنزلت عليهما مائدة من السماء عليها خبز وحوت وكرفس! قال أنس: فأكلا وأطعماني وصلينا العصر، ثمّ ودعه، ثمّ رأيتهُ مرّ على السحاب نحو السماء»[١].

فمثل هكذا حديث واضح الكذب ولا يمكن الاستناد إليه، ولهذا قال الذهبي في تلخيص مستدرك الحاكم عن هذا الحديث: «هذا موضوع، قبح الله من وضعه، وما كنت أحسب ولا أجوز أن الجهل يبلغ بالحاكم أن يصحح هذا واسناده»[٢].

وهنالك خبر وفد الجن الذي جاء إلى رسول اللهﷺ في سنة إحدى عشرة من الهجرة - كما يدعون - والرواية مروية عن الزبير بن العوام، حيث تدعي الرواية: أنّ وفد الجن جاء إلى رسول اللهﷺ قال - بعد صلاة الصبح -: «أيكم

(١) انظر: الشوكاني، فتح القدير: ٤ / ٤١٢ .

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٤٢١ - ٤٢٢، وانظر هامش الصفحة ٤٢٢ . والحاكم النيسابوري، المستدرك: ٢ / ٦١٧ وتلخيص المستدرك للذهبي المطبوع مع المستدرك: ٢ / ٦١٧ طبعة أُفست دار المعرفة - بيروت، عن طبعة دائرة المعارف النظامية في حيدرآباد الدكن - الهند .

يتبعني إلى وفد الجن الليلة»؟ يقول الزبير: فخرجت معه... إلى أن يقول:... ومضى رسول الله ﷺ بيني وبينهم فتلا قرآناً، وبقوا حتى طلع الفجر، ثمّ أقبل فقال: «الحقني» فمشيت معه فمضينا غير بعيد فقال لي: «التفت وانظر هل ترى حيث كان من أولئك من أحد»؟ فخفض رسول الله ﷺ إلى الأرض فتناول عظماً وروثة، ثمّ رمى بهما وقال: «إنهم سألوا الزاد، فقلت لهم: لكم كل عظم وروثة»[١].

وفي رواية أُخرى عن ابن مسعود جاء فيها:.. فسمعتُ رسول الله ﷺ يقرعهم - أي الجن - بعصاه ويقول: أجلسوا حتى كاد ينشق عمود الصبح، ثمّ ثاروا وذهبوا، فأُتي رسول الله ﷺ فقال: «أُولئك وفد الجن، سألوني المتاع والزاد، فمتعتهم بكل عظم حائل، وروثة وبعرة..»[٢].

ونحن في الوقت الذي لا ننكر وجود الجن، ولا ننكر مجيء نفر منهم إلى رسول الله ﷺ لاستماع القرآن كما حدثنا عن ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[٣].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ ۖ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾﴾[٤].

فهذه الآيات تتحدث عن سماع الجن لآيات من القرآن الكريم، وتعجبهم

---

(١) الصالحي، سبل الهدى والرشاد: ٦ / ٤٣٤.

(٢) الطبري، تفسير جامع البيان: ٢٦ / ٤٠، تحقيق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، الطبعة الأُولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(٣) الأحقاف: ٢٩.

(٤) الجن: ١ - ٢.

من آياته، وإيمانهم به.. وليس فيها أنهم وفدوا إلى النبيﷺ، أو أوفدهم النبيﷺ إلى قومهم، أو أنّ النبيﷺ وفد إليهم وأسمعهم القرآن وقرعهم بعصاه! وفرض لهم العظم والروثة والبعرة!! وما حكته لنا الروايات من هذه الأُمور الخرافية لا يمكن الاستناد إليها سنداً ودلالة.

وأعجب ما ذُكر في باب الوفادات، وفادة حفيد إبليس على النبيﷺ، وإسلامه!

قال البيهقي: باب، ما روي في قدوم هامةَ بن هَيم بن لا قيس بن إبليس على النبيﷺ وإسلامه! ثمّ يذكر سند الرواية التي تنتهي إلى عبد الله بن عمر، عن والده!

والرواية طويلة وفيها من السجعات المترادفة الشيء الكثير، جاء في آخرها أن رسول اللهﷺ علّمه القرآن، الواقعة والمرسلات، وعمّ يتساءلون، والشمس، والمعوذتين، وقل هو الله أحد، وقالﷺ: ارفع الينا حاجتك يا هامة، ولا تدع زيارتنا!

قال - الراوي -: «قال عمر: فقبض رسول اللهﷺ ولم يَنعه إلينا، فلسنا ندري أحيٌّ أم ميت»[1].

هكذا رويت هذه الرواية في كتب أهل السنة.

وجاءت الروايات الشيعية لتزيد على الطين بلة، فتضيف إلى آخر الرواية: إنه لما طلب من رسول الله أن يعلمه القرآن، «قال رسول اللهﷺ لأمير المؤمنينعليه السلام: «علّمه»، فقال هام: يا محمد إنا لا نطيع إلاّ نبياً أو وصيّ نبيّ، فمن هذا؟ قال: «هذا أخي ووصيي ووزيري ووارثي عليّ بن أبي طالب»، قال:

(١) البيهقي: دلائل النبوة: ٥ / ٤١٨ - ٤٢٠.

نعم نجد اسمه في الكتب، فعلّمه أمير المؤمنين، فلمّا كانت ليلة الهرير بصفّين جاء إلى أمير المؤمنين»[١].

وفي رواية طويلة يذكرها المجلسي - أيضاً - في البحار جاء في آخرها: إنّ الهام بن الهيم لم يظهر بعد ذلك إلاّ ليلة الهرير، فسلّم على أمير المؤمنين عليه السلام . . ثمّ قاتل إلى الصبح ثمّ غاب، قال الأصبغ بن نباتة: «فسألت أمير المؤمنين بعد ذلك عنه قال: قُتل الهام بن الهيم رحمة الله عليه»[٢].

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند هكذا روايات، فهي روايات تفتقد إلى سند صحيح، وفيها خلل واضح في متنها، وتحتوي على بعض المضامين التي تتنافى مع عقيدتنا في أنبياء الله عليهم السلام . وكل من روى هذه الأحاديث قال عنها بأنها مكذوبة أو ضعيفة أو موضوعة، ولكنهم مع ذلك ذكروها في كتبهم[٣].

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما ذكر في مثل هذه الروايات وأمثالها لا يمكن أن يندرج تحت عنوان وفادات العرب إلى النبي صلى الله عليه وآله ، وينبغي ابعادها عن بحث الوفادات.

الوفود الفردية، والوفود الجماعية وزمن وفادتها:

لقد كانت مبايعة الرسول صلى الله عليه وآله على الإسلام في أغلب الأحيان فردية، حيث كان يفد على رسول الله من يريد أن يتعرف على الإسلام وتعاليمه، فيسمعه رسول الله صلى الله عليه وآله آيات من القرآن وبعض أحكامه فيدخل ذلك الشخص في الإسلام ويبايع النبي صلى الله عليه وآله على ذلك. واستمرت هذه الطريقة في قبول الأشخاص الجدد

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٦٠ / ٨٤، والمجلد: ٢٤ / ٢٨٨ من الطبعة الحديثة، والحديث مروي عن القمي في تفسيره .

(٢) المصدر نفسه: ٣٨ / ٥٧، والمجلد: ١٦ / ٤٧ .

(٣) انظر: دلائل النبوة: ٥ / ٤٢٠ (الهامش) .

في الإسلام في صدر الإسلام الأول وإلى بيعة العقبة الأُولى والثانية. إلاّ أنّ رسول الله ﷺ وبعد بيعة العقبة، وفي العهد المدني من رسالته، كان يقبل بيعة الوفود باعتبارهم ممثلين عن عشائرهم.

ففي رواية ابن سعد في الطبقات يحدثنا عن وفد مُزينة فيقول: «كان أول من وفد على رسول الله من مضر أربعمائة من مُزينة، وذلك في رجب سنة خمس، فجعل لهم رسول الله الهجرة في دارهم وقال: أنتُم مهاجرون حيث كنتم فارجعوا إلى أموالكم، فرجعوا إلى بلادهم».

ويقول عن وفد سعد بن بكر: بعثت بنو سعد بن بكر في رجب سنة خمس ضمام بن ثعلبة.. وافداً على رسول الله ﷺ .. فرجع إلى قومه مسلماً قد خلع الأنداد، وأخبرهم بما أمرهم به ونهاهم عنه - أي رسول الله - فما أمسى في ذلك اليوم في حاضره رجل ولا امرأة إلاّ مسلماً، وبنوا المساجد وأذّنوا بالصلوات». ويحدثنا عن وفد أشجع فيقول: «وقدمت أشجع على رسول الله ﷺ عام الخندق... ويقال: بل قدمت أشجع بعدما فرغ رسول الله ﷺ من بني قريظة، وهم سبعمائة، فوادعهم ثمّ أسلموا بعد ذلك».

أما سليم فإن وفودها قدمت إلى الرسول ﷺ عندما كان في طريقه لفتح مكة السنة الثامنة»[١].

وهنالك وفود لم يذكر لها تاريخ لوفادتها على النبي ﷺ، وقد تكون وفادتها في بداية هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة مثل وفد عبس الذي يقول عنهم ابن سعد: «وفد على رسول الله ﷺ تسع رهط من بني عبس في سرية، فقالوا يا رسول الله ﷺ كيف نقسّم غنيمة أصبناها ونحن تسعة؟ قال: أنا عاشركم»[٢].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١، ١٤٥، ١٤٨ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٤٣ .

فلم تكن كل الوفود قد جاءت في السنة التاسعة من الهجرة فقط، وإنما هنالك وفود قد سبقت هذا التاريخ بكثير، فهناك جماعات وأفراد وفدوا على النبيﷺ منذ بداية هجرته إلاّ أنّها كانت وفوداً قليلة وقد تكون بمبادرة شخصية من بعض أفراد القبائل، ثمّ استمرت هذه الوفود وازدادت كلما انتصر رسول اللهﷺ في غزوة من غزواته الكبرى، فكانت هنالك وفود لقبائل كبيرة في السنة الخامسة وبعد خيبر، وقبل فتح مكة.

إلاّ أنّ السنة التاسعة وبعد فتح مكة والعودة من تبوك، شهدت المدينة توالي وفود القبائل العربية عليها، فسمي ذلك العام بعام الوفود، واستمرت هذه الوفود إلى السنة العاشرة والحادية عشرة من الهجرة.

٤ – من أهم وفود السنة التاسعة من الهجرة

ذكر ابن سعد وغيره من المؤرخين وفوداً كثيرة وفدت على النبيﷺ في السنة التاسعة، ولا يمكننا أن نستوعب بالتفصيل كلّ هذه الوفود وإنما سوف نذكر نماذج لأهمها وباختصار شديد.

أولا: وفد قبيلة ثقيف:

تعتبر قضية وفد قبيلة ثقيف من مكملات الحديث عن غزوة وحصار الطائف التي تحدثنا عنها سابقاً، بل إن قصة هذا الوفد هو الجزء المتمم لتلك الغزوة وذلك الحصار الذي ضربه رسول اللهﷺ عليهم لمدة شهر، ومن ثمّ إنسحب عنهم إلى المدينة تاركاً أمرهم على ما هم عليه، إلاّ أنهﷺ كان متفائلا باسلامهم في القريب العاجل. ولهذا عندما قيل لرسول اللهﷺ : «ادع الله على ثقيف، قالﷺ : «اللهم اهد ثقيفاً»[1].

(١) ابن شبة، تاريخ مكة: ٢ / ٤٩٩ .

وقد ذكر ابن إسحاق، والواقدي، وابن سعد، وابن شبّه، والمقريزي، وغيرهم من المؤرخين قصة هذا الوفد وما جرى فيها من أحداث»[١].

والذي يفهم من رواية ابن إسحاق الذي يقول: «وقدم رسول الله ﷺ المدينة من تبوك في رمضان، وقدم عليه في ذلك الشهر وفد ثقيف»، إن قدوم هذا الوفد كان في السنة التاسعة من الهجرة، وإنّ وفد ثقيف كان قبل وفود السنة التاسعة، بل كان هذا الوفد أحد أسباب اصطفاف الوفود على أبواب المدينة للبيعة، كما مرّ سابقاً عن ابن إسحاق في أسباب وفود البيعة[٢].

وتبدأ قصة وفد ثقيف من قصة إسلام عروة بن مسعود الثقفي ومقتله على يد قبيلته ثقيف.

روى ابن إسحاق والواقدي وابن سعد - واللفظ للأخير - قال: «لم يحضر عروة بن مسعود - الثقفي - حصار الطائف... فقدم وقد انصرف رسول الله ﷺ عن الطائف.. ثمّ ألقى الله في قلب عروة الإسلام وغيّره عما كان عليه، فخرج إلى رسول الله ﷺ، فأسلم، ثم استأذن رسول الله ﷺ في الخروج إلى قومه ليدعوهم إلى الإسلام، فقال ﷺ: إنّهم إذاً قاتلوك! قال: لأنا أحبّ إليهم من أبكار أولادهم، ثمّ استأذنه الثانية ثم الثالثة فقال ﷺ: إن شئت فاخرج.

فخرج فسار إلى الطائف خمساً فقدم عشاءً فدخل منزله فجاء قومه فحيّوه بتحيّة الشرك، فقال لهم: عليكم بتحية الإسلام! فخرجوا من عنده يأتمرون به، فلما طلع الفجر أوفى على غرفة له فأذّن بالصلاة، فخرجت ثقيف من كل ناحية،

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٧، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٦٠، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥١، وابن شبّه، تاريخ مكة: ٢ / ٤٩٩، والمقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ٨٤، والبيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٢٩٩.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٧، ٥٥٩ - ٥٦٠.

فرماه رجل من بني مالك فأصاب أكحله فلم يرقأ دمه، فقام. . . فلان وفلان ووجوه الأحلاف فلبسوا السلاح وحشدوا، فلما رأى عروة ذلك قال: قد تصدقت بدمي على صاحبه لأُصلح بذلك بينكم وهي كرامة أكرمني الله بها، وشهادة ساقها الله إليّ، وقال: ادفنوني مع الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ، ومات فدفنوه معهم.

وبلغ رسول الله ﷺ، خبره فقال: مَثلهُ كمثلِ صاحب ياسين دعا قومه إلى الله فقتلوه! ولحق أبو المليح بن عروة، وقارب بن الأسود بن مسعود بالنبي ﷺ، فأسلما»[1].

هذا المقطع التاريخي من قصة اسلام عروة بن مسعود يرتبط بحصار الطائف، ومتمم له، ثمّ تأتي قصة مالك بن عوف الذي قاد الجموع في غزوة هوازن ثمّ دخل حصن الطائف، ثمّ قدم على رسول الله ﷺ وأسلم وقال لرسول الله «أنا أكفيك ثقيفاً أُغير على سَرحهم حتى يأتوك مسلمين، فاستعمله رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه والقبائل، فكان يُغير على سرح ثقيف ويقاتلهم» وقد تحدثنا عن قصة اسلامه فيما سبق.

وعندما نعود إلى قبيلة ثقيف نجد أن هذه القبيلة من القبائل الكبيرة، وكانت فيهم نخوة الامتناع - كما يقول ابن إسحاق - وكانت تتصور أنها تستطيع أن تقاوم المدّ الإسلامي الزاحف عليها! إلاّ أنها سرعان ما أيقنت أنها لا تستطيع المقاومة إلى نهاية الشوط، فما لبثت كثيراً حتى أرسلت وفدها إلى المدينة.

قال ابن إسحاق: «ثمّ أقامت ثقيف بعد مقتل عروة أشهراً، ثمّ انهم ائتمروا بينهم، ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب مَن حولهم من العرب وقد بايعوا وأسلموا».

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥١، وقارن برواية ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٧ - ٥٣٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٦٠ وما بعدها.

ويحدد لنا الواقدي تاريخ وفد ثقيف فيقول: «قدم وفد ثقيف في رمضان سنة تسع»[١].

والأسباب التي حملت ثقيف على ارسال وفدها واضحة قد عكستها كلمات قادتها وأصحاب الحلِّ والعقد فيها.

ففي رواية للواقدي يقول فيها: «إن عمرو بن أُميّة، وكان من أدهى العرب.. مشى إلى عبد يا ليل بن عمرو وكان مهاجراً له، فلما رآه رحب به، فقال عمرو: قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة، إنّه قد كان من أمر هذا الرجل ما قد رأيت، وقد أسلمت العرب كلّها وليست لكم بهم طاقة، وإنما نحن في حصننا هذا، ما بقاؤنا فيه وهذه أطرافنا تُصاب! ولا نأمن من أحد منّا يخرج شبراً واحداً من حصننا هذا، فانظروا في أمركم! قال عبد ياليل، قد والله رأيت ما رأيت، فما استطعتُ أن أتقدم بالذي تقدمت به... فأتمرت ثقيفٌ بينهم فأرادوا أن يرسلوا رسولا إلى النبيﷺ فكلموا عبد ياليل... فأبى أن يفعل... حتى يبعثوا معه رجالا... فبعثوا معه رجالا.. ويقال: إن الوفد كانوا بضعة عشر رجلا..»[٢].

وفد ثقيف في المدينة:

هنالك الكثير من الجزئيات والقصص حول وفد ثقيف منذ وصولهم إلى المدينة وإلى حين خروجهم منها بعد أن بايعوا رسول اللهﷺ عن قومهم، ومن ثمّ عودتهم إلى الطائف! وقد أطال الواقدي في ذكرها تطويلا مملا، واختصرها ابن سعد اختصاراً مخلا! وتبقى رواية ابن إسحاق هي الأسلم والوسط من بينهما. إلاّ أنها أيضاً بحاجة إلى تشذيب واختصار.

قال ابن إسحاق: «فلما دنوا من المدينة، ونزلوا قَناة، ألفوا بها المغيرة بن

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ٩٦٢.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ٩٦٢ - ٩٦٣، وابن هشام: ٤ / ٥٣٩.

شعبة يرعى في نوبته ركاب أصحاب رسول الله ﷺ ، فلما رآهم ترك الركاب عند الثّقفيين - وخرج - يشتد، ليبشر رسول الله بقدومهم عليه، فلقيه أبو بكر الصدّيق قبل أن يدخل على رسول الله ﷺ ، فأخبره عن ركب ثقيف أن قد قدموا يريدون البَيعة والإسلام، بأن يشرط لهم رسول الله ﷺ شروطاً، ويكتتبوا من رسول الله كتاباً في قومهم وبلادهم وأموالهم. فقال أبو بكر للمغيرة: أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله ﷺ حتى أكون أنا احدّثه، ففعل المغيرة، فدخل أبوبكر على رسول الله ﷺ ، فأخبره بقدومهم عليه».

. . . ثمّ أضاف ابن إسحاق: ولما قدموا على رسول الله ﷺ ضرب عليهم قبّة في ناحية المسجد، فكان خالد بن سعيد بن العاص، هو الذي يمشي بينهم وبين رسول الله، حتى اكتتبوا كتابهم. . . .

. . وقد كانوا فيما سألوا رسول الله ﷺ أن يدع لهم الطاغية! وهي اللات، لا يهدمها ثلاث سنين! فأبى رسول الله ﷺ ذلك عليهم، فما برحوا يسألونه سنة سنة، ويأبى عليهم، حتى سألوا شهراً واحداً بعد مَقدمهم، فأبى عليهم أن يدعها شيئاً مسمى، . . وقد كانوا سألوه مع ترك الطاغية أن يُعفيهم من الصلاة، وأن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم! فقال رسول الله ﷺ : أما كسر أوثانكم بأيديكم فسنُعفيكم منه، وأما الصلاة، فإنه لا خير في دين لا صلاة فيه، فقالوا: يا محمد، فسنؤتيكها، وإن كانت دناءة!!

وفي رواية الواقدي: إنّ مُفاوض وفد ثقيف - عبد ياليل - قد طلب من النبي ﷺ أن يعفيهم من الزِّنا! ومن أكل الربا! ومن شرب الخمر! فأبى عليهم رسول الله، وتلا عليهم الآيات القرآنية التي تحرمها.

قال ابن إسحاق: فلما أسلموا وكتب لهم رسول الله ﷺ كتابهم، أمَّر عليهم عثمان بن أبي العاص، وكان من أحدثهم سناً، وذلك إنه كان أحرصهم على التفقّه في الإسلام، وتعلم القرآن، . . وكان عثمان بن أبي العاص يقول: كان من

آخر ما عهد إليّ رسول الله حين بعثني إلى ثقيف أن قال: يا عثمان، تجاوز في الصلاة - أي خفف بها - وأقدر الناس باضعفهم فإن فيهم الكبير، والصغير، والضعيف، وذا الحاجة.

قال ابن إسحاق: «فلما فرغوا من أمرهم، وتوجهوا إلى بلادهم راجعين، بعث رسول الله ﷺ معهم أبا سفيان بن حرب، والمغيرة بن شعبة في هدم الطاغية، فخرجا مع القوم، حتى قدموا الطائف.. فلما دخل المغيرة بن شعبة علاها يضربها بالمعول»[١].

والذي يبدو من خلال استعراض روايات قصة وفد ثقيف إلى المدينة أن هذه الروايات قد أُضيف إليها من قبل الرواة الشيء الكثير، ولهذا نجد في طياتها بعض المواقف والكلمات التي لا يمكن قبولها لأنها غير معقولة في حد ذاتها! إذ كيف نتعقل من وفد جاء ليمثل قبيلة كبيرة من أجل الدخول في الإسلام، ثمّ يطلب من النبي ﷺ أن يبقي على صنمهم! أو أن يحلل لهم المحرمات، أو أن يضع عنهم الصلاة!

ومهما يكن من أمر، فإنّ مثل هكذا روايات بحاجة إلى التأمل والتدقيق في اسنادها ودلالاتها والأخذ بما هو أقرب إلى الواقع منها.

وينبغي أن نشير - في ختام البحث عن وفد ثقيف - أن رسول الله ﷺ قد كتب لهم كتاباً ذكره ابن إسحاق، إلاّ أن السهيلي في الروض قال: «وكتابه ﷺ لأهل الطائف أطول مما ذكره ابن إسحاق بكثير، وقد أورده أبو عُبيد بكماله في كتاب الأموال»[٢].

وعند مراجعتنا لكتاب الأموال وجدنا كتاب النبي ﷺ لثقيف بروايتين،

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٩ - ٥٤١، وللتوسع انظر الواقدي: ٢ / ٩٦٠ وما بعدها.

(٢) انظر، ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٤٣، والسهيلي: الروض الأنف: ٤ / ٢٠٠.

الأُولى رواية طويلة، والثانية رواية مختصرة وهي نفس رواية ابن إسحاق في المغازي وباختلاف يسير. إلاّ أن ابن إسحاق ينقل في آخر ما نقله من كتاب رسول الله لثقيف: «وكتب خالد بن سعيد بأمر الرسول محمد بن عبد الله، فلا يتعداه أحد، فيظلم نفسه فيما أمر به محمد رسول الله ﷺ». ونجد في رواية أبي عبيد في الأموال زيادة حذفها ابن إسحاق من آخر الرواية أما اختصاراً أو لغرض آخر! وهذه الزيادة هي الشهادة على هذا الكتاب حيث جاء في آخره: وشهد على نسخة هذه الصحيفة، علي بن أبي طالب، وحسن بن عليّ، وحسين بن عليّ، وكتب نسختها لمكان الشهادة.

قال أبو عبيد: وفي هذا الحديث من الفقه: إثباته شهادة الحسن والحسين»[1].

ويوجد في كتاب الوثائق السياسية للعهد النبوي، وكتاب مكاتيب الرسول، أكثر من كتاب لرسول الله ﷺ كتبها لثقيف منها رواية ابن إسحاق التي حذف من آخرها شهادة علي والحسن والحسين عليهم السلام عليها»[2].

ثانياً: وفد قبيلة فزارة:

قال ابن سعد: «لما رجع رسول الله ﷺ من تبوك، وكانت سنة تسع، قدم عليه وفد فزارة بضعة عشر رجلا.. فجاؤوا مقرّين بالإسلام، وسألهم رسول الله ﷺ عن بلادهم، فقال أحدهم: يا رسول الله اسنتت بلادنا، وهلك مواشينا، واجدب جنابنا، وغرث عيالنا، فادع لنا ربّك! فصعد رسول الله ﷺ المنبر ودعا فقال: «اللهمّ إسق بلادك وبهائمك وانشر رحمتك واحي بلدك الميت، اللهمّ

---

(١) أبو عبيد القاسم بن سلام (ت ٢٢٤) كتاب الأموال: ٢٥١، تحقيق: خليل محمد هراس، طبعة القاهرة، الطبعة الثانية، (١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م)، وانظر السهيلي، الروض الأنف: ٤/ ٢٠٠.

(٢) حميد الله، محمد، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٢٨٣ - ٢٨٨. والأحمدي، مكاتيب الرسول: ٣ / ٥٦ - ٧٦.

اسقنا غيثاً مغيثاً مريئاً مريعاً مطبقاً واسعاً عاجلا غير آجل نافعاً غير ضارٍّ، اللهمّ اسقنا سُقيا رحمة لا سقيا عذاب ولا هدم ولا غرق ولا محق، اللهمّ اسقنا الغيث وانصرنا على الأعداء».

قال الراوي: فمطرت، فما رأوا السماء ستاً، فصعد رسول الله المنبر فدعا فقال: «اللهمّ حوالينا ولا علينا، على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» قال الراوي: فانجابت السماء عن المدينة انجباب الثوب[١].

ثالثاً: وفد قبيلة بني مرّة:

قال ابن سعد: قدم وفد بني مرة على رسول اللهﷺ مرجعه من تبوك في سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلا، رأسهم الحارث بن عوف، فقالوا: يا رسول الله، إنا قومك وعشيرتك، ونحن قوم من بني لؤي بن غالب، فتبسم رسول اللهﷺ ثمّ قال: أين تركت أهلك؟ قال: بسلاح وما والاها، قال: وكيف البلاد؟ قال: والله إنّا لمسنتون[٢]، فادع الله لنا، فقال رسول اللهﷺ: «اللهم اسقهم الغيث» وأمر بلالا أن يجيزهم، فأجازهم..، ورجعوا إلى بلادهم فوجدوها قد مطرت في اليوم الذي دعا لهم رسول اللهﷺ[٣].

والملاحظ في رواية هذين الوفدين، أن هؤلاء الأعراب رغم شركهم وعدم ايمانهم المسبق بالنبي ورسالته، إلاّ أنهم كانوا يؤمنون بأ نّهﷺ له دعوة مستجابة عند الله تعالى، ولهذا قالوا: «فادْعُ لنا ربك، أو فادع الله لنا» فاستجاب رسول اللهﷺ لطلبهم، وأنزل الله سبحانه الغيث عليهم استجابة لدعاء رسول اللهﷺ، فكان ذلك تثبيتاً لاسلامهم وإيمانهم حيث أسلموا وآمنوا حديثاً.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤٤ .

(٢) اسنَتُوا: أي أجدبوا، من السنة أي القحط والجدب، وقلبت لامها تاءً (لسان العرب) .

(٣) المصدر نفسه: ١ / ١٤٤ .

رابعاً: وفد قبيلة بني كلاب:

قال ابن سعد: «قدم وفد كلاب في سنة تسع على رسول الله ﷺ، وهم ثلاثة عشر رجلا، فيهم لبيد بن ربيعة، وجبّار بن سلمي، فأنزلهم دار رملة بنت الحارث، وكان بين جبار وكعب بن ملك خُلّة، فبلغ كعباً قدومهم فرحّب بهم وأهدى لجبار وأكرمه، وخرجوا مع كعب فدخلوا على رسول الله ﷺ، فسلّموا عليه بسلام الإسلام، وقالوا: إنّ الضحاك بن سفيان سار فينا بكتاب الله وبسنتك التي أمرته، وإنّه دعانا إلى الله فاستجبنا لله ولرسوله، وانه أخذ الصدقة من أغنيائنا فردّها على فقرائنا»[1].

وكان النبي ﷺ قد أرسل الضحاك بن سفيان إلى بني كلاب بجميع صدقاتهم وذلك عند عودته من الجعرانة[2]، وهذا يعني أن الضحاك قد قام بعمل تبليغي فاعل أثّر فيمن لم يُسلم من قومه ومنهم أفراد هذا الوفد الذي أخبر النبي ﷺ بما هم عليه من إسلام وإيمان.

خامساً: وفد قبيلة بني البكّاء:

روى ابن سعد، قال: وفد من بني البكّاء على رسول الله ﷺ سنة تسع ثلاثة نفر: معاوية بن ثور بن عُبادة بن البكّاء، وهو يومئذ ابن مائة سنة، ومعه ابن له يقال له بشر، والفجيع بن عبد الله بن جندح بن البكّاء، فأمر لهم رسول الله بمنزلة وضيافة، وأجازهم ورجعوا إلى قومهم.

وقال معاوية للنبي: إني اتبرك بمسّك، وقد كبرتُ وابني هذا برّ بي فامسح وجهه، فمسح رسول الله ﷺ، وجه بشر بن معاوية واعطاه اعنزاً عفراً وبَرَّك عليهن.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٤٥ .

(٢) ابن حجر، الاصابة: ٢ / ٢٠٦ .

قال الجعد: فالسَّنة[١]، ربّما أصابت بني البكّاء ولا تعيبهم. وقال محمد بن بشر بن معاوية:

وأبي الذي مسح الرسولُ برأسه ودعا له بالخير والبركاتِ
أعطاهُ أحمدُ إذ أتاهُ أعنزاً عفراً نواجل ليس باللجبات
يملأن وفد الحيّ كلّ عشيّة ويعودُ ذاك الملءُ بالغَدواتِ
بوركن من منح وبورك مانحاً وعليه مني ما حييتُ صلاتي[٢]

والذي يلفت النظر في هذه الرواية أن معاوية بن ثور يطلب التبرك بالنبيﷺ من خلال مسه، ويطلب من النبي أن يمسح على رأس ولده! وهذا يدل على إيمان الناس ببركة النبيﷺ وإنه مبارك ويفيض بركة على الآخرين، كما أن استجابة النبيﷺ لطلبه يدل على مشروعية التبرك بالنبيﷺ وآثاره وبما يَمت بصلة إليهﷺ.

وفي قصة مشابهة يذكرها ابن سعد في قصة وفد هلال بن عامر، الذي وفد على النبيﷺ ولم يذكر لنا ابن سعد تاريخ وفادتهم، قال: وقدم على رسول اللهﷺ نفر من بني هلال فيهم عبد عوف بن أصرم... فسأله - النبي - عن اسمه، فأخبره، فقالﷺ: أنت عبدُ الله، وأسلم.

ثمّ قال ابن سعد: أخبرنا فلان عن فلان قالوا: وفد زياد بن عبد الله بن مالك.. على النبيﷺ، فلمّا دخل المدينة توجّه إلى منزل ميمونة بنت الحارث زوج النبيﷺ، وكانت خالة زياد.. وهو يومئذ شاب، فدخل النبيﷺ وهو عندها.. فقالت: يا رسول الله هذا ابن أُختي! فدخل إليها، ثمّ خرج حتى أتى المسجد ومعه زياد فصلّى الظهر، ثمّ أدنى زياداً فدعا له ووضع يده على رأسه ثمّ

(١) السَّنة: الجَدب، يقال: أخذتم السَّنة إذا اجدبوا وأُقحطوا (لسان العرب).
(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤٧.

حدرها على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول: ما زلنا نتعرف البركة في وجه زياد.

وقال الشاعر لعلي بن زياد:

يا ابن الذي مسح النبيُّ برأسه ودعا له بالخير عند المسجد
أعني زياداً لا أُريد سواءَه من غائر أو مُتهم أو منجد
ما زال ذاك النور في عرنينه حتى تبوّأ بيته في الملحدِ[1]

هذه نماذج لبعض الوفود التي وفدت في السنة التاسعة وهي تمثل القبائل القاطنة في أطراف الحجاز الشمالية والشرقية والجنوبية، وسوف يأتينا ذكر بعض الوفود في حوادث السنة العاشرة حيث نص المؤرخون على وفادتهم في تلك السنة، بالاضافة إلى وفود لم تحدد لنا النصوص تاريخ وفادتها، إلاّ أن بعض القرائن تشير إلى أن قدومها كان بعد فتح مكة.

وفادات أهل اليمن:

وفدت على رسول الله ﷺ من بلاد اليمن وقبائلها وفود كثيرة، ابتدأت بوفد طيء في السنة الثامنة واستمرت إلى المحرم من سنة إحدى عشرة حيث «كان آخر من قدم من الوفد على رسول الله ﷺ وفد النخع»[2].

وبلاد اليمن موطن لقبائل كثيرة، ولهذا نجد كثرة وفود أهل اليمن على رسول الله ﷺ !

وفيما يلي ذكر لبعض هذه الوفود التي وفدت على النبي ﷺ في السنة التاسعة:

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤٩ - ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٦٧ .

أولا: وفد قبيلة طيء:

لم يذكر ابن سعد ولا ابن إسحاق تاريخ قدوم وفد طيء على رسول الله ﷺ، إلاّ أنّ بعض المصادر تنص على أن قدومهم كان في السنة التاسعة[١].

قال ابن إسحاق: «وقدم على رسول الله ﷺ وفد طيء، فيهم زيد الخيل، وهو سيدهم، فلما انتهوا إليه كلّموه، وعرض عليهم رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلموا فحسُن إسلامهم، وقال رسول الله ﷺ: «ما ذكر لي رجل من العرب، إلاّ رأيته دون ما يقال فيه، إلاّ زيد الخيل، فإنّه لم يبلغ كلّ ما فيه»، ثمّ سماه رسول الله ﷺ، زيد الخير، وقطع له فَيداً[٢]، وأرضين معه، وكتب له بذلك، فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعاً إلى قومه.. فلما انتهى من بلد بنجد إلى ماء من مياهه، يقال له فردة، أصابته الحُمّى بها فمات.. فلما مات عمدت امرأته إلى ما كان معه من كُتبه، التي قطع له رسول الله ﷺ فحرّقتها بالنار»[٣].

ثمّ ذكر ابن إسحاق وابن سعد قصة عدي بن حاتم وفراره إلى الشام، وأسر أُخته وقدومها إلى رسول الله.. وقد تحدثنا عن ذلك سابقاً.

ثانياً: وفد قبيلة تُجيب:

قال ابن سعد: قدم وفد تُجيب على رسول الله ﷺ سنة تسع، وهم ثلاثة عشر رجلا، وساقوا معهم صدقات أموالهم التي فرض الله عليهم، فسُرّ رسول الله ﷺ بهم وقال: «مرحباً بكم» وأكرم منزلهم وحباهم، وأمر بلالا أن يحسن

---

(١) ابن عبد البر، الاستيعاب في معرفة الأصحاب: ١ / ٥٦٣ مطبوع على هامش الاصابة لابن حجر: ١ / ٥٧٢ .

(٢) فيد: اسم مكان، بشرقي سلمى وسلمى: أحد جبلي طيّء وهو الذي ينسب إليه حمى فيد (البكري، معجم ما استعجم: ٢ / ١٠٣٣) .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٧٧ – ٥٧٨، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٥ .

ضيافتهم وجوائزهم، وأعطاهم أكثر مما كان يجيز به الوفد، وقال: «هل بقي منكم أحد؟ قالوا: غلام خلفناه على رحالنا وهو أحدثنا سنّاً، قال: «أرسلوه إلينا» فأقبل الغلام إلى رسول الله ﷺ فقال: إني امرؤ من بني أبناء الرهط الذين أتوك آنفاً فقضيت حوائجهم فاقض حاجتي، قال ﷺ: «وما حاجتك؟» قال: تسأل الله أن يغفر لي ويرحمني ويجعل غناي في قلبي، فقال ﷺ: «اللهم اغفر له وارحمه واجعل غناهُ في قلبه» ثمّ أمر له بمثل ما أمر به لرجل من أصحابه. فانطلقوا راجعين إلى أهليهم، ثمّ وافوا رسول الله ﷺ في الموسم سنة عشر، فسألهم رسول الله ﷺ عن الغلام، فقالوا: ما رأينا مثله اقنع منه بما رزقه الله، فقال رسول الله ﷺ: إنّي لأرجو أن نموت جميعاً».

وفي رواية الحلبي أن رسول الله ﷺ قال لهم - بعد أن أخبروه عن ذلك الغلام - «الحمد لله، إني لأرجو أن نَموت جميعاً» فقال رجل منهم: أو ليس يموت الرجل جميعاً يا رسول الله؟ فقال رسول الله: «تَشعب اهواؤه وهمومه في أودية الدنيا، فلعل الأجل يدركه في بعض تلك الأودية فلا يبالي الله عزّ وجل في أيها هلك»[1].

ثالثاً: وفد بليّ، (حيٌّ من قضاعة):

روى ابن سعد عمّن حدثه عن رويفع بن ثابت البلوي: «قدم وفد قومي في شهر ربيع الأول سنة تسع، فأنزلتهم في منزلي ببني جديلة، ثمّ خرّجتهم حتى انتهينا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس مع أصحابه في بيته في الغداة، فقدم شيخ الوفد أبو الضّباب فجلس بين يدي رسول الله ﷺ فتكلّم، وأسلم القوم، وسألوا رسول الله ﷺ عن الضيافة وعن أشياء من أمر دينهم، فأجابهم، ثمّ رجعتُ بهم إلى منزلي، فإذا رسول الله ﷺ، يأتي بحمل تمر يقول: «استعن بهذا التمر»،

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٦، والحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٢٤ .

قال: فكانوا يأكلون منه ومن غيره، فأقاموا ثلاثاً، ثمّ جاؤوا رسول الله ﷺ يودعونه، فأمر لهم بجوائز كما كان يجيز من كان قبلهم، ثمّ رجعوا إلى بلادهم».

وفي رواية الحلبي: «وقدم بهم رويفع على رسول الله فقال له: هؤلاء قومي، فقال له رسول الله ﷺ: مرحباً بك وبقومك، فأسلموا، وقال لهم رسول الله: الحمد لله الذي هداكم للإسلام، فمن مات منكم على غير الإسلام فهو في النار»[١].

رابعاً: وفد بني عذرة (قبيلة باليمن من قضاعة):

روى ابن سعد عمّن حدثه عن أبي عمرو بن حريث العذري قال: «وجدتُ في كتاب آبائي، قالوا: قدم على رسول الله ﷺ، في صفر سنة تسع، وفدنا اثنا عشر رجلا.. فنزلوا دار رملة بنت الحارث النجارية، ثمّ جاؤوا إلى النبي ﷺ، فسلّموا بسلام أهل الجاهلية، وقالوا: نحن إخوة قصيّ لأُمه، ونحن الذين أزاحوا خزاعة وبني بكر عن مكة، ولنا قرابات وأرحام! فقال رسول الله ﷺ: مرحباً بكم وأهلا، ما أعرفني بكم، ما منعكُم من تحية الإسلام؟ قالوا: قدمنا مرتادين لقومنا. وسألوا النبي ﷺ عن أشياء من أمر دينهم فأجابهم فيها، وأسلموا وأقاموا أياماً ثمّ انصرفوا إلى أهليهم، فأمر لهم بجوائز كما كان يجيز الوفد، وكسا أحدهم بُرداً»[٢].

خامساً: وفد قبيلة حِمير:

روى ابن سعد عمّن حدثه، عن رجل من حمير أدرك رسول الله ﷺ،

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٥٩، والحلبي: ٣ / ٣٣١.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٩ - ١٦٠ وقارن برواية الحلبي في السيرة الحلبية: ٣ / ٣٢٩ - ٣٣٠.

ووفد عليه قال: «قدم على رسول الله ﷺ، مالك بن مرارة الرّهاوي رسول ملوك حمير بكتابهم وإسلامهم، وذلك في شهر رمضان سنة تسع، فأمر بلالا أن ينزله ويكرمه ويضيّفه، وكتب رسول الله ﷺ إلى الحارث بن عبد كلال، وإلى نعيم بن عبد كُلال، وإلى النعمان ذي رُعين، ومعافر وهمدان: أما بعد ذلكم، فإنّي أحمدُ الله الذي لا إله إلاّ هو، أمّا بعد: فإنّه قد وقع بنا رسولكم مَقفلنا من أرض الرّوم، فبلغ ما أرسلتم وخبّر عمّا قبلكم وأنبأنا بإسلامكم وقتلكم المشركين، فإنّ الله تبارك وتعالى قد هداكم بهداهُ إن أصلحتم وأطعتم الله ورسوله وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأعطيتم من المغنم خُمس الله وخمسَ نبيّه وصفيّه وما كتب على المؤمنين من الصدقة»[1].

هذه أهم القبائل اليمنية التي وفدت إلى النبي في السنة التاسعة، وهنالك قبائل كبيرة مثل قبيلة جيشان، ومهرة، وحضرموت، وكندة، وهمدان، والأزد، وزبيد، ومراد... قد أرسلوا وفودهم في السنة العاشرة.. سوف نذكرها في محلها من الدروس الآتية.

٥ – من معطيات عام الوفود

لا يمكن أن نحصل على صورة كاملة للمعطيات السياسية والاجتماعية لحركة الوفود إلى المدينة، ما لم نستعرض كلّ الوفود التي جاءت إلى النبي ﷺ وإلى أواخر سنيّ حياته، وما رافق هذه الوفود من جزئيات الأحداث.

إلاّ أن استعراض كل هذه الوفود وتسجيل المعطيات العملية التي حصلت من وفود كلّ وفد وفد يحتاج إلى جهد كبير بل يحتاج إلى مؤلف مستقل[2]، ولا

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٧١، وانظر كتاب النبي ﷺ – برواياته المتعددة – في مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٢١٩ وما بعدها.

(٢) انظر: «وفود القبائل على الرسول» للدكتور حسن جبر، ١٩٨٧ م.

يسعه هذا المختصر من الدروس.

ولهذا سوف نكتفي باستعراض المعالم العامة لهذه المعطيات وباختصار شديد:

أولا: الاعتراف بوحدة الدولة الإسلامية ووحدة قيادتها:

من الواضح أن هذه الوفود إنما قدمت إلى المدينة مرسلة من عشائرها، وممثلة لها، ومخوّلة من قبلها في التفاوض مع النبيﷺ، وعقد المعاهدات معه، بل أن بعض الأفراد كانوا يقدمون على النبيﷺ ويبايعون عن أنفسهم وعن قومهم من وراءهم، «وكان إسلام الوفد يعتبر معبِّراً عن إسلام عشيرته، ولم يرد ذكر لاحتجاج أية قبيلة على إسلام وفدها أو مقاومتهم له، وكان الإسلام رمزاً لارتباط القبيلة بدولة الإسلام. والواقع، أن اعلان الوفود لإسلامها كان اعترافاً ضمنياً منها بوحدة الدولة وسلطتها العليا مُمثَّلة بالرسولﷺ»[1].

ثانياً: توسع جغرافية الدولة الإسلامية سلمياً:

لقد أسلفنا سابقاً بأن هذه الوفود قد قدمت بنفسها سلمياً ومن دون تهديد، وعندما نستعرض القائمة الطويلة التي يذكرها ابن سعد وغيره من المؤرخين للقبائل التي قدمت وفودها إلى الرسولﷺ بعد فتح مكة، وفي السنتين الأخيرتين من حياته، نجدها قد شملت عشائر هضبة نجد، وعدداً من عشائر شرق الجزيرة ومعظم عشائر اليمن.

وهذا يعني بوضوح التوسع الكبير والامتداد الجغرافي الذي امتدت إليه دولة الإسلام وبطريقة سلمية، وبمبادرة مِن العشائر ذاتها بعد أن وصلتها بشائر

(١) العلي - د. صالح أحمد، دولة الرسول في المدينة: ٣٤٢ طبعة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، ط. الأُولى، ٢٠٠١ م.

الإسلام، وأشرق فجرها الصادق عليها.

وأصبح الإسلام - وخلال هذه الفترة الوجيزة - بعدما كان محاصراً في مكة وبين شعابها وأوديتها، يضرب بأجنحته في شرق الأرض وغربها ليشمل رقعة جغرافية تتجاوز المدينة والجزيرة إلى خارج حدودها.

ثالثاً: التحول الاجتماعي من مُثل العشيرة إلى مُثل الإسلام:

يتبين لنا من خلال استعراض كيفية تعامل النبيﷺ مع وفود القبائل، أن النبيﷺ كان مرناً للغاية في تعامله معهم، فلم يفرض على هذه القبائل متطلبات كثيرة أو ثقيلة، أو قيوداً شديدة، ترهق كاهلهم، أو لا يمكنهم الالتزام بها لأنها تتنافى مع أعرافهم القبلية. فبقيت هذه القبائل محتفظة بكيانها القبلي ورؤسائها ونظمها وأنسابها وروابطها مع القبائل الأُخرى، مادامت لا تتعارض مع مبادئ الإسلام الأساسية.

بل وجدنا النبيﷺ يتعامل بتقدير كثير مع المُثل الأخلاقية التي كانوا يعتزون بها كصلة الرحم، ورعاية الجار، والوفاء بالعهد، وتقدير الكرم والشجاعة. . . .

غير أن الروابط والسمات القبلية الضيقة والتي لم يحملهم رسول اللهﷺ على تغييرها قسراً، بدأت تتحول وتتغير تدريجياً - كأي ظاهرة اجتماعية - إلى روابط أوسع وأعمق وأكثر شمولا وتقوم على أُسس انسانية يؤطرها العقيدة والفكر، وتعزِّزها مُثل جديدة، وأساليب جديدة لتحقيق مصالح الأُمة وليس لمجرد مصالح العشيرة أو مصالح رئيسها.

وهذه المنظومة من المُثل والقيم الجديدة - وإن كانت بحاجة إلى زمن طويل لترسيخها وتجذيرها في ذلك المجتمع، لأنه لم يكن مألوفاً لديها - إلاّ أن معالمها ظهرت من خلال مفردات كثيرة في حياة ذلك المجتمع، الذي تحول من

مُثل القبيلة المحدودة إلى مُثل الإسلام الواسعة، ونظام الدولة الواحدة الموحدة.

رابعاً: توحد الأُمة في عقيدتها:

لقد تسامح النبيﷺ مع وفود القبائل في القضايا التي لا تتنافى مع رسالة الإسلام ومبادئ العقيدة، إلاّ أنّهﷺ لم يتسامح معهم في القضايا التي جاء الإسلام ليقول فيها كلمة الفصل كالوثنية والشرك ومن يدين بهما. كذلك والربا والزنا والخمر وأمثالها من الأشياء التي حرمها الإسلام بشكل قاطع، ولهذا وقفﷺ بحزم أمام مطالب قبيلة ثقيف التي رفعت سقف مطالبها إلى حد غير مقبول، فلم يتسامح معهم النبيﷺ في أمر آلهتهم (اللات)، ولا في ترك الصلاة إذ «لا خير في دين لا صلاة فيه»، ولا في بقيّة المحرمات التي نص بعض المؤرخين مطالبة ثقيف بابقائها لأنها تحولت عندهم إلى سلوك اجتماعي، كلّ ذلك من أجل أن تتوحد الأُمة في عقيدتها، وتنبعث وحدتها من إيمانها بالله الواحد الأحد، ونبذ الشرك والوثنية، ومن ثمّ الإيمان بأن من له وحدة الأُلوهية هو الذي له العبودية، وهو الذي يأمر وينهى، وأوامره مقدسة يخضع لها جميع أفراد الأُمة، وهذا يعني توحد الأُمة في عقيدتها وعبادتها وسلوكها العملي.

٦ – قصة براءة وحج السنة التاسعة

أشرف العام التاسع للهجرة على نهايته، وحان موسم الحج إلى بيت الله الحرام، فهل يذهب رسول اللهﷺ إلى مكة لأداء مناسك الحج في هذا العام، أم يؤجل ذلك إلى عام قادم؟ وما هو السبب في ذلك؟

من الواضح أن النبيﷺ لم يكن يمنعه مانع من الذهاب إلى مكة لأداء الحج أو لأي غرض آخر بعد أن فتحت مكة في العام الثامن، إلاّ أنّهﷺ لم يحج في عام الفتح ولا في هذا العام! فما هو سبب ذلك؟

قد يكون سبب ذلك كما يقول البعض «إنه وجد نفسه مضطراً للبقاء في المدينة كي يتفرغ للوفود القادمة إليها من دونما انقطاع»[١] إلاّ أن هذا ليس هو السبب الحقيقي، إذ كان بالامكان تأجيل استقبال الوفود إلى ما بعد موسم الحج، أو استقبالهم في مكة ونواحيها خلال تواجده فيها، بالاضافة إلى أن الوفود قد انقطعت عن المدينة خلال موسم الحج لانشغال الناس بهذا الموسم، فلم تسجل لنا كتب التاريخ وفود أي قبيلة خلال هذه الفترة!

والذي يبدو ومن خلال المعطيات الجديدة التي أوجدتها فتح مكة، وعام الوفود، ثمّ آيات سورة البراءة التي بلّغها علي بن أبي طالب عليه السلام في حج العام التاسع، أن النبي صلى الله عليه وآله - وبتسديد من الله - كان يخطط ويمهد لعام آخر للحج، تكون فيها كلمة الإسلام وشعائر التوحيد هي السائدة في ذلك الموسم! وهذا ما حصل في حجة الوداع من العام العاشر من الهجرة كما سوف يأتي.

خلفيات قصة براءة:

يعتبر «البيت الحرام» في مكة المكرمة، أشرف بقعة اختارها الله سبحانه لعباده، لأداء مناسك العبودية الخالصة له وحده، وهو أول بيت وضع للناس على أساس التوحيد الخالص، ووضع أُسسه بأمر من الله شَيخ الأنبياء والمرسلين إبراهيم الخليل بمعية ولده إسماعيل عليهما السلام . وقد تحدث القرآن الكريم عن البيت الحرام، وقصة بنائه، وكيفية أداء المناسك العبادية فيه.. في أكثر من سورة ومن خلال الكثير من الآيات المباركة.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا۟ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى ۖ وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ

(١) خليل، عماد الدين: دراسة في السيرة: ٢٦٤ .

أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَـٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾[1].

وهذه الآيات تتحدث عن المرحلة التأسيسية لهذا البيت، حيث أُسس على أساس التوحيد الخالص لله وطُهِّر من كل مظاهر الشرك والوثنية، وأصبح مكان مثابة الناس وعودتهم إلى الله لأداء الصلاة والعبادة بكل أشكالها من ركوع وسجود واعتكاف وطواف. . . .

وكان ينبغي أن يبقى البيت العتيق رمزاً للتوحيد على كرِّ الدهور والأيام، وأن تبقى صبغة التوحيد الخالصة من كل شائبة شرك أو وثنية هي التي تمظهر الوافدين إليه من كل فج عميق.

ولكن - وللأسف - تحولت هذه البقعة المباركة من مركز للتوحيد، إلى مركز رئيسي للوثنية ورموزها، ومن مظاهر العبادة التوحيدية، إلى مظاهر الشرك السخيفة التي لا يقرها شرع أو عقل!

يقول تعالى في وصف عبادة أُولئك المشركين في البيت المحرم: ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً . . .﴾[2].

وعندما فتح رسول الله ﷺ مكة، طهَّر «البيت الحرام» من مظاهر الوثنية، فكسر أصنامها وأزلامها وأنصابها. . ولم يبقِّ فيها أثراً مادياً يرمز إلى الأصنام التي

---

(١) البقرة: ١٢٥ و ١٢٧ إلى ١٣٢، وانظر الآيات: ٣٥ - ٣٦ من سورة إبراهيم .

(٢) الأنفال: ٣٥ .

كانت تعبد من دون الله سبحانه.

ولكن هل قضى ذلك على كل بقايا الوثنية والشرك ومظاهرها في نفوس أُولئك الأعراب الذين توارثوا هذه المظاهر أباً عن جد؟

كلاّ إذ لم يكن بالامكان ذلك، وكان يحتاج إلى عامل الزمن، وهذا ما عمل عليه رسول الله ﷺ بعد فتح مكة، حيث تقاسم التوحيد والشرك موسمي الحج في العامين الثامن والتاسع من الهجرة!

قال ابن إسحاق عن حج السنة الثامنة من الهجرة: «وحجّ الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحجّ عليه، وحجّ بالمسلمين تلك السنة عتّاب بن أُسيد».

ويقول عن حج السنة التاسعة من الهجرة: «ثمّ بعث - أي النبيّ - أبا بكر أميراً على الحجّ من سنة تسع، ليقيم للمسلمين حجهم، والناس من أهل الشرك على منازلهم من حجّهم»[1].

«فلما أقبل موسم الحج من السنة التاسعة، اجتمع المسلمون والمشركون حول البيت يؤدون مناسك الحج، وكل يؤدي مناسكه بحسب تقاليد عقيدته، المسلمون يؤدونها كما علمهم الإسلام، والمشركون يؤدونها على تقاليد الجاهلية الأُولى، المسلمون يطوفون مستورين، متجملين بكل ما يليق بقداسة المكان وكرامة الإنسان، والمشركون يطوفون مكشوفين، متحللين من الأوضاع الكريمة والآداب اللائقة!.. المسلمون يلبون قائلين: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» والمشركون يلبّون قائلين: «لبيك لا شريك لك، إلاّ شريكاً هو لك، تملكه وما ملك»، المسلمون يهللون ويكبرون، والمشركون يصفقون ويصفرون، عقائد متضاربة، وتقاليد متناقضة، وفوضى لا تليق بكرامة دولة، ولا تناسب

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٠٠، ٥٤٣.

وحدة أُمة، ولا تتفق مع الغرض الأساسي من حج هذا البيت، وهو اجتماع الناس في هذا المكان الواحد، وعلى أساس من المحبة والألفة والوفاق، يعبدون ربّاً واحداً، وينسكون نُسكاً واحداً، ويدينون بدين واحد. .»[١].

ولهذا جاءت آيات صدر سورة براءة لتعالج هذه القضية من جهة، وتحدد موقف المسلمين من بقايا المشركين في جزيرة العرب، ولتضع حداً فاصلا بين هؤلاء وهؤلاء، وهذا ما حصل في حج السنة العاشرة.

ومن جهة ثانية عالجت آيات براءة قضية الولاء للدولة الإسلامية، وتحديد الموقف اتجاه من بقي على شركه ووثنيته.

«إنّ مكة قاعدة الوثنية سقطت، وأصبحت الدولة الإسلامية هي القوة السياسية المتفردة في زعامة الجزيرة، فلابد من تحديد جميع سكانها موقفهم في الولاء.

فأما أهل الذمّة فكانت الجزية رمز انتمائهم وولائهم، وأما العرب فقد أعلنت معظم قبائلهم في عام الوفود وقبله عن انتمائها للدولة والدين الجديد، ولم تبق إلاّ قلة كان لابد من توجيه نداء إليها لتحديد موقفها. ووجود فئة لا تدين بمبادئ الدولة ولا تخضع لقوانينها أمر بالغ الخطورة في كيان الدولة الداخلي، وكان لابد أن يخضع هؤلاء الناس لنظام الدولة أو يحاربوا، بمعنى أن يوضعوا في حكم الأعداء، ولكنهم اعداءٌ داخليون يترتب على عدوانهم خطر كبير على كيان الدولة.

ومن هنا لم يقبل الإسلام منهم إلاّ الدخول فيه، وليس للمشركين ديانة تُحترم ولا مُثُلٌ تفرض هذا الاحترام؛ كأصحاب الديانات السماوية الأُخرى التي

---

(١) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٧٨ - ٥٧٩ .

اعترف بها الإسلام واعتبر الدين وحدة واحدة»[١].

هذان الجانبان عالجتهما آيات صدر سورة براءة، فجاء بيان السنة التاسعة وفي موسم الحج تحديداً، ليؤتي ثمرته في حج العام العاشر؛ حيث حج رسول الله ﷺ حجته الأخيرة على أسس التوقيت الإسلامي الكامل لهذه الشعيرة، وحج معه فيها حوالي مائة ألف حاج من العرب، لم يكن من بينهم مشرك واحد.

اختصاص الرسول عليّاً عليه السلام بتأدية براءة عنه:

تحت هذا العنوان روى ابن إسحاق: «عن حكيم بن حكيم بن عبّاد بن حُنيف، عن أبي جعفر محمد بن علي (رضوان الله عليه) أنه قال: لما نزلت «براءة» على رسول الله ﷺ، وقد كان بعث أبا بكر الصدّيق ليقيم للناس الحجّ، قيل له: يا رسول الله لو بعثت بها إلى أبي بكر، فقال ﷺ: لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي، ثمّ دعا عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه، فقال له: اخرج بهذه القصة من صدر براءة، وأذّن في الناس يوم النحر إذا اجتمعوا بمنى، أنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو له إلى مدّته، فخرج عليّ بن أبي طالب (رضوان الله عليه) على ناقة رسول الله ﷺ العَضباء، حتى أدرك أبا بكر بالطريق فلما رآه أبو بكر بالطريق قال: أأمير أم مأمور؟ فقال: بل مأمور، ثمّ مضيا.

فأقام أبوبكر للناس الحجّ، والعرب إذ ذاك في تلك السنة على منازلهم من الحج، التي كانوا عليها في الجاهلية، حتى إذا كان يوم النحر، قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأذّن في الناس بالذي أمره به رسول الله ﷺ فقال: أيها الناس، إنه لا يدخل الجنة كافر، ولا يحجّ بعد العام مُشرك، ولا يطوف بالبيت عُريان، ومن

(١) خليل - عاد الدين، دراسة في السيرة: ٢٦٦ نقلا عن أحمد إبراهيم الشريف، مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول.

كان له عند رسول الله ﷺ عهد فهو إلى مدّته، وأجّل الناس أربعة أشهر من يوم أذّن فيهم، ليرجع كلّ قوم إلى مأمنهم أو بلادهم، ثمّ لا عهد لمشرك ولا ذمة إلاّ أحد كان له عند رسول الله ﷺ عهد إلى مدّة، فهو إلى مدته، فلم يحجّ بعد ذلك العام مشرك، ولم يطف بالبيت عُريان»[١].

والذي يتضح لنا من هاتين الروايتين:

أولا: إنّ أمير الحج لسنة تسع من الهجرة كان أبا بكر، وبمعيته جمع من المسلمين يعدهم الواقدي بثلاثمائة.

ثانياً: إنّ براءة قد نزلت على رسول الله ﷺ بعد أن بعث أبا بكر ليقيم للناس الحج.

ثالثاً: إنّ رسول الله ﷺ اختص علياً بتأدية براءة عنه، وقال: لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي.

رابعاً: لا يفهم من عبارة رواية ابن إسحاق فيما حكى عن سؤال أبي بكر لعلي: «أأمير أم مأمور؟ وقول علي: بل مأمور» أن علياً كان مأموراً تحت أمرة أبي بكر، وإنما يفهم من قوله عليه السلام: «بل مأمور» أي مأمور بأداء براءة عن رسول الله ﷺ إلى الناس. وهذا ما تفصح عنه رواية الواقدي بوضوح. بالاضافة إلى أنه لم يعهد من سيرة رسول الله ﷺ في إرسال قادة السرايا والبعثات أن جعل علياً تحت أمرة شخص آخر، وهذا ما كان يفهمه أبوبكر جيداً، ولهذا عندما رأى علياً عليه السلام على ناقة رسول الله ﷺ بادره بالقول: «استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثني أقرأ «براءة» على الناس»[٢].

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٤٥ - ٥٤٦ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٧٧ .

خامساً: ليس في الروايتين أي تصريح أو تلويح بأن علياً قد تولى أمرة الحج في هذا العام، ولا فيهما أن أبا بكر قد صار تحت أمرة علي عليه السلام فيها، ولا نجد في الروايتن أن أبا بكر قد عاد إلى المدينة غاضباً ومعاتباً لرسول الله صلى الله عليه وآله لارساله علياً عليه السلام خلفه، وإنما جاء في رواية ابن إسحاق: «ثمّ قدما على رسول الله صلى الله عليه وآله »[1] أي بعد موسم الحج.

سادساً: جاء في رواية ابن إسحاق قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «لا يؤدي عني إلاّ رجل من أهل بيتي» ثمّ دعا علياً فقال اخرج بهذه القصة من صدر براءة.. وهذه فضيلة كبيرة لعلي عليه السلام لا يشاركه فيها أحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله، وفيها دلالات ومفاهيم كثيرة تأتي الاشارة إلى بعضها.

هذا كلّ ما يتضح لنا من روايتي ابن إسحاق والواقدي. إلاّ أن هذه القضية قد وردت فيها روايات كثيرة من الفريقين تخالف في بعض تفاصيلها روايتي ابن إسحاق والواقدي.

وقد نقل السيّد الطباطبائي في البحث الروائي لصدر آيات سورة براءة جملة من روايات الفريقين ثمّ عقب على ذلك بقول:

«والروايات من طرق أئمة أهل البيت عليهم السلام في هذه المعاني فوق حد الاحصاء» وقال أيضاً: «وفيما نقلناه من الروايات وما تركناه منها وهو أكثر..»[2].

وفيما يلي طرف من بعض هذه الروايات:

ففي تفسير القمي: «... فلما نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٥٤٦ .

(٢) الطباطبائي - محمد حسين، الميزان في تفسير القرآن: ١٠ / ١٦٣ - ١٦٤ .

الله إلى أبي بكر وأمره أن يخرج إلى مكة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر، فلما خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله ﷺ فقال: يا محمد لا يؤدي عنك إلاّ رجل منك.

فبعث رسول الله ﷺ أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء وأخذ منه الآيات، فرجع أبو بكر إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أنزل الله فيّ شيئاً؟ فقال: لا، إنّ الله أمرني أن لا يؤدي عني إلاّ أنا أو رجل مني».

وفي تفسير العياشي: «إن رسول الله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال: لا يبلغ عنك إلاّ علي، فدعا رسول الله ﷺ علياً وأمر أن يركب ناقته العضباء، وأمره أن يلحق أبابكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على الناس بمكة فقال أبو بكر: اسخط؟ فقال: لا، إلاّ أنّه أنزل عليه أنه لا يبلغ إلاّ رجل منك»[1].

وفي رواية الشيخ المفيد في الإرشاد: «.. ما جاء في قصّة البراءة، وقد دفعها النبيّ ﷺ إلى أبي بكر... فلمّا سار غير بعيد نزل جبرئيل على النبي ﷺ فقال له: إنّ الله يقرئك السلام، ويقول لك: لا يؤدّي عنك إلاّ أنت أو رجل منك. فاستدعى رسول الله ﷺ علياً عليه السلام وقال له: «اركب ناقتي العضباء والحق أبا بكر فخذ براءةً من يده، وامض بها إلى مكة، فانبذ عهد المشركين إليهم، وخيّر أبا بكر بين أن يسير مع ركابك، أو يرجع إليّ».

فركب أمير المؤمنين.. وسار حتى لحق أبا بكر، فلمّا رآه فزع من لحوقه به، واستقبله وقال: فيم جئت يا أبا الحسن؟ أسائر معي أنت، أم لغير ذلك؟ فقال له أمير المؤمنين عليه السلام: «إنّ رسول الله ﷺ أمرني أن ألحقك فأقبض منك الآيات من براءة، وأنبذ بها عهد المشركين إليهم، وأمرني أن أُخيّرك بين أن تسير معي،

(١) المصدر نفسه: ١٠ / ١٦٢ نقلا عن تفسير القمي والعياشي.

أو ترجع إليه».

فقال: بل ارجع إليه، وعاد إلى النبيﷺ، فلمّا دخل عليه قال: يا رسول الله، إنّك أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه إليّ، فلمّا توجّهتُ له رددتني عنه، مالي، أنزل فيّ القرآن؟

فقال النبيﷺ: «لا، ولكنّ الأمين هبط إليّ عن الله جلّ جلاله بأ نّه لا يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجلٌ منك، وعليّ منّي، ولا يؤدي عني إلاّ علي» في حديث مشهور»[١].

وفي الدر المنثور للسيوطي:

وأخرج عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن علي رضي الله عنه قال: «لما نزلت عشر آيات من براءة على النبيﷺ دعا أبا بكر رضي الله عنه فقال: يا رسول الله أنزل فيّ شيء؟ قال: لا، ولكن جبريل جاءني فقال لن يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك».

وبنفس المصدر عن سعد بن أبي وقاص قال: «إنّ رسول الله بعث أبا بكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكة، ثمّ بعث علياً رضي الله عنه على أثره، فكان أبو بكر رضي الله عنه وجد في نفسه، فقال النبيﷺ: يا أبا بكر إنه لا يؤدي عني إلاّ أنا أو رجل منّي».

وفي رواية عن أنس قال: «بعث النبي ببراءة مع أبي بكر رضي الله عنه، ثمّ دعاهُ فقال: لا ينبغي لأحد أن يبلّغ هذا إلاّ رجل من أهلي، فدعا علياً فأعطاه إياه»[٢].

ونلاحظ في هذه الروايات المرويّة عن الفريقين هو عودة أبي بكر إلى

---

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ٦٥ - ٦٦.

(٢) السيوطي، الدر المنثور: ٤ / ١١٢ - ١١٣.

المدينة للاستفسار من رسول الله ﷺ عن سبب أخذ براءة منه، وتكليف علي عليه السلام بابلاغها، فأخبره رسول الله ﷺ عن سبب ذلك.

إلاّ أنّ هذه الروايات لا تخبرنا عن أنّ علياً عليه السلام هو الذي تولى إمرة الحج في ذلك العام، وإنما تجمع الروايات على أنّه عليه السلام قد أبلغ براءة وما أمره رسول الله ﷺ ابلاغه في أيام التشريق أو عند العقبة.

إلاّ أنّ رواية سعيد بن المسيب عن أبي هريرة تقول: «وأنّ أبا بكر رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة في حجة أبي بكر، فقال أبو هريرة: ثم أتبعنا النبي ﷺ علياً رضي الله عنه، أمره أن يؤذن ببراءة وأبو بكر رضي الله عنه على الموسم كما هو، أو قال: على هيئته»[١].

وفي رواية الترمذي عن ابن عباس: «أن رسول الله ﷺ بعث أبا بكر رضي الله عنه، وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات، ثمّ اتبعه علياً رضي الله عنه وأمره أن ينادي بها، فانطلقا فحجا..»[٢].

وفي رواية أن رسول الله قال لأبي بكر: «فَسِر وأنت على الموسم، وعليّ ينادي بالآي» وفي أُخرى: فسار أبو بكر على الحاج وعلي يؤذن ببراءة[٣].

فهذه الروايات تؤكد حج أبي بكر! ولعلّه قد عاد إلى الموسم بعد أن استفسر من رسول الله ﷺ فزال من نفسه ذلك الوجد الذي حصل له من أخذ براءة منه!

إلاّ أنّ بعض الروايات الأُخرى تنص على أن علياً قد تولى الموسم في ذلك العام، يقول الطبرسي: «وروى أصحابنا أن النبي ﷺ ولاّه أيضاً الموسم، وأنه

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ١١٣، والميزان: ١٠ / ١٦٦.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ١١٤ عن سنن الترمذي: كتاب تفسير القرآن باب سورة توبة (٣٠٩١).

(٣) الأميني، الغدير: ٦ / ٤٩٣.

حين أخذ (البراءة) من أبي بكر، رجع أبو بكر». إلاّ أن الطبرسي لا يذكر لنا شيئاً من الروايات، سوى رواية الحسكاني.. عن أنس: «انّ رسول الله ﷺ، بعث بـ (براءة) مع أبي بكر إلى أهل مكة، فلما بلغ ذا الحليفة، بعث إليه فردّه، وقال: لا يذهب بهذا إلاّ رجل من أهل بيتي! فبعث علياً عليه السلام».

إلاّ أنّ السيّد الطباطبائي بعد أن نقل ما ذكره الطبرسي، ذكر رواية العياشي عن الحسن عن علي عليه السلام: انّ النبي ﷺ حين بعثه ببراءة قال: يا نبي الله إني لست بلسن ولا بخطيب، قال ﷺ: «يأبى الله ما بي إلاّ أن أذهب بها أو تذهب أنت» قال: فإن كان لابد فسأذهب أنا، قال: «فانطلق فإن الله يثبت لسانك ويهدي قلبك» ثمّ وضع يده على فمه فقال: انطلق واقرأها على الناس، وقال ﷺ: «الناس سيتقاضون إليك فإذا أتاك الخصمان فلا تقضِ لواحد حتى تسمع الآخر، فإنه أجدر أن تعلم الحق».

والرواية - كما هو واضح من متنها - ليس فيها تصريح بتولي عليٍّ عليه السلام لأمارة الحج، إلاّ أنّ السيد الطباطبائي يستفيد منها كمؤيد لما قاله الطبرسي فيقول: «وربما تأيد ذلك - أي ما ذكره الطبرسي - بما ورد أن علياً كان يقضي في سفره ذلك، إذ من المعلوم أن مجرد الرسالة بتأدية براءة لا تتضمن الحكم بالقضاء بين الناس، وأوفق ما يكون ذلك في تلك الأيام بالأمارة»[1].

ومهما يكن من أمر، فقد وقع كلام طويل، ومشاجرات كلامية بين الفريقين: أهل السنّة والشيعة في قصة تبليغ براءة، وحج العام التاسع «والباحث الناقد إذا راجع الآيات والروايات، ثمّ تأمل ما جرت من المشاجرات بين الفريقين في باب الأفضلية، لم يرتب في انهم خلطوا بين البحث التفسيري الذي شأنه

(١) الطباطبائي، الميزان: ١٠ / ١٦٦ والرواية في تفسير العياشي: ٢ / ٧٥ حديث ٩ .

تحصيل مداليل الآيات القرآنية، والبحث الروائي الذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غثها عن سمينها، وبين البحث الكلامي الناظر في أن أبا بكر أفضل من علي أو علياً أفضل من أبي بكر؟ وفي أن إمارة الحاجّ أفضل، أو الرسالة في تبليغ آيات براءة؟ ولمن كان امارة الحج إذ ذاك لأبي بكر أو لعلي؟»[١].

والبحث في هذه الجوانب خارج عن غرض درسنا، ويكفينا ما استعرضنا من نصوص تاريخية وروائية تتعلق بهذه القضية وحيثياتها، أما المقارنة بينها، ومناقشة الآراء الواردة فيها، فهي بحاجة إلى جهد كبير، وإطالة بحث لا يسعه مجال البحث هنا، وقد كفتنا مؤنة ذلك الكتب الكلامية في مباحث الإمامة، فلتراجع في محلها[٢].

ومن أهم ما يمكن أن نشير إليه من خلال التأمل في قول رسول الله ﷺ: «إنه لا يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك» نكتتان أصليتان - كما يقول السيد الطباطبائي -:

إحداهما: أن بعث النبي ﷺ علياً ببراءة وعزله أبا بكر انما كان بأمر من ربه بنزول جبرئيل: «إنّه لا يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك»، ولم يقيد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد.. فلا دليل على تقييده ببراءة على ما وقع في كثير من التفاسير، ويؤيد الإطلاق ما سيأتي.

وثانيتهما: «أنّ علياً عليه السلام كما كان ينادي ببراءة، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو أن من كان له مدة فهو إلى مدته، ومن لم يكن له مدة فمدته أربعة أشهر، وهذا أيضاً مما يدل عليه آيات براءة، وبحكم آخر وهو أنه لا يطوف بالبيت عريان، وهو أيضاً حكم إلهي مدلول عليه بقوله تعالى: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ

(١) المصدر نفسه: ١٠ / ١٦٩.

(٢) للتوسع: انظر، الأميني، الغدير: ١ / ٩٨ و ٦ / ٤٧٦ وما بعدها.

زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾[١]. وحكم آخر أنه لا يطوف أو لا يحج البيت مشرك بعد هذا العام، وهو مدلول قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[٢].

وهناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب انه عليه السلام كان ينادي به: «إنه لا يدخل الجنة إلاّ مؤمن».

وعلى أي حال لم تكن رسالة علي عليه السلام مقصورة على تأدية آيات براءة، بل لها ولتبليغ ثلاثة أو أربعة أحكام قرآنية أُخرى، والجميع مشمول لما أُنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله صلى الله عليه وآله: «إنّه لا يؤدي عنك إلاّ أنت أو رجل منك» إذ لا دليل على تقييد الكلام على اطلاقه أصلا»[٣].

محاولات نفي هذه الفضيلة عن علي عليه السلام:

إلاّ أنّ بعضهم حاول أن يقلل من شأن هذه القضية، وجعلها من الأُمور العادية العرفية، وبالتالي فهي لا تثبت فضيلة لعلي تضاهي أو تفوق ما ثبت لأبي بكر من فضيلة أمرة الحج!! على حد زعمهم!!

فقالوا أولا: بتقييد اطلاق قول رسول الله: «لا يؤدّي عني إلاّ أنا أو رجل مني» وأنها مخصوصة بتأدية براءة فقط من غير أن تشمل سائر الأحكام التي كان ينادي بها علي عليه السلام!

وثانياً: قالوا: «أن تعيينه صلى الله عليه وآله علياً بتبليغ آيات براءة.. انما هو لما كان من عادة العرب أن لا ينقض العهد إلاّ عاقده أو رجل من أهل بيته، ومراعاة هذه العادة الجارية هي التي دعت النبي صلى الله عليه وآله أن يأخذ براءة - وفيها نقض ما للمشركين

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) التوبة: ٢٨.

(٣) الطباطبائي، الميزان: ١٠ / ١٦٤ - ١٦٥.

من عهد - من أبي بكر ويسلمها إلى علي ليستحفظ بذلك السنّة العربية فيؤدّيها عنه بعض أهل بيته».

وثالثاً: قالوا - تأسيساً على ما سبق -: لم ينفصل أبو بكر من شأنه فقد كانﷺ قلّده امارة الحاجّ، وكان لأبي بكر مؤذّنون، يؤذّنون بهذه الأحكام كأبي هريرة وغيره من الرجال الذين لم يذكر اسماؤهم في الروايات، وكان علي أحد من عنده لهذا الشأن! ولذا ورد في بعضها: إنه خطب بمنى ولما فرغ من خطبته التفت إلى علي وقال: قُم يا علي وأدِّ رسالة رسول الله ﷺ[1].

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند مثل الدعوى التي لا تستند إلى دليل مقنع، فقول رسول اللهﷺ مطلق ولا مقيد له من نقل أو عقل، كما أفصحت عن ذلك ظاهر الروايات.

ثمّ إن دعوى كون ما قام به النبيﷺ من تكليف عليعليه السلام ببراءة لأنه من عصبته وابن عمه وكانت السنة الجارية عند العرب أن لا ينقض العهد إلاّ عاقده أو رجل من أهل بيته.

فهي دعوى باطلة ولا دليل عليها، فما كان النبيﷺ ليحيي سنة جاهلية، بل كان في كل يوم ينسخ سنة جاهلية، وقد قالﷺ عند فتح مكة «أَلا كل مأثرة أو دم أو مال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلاّ سدانة البيت وسقاية الحاج»[2].

وقد أنكر بعض العلماء كالسيد المرتضى أن تكون عادة العرب ذلك، وأيّده ابن أبي الحديد المعتزلي فقال: «فالذي قاله المرتضى أصحّ وأظهر، وما نُسب إلى عادة العرب غير معروف، وإنما هو تأويل تأوّل به متعصبو أبي بكر لانتزاع

(١) المصدر نفسه: ١٠ / ١٦٨ - ١٦٩.

(٢) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٤٣٦.

براءة منه، وليس بشيء»[١].

والعجيب في الأمر أن هؤلاء تجاهلوا كون الأمر من عند الله، وحملوا كلمة الوحي التي هي قول الله عزّ وجل نزل به جبريل على النبي ﷺ، وذكروا مكانها انه كانت سنة جارية...

وما قيل من تولي أبي بكر لموسم الحج، وإنه كان له مؤذنون منهم أبو هريرة، وكان علي عليه السلام أحدهم.. فهي دعوى تحتاج إلى اثبات، فليس هنالك اجماع على تولية أبي بكر لموسم الحج كما بينا ذلك من خلال استعراض الروايات، والروايات الحاكية لنداء أبي هريرة وغيره غير سديدة، ولا ينبغي الركون إليها - كما يقول صاحب الميزان[٢].

وقد ناقش العلماء هذه الدعوى مناقشة مستفيضة موسعة تراجع في مضانها لمن أراد التوسع في الموضوع[٣].

إلاّ أننا نشير في خاتمة هذا البحث إلى أنّ هذه الدعوى جاءت متأخرة عن عصر رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، فهؤلاء كانوا يعون جيداً كون ما جرى تثبت فضيلة كبرى لعلي عليه السلام لا يشاركه فيها أحد من الصحابة، فهذا الصحابي سعد بن أبي وقاص، الذي لم يكن يلتقي في هواه السياسي مع علي عليه السلام، بل كان من المناوئين له والمعرضين عن بيعته وخلافته[٤].

إلاّ أنّه عندما يسأل: «هل سمعت لعلي منقبة؟ قال: لقد شهدت له أربعاً،

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧ / ٢٠٠، وانظر كلام السيد المرتضى في الشافي: ٤ / ١٥٥.

(٢) الطباطبائي، الميزان: ١٠ / ١٧١.

(٣) للتوسع انظر: البحث الروائي للسيد الطبائي في الميزان: ١٠ / ١٦١ - ١٨٤، وما قاله صاحب المنار في تفسيره المنار: ١٠ / ١٦١ وما بعدها، ومناقشة السيّد الطباطبائي له في المصدر السابق. وكتاب الشافي للمرتضى ٤ / ١٥٢ وما بعدها.

(٤) انظر، كتابنا: نهضة كربلاء والعزة الحسينية: ٤٤٢ دار المحجة البيضاء- بيروت، (١٤٢٩ هـ-٢٠٠٨ م).

لأنّ تكون لي واحدة منهن أحب إليّ من الدنيا، أُعمّر فيها مثل عمر نوح: أنّ رسول الله ﷺ بعث أبا بكر ببراءة إلى مشركي قريش، فسار بها يوماً وليلة، ثمّ قال لعلي: اتبع أبا بكر فخذها وبلغها. فردَّ عليٌّ أبا بكر، فرجع يبكي، فقال: يا رسول الله أنزل فيَّ شيء؟ قال: «لا، إلاّ خيراً، إنه لا يبلغ عني إلاّ أنا أو رجل مني» أو قال: من أهل بيتي...»[١].

٧ - حوادث ووفيات

هنالك حوادث متفرقة أُخرى وقعت في السنة التاسعة من الهجرة لا يمكننا التوقف عندها طويلا وإنما نشير إلى بعضها باختصار:

وفاة أُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ:

روى الطبري عن الواقدي قال: «وفي هذه السنة ماتت أُمّ كلثوم ابنة رسول الله ﷺ في شعبان، وغسلتها أسماء بنت عميس وصفية بنت عبد المطلب..»[٢].

وزاد ابن كثير في السيرة: «.. وثبت في الحديث أنه عليه السلام لما صلّى عليها وأراد دفنها قال: «لا يدخله أحد قارفَ الليلة أهلَه» فامتنع زوجها عثمان لذلك! ودفنها أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

ثمّ يوجه ابن كثير كلام رسول الله ﷺ بما يدفع الشبهة عن عثمان بن عفان فيقول: ويحتمل أنه أراد بهذا الكلام، من كان يتولى ذلك ممن تبرع بالحفر والدفن من الصحابة كأبي عبيدة وأبي طلحة ومن شابههم، فقال: «لا يدخل قبرها إلاّ من لم يقارن أهله من هؤلاء»، إذ يبعد أن عثمان كان عنده غير أُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ، هذا بعيد، والله العالم»[٣].

---

(١) الأميني، الغدير: ١ / ٤٠ و ٦ / ٣٤٦.

(٢) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٣ / ١٢٤.

(٣) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٧٤، والذهبي، مجلد المغازي من تاريخ الإسلام: ٦٦١.

وينقل الكليني في الكافي رواية طويلة حول سبب وفاة أُم كلثوم بنت رسول الله ﷺ ، كذلك رواها الراوندي في الخرائج والجوارح، والمجلسي في البحار، ولا يسعنا نقلها لطولها، إلاّ أن محصل ما جاء فيها: ان عثمان بن عفان قد آوى عمه المغيرة بن أبي العاص، في بيته وقال لزوجه (أُم كلثوم) لا تخبري أباك بمكانه فقالت: ما كنت لأكتم رسول الله ﷺ عدوّه.. فأتى رسول الله الوحي فأخبره بمكانه.. فضرب عثمان بنت رسول الله وقال: أنت أخبرت أباك بمكانه، فبعثت إلى رسول الله ﷺ تشكو ما لقيت، فأرسل رسول الله علياً فأتى بها.. وبات عثمان متلحفاً بجاريتها الاثنين والثلاثاء، وماتت في اليوم الرابع.. الخ[1].

وفاة عبد الله بن أُبي:

روى الواقدي: «مَرض عبد الله بن أُبي في ليال بقين من شوال، ومات في ذي القعدة، وكان مرضه عشرين ليلة. فكان رسول الله ﷺ يعوده فيها، فلما كان اليوم الذي مات فيه دخل عليه رسول الله ﷺ وهو يجود بنفسه، فقال ﷺ: قد نهيتك عن حبّ اليهود.. فقال ابن أُبي: يا رسول الله، ليس بحين عتاب، هو الموت، فإن متُّ فاحضر غُسلي وأعطني قميصك أُكفّن فيه، فأعطاه الأعلى - وكان عليه قميصان - فقال: الذي يلي جلدك، فنزع قميصه الذي يلي جلده فأعطاه، ثمّ قال: صلِّ عليَّ واستغفر لي...

ثمّ يقول: إنّ رسول الله ﷺ حَضر غُسله وحضر كفنه، ثمّ حُمل إلى موضع الجنائز، فتقدم رسول الله ﷺ ليصلّي عليه. فلمّا قام وثب إليه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله، أتُصلي على ابن أُبيّ وقد قال يوم كذا كذا، ويوم كذا كذا؟ فعدّ عليه قَوله، فتبسم النبيّ ﷺ وقال: أخِّر عنّي يا عمر! فلمّا أكثر عليه عمر قال: إني قد خُيِّرتُ فاخترتُ، ولو أعلم أني زدتُ على السبعين غُفر له زدت

(١) الكليني، فروع الكافي، باب نوادر الجنائز: ٣ / ٢٥١ الحديث رقم ٨، والراوندي، الخرائج: ١ / ٩٤ - ٩٦، والمجلسي، البحار: ٢٢ / ١٥٨ .

عليه، وهو قوله عزّ وجل: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾. فيقال إنّه قال: سأزيد على السبعين. فصلّى رسول الله ﷺ ثمّ انصرف، فلم يكن إلاّ يسيراً حتى نزلت هذه الآيات من «براءة»: ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ﴾[١].

ويقال: إنّه لم تزل قدماه بعد دفنه حتى نزلت عليه هذه الآية، فعرف رسول الله ﷺ في هذه الآية المنافقين، فكان من مات لم يُصلِّ عليه»[٢].

ولابن أبي قصة طويلة في الكيد والمكر والخداع طيلة العهد المدني التي عاصر فيها رسول الله ﷺ في المدينة، وكان آخرها غزوة تبوك وما جرى عندها من كيد المنافقين وتخذيلهم للمسلمين، وبموته فقدت حركة النفاق رأسها المدبر، وأُصيب المنافقون بفاجعة عبروا عنها بكلماتهم وأفعالهم عند دفنه «فكانوا يحثون في القبر التراب ويقولون: يا ليت أنّا فديناك بالأنفس وكنّا قبلك! وهم يحثون التراب على رؤوسهم»[٣].

إلاّ أنّ الذي يلفت النظر في سياق رواية الواقدي وغيره من المؤرخين، هو موقف عمر بن الخطاب من النبي ﷺ وهو يهم بالصلاة على ابن أبي! إذ نلاحظ موقفاً متشنجاً لا ينم عن تعقل وروية وتحسباً للوقف! فهو يثب إلى النبي ﷺ ويقف في صدره، أو يجذ به من ثوبه - كما في تعبير الروايات - ثمّ يحاول أن يصحح للنبي موقفه في الصلاة على ابن أُبي! كلّ هذا والنبي يقول له: اخر عني يا عمر! وهو لا يكف عنه! والأعجب من ذلك كلّه أن تدعي الرواية أن القرآن قد نزل بموافقة عمر، وتخطئة رسول الله ﷺ!

---

(١) التوبة: ٨٠ و ٨٤.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٥٧ - ١٠٥٨، وقارن برواية ابن إسحاق في سيرة ابن هشام: ٤ / ٥٥٢.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٥٩ - ١٠٦٠.

ومما لا شك فيه ولا ريب أن ما ادعي باطل من أساسه بالبداهة ولا نحتاج إلى توقف طويل للمناقشة فيه والاستدلال على بطلانه[١]. فلا النبيﷺ كان يقدم على شيء منهي عنه، ولا عمر بن الخطاب أحرص من النبيﷺ في تطبيق أحكام الله سبحانه، فلم تكن القضية إلاّ نزوة غضب وعصبية من عمر له من أمثالها الكثير في حياة رسول اللهﷺ وبعد وفاته!

٨ - الدروس والعبر

في نهايات السنة التاسعة من الهجرة وبدايات السنة العاشرة منها، شهدت المدينة ومكة حركة غير عادية فيها، فالأُولى تستقبل وفداً وتودع آخر، والثانية تشهد موسماً للحج، فيه انذار شديد يستهدف استئصال الشرك منها!

وفي كلا الحادثتين وما رافقهما من تفاصيل دروس وعبر كثيرة، نتوقف عند بعضها باختصار:

أولا: التعامل الإنساني مع وفد ثقيف:

لقد كانت لرسول اللهﷺ مع ثقيف ذكريات حزينة تعود إلى اليوم الذي هاجر فيه إلى الطائف، حيث استقبل آنذاك شرَّ استقبال، وأخرجوه من ديارهم شرَّ اخراج، وألحقوا به سفهاءهم وصبيانهم يضربونه ويؤذونه ويسخرون منه[٢]. تلك هي ثقيف التي سعت اليوم إليه طائعة.

والنفس البشرية بطبيعتها قد تنزع إلى الانتقام، أو مقابلة الاساءة بمثلها، وقد يتوقع البعض أن يقابل رسول اللهﷺ وفد ثقيف بنوع من الاذلال وسحق الكرامة والإعراض والصد.. وأمثالها، إلاّ أنها نفس محمدﷺ التي تسامت على

---

(١) للتوسع انظر: الصحيح من سيرة النبي: ٢٦ / ١٠٠ - ١١٠.

(٢) انظر، كتابنا: دروس من السيرة النبوية، العهد المكي.

الاحقاد والضغائن، وجبلت على العفو وحب الخير والهداية للناس جميعاً، فما أن سمع بقدوم وفدهم حتى خرج يستقبلهم في بشر وإكرام، وراح يحبس عليهم وقته كلّه يعلّمهم ويرشدهم وينصح لهم.

لقد تعامل رسول الله ﷺ مع الوفود التي وفدت عليه بصورة عامة، ووفد ثقيف خاصة بمنتهى الإنسانية وكرم التعامل، مع أن الكثير من رجال هؤلاء الوفود ورجالها: «طالما أرادوا به الكيد، وشفوا بايذائه غليل احقادهم عليه، وهو لا يريد بهم إلاّ الخير والسعادة والرشد في الدنيا والآخرة، وطالما فرحوا بمنظر النكبة والضرّ يرى متلبساً بهما، ولكنه لم يفرح لهم إلاّ بنعمة الخير والإسلام إذ أكرمهم بهما الله.. وذلك هو الإسلام - الذي جسّده رسول الله ﷺ من خلال سلوكه العملي - لا يعرف حقداً ولا ضغينة ولا يريد شراً بإنسان»[1].

ثانياً: حرص رسول الله ﷺ على الدعوة والتبليغ:

لم يكتفِ رسول الله ﷺ من الوفود الذين كانوا يمثلون قبائلهم باعلان إسلامهم الظاهري فقط، وإنما كان يوكلهم إلى من يعلمهم مبادئ الإسلام ويقرؤهم القرآن، بل عمد رسول الله ﷺ بانزال الوفود في المسجد، لكي يعيشوا الاجواء الايمانية ويتعودوا على أوقات الصلوات، ومن صادف حضوره في شهر رمضان تولى ارسال الافطار إليهم.. متبعاً بذلك أعلى المستويات التربوية في التربية والتعليم. وحيث كان مكوث هذه الوفود في المدينة قصيراً ولا تكفي للاطلاع الموسع على تعاليم الإسلام، كان رسول الله ﷺ يرسل معهم من أصحابه من يتولى أمر تعليمهم، أو يوكل ذلك إلى من هو جدير بالقيام بهذه المهمة من بينهم كما حصل في وفد ثقيف الذي أمَّر عليهم في أمر تعليمهم عثمان بن أبي العاص!

---

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٦٢ - ٤٦٣ (بتلخيص).

وفي هذا الهدي النبوي درس وعبره للدعاة إلى الله ﷺ ، إذ مهما كانت المكاسب السياسية كبيرة وناجحة، إلاّ أنها ثمرة من ثمار الدعوة إلى الله، فلا ينبغي أن تشغلنا المرحلة السياسية عن المرحلة التغييرية الدعوتية، وإنما لابد من تلازمهما معاً في خط السير إلى الله سبحانه.

ثالثاً: محو آثار الوثنية والشرك:

لقد حرص رسول الله ﷺ على محو كل آثار الوثنية والشرك من خلال تهديم الأوثان والتماثيل التي اتخذت من دون الله أرباباً، وكذلك محو هذه الآثار من نفوس الناس والعودة بهم إلى فطرتهم السليمة التي فطرهم الله عليها، وهذا ما لاحظناه جلياً في فتح مكة، وفي قصة هدم «لات» ثقيف التي كانت تعرف عندهم بـ (الرّبة) ولقد صدق رسول الله ﷺ حيث قال: «تلك العزّى ولا عزّى بعدها للعرب، أما أنّها لن تُعبد بعد اليوم»[١] وما يصدق على العزى التي كانت تعظمها العرب وتخصها بالزيارة، يصدق على اللات ثمّ مناة وهُبل.. فهي لا تعبد بعدها عند العرب، حتى ولو ارتدوا عن اسلامهم ورجعوا إلى جاهليتهم الأُولى فهم لا يعودون إلى عبادة الأصنام!

«ولقد قامت بعد وفاة الرسول ﷺ حروب وفتن، وادعى النبوة مَن ادعاها، وعارض القرآن من عارضه، ولكنا لم نسمع أن أعرابياً واحداً فكر في العودة إلى الوثنية وآلهتها.. ، لقد انهى محمد بن عبد الله مأساة العرب الفكرية - والعقائدية - التي استمرت زهاء خمسمائة عام أو تزيد، وحرر العقل العربي من أغلال الوثنية وخرافاتها، وانقذ الكرامة العربية من مهانة الوثنية وحقارتها، وفتح أبواب الخلود للعرب يدخلون منه ثمّ لا يخرجون فلا عزى تُعبد بعد اليوم»[٢].

---

(١) الكلبي، الأصنام: ٢٦ .

(٢) السباعي - مصطفى، السيرة النبوية: ١٥٨ .

وما قصة «براءة» وابلاغها على رؤوس الأشهاد في الموسم، إلاّ خطوة أخيرة حاسمة في محو آثار الشرك والوثنية من جزيرة العرب، واعلان الموقف الصريح من الولاء للدولة الإسلامية القائمة على أساس التوحيد.

رابعاً: الحكمة في صلاة النبيﷺ على ابن أُبي:

لم يكن النبي الأكرمﷺ ينطلق في أفعاله وتصرفاته التي يستمد منها التشريع، من منطلق المجاملة أو المحاباة للآخرين، وخاصة فيما يتعلق بالصلاة على شيخ المنافقين وكبيرهم ومرجعهم.. وأشد الناس عداءً للنبي وللإسلام عبد الله بن أُبي.

وما كان النبيﷺ يقدم على فعل قد نهاه الله عنه - كما تحاول الرواية التاريخية أن توحي لنا بذلك - وكيف يمكن تصور ذلك والقرآن الكريم يصفه بأنّهﷺ : (وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى)[١].

فما أقدم عليهﷺ - على فرض صحة الرواية التاريخية - «لابد أن يكون مأموراً به من الله لمصلحة تقتضي ذلك»[٢].

فما ادعي من أنّهﷺ كان منهياً عن الصلاة على المنافقين، لا يمكن قبوله والركون إليه، لأنها تتنافى مع عصمة النبيﷺ في تبليغ الوحي التي يجمع المسلمون على عصمته فيها.

بالاضافة إلى أن النهي عن الصلاة على المنافقين إنما نزل بعد قصة الصلاة على ابن أُبي باجماع الأُمة[٣].

---

(١) النجم: ٣ - ٤ .

(٢) الحسني - هاشم معروف، سيرة المصطفى: ٦٥٨ .

(٣) شرف الدين، النص والاجتهاد: ١٧١ وانظر تفسير التبيان للطوسي: ٥ / ٢٦٨ - ٢٧١، ومجمع البيان للطبرسي: ٥ / ٨٤ .

فلابد أن تكون هنالك حِكَم ومصالح قدَّرها النبيﷺ في إقدامه على الصلاة على ابن أُبي، لم يستطع عمر بن الخطاب أن يستوعبها فتسرع في تصرفاته مع النبيﷺ ، وإن كان ندم بعد ذلك على تسرعه، وكان يقول: «أُصبت في الإسلام هفوة ما أصبت مثلها..»[1].

والدرس الذي نستفيده من هذه القصة، هو سعة صدر النبيﷺ وحلمه العظيم، وحكمته البالغة في معالجة الأُمور، فلم يقابل انفعال عمر بانفعال مثله، وإنما ردّه بحكمة بالغة، ومضى في صلاته جرياً على ظاهر اسلام ابن أُبي، واكراماً لولده المسلم المجاهد، وائتلافاً لقومه الخزرج.

خامساً: فضائل عليعليه السلام وتعصّب المتعصبين:

لقد نقل المؤرخون حيثيات ابلاغ صدر براءة وتحويلها من أبي بكر إلى عليعليه السلام ، وما أفصح به النبيﷺ من أن ذلك كان بأمر الله وجاء به الوحي المبين.

ومما لا شك فيه ولا ريب أنّ هذه القضية تبرز أفضلية عليعليه السلام على من سواه من الصحابة، وهي تعدُّ من أبرز فضائله ومناقبه، وتكشف عملياً عن أهليته وصلاحيته لخلافة رسول اللهﷺ بشكل واضح وصريح.

إلاّ أن تعصب بعض المؤرخين، أو ممن يعد من المفسرين حملتهم إلى تحريف الأمر عن وجهته الصحيحة، فحملوا النص النبوي على أوجه بعيدة عن ظاهر اللغة، ولا تساعد عليها أي قرينة! وقاتل الله التعصب وأهله، فإنه يعمي ويصم عن الحق، وفي هذا كفاية لمن يعي الأُمور.

---

(١) المصدر نفسه: ١٧٢ عن كنز العمال للمتقي الهندي، الحديث ٤٣٩٠ .

الأسئلة:

١ - ما هي الأسباب الموضوعية التي دعت وفود القبائل للقدوم إلى المدينة لمبايعة رسول الله ﷺ ؟

٢ - في أي سنة بدأت الوفود بالقدوم إلى المدينة؟ وإلى أي زمن استمرت وفادتها؟ وكم هو عدد هذه الوفود؟

٣ - ما هو النقد التاريخي الذي يمكن توجيهه إلى النصوص الحاكية عن الوفود؟

٤ - متى قدم وفد ثقيف إلى المدينة؟ وهل لهذا الوفد علاقة بغزوة الطائف وحصارها؟

٥ - ما هي الأسباب الموضوعية التي حملت قبيلة ثقيف على ارسال وفدها إلى المدينة؟

٦ - لقد وفدت وفود أُخرى في السنة التاسعة بعد وفد ثقيف، فما هي خصوصيات وفادتها؟

٧ - ما هي أهم القبائل اليمنية التي أرسلت وفودها إلى المدينة في السنة التاسعة؟

٨ - ما هي أهم المعطيات السياسية والاجتماعية والفكرية والعقائدية لعام الوفود؟

٩ - ما هي خلفيات قصة براءة؟ وما هي المحاور الأساسية التي جاءت لتعالجها صدر هذه السورة؟

١٠ - لماذا خصَّ رسول الله ﷺ علياً عليه السلام بابلاغ براءة عنه؟ وما هي دلالات ذلك؟

١١ - كيف نعالج اضطراب الروايات التي تتحدث عن حج العام التاسع وأمارة الحج فيها؟

١٢ - ما هي الدروس والعبر المستفادة من متفرقات أحداث السنة التاسعة من الهجرة؟

الدرس الحادي والثلاثون
أحداث السنة العاشرة من الهجرة

(تتابع الوفود وقصة المباهلة)

محاور البحث:

١ – من آثار تبليغ براءة في موسم الحج
٢ – تتابع الوفود إلى المدينة:
أولا: وفود السنة العاشرة من الجزيرة
ثانياً: وفادات أهل اليمن في السنة العاشرة
٣ – وفد نصارى نجران وقصة المباهلة
٤ – اشكاليات تاريخ المباهلة
٥ – من مداليلِ قصة المباهلة
٦ – ارسال الأُمراء وعمال الصدقات
٧ – ارسال علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن
٨ – وفاة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم
٩ – الدروس والعبر
- الأسئلة

تتابع الوفود وقصّة المباهلة

المدخل

انتهت السنة التاسعة من الهجرة مع ما رافقها من أحداث ووقائع مهمة، وفتوحات كبرى، وأصبحت كلمة الإسلام هي السائدة في الجزيرة العربية، ولم تبق إلاّ بعض جيوب الشرك التي لابد أن تعلن موقفها صريحاً اتجاه الوضع الجديد، بعد أن أعلن الإسلام موقفه منها من خلال بلاغات آيات براءة.

واستقبل رسول الله ﷺ السنة العاشرة قرير العين، مغتبطاً بما أنعم الله عليه من الفتوحات والانتصارات الكبيرة، لا يفتر لسانه ولا تكل جوارحه عن أداء الشكر لله سبحانه.

وللسنة العاشرة أحداثها، التي سجلها المؤرخون وكتّاب السيرة النبوية، وهي أحداث مهمة جداً، وتشكل بعضها نقطة الارتكاز المستقبلي للإسلام والمسلمين كما سوف يأتينا.

فلابد لنا من استعراض هذه الأحداث والوقائع بحسب تسلسلها التاريخي، مع التوقف والتأمل في بعض مفرداتها المهمة.

١ – من آثار تبليغ براءة في موسم الحج

لقد تركت آيات صدر براءة ومن خلال أُسلوبها القرآني المؤثر، وفي فواصلها وايقاعها وتعبيراتها القوية، وكذلك الطريقة التي اتبعها النبي ﷺ في

ابلاغها، وشخصية علي عليه السلام الذي قام بمهمة تبليغها عن رسول الله صلى الله عليه وآله . . أعمق الآثار في نفوس من سمعها في الموسم، ومن وصله صداها ممن لم يشهد الموسم، بل إنَّ صداها قد اخترق حدود الجزيرة العربية ليصل إلى القبائل القاطنة في خارجها ممن لم يعلنوا موقفهم بعد من الإسلام والرسول المرسل.

لقد سمى المفسرون آيات صدر براءة بآيات السيف، وروي عن ابن عباس: «لم يبق لأحد من المشركين عهد ولا ذمة، منذ نزلت براءة وانسلاخ الأشهر الحرم» بل قد روي عن علي بن أبي طالب عليه السلام قال: «بعث النبي بأربعة أسياف، سيف في المشركين من العرب. . الخ»[١].

وروي أيضاً: أن علياً عندما دخل مكة ببراءة «اخترط سيفه» «أو لمع بسيفه» كما في رواية أبي جعفر الباقر عليه السلام قال: «خطب علي عليه السلام الناس واخترط سيفه، وقال: لا يطوفن بالبيت عريان»[٢].

ويعلل بعضهم سبب اختيار علي عليه السلام لمهمة ابلاغ براءة: «أن علياً عليه السلام من بني عبد مناف، وهم جمرة قريش في مكة، وعلي أيضاً شجاع لا يقام له، وقد حصل في صدور قريش منه الهيبة الشديدة، والمهابة العظيمة، فإذا حصل مثل هذا البطل وحوله من بني عمه من هم أهل العزة والقوة والحمية، كان ادعى إلى نجاته من قريش، وسلامة نفسه»[٣].

ونحن وإن كنا لا نوافق صاحب هذا الرأي في ربط سبب اختيار علي عليه السلام لهذه المهمة بما ذكره من سبب، إلاّ أن مقام ابلاغ براءة لم يكن يصلح له بعد رسول الله إلاّ علي عليه السلام ، لخصوصيات الهية ربانية وجدت في شخص

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن: ٢ / ٤٤٥ .

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٣ / ٤٠١ .

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٧ / ٢٠٠ .

علي عليه السلام ولم توجد عند سواه، و ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤﴾﴾[1].

ولهذا كلّه كانت لآيات براءة وللصيحة التي نادى بها علي عليه السلام يوم الحج أثرها الطبيعي في بقايا المشركين من العرب في الجزيرة العربية، وفي أهل الكتاب من نصارى الجزيرة.

أما المشركون «فقد أحسّ هؤلاء بعد أن أسلمت الجزيرة أنهم أصبحوا كالشَّجا في الحلق، أو كالشذوذ في القاعدة، وأنهم إن ظلوا مقيمين على شركهم فلابد أن تكتسحهم قوة الإسلام، كما يكتسح السيلُ الغُثاء، وأن من الخير لهم أن يدخلوا مع الداخلين تحت راية الإسلام، فيحقنوا بذلك دماءهم ويحموا مصالحهم ويستمتعوا بما يستمتع به أتباع هذا الدين من مظاهر الرحمة الشاملة».

وأما الكتابيون، «فلقد أحس نصارى العرب بما أحسّه هؤلاء المشركون، ورأوا أن من الخير لهم أن يستظلوا براية الإسلام، ويحتموا بحمايته».

ولهذا، أقبلت الوفود من هؤلاء وهؤلاء على المدينة، تعلن خضوعها للإسلام ودخولها تحت لوائه، فأما المشركون فأسلموا ودخلوا في زمرة المسلمين - إذ لم يكن أمامهم خيار آخر يلجأون إليه - وأما أهل الكتاب، فمنهم من أسلم فدخل في زمرة المسلمين، ومنهم من بقي على دينه ورضي بأن يدفع الجزية، فدخل بذلك في أمان المسلمين وحمايتهم[2].

هذه هي آثار براءة، وهكذا أصبحت أوضاع الجزيرة وما حولها عقائدياً، وبهذه الحيثية استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله العام العاشر من الهجرة.

---

(١) الجمعة: ٤.

(٢) دويدار، صور من حياة الرسول: ٥٨٦.

٢ - تتابع الوفود إلى المدينة

أولا: وفود السنة العاشرة من داخل الجزيرة وأطرافها:

ذكر ابن سعد في الطبقات، وفادة مجموعة كبيرة من الوفود نص على أنّ وفادة بعضها كان في السنة العاشرة، وأهمل تاريخ وفادة جملة من الوفود منها، ومن المرجح أن تكون وفادتها خلال السنة العاشرة، إذ من المستبعد أن تتأخر إلى السنة الحادية عشرة، إذ لم تحدثنا النصوص التاريخية عن وفادة قبيلة أو أفراد خلالها إلاّ قبيلة نخع كما سوف يأتي.

١ - وفد عقيل بن كعب:

وينص المؤرخون على وفود وفد قبيلة عقيل ومن المرجح وفودهم في السنة العاشرة، وكان الوفد يتكون من ثلاثة أشخاص «فبايعوا وأسلموا وبايعوا على مَن وراءهم من قومهم»[(١)].

وذكروا أن رسول الله ﷺ قد اعطى «العقيق» عقيق بني عقيل، وهي أرض فيها عيون ونخل، وكتب لهم بذلك كتاباً في أديم أحمر: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى محمدٌ رسول الله ربيعاً ومطرفاً وأنساً، أعطاهم العقيق ما أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وسمعوا وأطاعوا، ولم يعطهم حقاً لمسلم»[(٢)].

٢ - وفد محارب:

وكذلك قدم وفد محارب سنة عشر في حجة الوداع، وكان الوفد يتكون من عشرة أشخاص.. فأسلموا وقالوا: نحن على من وراءنا، وينقل ابن سعد أنه:

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤٤ - ١٤٥، والعلي - أحمد صالح، دولة الرسول: ٣٣٩.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٤٦، وحميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٣١٢، والحموي، معجم البلدان: مادة (عقيق).

«كان في الوفد رجل منهم! فعرفه رسول الله فقال - لرسول الله ﷺ -: «الحمد لله الذي أبقاني حتى صدّقت بك!» فقال رسول الله ﷺ: «إنّ هذه القلوب بيد الله» وتنقل الرواية أن رسول الله ﷺ: «مسح وجه جزيمة بن سواء - أحد رجال الوفد - فصارت له غرة بيضاء..»[١].

٣ - قصة وفد عامر بن صعصعة:

يروي ابن سعد: «قالوا: وقدم عامر بن الطفيل...، وأربد بن ربيعة بن مالك...، على رسول الله ﷺ.

فقال عامر: يا محمد مالي إن أسلمت؟ فقال ﷺ: «لك ما للمُسلمين وعليك ما على المسلمين»، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: «ليس ذاك لك ولا لقومك». قال: أفتجعل لي الوَبر ولك المَدر؟ قال ﷺ: «لا، ولكني أجعل لك أعِنَّة الخيل فإنك امرؤٌ فارس»، قال: أو ليست لي؟ لأملأنّها عليك خيلا ورجالا! ثمّ وليّا، فقال رسول الله ﷺ: اللهمّ اكفنيهما، اللهمّ واهد بني عامر، وأغن الإسلام عن عامر! فسلّط الله تبارك وتعالى على عامر داءً في رقبته فاندلع لسانه في حنجرته كضرع الشاة، فمال إلى بيت امرأة من بني سلول وقال: غدّة كغدة البكر، وموت في بيت سلولية، وأرسل الله على أربد صاعقته فقتله..»[٢].

والذي يبدو من ذيل رواية ابن سعد، ان وفداً آخر من بني عامر فيهم علقمة بن عُلاثة وهوذة بن خالد، وابنه، قد وفدوا على النبي ﷺ فأوسع لعلقمة «وقصّ عليه رسول الله ﷺ، شرائع الإسلام وقرأ عليه قرآناً، فقال: يا محمّد إنّ ربك لكريم وقد آمنت بك وبايعت على عكرة بن خصفة أخي قيس، وأسلم هوذة وابنه

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ١٤٤ - ١٤٥.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٥٠.

وابن خيه وبايع هوذة على عكرمة أيضاً».

ويبدو أن بني عامر قد أسلموا وحَسُن إسلامهم وقدموا على رسول الله ﷺ أثناء تواجده في مكة لحجة الوداع، على ما يظهر من رواية ابن سعد حيث يروي عن أحد رجال بني عامر قوله: «قدم وفد بني عامر، وكنت معهم إلى النبي ﷺ فوجدناه بالأبطح في قبّة حمراء فسلّمنا عليه، فقال: مَن أنتم؟ قُلنا: بنو عامر بن صعصعة، قال: «مرحباً بكم أنتم منّي وأنا منكم».

ثمّ يضيف الراوي فيقول: «وحضرت الصلاة فقام بلال فأذّن، ثمّ أتى رسول الله ﷺ، بإناء فيه ماء فتوضأ وفضلت فضلة من وضوئه، فجعلنا لا نألوا أن نتوضأ ممّا بقي من وضوئه، ثمّ أقام بلال الصلاة فصلّى بنا رسول الله ﷺ ركعتين ثمّ حضرت العصر فقام بلال فأذنّ.. فصلّى بنا رسول الله ﷺ ركعتين»[١].

أما رواية ابن إسحاق لوفد بني عامر فتختلف في بعض تفاصيلها عن رواية ابن سعد، فيذكر قدوم عامر بن الطفيل، وأربد بن قيس، وشخص ثالث هو جبّار بن سلمى بن مالك، ويقول: «وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم» ثمّ يقول: فقدم عامر بن الطفيل عدوّ الله، على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به.. وإنه قال لأربد: «إذا قدمنا على الرجل، فإني سأشغل عنك وجهه، فإذا فعلت ذلك فأغله بالسيف»! فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال عامر.. : يا محمد، خالني[٢]، قال ﷺ : لا والله حتى تؤمن بالله وحده.. وجعل يكلمه وينتظر من أربد ما كان أمره به، فجعل أربد لا يحير شيئاً!

فأخذ عامر يكرر على رسول الله ﷺ : يا محمد خالني، ورسول الله يقول

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٠ - ١٥١ .

(٢) خالني: أي تفرد لي خالياً حتى اتحدث معك . أو اتخذني خليلا وصاحباً .

له: لا، حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له.. فلما أبى عليه رسول الله قال: أما والله لأملأ نّها عليك خيلا ورجالا. فلما ولّى قال رسول الله ﷺ : اللهمّ اكفني عامر بن الطفيل.

فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد: «ويلك يا أربد أين ما كنت أمرتك به؟.. قال أربد: لا تعجل عليّ، والله ما هممت بالذي أمرتني به أمره إلاّ دخلت بيني وبين الرجل، حتى ما أرى غيرك. أنا أضربك بالسيف..»[1].

ثمّ يذكر ابن إسحاق المصير الذي انتهى إليه عامر وصاحبه، والأشعار التي قالها بعضهم في رثائهما، ولا يذكر بعدها وفود أشخاص آخرين من هذه القبيلة.

٤ - وفد بني حنيفة:

اختلف المؤرخون في تاريخ وفادة وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة بن حبيب (الكذاب)، إلاّ أن الطبري نقل عن ابن إسحاق أن وفادتهم كانت آخر سنة عشر، وبعد انصرافه ﷺ من حجة الوداع[2].

قال ابن سعد: «قدم وفد بني حنيفة على رسول الله ﷺ ، بضعة عشر رجلا، فيهم فلان وفلان، ومسيلمة بن حبيب (الكذاب) وعلى الوفد سلمى بن حنظلة، فأنزلوا دار رملة بنت الحارث، وأجريت عليهم الضيافة... فأتوا رسول الله ﷺ ، في المسجد فسلّموا عليه، وشهدوا شهادة الحق، وخلفوا مسيلمة في رحلهم، وأقاموا أياماً يختلفون إلى رسول الله ﷺ .. فلما أرادوا الرجوع إلى بلادهم أمر لهم رسول الله ﷺ بجوائزهم.. فقالوا: يا رسول الله إنا خلّفنا صاحباً لنا في رحالنا.. فأمر له رسول الله ﷺ ، بمثل ما أمر به لأصحابه وقال: «ليس

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٦٧ وما بعدها .

(٢) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٣ / ١٤٦، وابن هشام، السيرة النبوية: ٦٠١ .

بشرّكم مكاناً لحفظه ركابكم ورحالكم» فقيل ذلك لمسيلمة، فقال: عرف أن الأمر إليّ من بعده. ورجعوا إلى اليمامة، وأعطاهم رسول الله ﷺ ، إداوةً من ماء فيها فضل طهور، فقال: إذا قدمتم بلدكم فاكسروا بيعتكم وانضحوا مكانها بهذا الماء واتخذوا مكانها مسجداً، ففعلوا، وصارت الأداوة عند الأقعس بن مسلمة، وصار المؤذن طلقُ بن علي، فأذّن فسمعه راهب البيعة، فقال: كلمة حق، ودعوة حق! وهرب، فكان آخر العهد به، وادعى مسيلمة، لعنه الله، النبوة، وشهد له الرحال بن عنفوة أن رسول الله ﷺ أشركه في الأمر فافتتن الناس به»[1].

إلاّ أنّ ابن إسحاق يذكر قصة وفد بني حنيفة بروايتين وبتفصيل يتضمن ما قاله ابن سعد مع بعض الزيادات والتوضيحات.

قال: حدثني بعض علمائنا من المدينة: أن بني حنيفة أتت به - أي بمسيلمة - رسول الله ﷺ تستره بالثّياب، ورسول الله جالس في أصحابه، معه عسيب من سعف النخل.. فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ ، وهم يسترونه بالثياب، وكلّمه وسأله، فقال له رسول الله: «لو سألتني هذا العسيب ما أعطيتكه»، ثمّ ينقل رواية ثانية عن شيخ من بني حنيفة، وهي تتضمن رواية ابن أسعد في تفاصيلها مع اختلاف يسير إلاّ أنّه جاء في آخرها: «ثمّ انصرفوا عن رسول الله ﷺ : وجاؤوه - أي مسيلمة - بما أعطاه، فلما انتهوا إلى اليمامة ارتدّ عدوّ الله وتنبّأ وتكذّب لهم، وقال: إني قد أشركتُ في الأمر معه! وقال لوفده الذين كانوا معه: ألم يقل لكم حين ذكرتموني له؛ أما إنه ليس بشرّكم مكاناً، ما ذاك إلاّ لما كان يعلم أني قد أشركتُ في الأمر معه! ثمّ جعل يسجع لهم الأساجيع، ويقول لهم فيما يقول مضاهاة للقرآن: (لقد أنعم الله على الحبلى، أخرج منها نسمة تسعى، من بين صفاق وحشا) وأحل لهم الخمر والزنا، ووضع

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٣ .

عنهم الصلاة، وهو مع ذلك يشهد لرسول الله ﷺ بأنه نبيّ، فأصفقت - أجمعت - معه حنيفة على ذلك، فالله أعلم أيّ ذلك كان»[١].

وهنالك رسالة خطية من مسيلمة الكذاب إلى رسول الله ﷺ، نقلها أغلب المؤرخين، ورواها ابن إسحاق وقال: «وقد كان مسيلمة بن حبيب، قد كتب إلى رسول الله ﷺ:

«من مسيلمة رسول الله!! إلى محمد رسول الله!!: سلام عليك، أما بعد، فإني قد أشركت في الأمر معك! وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون!».

فقدم عليه رسولان له بهذا الكتاب.

قال ابن إسحاق: فحدثني شيخ من أشجع، عن سلمة بن نعيم بن مسعود الأشجعي، عن أبيه نُعيم: قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لهما حين قرأ كتابه: فما تقولان أنتما؟ قالا: نقول كما قال! فقال ﷺ: أما والله لولا أنّ الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما.

ثمّ كتب إلى مسيلمة: «بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله ﷺ، إلى مسيلمة الكذّاب: (السَّلامُ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى)، أما بعد، ﴿إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ وذلك في آخر سنة عَشر»[٢].

والذي يبدو من رواية ابن إسحاق الأُولى، أن مسيلمة بن حبيب كان معظماً وله مكانة عند بني حنيفة حيث جاؤوا به يسترونه بالثياب تعظيماً له وتظليلا له من حرارة الشمس، بخلاف الرواية الثانية التي توافق رواية ابن سعد، حيث تركوه في

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٧٦ - ٥٧٧ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠١، وانظر: حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ٣٠٤ - ٣٠٥، والأحمدي، مكاتيب الرسول: ١ / ٢١٤ و ٢ / ٣٨٣ وما بعدها .

رحلهم وهذا يدل على هبوط شأنه لديهم! إلاّ أن يقال انه أقام في رحله أنفة وكبرياءً من أن يكون هو الساعي إلى النبيﷺ .

كذلك يبدو من الرواية أن مسيلمة هذا كان له طموح شخصي واسع يسعى للوصول إليه حيث جاء لرسول اللهﷺ وكلمه وسأله، أي انه طلب من رسول الله أن يجعل له الأمر من بعده! فأجابه رسول الله بما أجابه به!

ومن خلال موقفه هذا ورسالته لرسول اللهﷺ يتضح لنا أن الرجل قد دفعه طموحه الشخصي للاطلاع على تعاليم الإسلام واستشرافه لما سوف يؤول إليه مستقبلا، وكذلك حفظه لآيات القرآن الكريم، حيث كان يعارضها بما يأتي به من سجعات! فقد نقل عنه من هذه السجعات الكثير والتي منها:

«والطاحنات طحناً، والعاجنات عجنا، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً»!

ونقل عنه أيضاً: «إنّا اعطيناك الجواهر، فصل لربك وهاجر، إنّ مبغضك رجل كافر»!

وفي نقل: «إنّا أعطيناك الكوثر، فصلّ لربّك وبادر، في الليالي الغوادر»[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ أخبار مسيلمة الكذاب، وقصة الأسود العنسي، تدخل ضمن أخبار حروب الردّة بعد وفاة رسول اللهﷺ ، وهي خارجة عن موضوع بحثنا. بالاضافة إلى ابتلاء أخبار مسيلمة الكذاب بكثير من الاضافات الكاذبة التي تنحو بقصته إلى مصاف الخرافات والأساطير!

نكتفي بهذه الأمثلة من وفود السنة العاشرة من الجزيرة وهنالك وفود أُخرى

---

(١) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٣٨٦ .

لم ينص المؤرخون بدقة على تاريخ وفادتها تراجع في مظانها من كتب السيرة والتاريخ.

ثانياً: وفادات أهل اليمن:

تحت هذا العنوان، ذكر ابن سعد في الطبقات قائمة طويلة لوفادات قبائل اليمن على رسول الله ﷺ. وقد ذكرنا بعض هذه الوفود التي قدمت سنة تسع من الهجرة.

ومن القبائل اليمنية التي نص ابن سعد على وفادتها سنة عشر من الهجرة:

أولا: وفد خولان:

قال ابن سعد..: «قدم وفد خولان، وهم عشرة نفر، في شعبان سنة عشر، فقالوا: يا رسول الله نحن مؤمنون بالله ومصدقون برسوله، ونحن على من وراءنا من قومنا، وقد ضربنا إليك آباط الإبل.

فقال رسول الله: ما فَعلَ عَمَّ أنس؟ صنم لهم[1]، قالوا: بِشَرٍّ وعرٍّ، ابدلنا الله به ما جئت به، ولو قد رجعنا إليه هدمناه.

وسألوا رسول الله ﷺ، عن أشياء من أمر دينهم، فجعل يخبرهم بها وأمر من يعلمهم القرآن والسنن، وأنزلوا دار رملة بنت الحارث.. ثمّ جاؤوا بعد أيام يودّعونه فأمر لهم بجوائز ورجعوا إلى قومهم فلم يحلّوا عُقدة حتى هدموا «عمّ أنس»، وحرّموا ما حرّم عليهم رسول الله ﷺ، وأحلّوا ما أحلّ لهم».

وهنالك بعض التفاصيل الأُخرى في قصة هذا الوفد ذكرها بعض المؤرخين

---

(١) انظر، الكلبي، الأصنام: ٤٣، ونص عبارته: (وكان لخولان صنمٌ يقال له (عُميانس) بأرض خولان).

لا نجد حاجة لذكرها»[١].

ثانياً: وفد غسّان:

قال ابن سعد، أخبرنا فلان... عن محمد بن بُكير الغساني، عن قومه غسان قالوا: «قدمنا على رسول الله ﷺ في شهر رمضان سنة عشر المدينة، ونحن ثلاثة نفر، فنزلنا دار رملة بنت الحارث، فإذا وفود العرب كلّهم مصدّقون بمحمد ﷺ، نقلنا فيما بيننا: أيرانا شرّ من يرى من العرب! ثمّ أتينا رسول الله ﷺ فسلمنا وصدّقنا وشهدنا أن ما جاء به حقّ، ولا ندري أيتبعنا قومنا أم لا؟ فأجاز لهم رسول الله ﷺ بجوائز وانصرفوا راجعين، فقدموا على قومهم فلم يستجيبوا لهم، فكتموا إسلامهم حتى مات منهم رجلان مسلمين، وأدرك واحد منهم عمر بن الخطاب عام اليرموك فلقي أبا عبيدة فخبّره باسلامه فكان يكرمه»[٢].

ثالثاً: وفد الحارث بن كعب:

روى ابن سعد وابن إسحاق عن أحد رجال بني الحارث، قال: بعث رسول الله ﷺ خالد بن الوليد في أربعمائة من المسلمين في شهر ربيع الأول سنة عشر إلى بني الحارث بنجران - بلد بين اليمن وهَجر - وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم ثلاثاً، ففعل فاستجاب له مَن هناك من بني الحارث بن كعب ودخلوا فيما دعاهم إليه، ونزل بين أظهرهم يعلّمهم الإسلام وشرائعه وكتاب الله وسنّة نبيّه، وكتب بذلك إلى رسول الله ﷺ يخبره عما وطئوا وإسراع بني الحارث إلى الإسلام.

فكتب رسول الله ﷺ إلى خالد أن: «بشّرهم وانذرهم وأقبل ومعك

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٦، وللتوسع انظر: السيرة الحلبية: ٣ / ٣٣١.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٦٣.

وفدهم»، فقدم خالد ومعه وفدهم فلان وفلان.. ثمّ تقدم خالد وهم معه إلى رسول الله ﷺ فقال: مَن هؤلاء الذين كأ نّهم رجال الهند؟ فقيل: بنو الحارث بن كعب، فسلّموا على رسول الله ﷺ، وشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمداً رسول الله. فأجازهم، وأجاز قيس بن الحصين.. وأمّره رسول الله ﷺ على بني الحارث، ثمّ انصرفوا إلى قومهم في بقية شوال، فلم يمكثوا بعد أن رجعوا إلى قومهم إلاّ أربعة أشهر حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفي رواية ابن إسحاق - التي لخصها ابن سعد -: «وقد كان رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد أن ولّى وفدهم عمرو بن حزم، ليفقّههم في الدين، ويعلمهم

السنة ومعالم الإسلام، ويأخذ منهم صدقاتهم وكتب له كتاباً عهد إليه فيه عهده، وأمره فيه بأمره..».

ثمّ يذكر ابن إسحاق نص كتاب رسول الله ﷺ - وهي من الكتب الطويلة لرسول الله ﷺ نسبة إلى كتبه الأُخرى - والكتاب جليل في مضامينه، ويتضمن جملة من تعاليم الإسلام وأحكامه وتشريعاته، وجاء في آخره: «وأ نّه من أسلم من يهودي أو نصراني اسلاماً خالصاً من نفسه، ودان بدين الإسلام، فإنه من المؤمنين، له مثل ما لهم، وعليه مثلُ ما عليهم، ومن كان على نصرانيته أو يهوديّته فإنه لا يردّ عنها، وعلى كلّ حالم - أي بالغ -: ذكر أو أُنثى، حرٌّ أو عبد، دينارٌ واف أو عوضه ثياباً. فمن أدّى ذلك، فإن له ذمّة الله وذمّة رسوله، ومن منع ذلك، فإنه عدوّ لله ولرسوله والمؤمنين جميعاً، صلوات الله على محمد، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته»[1].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٣ - ١٦٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩٢ - ٥٩٦. وانظر نص رسالة خالد بن الوليد إلى رسول الله ﷺ وجوابه ﷺ، وكتابه ﷺ لعمرو بن حزم: حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ١٦٥ - ١٦٦ و ٢٠٦ - ٢٠٩، والأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٥١٠، ٥١٩ وما بعدها.

ومن الملاحظ أن رسول الله ﷺ لم يكتفِ باسلام هذا الوفد، وإنما أمّر عليهم أحدهم، ثمّ بعث إليهم من يفقههم في الدين ويعلمهم السنّة ومعالم الإسلام، وكتب معه كتاباً، يعتبر لدى المحدثين والفقهاء من أعظم الوثائق ومصدراً مهماً من مصادر استنباط الأحكام الشرعية.

رابعاً: وفد الرهاويين (حيّ من مذحج):

قال ابن سعد ؛ قدم خمسة عشر رجلا من الرهاويين، وهم حيّ من مذحج، على رسول الله ﷺ ، سنة عشر، فنزلوا دار رملة بنت الحارث، فأتاهم رسول الله ﷺ فتحدث عندهم طويلا، وأهدوا لرسول الله ﷺ هدايا، منها فرس يقال له الرواح.. فأسلموا وتعلموا القرآن والفرائض، وأجازهم كما يجيز الوفد، ثمّ رجعوا إلى بلادهم، ثمّ قدم منهم نفر فحجوا مع رسول الله ﷺ ، من المدينة، وأقاموا حتى توفي رسول الله ﷺ[١].

وعن ابن الأثير وغيره أن رسول الله قد عقد لقتادة بن عَيَّاش الرهاوي على قومه، ويروي عنه ابنه هشام: أن النبي لما عقد له على قومه، أخذت بيده فودّعته فقال رسول الله ﷺ : «جعل الله التقوى زادك، وغفر الله ذنبك، ووجهك بالخير حيثما تكون»[٢].

خامساً: وفد بجيلة:

قال ابن سعد: قدم جرير بن عبد الله البجلي سنة عشر المدينة ومعه من قومه مائة وخمسون رجلا، فقال رسول الله ﷺ : «يطلعُ عليكم من هذا الفجّ من خير ذي يمن، على وجهه مسحة ملك» فطلع جرير على راحلته ومعه قومه فأسلموا وبايعوا، قال جرير: فبسط رسول الله ﷺ [يده] فبايعني، وقال: على أن

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٦ .

(٢) الجزري - ابن الأثير، أسد الغابة: ٤ / ٤١٠، وانظر الاصابة لابن حجر: ٣ / ٢٢٤ .

تشهد أن لا إله إلاّ الله، وأني رسول الله، وتقيم الصلاة وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتنصح المسلم، وتطيع الوالي وإن كان عبداً حبشياً، فقال: نعم، فبايعه»[١].

سادساً: وفد أحمس:

لم يذكر لنا ابن سعد تاريخ وفادتهم، ولكنه ذكر قدومهم مع وفد بجيلة، فيكون قدومهم إلى المدينة في نفس التاريخ الذي قدم فيه وفد بجيلة وهو سنة عشر من الهجرة.

قال ابن سعد: «وقدم قيس بن عزرة الأحمسي في مائتين وخمسين رجلا من أحمس، فقال لهم: رسول الله، من أنتم؟ فقالوا: نحن أحمس الله! وكان يقال لهم ذاك في الجاهلية، فقال لهم رسول الله ﷺ: وأنتم اليوم لله. وقال رسول الله ﷺ لبلال: اعطِ ركب بجيلة وابدأ بالأحمسيّين، ففعل.

وكان نزول جرير بن عبد الله على فروة بن عمرو البياضي، وكان رسول الله ﷺ يسائله عمّا وراءه، فقال: يا رسول الله، قد أظهر الله الإسلام، وأظهر الأذان في مساجدهم وساحاتهم، وهدّمت القبائل أصنامها التي كانت تُعبد.

قال ﷺ: فما فعل ذو الخَصلة[٢]؟ قال: هو على حاله قد بقي، والله مُريح منه إن شاء الله.

فبعثه رسول الله ﷺ إلى هدم ذي الخصلة وعقد له لواءً، فقال: إني لا أثبت على الخيل، فمسح رسول الله ﷺ بصدره، وقال: اللهم اجعلهُ هادياً مهدياً!

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٧ .

(٢) قال الكلبي في كتاب الأصنام: ٣٤ «وكان من تلك الأصنام ذو الخصلة، وكان مروة منقوشة، عليها كهيئة التاج، وكان بتبالة، بين مكة واليمن، على مسيرة سبع ليال من مكة . للتوسع انظر: بهجة المحافل للعامري: ٢ / ٧٤» .

فخرج في قومه، وهم زهاء مائتين، فما أطال الغيبة حتى رجع. فقال رسول الله ﷺ هدمته؟ قال: نعم، والذي بعثك بالحقّ، وأخذت ماعليه وأحرقته بالنار، فتركته كمايسوء من يهوى هواه، وما صدّنا عنه أحد، قال: فبارك رسول الله ﷺ، يومئذ على خيل أحمس ورجالها»[١].

سابعاً: وفد غامد:

قال ابن سعد: قدم وفد غامد على رسول الله ﷺ في شهر رمضان، وهم عشرة، فنزلوا ببقيع الغرقد، ثمّ لبسوا من صالح ثيابهم، ثمّ انطلقوا إلى رسول الله ﷺ فسلموا عليه وأقرّوا بالإسلام، وكتب لهم رسول الله ﷺ، كتاباً فيه شرائع الإسلام، وأتوا أُبي بن كعب فعلّمهم قرآناً، وأجازهم رسول الله ﷺ كما يجيز الوفد وانصرفوا[٢].

وينص ابن سيد الناس على وفادتهم سنة عشر، مع بعض التفاصيل الأُخرى[٣].

هذه هي الوفود اليمنية التي نص المؤرخون على وفادتها سنة عشر من الهجرة.

وفود يمنية لم ينص المؤرخون على تاريخ وفادتها:

وهنالك وفود أُخرى كانت تمثل قبائل يمنية كبيرة وفدت إلى المدينة أيضاً، ومن المرجح أن وفادتها كانت سنة عشر من الهجرة ما عدا قبيلة «نخع» التي كانت وفادتها في السنة الحادية عشرة من الهجرة.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٧ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ١٦٦ .

(٣) ابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢ / ٣٢٢ .

١ - قدوم فروة بن مسيك:

وهنالك وفادات لأشخاص كان لهم وزنهم الاجتماعي والقبلي في بلاد اليمن، منهم: فروة بن مسيك المرادي، الذي قدم وافداًعلى رسول الله ﷺ، مفارقاً لملوك كندة، ومتابعاً للنبي ﷺ، فنزل على سعد بن عبادة، وكان يتعلّم القرآن وفرائض الإسلام وشرائعه، وأجازه رسول الله ﷺ وحمله على بعير نجيب، واعطاه حُلّة من نسج عمان، واستعمله على مراد وزبيد ومذحج، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقات، وكتب له كتاباً فيه فرائض الصدقة، ولم يزل على الصدقة حتى توفي رسول الله ﷺ.

وفروة بن مسيك هو صاحب الأبيات الشعرية المعروفة، والتي استشهد بها الإمام الحسين بن علي عليه السلام في يوم العاشر من المحرم والتي من أبياتها:

فإن نَغلِب فغلاّبون قدماً ... وإن نُغلَب فَغيرُ مُغلَّبينا
وما أن طِبُّنا جُبنٌ ولكن ... مَنايانا ودولة آخرينا
كذاك الدهر دولته سجالٌ ... تكرُ صروفه حِيناً فحينا
فقل للشامتين بنا أفيقوا ... سيلقى الشامتون كما لقينا[1]

٢ - وفد زبيد:

اختلفت الروايات في زمن قدوم وفد زبيد مع عمرو بن معد يكرب على رسول الله ﷺ، فقد أهمل ابن سعد، وابن إسحاق تاريخ وفادتهم، وذكرها الطبري ضمن أحداث السنة العاشرة، وقال ابن كثير: «قال أبو عمر بن عبد البر: وكان وفوده - أي عمرو بن معديكرب - إلى رسول الله ﷺ سنة تسع، وقيل سنة عشر فيما ذكره ابن إسحاق! والواقدي. ثمّ قال: قلت: وفي كلام الشافعي ما

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٨٢، وابن منظور، لسان العرب: ٨ / ١١٥، والقرشي - باقر شريف، حياة الإمام الحسين: ٣ / ١٩٣.

يدل عليه والله العالم»[١].

ولم نجد ابن إسحاق ذكر في مغازيه وفادتهم في السنة العاشرة.

روى ابن سعد قال: قدم عمرو بن معديكرب الزبيدي في عشرة نفر من زبيد المدينة - ونزل على سعد بن عبادة - ثمّ راح به إلى رسول الله ﷺ فأسلم هو ومن معه، وأقام أياماً، ثمّ أجازه رسول الله بجائزة وانصرف إلى بلاده، وأقام مع قومه على الإسلام، فلما توفي رسول الله ﷺ، ارتدّ، ثمّ رجع إلى الإسلام وأبلى يوم القادسية وغيرها[٢].

وقد مرّ بنا سابقاً أن رسول الله ﷺ قد استعمل فروة بن مسيك على مراد وزبيد ومذحج كلها، وأرسل معه خالد بن سعيد على الصدقة، والذي يبدو من رواية ابن إسحاق أن وفادة عمرو بن معديكرب كانت بعد وفادة وتأمير فروة بن مسيك، وان سبب ارتداد عمرو بن معديكرب هو انزعاجه من أمارة فروة بن مسيك وحسداً له، قال ابن إسحاق: فأقام عمرو بن معديكرب في قومه من بني زبيد وعليهم فروة بن مسيك، فلما توفي رسول الله ﷺ، ارتد عمرو بن معديكرب، وقال حين ارتد:

وَجدنا مُلكَ فروةَ شَرَّ مُلك ... حماراً سافَ مُنخُرهُ بِثَغرِ

وكنتَ إذا رأيتَ أبا عُمير ... ترى الحولاء من خُبث وغدرِ[٣]

وهنالك رواية تاريخية تشير إلى قدوم وفد من زبيد على رسول الله في السنة

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٨٣، والطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٣ / ١٣٢، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٦٣٩ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٨ وقارن برواية ابن هشام: ٤ / ٥٨٣ - ٥٨٥، وابن سيد الناس في عيون الأثر: ٢ / ٢٩٩ - ٣٠٠ .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٨٤ - ٥٨٥، والطبري: ٣ / ١٣٤ .

الحادية عشرة[١].

٣ - وفد كندة:

روى ابن سعد قال: قدم الأشعث بن قيس على رسول الله ﷺ في بضعة عشر راكباً من كندة، فدخلوا على النبي ﷺ مسجده، قد رجّلوا جُمعهم واكتحلوا، وعليهم جباب الحبرة قد كفّوها بالحرير، وعليهم الديباج ظاهر مخصوص بالذهب. وقال لهم رسول الله ﷺ: ألم تُسلموا؟ قالوا: بلى، قال: فما بال هذا عليكم؟ فألقوه، فلما أرادوا الرجوع أجازهم، رسول الله[٢].

ولم ينص ابن سعد على تاريخ وفادة وفد كندة، إلاّ أن الطبري ذكر وفدهم ضمن أحداث السنة العاشرة من الهجرة وقال: وفيها قدَّم وفد كندة، رأسهم الأشعث بن قيس الكندي...[٣].

ومهما يكن من أمر تاريخ هذا الوفد، إلاّ أن هنالك بعض التفاصيل حول هذا الوفد تجدها عند غير ابن سعد من المؤرخين[٤].

٤ - وفد همدان:

لم يذكر ابن سعد بالتحديد تاريخ وفادة وفد همدان، وقال ابن هشام إنَّ وفد همدان لقوا رسول الله مرجعهُ من تبوك[٥]، وهذا يعني أن مقدمهم كان في نهاية السنة التاسعة.

إلاّ أنّ الطبري يذكر ضمن أحداث السنة العاشرة سريّة علي بن أبي طالب

---

(١) الصالحي الشامي - محمد بن يوسف، سُبُل الهدى والرشاد في سيرة خَير العباد: ٦ / ٥٢٠ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٨، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٨٥ .

(٣) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٢ / ١٣٨ .

(٤) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٨٥ - ٥٨٦ .

(٥) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩٧ .

إلى اليمن، وإنّ إسلام همدان كان في السنة العاشرة، كما سوف يأتينا تفصيل ذلك.

قال ابن سعد: «قدم وفد همدان على رسول الله ﷺ، عليهم مقطّعات الحبرة مكففة بالديباج، فيهم حمزة بن مالك من ذي مشعار، فقال رسول الله ﷺ: «نعم الحيّ همدان ما أسرعها إلى النصر وأصبرها على الجهد، ومنهم أبدال وأوتاد الإسلام».

فأسلموا وكتب لهم النبي ﷺ، كتاباً بمخلاف خارف، ويام، وشاكر، وأهل الهضب، وحقاف الرمل من همدان لمن أسلم.

وذكر ابن هشام تفاصيل أُخرى، وبعض الأبيات والأراجيز الشعرية، مع نص كتاب رسول الله ﷺ»[١].

وهنالك وفود أُخرى لقبائل اليمن منها: وفد حضرموت، ووفد خشم، ووفد غافق وبارق، وبهراء، وسعد العشيرة.. الخ مما يطول الكلام في ذكر تفاصيل وفادتها[٢].

٣ - وفد نصارى نجران[٣]، وقصة المباهلة

قبل الدخول في تفاصيل وفد نجران إلى المدينة في السنة العاشرة، وقصة

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٤، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩٦ - ٥٩٩، وانظر نص الكتاب عند: حميد الله في مجموعة الوثائق السياسية: ٢٣٣، والأحمدي، مكاتيب الرسول: ٣ / ٣٧٦ وما بعدها. وفي هذين المصدرين أكثر من كتاب لرسول الله ﷺ لقبيلة همدان أو بعض بطونها أو بعض أفرادها.

(٢) للتوسع انظر: ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٥ - ١٧٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٥٩ وما بعدها، والطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٣ / ١١٥ وما بعدها، وابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢ / ٢٨٦ وما بعدها.

(٣) نجران: من مخاليف اليمن من ناحية مكة (معجم البلدان).

المباهلة وحيثياتها ومستندها التاريخي والروائي. . لابدَّ لنا من الاشارة إلى الديانة النصرانية وكيفية دخولها إلى بلاد اليمن عامة، ونجران خاصة.

فمما لا شك فيه تاريخياً أن الجزيرة العربية قبل الإسلام كانت مسرحاً للأديان السماوية، فوجدت اليهودية لها سبيلا للدخول إلى هذه البلاد، كما أن الديانة النصرانية التي تعني اتباع المسيح عيسى بن مريم عليه السلام قد وجدت لها طريقاً إلى هذه البلاد أيضاً، كما أن اتباع كسرى وعماله حملوا معهم ديانتهم المجوسية إلى بعض الأجزاء من البلاد اليمنية[1].

وقد تحدثنا في بداية الجزء الأول من هذا الكتاب، وكذلك في بدايات الحديث عن العهد المدني منه، عن الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام، والوجود الديني للأديان السماوية في مكة ويثرب قبل وفود رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إليها. أما البلاد اليمنية فإنها لا تختلف عن الجزيرة العربية من ناحية تعدد اتباع الديانات فيها، فكان فيها اليهود والنصارى والمجوس، إلى جانب المشركين والوثنيين.

ولا نريد أن نؤرخ لتاريخ دخول هذه الأديان إلى بلاد اليمن، فذلك حديث طويل الذيل لا يسعه هذا المختصر في السيرة، بالاضافة إلى خروجه عن موضوع بحثنا منهجياً، إلاّ أننا نشير إشارة مختصرة تلمّ بالموضوع حول الديانة النصرانية وكيفية تغللها في بلاد اليمن، وبعض القبائل اليمنية التي اعتنق بعض أفرادها هذه الديانة.

يقول صاحب المفصل:

«لقد وجدت النصرانية بعد بلاد الشام والعراق لها مواضع أُخرى دخلت إليها، وهي أطراف جزيرة العرب كالعربية الغربية والجنوبية الشرقية، وتفسير دخولها إلى هذه الأرضين واضح، هو اتصالها بطرق القوافل البرية والبحرية في

(١) جواد علي، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ / ٥٨٢ و ٦٩٣ .

البلاد التي انتشرت فيها النصرانية، ومجيء التجار النصارى والمبشرين مع القوافل إليها. . فكانوا يغتنمون فرصة وجودهم في البلاد التي ينزلوها لنشر دينهم فيها»[١].

وقد تحدثنا في ثنايا بعض الغزوات والسرايا عن بعض مناطق نفوذ النصرانية، كدومة الجندل، وقصة أسر الاكيدر ومصالحة رسول الله له على الجزئية، وكذلك مصالحة النبيﷺ لأهل (أيلة) وصاحبها يحنة ابن رؤبة، بالاضافة إلى قصة قبيلة طيء التي وجدت النصرانية سبيلا إليها، حيث كان عدي بن حاتم الطائي في جملة الداخلين في النصرانية وكان «ركوسياً» كما مرّ بنا سابقاً.

إلاّ أنّ هذا لا يعني أن أطراف الجزيرة أو بلاد اليمن وقبائلها كانت جميعاً على ديانة النصرانية، وإنما كان هنالك من عبدة الأصنام الكثير، وكانت هنالك أصنام معروفة في هذه المناطق كصنم (فلس) عند طيء وصنم (ذو الخلصة) عند قبيلة بجيلة[٢].

وأما الحديث عن كيفية دخول النصرانية إلى اليمن وانتشارها بين بعض قبائلها، فمن المرجح أنه كان عن طريق التبشير المسيحي الذي ساهم التجار النصارى فيه بشكل فاعل، إذ كان يعد انتشار دينهم بين سكان هذه المواضع التي يطرقونها كسباً لهم ولبلادهم[٣].

إلاّ أننا عندما نعود إلى المصادر التاريخية التي تتحدث عن هذا الموضوع، نجد رواية ينقلها كلٌ من ابن إسحاق والطبري وابن الأثير وغيرهم، تتحدث عن

---

(١) المصدر نفسه: ٦ / ٦٠٠ .

(٢) الكلبي، الأصنام: ٣٤ و ٥٩ .

(٣) جواد علي، تاريخ العرب قبل الإسلام: ٦ / ٦٠٨ .

رجل اسمه (فَيْمَيُون)، الذي تصفه الرواية بأ نّه: «كان رجلا صالحاً مجتهداً زاهداً في الدنيا، مجاب الدعوة، وكان سائحاً ينزل بين القرى، لا يعرف بقرية إلاّ خرج منها إلى قرية لا يعرف بها..» وينتهي المطاف بهذا الرجل إلى البلاد اليمنية، وأهل نجران تحديداً، وأهل نجران يومئذ على دين العرب - أي الوثنية - يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم، لها عيد في كل سنة.. فقال لهم فيميون: إنما أنتم في باطل، إن هذه النخلة لا تضرّ ولا تنفع، ولو دعوت عليها إلهي الذي أعبده لأهلكها.. قال - الراوي -: فقام فيميون، فتطهّر وصلّى ركعتين!! ثمّ دعا الله عليها، فأرسل الله عليها ريحاً فجعفتها من أصلها فألقتها، فاتبعه عند ذلك أهل نجران على دينه، فحملهم على الشريعة من دين عيسى بن مريم عليه السلام، ثمّ دخلت عليهم الأحداث التي دخلت على أهل دينهم بكل أرض، فمن هنالك كانت النصرانية بنجران في أرض العرب.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث وهب بن مُنبِّه عن أهل نجران»[1].

وهنالك رواية تاريخية أُخرى تتحدث عن رجل آخر اسمه (عبد الله بن الثامر) تنسب إليه ادخال أهل نجران إلى النصرانية!

وهي مروية عن ابن إسحاق عن يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، تقول: «إن أهل نجران كانوا أهل شرك يعبدون الأوثان، وكان في قرية من قراها ساحر يعلم غلمان أهل نجران السحر.. وكان أحد رجال نجران اسمه (الثامر) يرسل ابنه (عبد الله) مع غلمان أهل نجران إلى ذلك الساحر، فكان يمرّ على صاحب خيمة بين نجران وتلك القرية، وقد أعجبه ما رآه من صلاته وعبادته وتقواه، فجعل يجلس إليه ويسمع منه حتى دخل في دينه، وصار يدعو إليه بين أهل بلده، فمن ثمّ انتشرت النصرانية في نجران، وظهرت على الوثنية....

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٢ - ٣٥، والطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٢ / ١١٩ وما بعدها، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ١ / ٢٧٤ - ٢٧٥.

ثمّ تسترسل الرواية في مناقبيات وكرامات عبد الله بن الثامر، وإنه كان: «يأتي بالمعجزات إذ يشفي المرضى حتى لم يبق بنجران أحد به ضرٌّ إلاّ أتاه، فاتّبعه على أمره ودعا له فعوفي. حتى رفع شأنه إلى ملك نجران، فدعاه فقال له: أفسدت عليَّ أهل قريتي، وخالفت ديني ودين آبائي، لأُمثلنّ بك. . . .

ثمّ كانت النتيجة أن ضرب عبد الله بن الثامر ذلك الملك فهلك، «واجتمع أهل نجران على دين عبد الله بن الثامر، وكان على ما جاء به عيسى بن مريم من الإنجيل وحكمه، ثمّ أصابهم مثل ما أصاب أهل دينهم من الأحداث، فمن هنا كان أهل النصرانية بنجران، والله أعلم بذلك.

قال ابن إسحاق: فهذا حديث محمد بن كعب القرظيّ»[١].

وهنالك رواية ثالثة لبعض الأخباريين تزعم أن الذي أدخل النصرانية ونشرها في الحميريين، هو التّبع عبد كلال بن مثوب الذي أخذ - بدوره - النصرانية من رجل من غسان، ذكروا أنه قدم عليه من الشام، فلما علمت حمير بتنصر التبّع وبتغيير دينه وإعراضه عن عبادتها، وثبت بالغساني فقتلته[٢].

هذه هي الروايات التي تحدثنا عن كيفية دخول النصرانية إلى اليمن وإلى نجران خاصة، والتي تعتبر أهم موطن للنصرانية في اليمن، والرواية الأُولى عن وهب بن منبه، والثانية عن محمد بن كعب القرظي، وكلا الرجلين من مُسلمة اليهود، وكلاهما كان قاصاً من القصاص، فالروايتان من مورد واحد هو أهل الكتاب، ومن الاسرائيليات التي دخلت إلى تراثنا الإسلامي عن طريق أُولئك القصاص «ووجدت سبيلها إلى تاريخ الطبري عن طريق سيرة ابن إسحاق»[٣].

---

(١) انظر المصادر نفسها، بالاضافة إلى: الأزرقي، أخبار مكة: ١ / ١٣٤ وما بعدها .

(٢) الطبري: ٢ / ٨٩ .

(٣) جواد علي، المفصل: ٦ / ٦١١، وانظر ترجمة وهب بن منبه، والقرظي، في كتب التراجم .

فهذه الروايات وأمثالها لا يمكن الركون إليها، إلاّ أننا لا نستبعد وجود أشخاص من المبشرين النصارى كانوا يطوفون في ديار العرب للتبشير بالدين المسيحي، سواءً سمتهم الروايات باسمائهم أو بصفاتهم أم لم تسمِّهم.

إلاّ أنه ينبغي أن نشير إلى أن أهل نجران، أو الأكثرية منهم، بقوا متمسكين بنصرانيتهم رغم المحن والمصائب التي انصبت عليهم من ملوك زمانهم والأزمنة اللاحقة لها، ولعلنا نجد نموذج ذلك في قصة الأخدود وأصحابها التي تحدث عنها القرآن الكريم، وفصل الحديث فيها أرباب السير والتاريخ[١].

وفد نصارى نجران في المدينة:

«لقد كانت نجران المركز الرئيسي للنصرانية في اليمن عند ظهور الإسلام، لها نظام سياسي وإداري خاص تخضع له، وعليها: (العاقب)» وهو كما يقول أهل السير: «أمير القوم، وذو رأيهم، وصاحب مشورتهم، والذي لا يصدرون إلاّ عن رأيه»، و (السيد)، وهو: «ثمالهم[٢] وصاحب رحلتهم ومجتمعهم»، و(الأسقف) وهو: «حبرهم، وإمامهم، وصاحب مدارسهم» ويقصدون به رئيس نجران الديني الذي إليه يرجعون في أُمور الدين، أما العاقب والسيد، فإليهما إدارة الجماعة، والاشراف على شؤونهم السياسية والمالية، وتدبير ما يحتاج المجتمع إليه من بقية الشؤون»[٣].

بهذه التشكيلة الادارية والسياسية والدينية حلَّ وفد نجران المدينة في السنة العاشرة من الهجرة. وكان الوفد يتألف من أربعة عشر رجلا من اشرافهم، يرأسهم العاقب، وهو عبد المسيح، رجل من كندة، ثمّ يليه السيّد واسمه

---

(١) انظر الآيات: ٤ - ٨ من سورة البروج، والطبري: ١ / ١٢٣، والأزرقي، تاريخ مكة: ١٣٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٣٧ .

(٢) ثمال القوم: هو أملهم الذي يقصدون إليه، ويقوم بأُمورهم وشؤونهم .

(٣) جواد علي، المفصل: ٦ / ٦١٧ عن ابن هشام: ٢ / ٢٢٢ وابن سعد: ١ / ١٧٢ .

الأيهم، والأسقف وهو أبو الحارث بن علقمة أخوبني بكر بن وائل، أو من ربيعة، وفي رواية ابن إسحاق: أن عدد وفد نجران كان ستين راكباً، فيهم أربعة عشر رجلا من أشرافهم[١].

«وإذا صح ما رواه أهل الأخبار من أن عاقب نجران كان «كندياً» وأن اسقفها كان من (بكر بن وائل)، فإنّ ذلك يدل على أن الرئاسة عند النصارى العرب، لم تكن تتبع العرف القبلي في الزعامة، وإنما كانت عن تنسيب واختيار، ولا نستبعد احتمال وجود مراجع دينية عليا، كانت هي التي تتولى النظر في إدارة الكنائس، وفي تعيين رجال الدين، وفي النظر في المشكلات التي تقع بين النصارى، أو بين النصارى وغيرهم»[٢].

والذي يبدو أن وفد نجران قد جاء إلى المدينة بعد أن «كتب رسول الله ﷺ إلى أهل نجران»[٣].

وقد أورد حميد الله، والأحمدي نص كتاب رسول الله ﷺ تحت عنوان: «دعوته ﷺ أساقفة نجران» ونص الكتاب:

«من محمد رسول الله، إلى أساقفة نجران:

باسم إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب.

أما بعد; فإني أدعوكم إلى عبادة الله من عبادة العباد، وأدعوكم إلى ولاية الله من ولاية العباد، فإن أبيتم فالجزية، وإن أبيتم آذنتكم بحرب، والسلام»[٤].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٧١ . وابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٢ - ٢٢٤ .

(٢) جواد علي، المفصل: ٦ / ٦١٨ .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٧١ .

(٤) حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية: ١٧٤، والأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٤٨٩، وللتوسع انظر المصادر في هامش كلا المصدرين .

فكانت مهمة هذا الوفد المهم من نصارى نجران هو الدخول في مفاوضات ومحاججة رسول الله ﷺ ، فيما نزل في المسيح من آيات قرآنية.

يروي ابن إسحاق أن وفد نصارى نجران: «لما قدموا على رسول الله ﷺ المدينة، فدخلوا عليه مسجده، حين صلّى العصر، عليهم ثياب الحبرات، جُبب وأردية... يقول بعض من رآهم من أصحاب النبي ﷺ يومئذ: ما رأينا بعدهم وفداً مثلهم، وقد حانت وقت صلاتهم، فقاموا في مسجد رسول الله ﷺ يصلّون فقال رسول الله ﷺ : دعوهم، فصلّوا إلى المشرق.

وفي رواية ابن سعد: «ثمّ أتوا النبي ﷺ ، فأعرض عنهم ولم يكلّمهم، فقال لهم عثمان: ذلك من أجل زيكم هذا، فانصرفوا يومهم ذلك، ثمّ غدوا عليه بزيّ الرهبان فسلّموا عليه، فردّ عليهم ودعاهم إلى الإسلام، فأبوا وكثر الكلام والحجاج بينهم، وتلا عليهم القرآن، وقال رسول الله ﷺ : إن أنكرتم ما أقول لكم فهلمَّ أُباهلكُم[1].

فانصرفوا على ذلك، فغدا عبد المسيح ورجلان من ذوي رأيهم على رسول الله ﷺ ، فقال: قد بدا لنا أن لا نباهلك، فاحكم علينا بما أحببت نعطك ونصالحك، فصالحهم على ألفي حلة وكذا وكذا».

ولا يضيف ابن إسحاق شيئاً يذكر على ما قاله سوى قوله: «فكلّم رسول الله ﷺ منهم أبو الحارث علقمة، والعاقب عبد المسيح، والأيهم السيد.. فلما كلمه الحبران قال لهما رسول الله ﷺ : أسلما ; قالا: قد أسلمنا، قال ﷺ : إنكما لم تسلما فأسلما ; قالا: بلى، قد أسلمنا قبلك!

---

(١) المباهلة: قال الراغب الإصفهاني: التبهل والابتهال في الدعاء: الاسترسال فيه والتضرع، نحو قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾، آل عمران: ٦ . ومَن فسَّر الابتهال باللعن فلأجل أنّ الاسترسال في هذا المكان لأجل اللعن . (المفردات مادة بهل) .

قالﷺ : كذبتما، يمنعكما من الإسلام دُعاؤكما لله ولداً، وعبادتكما الصليب، وأكلكما الخنزير، قالا: فمن أبوه يا محمد؟ فصمت عنهما رسول اللهﷺ فلم يجبهما.

فأنزل الله تعالى في ذلك من قولهم، واختلاف امرهم كله، صدر سورة آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها، فقال عزّ وجل... الخ.

ثمّ أخذ ابن إسحاق في سرد آيات آل عمران وشرح مفرداتها وبيان معانيها في صفحات عديدة، وختمها بقوله: فلما أتى رسول اللهﷺ الخبر من الله عنه، والفصل من القضاء بينه وبينهم، أمر بما أُمر به من ملاعنتهم إن ردّوا ذلك عليه، دعاهم إلى ذلك، فقالوا له: يا أبا القاسم، دعنا ننظر في أمرنا، ثمّ نأتيك بما نريد أن نفعل فيما دعوتنا إليه، فانصرفوا عنه.

ثمّ خلوا بالعاقب، وكان ذا رأيهم، فقالوا: يا عبد المسيح، ماذا ترى؟ فقال: والله يا معشر النصارى قد عرفتم أنّ محمداً لنبيٌّ مُرسل، ولقد جاءكم بالفصل من خبر صاحبكم ولقد علمتم ما لاعَنَ قوم نبياً قط فبقي كبيرهم ولا نبت صغيرهم، وإنه للاستئصال منكم إن فعلتم، فإن كنتم قد أبيتم إلاّ إلف دينكم.. فوادعوا الرجل، ثمّ انصرفوا إلى بلادكم.

فأتوا رسول اللهﷺ ، فقال: يا أبا القاسم، قد رأينا ألاّ نلاعنك، وأن نتركك على دينك، ونرجع إلى ديننا»[1].

كانت هذه رواية ابن إسحاق وابن سعد، لقضية وفد نجران وقصة المباهلة، وفي كلا الروايتين اعراض واضح عن أهم فصولها، فلا نجد فيهما لقصة المباهلة أي مساحة تذكر في كلا الروايتين!! ولم يشيرا إلى مجريات خروج رسول اللهﷺ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٢ - ٢٣٣، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٧١ - ١٧٢ .

وأهل بيته علي وفاطمة وحسن وحسين عليهم السلام ، حتى ولو اشارة عابرة! وهو شيءٌ يدعو للعجب بعد تواتر خبر المباهلة وما جرى فيها كما سوف يأتي.

إلاّ أن ما أغفله أوتغافل عنه ابن إسحاق، وابن سعد، ذكره من تأخر عنهما من المؤرخين والمفسرين والمحدثين، مستندين في روايتها على أدق المصادر وأوثقها، وعلى طبقة واسعة من الرواة الثقات بحسب معايير التوثيق عندهم.

قال الجصاص: «نقل رواة السيرة، ونقلة الأثر، ولم يختلفوا في أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخذ بيد الحسن والحسين وعلي وفاطمة رضي الله عنهم، ثمّ دعا النصارى الذين حاجوه بالمباهلة»(١).

وقال الحاكم: «تواتر الأخبار في التفاسير عن عبدالله بن عباس وغيره: أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ يوم المباهلة بيد علي والحسن والحسين، وجعلوا فاطمة وراءهم..»(٢).

وفيما يلي بعض مرويات قصة المباهلة في فصولها التي لم ينقلها ابن سعد وابن هشام وابن إسحاق: قال اليعقوبي: «وقدم عليه صلى الله عليه وآله وسلم وفد نجران ورئيسهم أبو حارثة الأسقف ومعه العاقب والسيد.. فقال أبو الحارثة: يا محمد! ما تقول في المسيح؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: هو عبد الله ورسوله. فقال: تعالى الله عمّا قلت، يا أبا القاسم هو كذا وكذا.

ونزل فيهم: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ إلى قوله: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾(٣).

---

(١) الجصاص، أحكام القرآن: ٢ / ١٦ .

(٢) الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٥٠٥ نقلا عن معرفة علوم الحديث للحاكم النيسابوري: ٥٠ .

(٣) آل عمران: ٦١ .

فرضوا بالمباهلة، فلمّا أصبحوا قال أبو حارثة: انظروا من جاء معه، وغدا رسول الله آخذاً بيد الحسن والحسين تتبعه فاطمة وعلي بن أبي طالب بين يديه، وغدا العاقب والسيد بابنين لهما عليهما الدرّ والحلي وقد حفّوا بأبي حارثة.

فقال أبو حارثة: مَن هؤلاء معه؟ قالوا: هذا ابن عمّه وهذه ابنته وهذان ابناها، فجثا رسول الله على ركبتيه ثمّ ركع. فقال أبو حارثة: جثا والله كما يجثوا النبيّون للمباهلة.

فقال له السيد: ادنُ يا أبا حارثة للمباهلة. فقال: إني أرى رجلا حريّاً على المباهلة، وإني أخاف أن يكون صادقاً، فإن كان صادقاً لم يحل الحول وفي الدنيا نصراني يُطعم الطعام.

قال أبو حارثة: يا أبا القاسم لا نباهلك ولكنّا نعطيك الجزية..»[1].

وروى المقريزي قصة المباهلة مرتين، واحدة مختصرة، والأُخرى مطولة.

وقال المقريزي: «وأرسل نصارى نجران العاقب والسيّد في نفر، فأرادوا مباهلة رسول الله ﷺ، فخرج ومعه فاطمة وعليّ والحسن والحسين عليهم السلام، فلما رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها!! ولم يباهلوا، وصالحوه...»[2] وهذه رواية المقريزي المختصرة وهي تفي ببيان ما حذف أو أهمل من رواية الطبقات والمغازي والسير.

وجاء في بهجة المحافل وبغية الأماثل للعامري، بشرح الأشخر اليمني: «وأما أهل نجران فإنما جاؤوا للمحاججة في نبوة عيسى.. ولما جاء النبي ﷺ بالحسن والحسين وفاطمة تمشي خلفه وعليٌّ خلفهما، وهو ﷺ يقول: ان أنا دعوت فامّنوا - وهو معنى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللهِ عَلَى

(١) اليعقوبي، تاريخ اليعقوبي: ٢ / ٨٢ - ٨٣.

(٢) المقريزي، امتاع الاسماع: ٢ / ٩٥ و ١٤ / ٦٥ - ٧٣.

الْكَاذِبِينَ)، أي نتضرع في الدعاء والبَهلُ اللعن - فلما فعل ذلك النبيﷺ تلاوموا بينهم وقالوا: إن فعلتم اضطرم عليكم الوادي ناراً! ثمّ قالوا لهﷺ : أما تعرض علينا سوى هذا، فقالﷺ : الإسلام أو الجزية أو الحرب، فصالحوه على الجزية..»[١].

وقال ابن الأثير في الكامل: «وأما نصارى نجران فإنهم أرسلوا العاقب والسيّد في نفر إلى رسول اللهﷺ ، وأرادوا مباهلته، فخرج رسول اللهﷺ ، ومعه علي وفاطمة والحسن والحسين، فلمّا رأوهم قالوا: هذه وجوه لو أقسمت على الله أن يزيل الجبال لأزالها، ولم يباهلوا وصالحوه..»[٢].

هذه بعض النماذج لنصوص المؤرخين حول المباهلة والمقطع الحساس منها الذي يتعلق بأهل البيتعليهم السلام ، وفي كلمات غيرهم من المؤرخين والمفسرين عشرات النصوص الأُخرى لا يسع المجال لنقلها والتوقف عند مداليلها، لأنها تخرج بنا عن منهجية الاختصار المتبعة في هذه الدروس[٣].

وقد نقل الأحمدي، عن ابن طاووس، الذي ينقل بدوره عن تفسير الحجام قوله: «وفي آية المباهلة بمولانا علي وفاطمة والحسن والحسينعليهم السلام لنصارى نجران، رواه من أحد وخمسين طريقاً عمن سماه من الصحابة وغيرهم» ثمّ ذكر أسماء الرواة[٤].

فحديث المباهلة وبالحيثيات التفصيلية التي ذكرتها الروايات والنصوص

---

(١) العامري، بهجة المحافل: ٢ / ١٤ - ١٦ .

(٢) ابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٦٤٦ .

(٣) انظر: الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٥٠٢ وما بعدها، فقد ذكر عشرات المصادر من الفريقين . وكتاب الغدير للعلامة الأميني: ١ / ٣٣٣ و ٦٨٣ و ٤ / ٦٥، ١٨٤، ١٩٩، ٢٠٠، ٤٨٦ و ١٠ / ٣٦١، ٤٠٧ و ١١ / ٤١٣، ٤٥٥ و ٧ / ١٦٦ .

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٥٠٤ .

التاريخية من الأحاديث المتواترة بين علماء السنة فضلا عن علماء الشيعة الذين أطبقت كلماتهم على تواتر الواقعة وحيثياتها ولا ينكر ذلك إلاّ مكابر أو في قلبه مرض، أو جاهل بالمسانيد والمتون وكتب الرواية والأثر.

حديث المباهلة ونزعة التعصب:

لقد ابتلي حديث المباهلة - كغيره من أحاديث فضائل أهل البيت عليهم السلام وتحديداً روايات فضائل علي عليه السلام - بنزعة من التعصب الأعمى، والزيغ عن الحق الصراح، فنجد من يهمل ذكر الحديث، أو من يشكك في مضامينه، والأخطر من ذلك نجد من يتلاعب بالحديث حذفاً واضافة!! وذلك من خلال ذكر بعض الأسماء والمسميات التي لا يمكن أن يرتفع شأنها إلى درجة المباهلة بهم.

وأول من تلاعب في حديث المباهلة من خلال حذف اسم الإمام علي عليه السلام منه هم بنو أُمية!

ففي تفسير جامع البيان للطبري في رواية طويلة عن ابن حميد، عن المغيرة، عن عامر قال: «فأمر - يعني النبي بملاعنتهم - يعني ملاعنة أهل نجران.. فلما غدوا، غدا النبي محتضناً حسناً آخذاً بيد الحسين وفاطمة تمشي خلفه! فدعاهم إلى الذي فارقوه عليه بالأمس - أي الملاعنة - فقالوا: نعوذ بالله.

قال ابن حميد: قلتُ للمغيرة: إن الناس يرون في حديث أهل نجران أن علياً كان معهم! فقال: أما الشعبي فلم يذكره، فلا أدري لسوء رأي بني أُمية في علي، أو لم يكن في الحديث»[١].

---

(١) الطبري - محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبري: ٣ / ٣٥٠، ضبط وتعليق: محمود شاكر، طبعة دار احياء التراث العربي، ط . ١، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

والذي نلاحظه أن وجود علي في حديث المباهلة كان من المسلمات عند الراوي ولهذا استغرب من عدم ذكره في رواية الشعبي، فأجابه بجوابين أصحهما الأول، حيث لجأوا إلى حذف اسم علي لسوء رأيهم فيه، وكان المنفذ لرغبتهم هو الشعبي.

ولهذا يقول محقق كتاب تفسير الطبري في هامش الصفحة: القصة عند مسلم في صحيحه بذكر علي رضي الله عنه »[١].

إلاّ أنّنا نجد في رواية أسباب النزول التي ينقلها الواحدي النيسابوري التي يرويها الشعبي عن جابر؛ «قال الشعبي: ابناءنا: الحسن والحسين، ونساءنا: فاطمة، وأنفسنا علي بن أبي طالب رضي الله عنهم»[٢].

فهل كان الشعبي يراعي جانب بني أُمية، لسوء رأيهم في علي عليه السلام، فاسقط من الحديث اسمه؟ أم أنه وقع في التناقض، فيروي تارة: أن علياً هو المقصود بقوله «وأنفسنا»، وفي مورد آخر يحذف اسم علي عليه السلام ؟

ففي رواية الشعبي عن جابر كما في أسباب النزول للواحدي لا يوجد فيها حذف لاسم علي عليه السلام في موضعين من الرواية، إلاّ أن رواية الطبري - التي تختلف في أسنادها عن رواية الواحدي - نجد هذا الحذف!

واستند ابن كثير الدمشقي إلى رواية الطبري في تفسيره، فذكر قصة المباهلة وحذف اسم علي عليه السلام منها. فقال: «.. أقبل مشتملا على الحسن والحسين في خميل له، وفاطمة تمشي عند ظهره للملاعنة..»، ثمّ نقل رواية جابر عن الشعبي، وارجعها إلى أنها رواية مرسلة، مشككاً في رواية الحاكم في المستدرك التي قال في ذيلها: «صحيح على شرط مسلم، ولم يخرجاه» فقال ابن كثير:

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٣٥٠ .

(٢) الواحدي، أسباب النزول: ٦٨ .

هكذا قال!»[١] أي أنها مجرد دعوى من الحاكم.

هذا نموذج من نماذج التلاعب بحديث المباهلة من خلال حذف اسم الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام منها.

وهنالك نموذج آخر أشدّ نكارة من النموذج الأول وهو الاتيان بأسماء ومسميات أُخرى واضافتهم إلى أسماء أهل البيت عليهم السلام ! الذين تواترت الروايات بذكر أسمائهم.

يروي السيوطي في الدر المنثور عن ابن عساكر: عن جعفر بن محمد (الصادق)! عن أبيه (الباقر)! في الآية ﴿تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا...﴾ قال: فجاء بأبي بكر وولده، وبعمر وولده، وبعثمان وولده، وبعلي وولده»[٢].

وجاء في السيرة الحلبية: وعن عمر رضي الله عنه: «أنه قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم: لو لاعنتهم يا رسول الله بيد من كنت تأخذ؟ قال صلى الله عليه وآله وسلم: آخذ بيد عليّ وفاطمة والحسن والحسين وعائشة وحفصة» ثمّ قال: وهذا - أي زيادة عائشة وحفصة في هذه الرواية - دل عليه قوله تعالى: ﴿وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ﴾[٣].

والذي يبدو من الحلبي أنه يرجح هذه الرواية، بعد أن أَوْجَد التردد في أصل خروج أهل البيت مع رسول الله للمباهلة حيث نقل أن وفد نجران تشاوروا فيما بينهم أو مع بني قريظة! «.. فأشاروا عليهم أن يصالحوه ولا يلاعنوا» ثمّ أردف قائلا: «وفي لفظ: انهم وادعوه على غد، فلما أصبح أقبل ومعه حسن وحسين وفاطمة وعلي رضي الله عنهم»[٤].

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم: ١ / ٤٨٨، والبداية والنهاية: ٥ / ٦٥، والسيرة النبوية: ٤ / ١٠٣.

(٢) السيوطي، الدر المنثور: ٢ / ٢٢١، وابن عساكر، تاريخ دمشق الكبير: ٤١ / ١١٥.

(٣) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٢٩٩.

(٤) المصدر نفسه: ٣ / ٢٩٩.

فهو يميل إلى عدم حضور أهل البيت عليهم السلام للملاعنة، ثمّ يقول، وفي لفظ - مما يدل على التضعيف - ثمّ يورد رواية عمر، فاعرض عن الرواية المتواترة القطعية واختار ما نقله عن عمر[١]!

ولا نريد أن نتوقف عند الرواية المنسوبة للإمام الصادق عليه السلام «فهي رواية شاذة تخالف جميع روايات الآية على كثرتها واشتهارها، وقد اعرض عن هذه الرواية المفسرون، وهي مع ذلك تشتمل على ما لا يطابق الواقع، وهو جعله لكل من المذكورين فيه ولداً، ولا ولد يومئذ لجميعهم البتة»[٢].

وهنالك نموذج ثالث في التعامل مع حديث المباهلة، بل ومع جلّ أحاديث فضائل أهل البيت عامة وفضائل علي خاصة، وهو المنحى الذي اتخذه ابن تيمية لنفسه وتابعه عليه تلامذته ومن تأثر به من المتأخرين.

ومنهج ابن تيمية اتجاه أهل البيت عليهم السلام وخاصة الإمام علي عليه السلام، معروف لمن اطلع على أفكاره من خلال كتبه ومؤلفاته وخاصة كتابه الموسوم بـ «منهاج السنة النبوية» فقد أنكر وشكك في كل فضائل علي وآل علي عليهم السلام، ومن درس كتاب (منهاج السنة) وجده يطعن ويقدح في جميع شؤون أمير المؤمنين عليه السلام، وينكر فضائله ومناقبه كلّها، من اسلامه، ومن صفاته النفسانية كالعلم والعدالة والشجاعة والزهد، ومن فضائله ومناقبه الواردة في الصحاح والسنن وغيرها من كتب أهل السنة، وحتى في إمامته وخلافته بعد عثمان!! بل يكذب عليه، ويطعن فيه، وينال منه..»[٣].

ونموذج ذلك نجده في قضية المباهلة وحديثها المتواتر، فنجده يرد على

---

(١) انظر، الأحمدي، مكاتيب الرسول: ٢ / ٥٠٦.

(٢) الطباطبائي، الميزان: ٣ / ٣٤٣.

(٣) الميلاني - علي الحسيني، دراسات في منهاج السنة: ٢١٣ - ٢١٤.

العلامة الحلي الذي استدل بآية المباهلة كدليل أو أَدَّل دليل على ثبوت الإمامة لعلي، «لأ نّه تعالى قد جعله نفس رسول الله ﷺ ، والاتحاد محال، فينبغي المراد المساوي، وله ﷺ الولاية العامة، فكذا لمُساويه»[١].

فجاء ابن تيمية ونقل كلام العلامة الحلي بقوله: «قال الرافضي!!» ثمّ قال: والجواب أن يقال: «أما أخذه علياً وفاطمة والحسن والحسين في المباهلة، فحديث صحيح، رواه مسلم عن سعد بن أبي وقاص..»[٢].

ثمّ قال: «ولكن لا دلالة في ذلك على الامامة ولا على الأفضلية». ثمّ أخذ في المناقشة واللف والدوران، حتى انتهى إلى نتيجة مفادها، أن حديث المباهلة فضيلة لمن باهل بهم رسول الله ﷺ ، وما دعاهم النبي ﷺ لفضيلة لهم! ولكن دعاهم لأ نّهم أقاربه ولم يكن عنده أحد أقرب إليه نسباً من هؤلاء!.. ولايقتضي أن يكون من باهل به أفضل من جميع الصحابة، كما لم يجب أن تكون فاطمة وحسن وحسين أفضل من جميع الصحابة!.. ثمّ يقول: إن النبي ﷺ لو دعا أبا بكر وعمر وعثمان.. لكانوا من أعظم الناس استجابة لأمره، وكان دعاء هؤلاء وغيرهم أبلغ في اجابة الدعاء..»[٣].

وجاء من بعد ابن تيمية تلميذه الوفي لآراء أُستاذه وعقائده «ابن قيم الجوزية» لينقل لنا حديث المباهلة بحذف اسم علي عليه السلام من الرواية فقال: «فلما أصبح رسول الله ﷺ الغد.. أقبل مشتملا على الحسن والحسين رضي الله عنهما» في خميل له، وفاطمة رضي الله عنها تمشي عند ظهره، للمباهلة»[٤].

---

(١) العلامة الحلي - الحسن بن يوسف، منهاج الكرامة: ١٤٩، البرهان التاسع، تحقيق: عبد الرحيم مبارك، طبعة المكتبة المتخصصة - قم، ط ١، (٢٠٠٤ م - ١٤٢٥ هـ).

(٢) مسلم، صحيح مسلم بشرح النووي: ١٥ / ١٧٥.

(٣) ابن تيمة، منهاج السنة: ٧ / ١٢٢ - ١٣٠، تحقيق: محمد رشاد سالم، ط. مؤسسة قرطبة، الطبعة الأُولى، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

(٤) ابن القيم، زاد المعاد: ٣ / ٧٢٨.

وبعد قرون من الزمن، وردح طويل من الزمن، جاء من يردد تمحلات ابن تيمية، ويلبسها لبوس المناقشة العلمية الاجتماعية! فنجد صاحب تفسير المنار الشيخ محمد رشيد رضا ينقل عن أُستاذه الشيخ محمد عبده قوله: «قال الأُستاذ الإمام: الروايات متفقة على أن النبيﷺ اختار للمباهلة علياً وفاطمة وولديهما، ويحملون كلمة نساءنا على فاطمة، وكلمة أنفسنا على عليّ فقط، ومصادر هذه الروايات الشيعة!! ومقصدهم منها معروف، وقد اجتهدوا في ترويجها ما استطاعوا حتى راجت على كثير من أهل السنة، ولكن واضعيها لم يحسنوا تطبيقها على الآية..» ثمّ أخذ في الاشكال على الحديث لفظاً ومعنى ودلالة[1].

وقد نقل العلامة الطباطبائي في الميزان كلام صاحب المنار، وناقشه مناقشة جادة مستفيضة، ثمّ عقب على ذلك بقوله: «وهذا الكلام - وأحسب أن الناظر فيه يكاد يتهمنا في نسبته إلى مثله، واللبيب لا يرضى بايداعه وامثاله في الزبر العلمية - إنما أوردناه على وهنه وسقوطه ليعلم أن النزعة العصبية إلى أين تورد صاحبها من سقوط الفهم ورداءة النظر، فيهدم كل ما بنى عليه، ويبني كل ما هدمه ولا يبالي، ولأن الشر يجب أن يُعلم ليجتنب عنه»[2].

ونعم ما قاله من تعقيب، فإنّ الأهواء والعصبية قد حملت أُولئك على ما ذهبوا إليه من آراء عجيبة في حديث متواتر، واضح الدلالة، بيّن المعاني، لا يستعصي فهمه واستجلاء معانيه على من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

٤ - إشكاليات تاريخ المباهلة

هنالك اختلاف بين المؤرخين في تحديد السنة التي وفد فيها وفد نجران إلى المدينة، فذكر بعض المؤرخين كالطبري، وابن الأثير، والمقريزي، أن

---

(١) محمد رشيد رضا، تفسير المنار: ٣ / ٣٢٢ - ٣٢٤ .

(٢) الطباطبائي، الميزان: ٣ / ٢٣٥ وما بعدها .

نصارى نجران وفدوا على رسول الله ﷺ سنة عشر من الهجرة، وذكر آخرون كابن كثير والحلبي في السيرة أن ذلك كان في سنة تسع من الهجرة[١].

وهنالك قول شاذ يقول بوفادة نصارى نجران على رسول الله ﷺ وهو في مكة، إلاّ أنّه قول لا يعتد به كما هو واضح، وقد علّق عليه ابن القيم بقوله: وذلك غلط على غلط.. وكتابه إلى - نصارى - نجران بعد مرجعه من تبوك[٢].

وعلى كلا التاريخين هنالك اشكالية واضحة في تحديد يوم المباهلة بدقة!

ففي الوقت الذي أهملت الروايات التاريخية تحديد يوم المباهلة، نجد الروايات الشيعة تحدد ذلك مع اختلاف يسير بينها.

فالمشهور بين علماء الطائفة أن المباهلة وقعت في اليوم الرابع والعشرين من شهر ذي الحجة، ونص على ذلك الشيخ الطوسي في المصباح، وروى في كتابه دعاءً خاصاً في هذه المناسبة، كما أن المحدث القمي عبّر عن هذا التاريخ للمباهلة بأنه الأشهر، وأورد له جملة من الأعمال، ومنها الدعاء الذي ذكره الشيخ في المصباح[٣].

ونقل ابن طاووس أقوالا أُخرى في تحديد يوم المباهلة وقال: «وذهب البعض إلى أنه اليوم الواحد والعشرون، بينما ذهب آخرون إلى أنّه اليوم السابع والعشرون.. وأصح تلك الأقوال هو الرابع والعشرون من ذي الحجة»[٤].

وقال أحد المحققين: «إن المشهور بين العلماء هو أن المباهلة وقعت في

---

(١) انظر: الطبري: ٣ / ٦٣٩، وابن الأثير: ١ / ٦٤٥، والمقريزي، امتاع الاسماع: ٢ / ٩٥، والبداية والنهاية: ٥ / ٦٥، والسيرة الحلبية: ٣ / ٢٨٨ .

(٢) ابن حجر، فتح الباري: ٨ / ٧٣، والبيهقي: ٥ / ٣٨٥، وابن القيم، زاد المعاد: ٣ / ٧٣٤، والأحمدي، المكاتيب: ٢ / ٤٩٦ .

(٣) الطوسي - محمد بن الحسن، مصباح المتهجد: ٧٠٤، والقمي - عباس، مفاتيح الجنان: ٢٨١ .

(٤) ابن طاووس، اقبال الأعمال: ٧٤٣ .

اليوم الخامس والعشرين من شهر ذي القعدة»[١].

ومهما يكن تاريخ يوم المباهلة بحسب هذه الروايات والأقوال، فإنها متقاربة، ولا تثير اشكالية كبيرة. إلاّ أنّ الاشكالية تأتي في تحديد السنة والشهر الذي وقعت فيه هذه الحادثة المهمة! فهل وقعت الحادثة في السنة التاسعة كما ذهب إلى ذلك بعض المؤرخين؟ أم أنها وقعت في السنة العاشرة كما يقول بعض آخر؟

فلو فرضنا أن المباهلة وقعت في ذي الحجة من السنة التاسعة، باعتبار أن النبيﷺ كان في المدينة في هذا التاريخ ولم يخرج إلى موسم الحج، إلاّ أن حضور الإمام عليعليه السلام في جملة من خرج بهم النبيﷺ للمباهلة، وهو أمر مقطوع به في الروايات المتواترة، كذلك حضورهعليه السلام في موسم حج العام التاسع لتبليغ براءة في الموسم، وهو أيضاً من الأُمور القطعية، هذان الأمران القطعيان يضعان أمام افتراض المباهلة في ذي الحجة من السنة التاسعة اشكالية كبيرة! فكيف تمكّن الإمام عليعليه السلام - وبالطرق العادية - العودة إلى المدينة بعد انتهاء موسم الحج، وبهذه السرعة ليشارك في المباهلة؟ علماً أن المسافة بين مكة والمدينة لا يمكن أن يقطعها المسافر في ذلك الزمن في أقل من عشرة أيام، هذا إذا كان بمفرده، أما إذا كان ضمن قافلة كما هو في موسم الحج فالمدة تكون أطول لأن حركة القوافل تكون عادة أبطأ من حركة الأفراد.

وتكون المسألة أكثر اشكالية وتعقيداً لو أخذنا بالرواية التي تقول: «إن الإمام علياً ابطأ عن رسول اللهﷺ خبره، وكان في رجوعه مقتصداً في سيره، وإن النبيﷺ قد اغتمّ لذلك غماً شديداً، وانهﷺ أخبر أباذر بذلك..»[٢].

فالقول بوقوع المباهلة في ذي الحجة من العام التاسع يُبعد الإمام علياً من

---

(١) سبحاني، سيد المرسلين: ٢ / ٦١١ .

(٢) ابن طاووس، الاقبال: ٢ / ٤١ .

المشاركة فيها، وحضوره في المباهلة قطعي، كما أن حضوره في موسم حج السنة التاسعة قطعي أيضاً!

كما أننا لو افترضنا بوقوع المباهلة في ذي الحجة من السنة العاشرة، فالأمر حينئذ أكثر اشكالية وتعقيداً، لأنها تصطدم بوقائع تاريخية قطعية مسلمة!

فمن المقطوع به تاريخياً أن النبيﷺ قد حج في العام العاشر من الهجرة حجة الوداع.

ومن المقطوع به أيضاً أن النبيﷺ وبأمر من الله سبحانه قد نصب الإمام علياًعليه السلام خليفة على المسلمين من بعده، وذلك في قضية بيعة الغدير وفي الثامن عشر من ذي الحجة، وفي منطقة الجحفة تحديداً، والتي تبعد عن المدينة بمقدار ثلثي مجموع المسافة بين مكة والمدينة.

ومن الأُمور المسلمة تاريخياً أن رسول اللهﷺ قد بعث الإمام عليّاًعليه السلام إلى اليمن، في السنة العاشرة، وإنهعليه السلام بقي هناك إلى حين موسم الحج، ثمّ التحق بالنبيﷺ بمكة: «وقد حمل معه ألف حلة من البز كان قد أخذها من أهل نجران من باب الجزية التي فرضت عليهم»[1].

وهذا يعني أن الجزية قد فرضت على أهل نجران قبل حج السنة العاشرة، الذي يفترض وقوع المباهلة بعده!!

فمع وجود هذه الحوادث التاريخية المسلمة والقطعية تبرز لنا اشكالية وقوع المباهلة في ذي الحجة من سنة عشر من الهجرة.

إذ لا يمكن لنا إنكار حج رسول الله في هذا العام، ولا يمكن لنا كذلك

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٢ - ٦٠٣ .

إنكار بيعة الغدير ومكانها وتاريخها.

ولا يمكن أن نتصور أن يقطع رسول الله ﷺ المسافات الشاسعة بين الجحفة والمدينة في فترة قياسية لا تتجاوز الأيام! ومن ثمّ يباهل نصارى نجران في الموعد الذي يذكرونه للمباهلة!

هذه خلاصة الاشكالات الواردة على القول بكلا التاريخين لشهر وسنة حادثة المباهلة، ولهذه الاشكالات شواهد ومؤيدات جزئية كثيرة[١].

وبالعودة إلى السؤال السابق نقول متى وقعت حادثة وفد نجران والمباهلة تحديداً؟ هل وقعت في ذو الحجة من العام التاسع للهجرة؟ أم وقعت في ذي الحجة من العام العاشر؟ وكيف نتعامل مع الوقائع التاريخية القطعية التي تتنافى مع هذين التاريخين؟

حاول المسعودي (ت ٣٤٥) أن يحل هذه الاشكالية، من خلال الاستناد إلى عادة العرب في الجاهلية في «النسيء»[٢] بين الشهور، والتي جرت بدورها إلى موسم الحج الذي كان يقع في بعض الأحيان في غير الشهر الذي عينه الله سبحانه له وهو ذي الحجة، كما هو في آخر حجة حجها المشركون في العام التاسع.

قال المسعودي: «وقد كان العرب في الجاهلية تنسي لأجل اختلاف الزمان والمواقيت ما بين السنة الشمسية والقمرية، وفيه أُنزل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ...﴾[٣]... وكانوا ينسئون في كل ثلاث سنين شهرا يسقطونه من

(١) للتوسع انظر: سبحاني، سيد المرسلين: ٢ / ٦١٠ وما بعدها.

(٢) النسيء: النَّسئُ، تأخير في الوقت، ومنها النَّسيُ الذي كانت العرب تفعله وهو تأخير بعض الأشهر الحرام إلى شهر آخر (مفردات الراغب، ولسان العرب).

(٣) التوبة: ٣٧.

السنة، ويسمون الشهر الذي يليه باسمه، ويجعلون يوم التروية ويوم عرفة ويوم النحر الثامن والتاسع والعاشر من ذلك الشهر. . . فلم يزالوا على ذلك إلى أن ظهر الإسلام وفتح رسول الله ﷺ مكة، فوجه أبا بكر في السنة التاسعة من الهجرة على الموسم فحج بالناس، وهي آخر حجة حجها المشركون. وكان الحج في تلك السنة - أي السنة التاسعة - اليوم العاشر من ذي القعدة، ونزلت آيات من سورة براءة، فبعث بها رسول الله ﷺ مع علي بن أبي طالب عليه السلام، وأمره بقراءتها على الناس بمنى. فلما كان من قابل - أي السنة العاشرة - حج رسول الله ﷺ في ذي الحجة، وسمي حجة الوداع»[١].

ومما يؤيد ما ذهب إليه المسعودي رواية الطوسي عن الجبائي قال: «كان يوم النحر عشرين من ذي القعدة في تلك السنة - أي السنة التاسعة - وكان سبب ذلك: النسي الذي كان في الجاهلية»[٢].

وعلى ضوء ما قاله المسعودي ورواية الشيخ الطوسي، يكون الإمام علي عليه السلام قد قام بأداء مهمته التي بعثه النبي ﷺ بها في موسم حج السنة التاسعة والتي وقعت في العاشر من ذي القعدة، ثمّ عاد إلى المدينة، في أوائل ذي الحجة على أبعد تقدير، ثمّ جاءَ وَفْدُ نجران، وخرج علي عليه السلام مع من أخرجهم رسول الله ﷺ للمباهلة. «وعليه فشهر ذي الحجة من تلك السنة يبقى سليماً عما ينافي وفود نصارى نجران ومباهلتهم النبيّ ﷺ»[٣].

فتاريخ المباهلة على ضوء ما قاله المسعودي ورواية الشيخ الطوسي هو شهر ذي الحجة من العام العاشر للهجرة، وفي تحديد يوم المباهلة نعود إلى ما هو مشهور بين العلماء.

---

(١) المسعودي - أبي الحسن علي بن الحسين، التنبيه والاشراف: ١٨٦ - ١٨٧ .

(٢) الطوسي، التبيان: ٥ / ١٩٦، وعنه في مجمع البيان: ٥ / ٦ .

(٣) اليوسفي، موسوعة التاريخ الإسلامي: ٣ / ٥٤٢ .

٥ – من مداليل قصة المباهلة

تضمنت قصة المباهلة وخروج رسول الله ﷺ بأهل بيته عليهم السلام وبالكيفية التي ذكرها المؤرخون والمحدثون، جملة من المداليل، وآفاق واسعة من المعارف والمفاهيم الايمانية والعقائدية، تغافل عنها كثير من المؤرخين والمفسرين ومرّوا عليها مرور الكرام، بل إنَّ بعضهم حاول أن يفرغ هذه الحادثة من مداليلها ومضامينها الايمانية والعقائدية، وجعلها في مصافِّ الحوادث العادية! وقد أشرنا إلى بعض هذه المحاولات في ثنايا استعراض وقائع الحادثة.

ونتوقف هنا عند بعض مداليل المباهلة وباختصار:

أولا: في المباهلة دعم للدين الحنيف، وإثبات للرسالة:

لم يكن وفد نجران من الوفود العادية أو كبقية وفود عرب الجزيرة، وإنما كان وفداً علمائياً كبيراً فيهم الأيهب، والحبر، والاسقف، والسيد، وهؤلاء هم أصحاب الحل والعقد وبيدهم أمر نصارى نجران، ولهم قيمومة دينية ومعنوية عليهم، ويحظون بدعم مادي ومعنوي من ملك الروم ومن الكنيسة المركزية في الشام.. ولم تكن مهمتهم التي جاؤوا من أجلها هو الدخول في الإسلام، وإنما وفدوا من أجل أن يناظروا ويناقشوا ويجادلوا النبي ﷺ في عيسى ابن مريم عليه السلام.

وَقَبِل رسول الله ﷺ مناقشتهم، فناظروه في صفات عيسى، وولادته، وأُلوهيَّته، وبُنوته، وإنه ثالث ثلاثة.. فاستمع النبي ﷺ إلى حججهم، وجادلهم بالحجة الدامغة، والمنطق السليم، إلاّ أنهم أصروا على العناد واللجاج، فأنهى رسول الله ﷺ المناظرة معهم[1]، «ودعاهم إلى التفوه بكلمة واحدة فقط لا يَقْدِم عليها في تلك اللحظة إلاّ من كان على يقين من صدقه، ولا يحجم عنها إلاّ من

(١) انظر طرفاً من هذه المناظرة عند ابن هشام في السيرة النبوية: ٢ / ٢٢٢ وما بعدها.

كان عالماً بكذبه.. وهذه الكلمة هي: (لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ) ولكنها تقترن بمعجزة خارقة، دونها معجزات المسيح مجتمعة، حيث تنهال على رأس الكاذب صاعقة من السماء تملأ الأرض عليه ناراً»[١].

فالاقدام على المباهلة، وبهذه الثقة العالمية بنصر الله سبحانه دليل قاطع على أحقية هذا الدين الذي ختم الله به أديانه السماوية، وتثبيتاً لرسالة سيد المرسلين الذي ختمت به وبنبوته رسالات السماء.

ولهذا يقول الفخر الرازي: «إن هذه الواقعة دلت على صحة نبوته عليه السلام من وجهين:

أحدهما: انه عليه السلام خوفهم بنزول العذاب عليهم، ولو لم يكن واثقاً بذلك، لكان ذلك سعياً في اظهار كذب نفسه...

وثانيهما: أن القوم لما تركوا مباهلته، فلولا انهم عرفوا من التوراة والانجيل ما يدل على نبوته، وإلاّ لما أحجموا عن مباهلته»[٢].

ثانياً: في المباهلة اظهار لفضل أهل البيت وتقدمهم على غيرهم:

تعتبر حادثة المباهلة وكيفية خروج النبيّ بأهل بيته من الحوادث الفريدة في تاريخ النبوة والأنبياء، قد لا نجد لها نظيراً في تاريخ الأنبياء السابقين عليهم السلام! إذ لم يدعُ النبي صلى الله عليه وآله أحداً إلى المباهلة في فترتي رسالته «المكية والمدنية» إلاّ مرة واحدة فقط، فكانت هذه الحادثة كالغُرة في جبين الدهر، تُظهر حقانية هذا الدين، وخاتمية سيد المرسلين، وتظهر على رؤوس الاشهاد عظمة ومكانة وفضل أهل البيت عليهم السلام.

---

(١) مغنية - محمد جواد، تفسير الكاشف: ٢ / ٧٦ - ٧٧.

(٢) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٨ / ٨٧ - ٨٨.

يقول المفسر الشهير جار الله الزمخشري في تفسيره المعروف بالكشاف تعقيباً على قصة المباهلة وبعد أن نقل رواية عائشة التي تقول فيها: إن رسول الله ﷺ خرج وعليه مرط مرجل من شعر أسود، فجاء الحسن فأدخله، ثمّ جاء الحسين فأدخله، ثمّ فاطمة، ثمّ علي، ثمّ قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[1] قال: وفيه دليل لا شيء أقوى منه على فضل أصحاب الكساء عليهم السلام، وفيه برهان واضح على صحة نبوة النبي ﷺ، لأنه لم يرو أحد من موافق ولا مخالف أنهم أجابوا إلى ذلك»[2].

وقد أيقن بهذه الحقيقة نصارى نجران أنفسهم، وكان خروجهم عليهم السلام مع النبي هو السبب الرئيسي لامتناع نصارى نجران عن المباهلة، فبعد أن رأى اسقفهم: «أن رسول الله ﷺ قد أتى إليهم، محتضناً الحسين، آخذاً بيد الحسن وفاطمة تمشي خلفه وعلي خلفهما وهو يقول: إذا دعوت فأمّنوا» عندها قال اسقف نجران: يا معشر النصارى، إني لأرى وجوهاً لو شاء الله أن يزيل جبلا من مكانه لأزاله بها، فلا تباهلوا فتهلكوا ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة..»[3].

فواقعة المباهلة بمفرداتها وحيثياتها وما نزل فيها من القرآن، تثبت أكبر فضيلة لأهل البيت عليهم السلام وتظهر للأُمة الإسلامية عِظَم مكانتهم ومراتبهم التي رتبهم الله عليها، ليكونوا بذلك أُسوة وقدوة للمسلمين كافة، وليس أدل على ذلك من قول الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام للمأمون العباسي في رواية يقول في مقطع منها: «.. ميّز الله الطاهرين من خلقه، فأمر نبيّه ﷺ بالمباهلة بهم..

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

(٢) الزمخشري - جار الله محمود بن عمرو، الكشاف عن غوامض التنزيل: ١ / ٣٧٠، افست نشر ادب الحوزة (بدون - ت).

(٣) المصدر نفسه: ١ / ٣٦٨ - ٣٦٩، والفخر الرازي، التفسير الكبير: ٨ / ٨٥.

ثمّ قال عليه السلام : فهذه خصوصية لا يتقدّمهم فيها أحد، وفضل لا يحلقهم فيه بشر، وشرف لا يسبقهم إليه خلق»[١].

ثالثاً: آية المباهلة تُثبت أُبوة النبي صلى الله عليه وآله للحسنين عليهما السلام :

لقد وردت عشرات الأحاديث النبوية والتي يعبر فيها النبي الأكرم عن الحسن والحسين عليهما السلام بـ «ابناي، أو ولداي» منها قوله صلى الله عليه وآله : «ابناي هذان امامان، قاما، أو قعدا»[٢].

وكانت قضية المباهلة والآية التي نزلت فيها بدعوة الأبناء، وخروج النبي صلى الله عليه وآله بالحسنين مع فاطمة وعلي عليهم السلام ، يدل دلالة واضحة على أنهما ابنان لرسول الله صلى الله عليه وآله حقيقة.

يقول الفخر الرازي: «هذه الآية – أي آية المباهلة – دالة على أن الحسن والحسين عليهما السلام كانا ابني رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعد أن يدعو أبناءه، فدعا الحسن والحسين، فوجب أن يكونا ابنيه، ومما يؤكد هذا قوله تعالى في سورة الانعام: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ﴾ إلى قوله: ﴿وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَى وَعِيسَى﴾ ومعلوم أن عيسى عليه السلام ، إنما انتسب إلى إبراهيم بالأُم، لا بالأب، فثبت أن ابن البنت قد يسمى ابناً[٣].

وكأنّ النبي صلى الله عليه وآله ومن خلال أحاديثه التي يؤكد فيها بنوة الحسنين، ومن ثمّ

---

(١) الصدوق – أبي جعفر محمد بن علي، عيون أخبار الرضا: ١ / ١٨٢، ط . الحيدرية، (١٩٧٠ م – ١٣٩٠ هـ)، وعنه في تفسير نور الثقلين للحويزي: ١ / ٣٤٩، والبرهان للبحراني: ١ / ٢٩٠، وتفسير العياشي: ١ / ١٧٧، والبحار: ٢ / ٥٢ و ٦ / ٦٥٢ من الطبعة الجديدة .

(٢) المفيد، الارشاد: ٢ / ٣٠، والطبرسي، مجمع البيان: ٢ / ٤٥٢، وانظر: القندوزي، ينابيع المودة: ١٦٥، والغدير للأميني: ٧ / ١٦٨ وما بعدها .

(٣) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٨ / ٨٦ .

تطبيقه العملي لذلك من خلال المباهلة، يريد أن يركز هذه القضية في وجدان الأُمة، لتغير بذلك نظرتها الجاهلية إلى أبناء البنت، والتي عبّر عنها الشاعر الجاهلي بقوله:

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا بنوهنّ أبناءُ الرجال الأباعد

لقد كانت هذه النظرة الجاهلية إلى البنت وأبناء البنت هي السائدة في ذلك الوسط الاجتماعي، وبقيت رواسبها بعد الإسلام في نفوس بعضهم، فكانت ترى أنّ النسب يلحق بالآباء لا غير فأنشد شاعرهم:

وإنّما أُمهات الناس أوعية مستودعات وللأنساب آباءُ

فجاء الإسلام ومن خلال هدي رسول الله ﷺ في التغيير الاجتماعي ليقضي على هذا اللون من التفكير الجاهلي، وليعطي للبنت وأبنائها مكانتها الإنسانية اللائقة بها.

إلاّ أن هذه النزعة الجاهلية قد أُثيرت مرة أُخرى بعد رسول الله ﷺ ولأسباب سياسية معروفة وذلك في أيام الدولتين الأموية والعباسية وسخر لها بعض المرتزقة من وضاع الأحاديث، وبعض شعراء البلاط.. في قصة طويلة الذيل لسنا في صدد ذكرها[1].

ومما يؤسف له أن هذا المفهوم الجاهلي قد تسرب إلى بعض الآراء الفقهية لبعض أرباب المذاهب! ونموذج ذلك ما نقله القرطبي في تفسيره فيمن وقّف وقفاً على ولده وولد ولده، قال: «قال مالك: لا يدخل في ذلك ولد البنت!.. وقد تقدّم نحو هذا عن الشافعي..»[2].

---

(١) انظر: المسعودي، مروج الذهب: ٣ / ٣٣، والمقريزي، النزاع والتخاصم: ٥٤، طبعة مؤسسة آل البيت - بيروت، (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

(٢) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: ٧ / ٢٢ - ٢٣، وانظر الغدير للأميني: ٧ / ١٦٥ وما بعدها.

رابعاً: إن آية المباهلة من أجلى أدلة امامة أمير المؤمنين وخلافته:

استدل علماء الإمامية على إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وخلافته لرسول الله صلى الله عليه وآله بنصوص كثيرة. منها آية المباهلة التي نحن في صدد بيان بعض دلالاتها.

فقد ذكر العلاّمة الحلّي جملة من الآيات القرآنية من خلال استدلاله على تعيين امامة علي عليه السلام بالقرآن، منها آية المباهلة فقال: السادسة: آية المباهلة، أجمع المفسرون على أنّ «أبناءنا» اشارة إلى الحسن والحسين، و «نساءنا» اشارة إلى فاطمة و «أنفسنا» اشارة إلى علي عليه السلام، فجعله نفس محمد صلى الله عليه وآله، والمراد المساواة، ومساوي الأكمل الأولى بالتصرّف، أكمل وأولى بالتصرف.

ورد عليه الفضل بن روزبهان: بأن دعوى المساواة باطلة.. ومن ادعى هذا فهو خارج عن الدين!

وأجابه الشيخ محمد حسن المظفر: أنّ مقصود المصنّف - أي العلامة الحلي - هو المساواة في الخصائص والكمال الذاتي، عدا خاصّة أوجبت نبوّته وميّزته عنه، وهو مفاد ما حكاه في «كنز العمال» في فضائل علي عليه السلام.. إنّ النبيّ قال لعلي: «ما سألت الله لي شيئاً إلاّ سألتُ لك مثله، ولا سألتُ الله شيئاً إلاّ أعطانيه، غير أنه قيل لي: إنه لا نبيّ بعدك».

ويدلّ عليه ما روي مستفيضاً عن النبي صلى الله عليه وآله: «إنّ علياً منّي وأنا منه».

فتدل الآية الشريفة على إمامة أمير المؤمنين عليه السلام، لأنّ مساواته للنبي صلى الله عليه وآله في خصائصه عدا مزية النبوة تستوجب أن يكون مثله أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأفضل من غيره بكلّ الجهات، وأن يمتنع صيرورته رعيّةً ومأموراً لغيره، كالنبي صلى الله عليه وآله[1].

---

(١) المظفر - محمد حسن، دلائل الصدق: ٤ / ٣٩٩ وما بعدها، طبعة مؤسسة آل البيت - قم، ط. الأُولى، (١٤٢٣ هـ).

وقد يستفاد من الفخر الرازي في تفسير آية المباهلة تسليم دلالتها على أفضلية أمير المؤمنين عليه السلام على سائر الصحابة، فقد نقل كلام سديد الدين الحمصي، ثمّ قال: «وأما سائر الشيعة، فقد كانوا قديماً وحديثاً يستدلون بهذه الآية على أن علياً رضي الله عنه - أفضل - من سائر الصحابة»[١].

إلاّ انه أجاب عن هذا الاستدلال بكلام ليس له أهميته، ولا يخفى جوابه على العلماء، فقد أجابه المظفر في الدلائل، وغيره من المحققين بما لا مزيد عليه[٢].

وعلى أي حال، فإن آية المباهلة تدل بوضوح على الإمامة، واستدل بها الأئمة أنفسهم على ذلك كما هو مسطور في محله، وجاء علماء الطائفة فقرروا ذلك بأحسن تقرير وأوضحوا ما أجمل منه بأفضل ايضاح وبيان.

وعودة على ما قلناه سابقاً، فإنّ في آية المباهلة وقصتها كثيراً من الدلائل العقائدية لا يسع مجال البحث لذكرها واستيعابها.

٦ - ارسال الأُمراء وعمال الصدقات

شهدت السنة العاشرة من الهجرة خروج مجموعة من المبلِّغين وعمال الصدقات إلى مختلف القبائل وخاصة إلى العمق الجنوبي من الجزيرة وبلاد اليمن خاصة.

وهذه الحركة الواسعة للمبلغين وعمال الصدقات والجباة كان لها ما يبررها بعد وفادة القبائل إلى المدينة في العام التاسع والعاشر وإسلام الغالبية العظمى

---

(١) الفخر الرازي، التفسير الكبير: ٨ / ٨٦، وكلمة «أفضل» ساقطة من سياق كلامه في نسخة التفسير التي عندنا، إلاّ أنها مذكورة بعد ذلك.

(٢) المظفر، دلائل الصدق: ٤ / ٤٠٧، والميلاني، تشييد المراجعات: ١ / ٤٢١ وما بعدها.

منهم، بالاضافة إلى اقرار نصارى نجران بالجزية، فكان لابد من ايصال تعاليم الإسلام إليهم من خلال أُولئك المبلغين، وجباية الأموال منهم لبيت مال الدولة الإسلامية.

قال ابن إسحاق: «وكان رسول الله ﷺ قد بعث أُمراءه وعماله على الصدقات، إلى كلِّ ما أوطأ الإسلام من البلدان، فبعث المهاجر بن أُميّة إلى صَنعاء، فخرج عليه العنسيّ وهو بها، وبعث زياد بن لبيد إلى حضرموت وعلى صدقاتها، وبعث عديّ بن حاتم على طيء وصدقاتها، وعلى بني أسد، وبعث مالك بن نويرة على صدقات بني حنظلة، وفرّق صدقة بني سعد على رجلين منهم، فبعث الزبرقان بن بدر على ناحية منها، وقيس بن عاصم على ناحية، وكان قد بعث العلاء بن الحضرميّ على البحرين، وبعث عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم»[١].

وهذا النص على اجماله قد لا يعطينا فكرة واضحة عن تاريخ ارسال أُولئك الأُمراء وعمال الصدقات، إلاّ أنّ ابن إسحاق والطبري، أدرجا هذه الرواية ضمن أحداث السنة العاشرة وقبل حجة الوداع، كذلك لا نجد في هذا النص تفاصيل المهمة التي كُلِّف بها كل واحد من أُولئك المبعوثين ومقدار الأموال التي تم استحصالها من الذين أرسلوا إليهم.. إلاّ أن مثل هذه المعلومات الجزئية التي قد يمكن الحصول عليها من خلال الكتب المعدة لذلك ككتب الخراج والأموال والجزية[٢]، لا تشكل أهمية كبيرة في سياق البحث التاريخي في السيرة النبوية.

٧ - ارسال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن

ذكر ابن إسحاق في آخر روايته عن ارسال الأُمراء والعمال.. «إنّ رسول

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٠، وعنه الطبري: ٣ / ١٤٧ .

(٢) للتوسع انظر كتاب الأموال لأبي عبيد القاسم بن سلام .

الله ﷺ بعث عليّ بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى أهل نجران ليجمع صدقتهم ويقدم عليه بجزيتهم».

ولابد أن تكون هذه المهمة بعد عودة الإمام علي عليه السلام من موسم الحج حيث أبلغ براءة في ذلك العام، ثمّ حصلت قضية المباهلة التي انتهت بمصالحة نصارى نجران مع النبي ﷺ على اعطاء الجزية، فكانت بعثة الإمام علي عليه السلام إلى أهل نجران في السنة العاشرة وقبل حجة الوداع، لأنه عليه السلام قد التحق بالنبي ﷺ وهو في مكة لأداء مناسك حجة الوداع كما سوف يأتينا لاحقاً.

إلاّ أن بعثة الإمام علي عليه السلام إلى اليمن وإلى أهل نجران تحديداً قد تكون البعثة الأَخيرة له إلى هذه البلاد، ولكنّها لم تكن الأُولى، فقد سبقتها سريته عليه السلام إلى أرض طيّء في السنة التاسعة من الهجرة، وذلك بعد فتح مكة وبعد غزوة تبوك، وكانت مهمة الإمام عليه السلام هي تهديم صنم طي الذي كان يقال له: «الفَلس»[1]. وقد تحدثنا عن هذه السرية وما جرى فيها من أحداث في الدروس السابقة.

وفي العودة إلى سيرة ابن هشام نجده يذكر الغزوات والسرايا في آخر كتابه فيذكر منها: «غزوة علي بن أبي طالب رضوان الله عليه إلى اليمن، غزاها مرتين. قال ابن هشام: بعث رسول الله ﷺ علي بن أبي طالب إلى اليمن، وبعث خالد بن الوليد في جُند آخر، وقال: إن التقيتما فالأَمير عليّ بن أبي طالب»[2].

ولا يذكر لنا أي تفاصيل عن هذه الغزوة أو السرية، وهل هي نفس المهمة التي خرج فيها الإمام علي عليه السلام لجباية أموال أهل نجران أم أنها غيرها؟

إلاّ أنّ ابن سعد يذكر في سياق أحداث السنة العاشرة من الهجرة هذه

---

(١) انظر كتاب الأصنام للكلبي: ٥٩ - ٦٢، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣١.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٤١.

السرية بنحو من التفصيل فيقول: «ثمّ سريّة علي بن أبي طالب إلى اليمن، يقال: مرتين، إحداهما في شهر رمضان سنة عشر من مهاجر رسول الله ﷺ .

قالوا: بعث رسول الله ﷺ علياً إلى اليمن وعقد له لواءً وعممه بيده وقال: امضِ ولا تلتفت، فإذا نزلت بساحتهم فلا تقاتلهم حتى يقاتلوك! فخرج في ثلاثمائة فارس، وكانت أول خيل دخلت إلى تلك البلاد، وهي بلاد مذحج، ففرّق أصحابه فأتوا بنهب وغنائم ونساء وأطفال ونِعَم وغير ذلك، وجعل عليٌّ على الغنائم بُريدة الأسلمي، فجمع إليه ما أصابوا ثمّ لقي جمعهم فدعاهم إلى الإسلام فأبوا ورموا بالنبل والحجارة. فصف أصحابه ودفع لواءه إلى مسعود بن سنان السلمي، ثمّ حمل عليهم عليّ بأصحابه فقتل منهم عشرين رجلا فتفرقوا وانهزموا، فكفّ عن طلبهم، ثمّ دعاهم إلى الإسلام فأسرعوا وأجابوا وبايعه نفر من رؤسائهم على الإسلام وقالوا: نحن على من وراءنا من قومنا وهذه صدقاتنا فخذ منها حق الله. فجمع عليٌّ الغنائم فجزأها على خمسة أجزاء، فكتب في سهم منها «الله» وأقرع عليها فخرج أوّل سهم الخمس، وقسم عليّ على أصحابه بقية المَغنم، ثمّ قفل فوافى النبي ﷺ ، بمكة قد قدمها للحجّ سنة عشر»[1].

ولم يذكر لنا ابن سعد السرية الثانية! واكتفى بما ذكره تحت عنوان: احداهما.

والذي يبدو من آخر هذه الرواية انها نفس رواية ابن هشام التي لم يذكر فيها أي تفاصيل.، وإنما ذكر «أن رسول الله ﷺ بعث علياً إلى نجران لجمع صدقاتهم ويقدم عليه بجزيتهم» وهنا يذكر ابن سعد أن علياً وافى رسول الله بمكة!

ويذكر ابن اسحاق في سياق حجة الوداع: «أن رسول الله ﷺ كان بعث علياً رضي الله عنه إلى نجران، فلقيه في مكة وقد أحرم..»[2].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٤، والواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٧٩ وما بعدها .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٢ .

إلاّ أن هنالك روايات أكثر تفصيلا مما ذكره ابن هشام وابن سعد، ذكرها ابن الأثير في الكامل، وابن كثير في البداية والنهاية تتحدث عن همدان وإسلامها على يد علي بن أبي طالب عليه السلام .

قال ابن الأثير ضمن أحداث السنة العاشرة: «في هذه السنة بعث رسول الله صلى الله عليه وآله علياً إلى اليمن، وقد كان أرسل قبله خالد بن الوليد إليهم يدعوهم إلى الإسلام فلم يجيبوه، فأرسل علياً وأمره أن يقفل[1] خالداً ومن شاء من أصحابه، ففعل، وقرأ عليٌّ كتاب رسول الله صلى الله عليه وآله على أهل اليمن، فأسلمت همدان كلّها في يوم واحد، فكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال: «السلام على همدان» يقوله ثلاثاً، ثمّ تتابع أهل اليمن على الإسلام، وكتب بذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فسجد شكراً لله تعالى».

ثمّ يذكر بعد هذه الرواية مباشرة رواية بعث رسول الله أُمراءه على الصدقات، قال: «.. وبعث عليّ بن أبي طالب إلى نجران لجمع صدقاتهم وجزيتهم ويعود، ففعل وعاد، ولقي رسول الله صلى الله عليه وآله بمكة في حجّة الوداع واستخلف على الجيش الذي معه رجلا من أصحابه، وسبقهم إلى النبي صلى الله عليه وآله فلقيه بمكّة، فعمد الرجل إلى الجيش فكساهم كلّ رجل حُلّة من البزّ الذي مع عليّ! فلمّا دنا الجيش خرج عليٌّ ليتلقّاهم فرأى عليهم الحلل، فنزعها عنهم، فشكاه الجيش إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقام النبي صلى الله عليه وآله خطيباً فقال: «أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لأخشن في ذات الله وفي سبيل الله». وذكر ابن كثير هذه الرواية بتفصيل أكثر»[2].

---

(١) في دلائل النبوة للبيهقي: يقفل، أي يرجعه ويرده . وفي رواية ابن كثير: يعقب معك فليعقب .

(٢) ابن الأثير – عز الدين علي بن كرم الشيباني، الكامل في التاريخ: ١ / ٦٥٠، وقارن برواية ابن كثير في البداية والنهاية: ٥ / ١٢٠ وما بعدها .

ومهما يمكن من أمر، فمن خلال هذه الجولة في روايات المؤرخين يتضح لنا أن بعثات علي عليه السلام إلى أرض اليمن قد تعددت بتعدد المهام التي بعثه رسول الله من أجلها، فتداخلت وقائع وأحداث بعض هذه البعثات مع بعضها عند بعض المؤرخين، فنجد بعض المفردات والأحداث تنسب إلى بعثة عند مؤرخ، وينسبها مؤرخ آخر إلى بعثة أُخرى. والذي نعتقده أن التسلسل التاريخي الذي ذكره ابن الأثير لبعثات علي عليه السلام إلى اليمن، هو التسلسل المنطقي والذي ينسجم مع أحداث السيرة النبوية في سنواتها الأخيرة.

يبقى أن نشير إلى أن اليمن وأهلها عامة، وقبيلة همدان خاصة قد أحبوا علياً عليه السلام في حياته حباً جماً، واخلصوا لعلي في حياته وكانوا من المقربين إليه أيام خلافته ووجوده في الكوفة وشاركوا في قتاله للناكثين والقاسطين والمارقين، ويكفي أهل اليمن فخراً أن يكون صاحب أمير المؤمنين وحامل راية الجهاد بين يديه، مالك بن الأشتر النخعي رضي الله عنه منهم.

وهنالك أبيات شعرية تنسب للإمام علي عليه السلام في ديوانه المنسوب إليه يمدح فيها همدان ونصرهم له يوم صفين منها:

ولما رأيتُ الخيلَ تُرجَمُ بالقَنا ... نواصيُها حُمْرُ النُحُور دوامي

تيممتُ همدان الذين همُ هُم ... إذا ناب دهر جُنَّتي وسهامي

فجاوبني من خيل همدان عصبة ... فوارسُ من همدان غيرُ لئامِ

فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشربِ مُدامِ

فلو كنتُ بواباً على بابِ جَنَّة ... لقلتُ لهمدان: ادخلوا بسلام[1]

(١) للتوسع انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ / ٢٣٩، والمنقري - نصر بن مزاحم، كتاب صفين: ٥٦٩ - ٥٩٧، وديوان الشعر المنسوب للإمام علي عليه السلام: ١٢٢ - ١٢٣ جمعه وشرحه: عبد العزيز سيد الأهل، طبعة صادر - بيروت، الطبعة الثانية، (١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م).

كذلك وقف أهل اليمن إلى جنب آل علي في محنتهم، فظهر في بلاد اليمن المذهب الزيدي نسبة إلى زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، ولا زالت اليمن وإلى زماننا هذا تحتفظ بهذا الحب لعلي فنجد أغلب أسمائهم وأسماء آبائهم وأجدادهم يبدأ بعلي وينتهي بعلي! ولا زالت اليمن تحتفظ بآثار علي عليه السلام من خلال مسجدها الكبير في صنعاء الذي يرون أن الذي وضع أساس بنيانه هو الإمام علي عليه السلام . وقد شاهدت في إحدى سفراتي إلى اليمن أحد المساجد الصغيرة على مقربة من مسجدها الجامع الكبير في سوق الحلقة في صنعاء، وقد كتب في مدخله «مسجد علي بن أبي طالب عليه السلام بني سنة ٨ هجرية»[1]! فدخلت إلى ذلك المسجد فارشدوني إلى بقايا محراب من الطين قالوا إن الإمام علي عليه السلام قد صلّى هنا أثناء بعثته إلى اليمن. فبادرت وصلّيت في ذلك المحراب تبركاً بمكان مصلى عليٍّ، فسلام على عليٍّ أمير المؤمنين.

٨ – وفاة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله وسلم

اختلفت الروايات في تعيين عدد أولاد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وسنة وفاتهم وأعمارهم التي توفوا عندها! إلاّ أنه لا خلاف بين المؤرخين في أن جميع أولاده من خديجة بنت خويلد، سوى إبراهيم فمن مارية بنت شمعون القبطية.

ففي رواية ابن كثير عمن حدثه عن ابن عباس: كان أكبر ولد رسول الله القاسم، ثمّ زينب، ثمّ عبد الله، ثمّ أُم كلثوم، ثمّ فاطمة، ثمّ رقية، فمات القاسم – وهو أول ميت من ولده بمكة – ثمّ مات عبد الله، فقال العاص بن وائل السهمي: قد انقطع نسله فهو أبتر، فأنزل الله عزّ وجل: ﴿إِنَّآ أَعۡطَيۡنَٰكَ ٱلۡكَوۡثَرَ ۝١ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنۡحَرۡ ۝٢ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلۡأَبۡتَرُ ۝٣﴾. قال: ثم ولدت له مارية بالمدينة إبراهيم في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، فمات ابن ثمانية عشر شهراً.

---

(١) للتوسع، انظر: الحجري – القاضي محمد بن أحمد، مساجدُ صنعاء عامِرها وموفيها: ٩٣ – ٩٤ .

وفي رواية أُخرى لابن عباس أيضاً: ولدت خديجة من النبيﷺ عبد الله بن محمد، ثمّ ابطأ عليه الولد من بعده... قال: ثمّ ولدت له زينب، ثمّ ولدت له رقية، ثمّ ولدت له القاسم، ثمّ ولدت له الطاهر، ثمّ ولدت له المطهر، ثمّ ولدت له الطيب، ثمّ ولدت له المطيب، ثمّ ولدت أُم كلثوم، ثمّ ولدت فاطمة، وكانت أصغرهم، وكانت خديجة إذا ولدت ولداً دفعته إلى من يرضعه، فلما ولدت فاطمة لم يرضعها غيرها».

وهنالك روايات أُخرى تخالف هاتين الروايتين من حيث ترتيب ولادتهم، وعدد الذكور منهم[1].

إلاّ أن المتفق عليه في روايات المؤرخين أن جميع أولاد النبيﷺ من الذكور قد توفاهم الله سبحانه في حياة أُمهم خديجة وقبل هجرتهﷺ إلى المدينة.

أما إبراهيم فأُمه مارية القبطية - التي تحدثنا عنها في ثنايا الدروس الماضية - فكانت ولادته في ذي الحجة سنة ثمان من الهجرة، وتوفي في السنة العاشرة وهو ابن ستة عشر شهراً، أو ابن ثمانية عشر شهراً على اختلاف الروايات.

ومما لا شك فيه أن النبوة ورسالة السماء التي حملها خاتم النبيينﷺ لم تخرجه من بشريته وإنسانيته، فكانﷺ كغيره من بني البشر، يفرح ويحزن ويجوع ويعطش، ويمرض ويشفى...، فكان مسروراً بولده إبراهيم، ولا يخفى سروره وفرحه عن أزواجه كما أسلفنا سابقاً.

وفي رواية قال الراوي: «لما حُبل بابراهيم، أتى جبريل فقال: السلام عليك يا أبا إبراهيم، إنّ الله قد وهب لك غلاماً من أُم ولدك مارية، وأمرك أن تسميه إبراهيم، فبارك الله لك فيه، وجعله قرة عين لك في الدنيا والآخرة».

---

(١) انظر، ابن كثير، البداية والنهاية: ٥ / ٣٢٨ - ٣٢٩.

وروي عن أنس قال: «ما رأيت أحداً أرحم بالعيال من رسول الله، كان إبراهيم مسترضعاً في عوالي المدينة، وكان ينطلق ونحن معه، فيدخل إلى البيت.. فيأخذه فيقبله ثمّ يرجع».

ولهذا كانت حادثة وفاة إبراهيم في السنة العاشرة من الحوادث المؤلمة التي أفجعته وأحزنت قلبه وأسالت دموعه الشريفة، ولهذا تقول الرواية: «لما مات إبراهيم قال رسول اللهﷺ: «لا تدرجوه في أكفانه حتّى انظر إليه» فجاء فانكب عليه وبكى حتى اضطرب لِحْيَاهُ وجَنْباه، وفي رواية أُخرى عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: لما توفي إبراهيم بكى رسول اللهﷺ فقال أبو بكر وعمر: أنت أحق من علم الله حقه!! فقال: «تدمع العين، ويحزن القلب، ولا نقول ما يسخط الرب، لولا أنه وعد صادق، وموعود جامع، وأن الآخر منا يتبع الأول، لوجدنا عليك يا إبراهيم وجداً أشد مما وجدنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون».

وفي رواية: «لما توفي إبراهيم بن رسول اللهﷺ بعث علي بن أبي طالب إلى أُمه مارية القبطية وهي في مشربة، فحمله علي في سفط وجعله بين يديه على الفرس، ثمّ جاء به إلى رسول اللهﷺ فغسله وكفنه وخرج به، وخرج الناس معه، فدفنه في الزقاق الذي يلي دار محمد بن زيد، فدخل علي في قبره حتى سوّي عليه ودفنه، ثمّ خرج ورش على قبره، وأدخل رسول الله يده في قبره.. وبكى رسول الله وبكى المسلمون حوله حتى ارتفع الصوت، ثمّ قال رسول الله: «تدمع العين ويحزن القلب، ولا نقول ما يغضب الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزونون».

قال الواقدي: مات إبراهيم بن رسول اللهﷺ يوم الثلاثاء لعشر ليال خلون من ربيع الأول سنة عشر.. ودفن بالبقيع»[1].

(١) المصدر نفسه: ٥ / ٣٣٠ - ٣٣٢ والروايات التي نقلناه تجدها في المصدر نفسه.

وتتحدث روايات السيرة عن كسوف الشمس عند وفاة إبراهيم ابن النبيﷺ، ومن البديهي أن لا ربط لهذا الكسوف بموت إبراهيم، لأن كسوف الشمس وخسوف القمر من السنن الكونية الطبيعية الجارية ضمن النظام الطبيعي في هذا الكون، إلاّ أن بعضهم تصور أن هذا الكسوف الذي اقترن بموت إبراهيم هو من أجل موت إبراهيم فقالوا: كسفت لموت إبراهيم! فما كان من رسول اللهﷺ - ومن أجل أن يقضي على هذا التصور الخاطئ - إلاّ أن ارتقى المنبر وقال: «أيها الناس: إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده فلا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته»[1].

وبهذا قضى رسول اللهﷺ على تلك الأوهام الخرافية في مهدها، كي لا تجد لها سبيلا إلى عقائد المسلمين.

٩ - الدروس والعبر

لقد استعرضنا في هذا الدرس جملة من المحاور لطرف من أحداث السنة العاشرة من الهجرة. وحان الوقت في خاتمة هذا الدرس لاستخلاص بعض الدروس والعبر من هذه الأحداث.

أولا: الطريقة المؤثرة في الاعلام والتبليغ:

لقد رأينا الآثار الايجابية التي أثمرت عنها تبليغ آيات براءة في حج السنة التاسعة، حيث ظهرت هذه الآثار مع بدايات السنة العاشرة من خلال تتابع وفود القبائل إلى المدينة لاعلان موقفها. من الإسلام وتعاليمه، والرسول وولايته العامة. فدخل الأغلب الأعم من هذه القبائل الوثنية في الإسلام، واعلنوا بيعتهم وطاعتهم لله ولرسوله. وأما وفود نصارى نجران ونصارى تغلب فقد أسلم القليل

(١) السيرة الحلبية: ٣ / ٤٣٦ .

منهم وبقي الكثير منهم على دينه على أن يدفعوا الجزية. . .

والذي نعتقده أن السبب الرئيسي لهذه الاستجابة السريعة من تلك القبائل من خلال ارسال وفودها بعد فترة زمنية وجيزة من موسم الحج هو المحتوى العالي والمعاني البلاغية المؤثرة التي تضمنتها آيات صدر سورة براءة من جهة، والأُسلوب والزمان والمكان الذي اختاره رسول الله ﷺ لابلاغها من جهة أُخرى، بالاضافة إلى أُسلوب علي المؤثر كان له الدور الكبير في تأثير براءة، وقد بيّنا ذلك في بداية هذا الدرس.

والذي نستلهمه كدرس وعبرة لنا من خلال هذا الهدي النبوي في الإعلام والتبليغ هو: كيفية استخدام الأُسلوب الأمثل ومن خلال الوسائل الإسلامية المتاحة لإيصال صوت الإسلام وتعاليمه إلى الآخرين.

فعمق المحتوى، وجمالية الأُسلوب، واختيار الزمان والمكان المناسبين، تُعطي ثمارها المرجوة في أسرع وقت قياسي ممكن، كذلك لشخصية المبلِّغ الرسالي وأُسلوبه أعمق الأثر في هذا المجال.

ثانياً: الهدي النبوي في حسن الاستقبال وكرم الضيافة للوفود:

لقد استعرضنا في هذا الدرس وقائع قدوم مجموعة كبيرة من الوفود، حيث وجدوا من رسول الله ﷺ حسن الاستقبال وكرم الضيافة والحفاوة البالغة، ووضع الأشخاص في مواضعهم ومكانتهم اللائقة بهم، ومن ثمّ اجازتهم بالجوائز وتوديعهم بنفس الحفاوة التي استقبلوا بها.

جرى كلّ هذا في الوقت الذي لم يكن رسول الله ﷺ يمتلك تلك الامكانات المادية التي يمتلكها الملوك والأُمراء، ولم يكن لديه جهاز تشريفات أو لجان للعلاقات الخارجية كما نشاهده في بلاطات ومكاتب الحكام والملوك. . إلاّ أن كل هذا لم يمنعه من استقبال تلك الوفود التي ازدحمت بهم المدينة ونواحيها وأزقتها.

ومن حقنا أن نتساءل:

أين هذا الهدي النبوي في التعامل والعلاقات الاجتماعية والانسانية في حياة الدعاة إلى الله، ممن استقبلوا في حياتهم السياسية ما استدبروه سابقاً، فاقبلت عليهم المناصب والألقاب، وسلطت عليهم الأضواء.. وإذا بهم ينسون كل ماضيهم الجهادي المشرق، وسقف عيشهم، ورفاق دربهم، ويتحولون إلى مسخ في أخلاقهم وتعاملهم مع أقرب الناس إليهم من اخوانهم وأصدقائهم فضلا عن عامة الرعية من أبناء أُمتهم!

ثالثاً: التسامح الديني في الإسلام:

وفي وفد نصارى نجران نجد قمة التسامح الديني الذي انطلق من خلاله رسول الله ﷺ في تعامله وحواره مع ذلك الوفد العلمائي الذي جاء للمناظرة والمحاورة في أُمور الدين واللاهوت وعيسى عليه السلام. ولم يقدم للمدينة لكي يعلن إسلامه.

فنجده ﷺ يبادر بالكتابة إليه ودعوتهم إلى تحديد موقفهم، ثمّ يستقبلهم ويجلس إليهم ويحاورهم في أكثر من محور، ويتسع صدره لحججهم، بل لتعنتهم ومجادلتهم في الحق! وأسئلتهم الغريبة فنجد أحدهم يقول له: «أتريد منا يا محمد أن نعبدك كما يُعبَد عيسى بن مريم؟ وإلى ذلك تدعونا؟».

وتمادى الجدل بهم، وأصروا على ما هم عليه في عقيدتهم في عيسى عليه السلام فما كان من النبي ﷺ إلاّ أن دعاهم إلى كلمة واحدة جامعة، تستنزل فيها لعنة الله على المفترين الكاذبين.

وخرج النبي ﷺ إليهم خروج الواثق من ربه، وأخرج معه من اصطفاهم الله وطهرهم من أهل بيته عليهم السلام، فنزلوا على حكم رسول الله ﷺ في ابقائهم على دينهم مقابل الجزية، فكتبت وثيقة الصلح في فقراتها القانونية، والتي تشكل بحد ذاتها ومن خلال فقراتها أعظم وثيقة انسانية بين فئتين ومن دينين مختلفين.

ألا تشكِّلُ هذه الخطوات النبوية، وهذا المنهج الرباني في التعامل مع أصحاب الديانات الأُخرى منهجاً في التسامح الديني، والحرية العقائدية لمن سالموا وكفوا أيدي البغي عن المسلمين ودخلوا في ذمة الإسلام؟ ألا نستطيع أن نقول وبثقة كبيرة، أن رسول الله ﷺ هو أول من أرسى ثقافة الحوار بين الأديان؟

فأين نحن من هذه الدوحة النبوية في التسامح بين الأديان؟ والحوار بين الأديان والحضارات والثقافات؟

نقولها - وبحسرة وأسف ومرارة - لقد ابتعدنا بمسافات طويلة عن هذا الهدي النبوي، فأصبح يكفر بعضنا بعضاً، وأصبحنا - ونحن أصحاب ملة واحدة - إلبا لأعدائنا على أوليائنا! فبان الضعفُ فينا، وأصبحنا لقمة سائغة لأطماع الغزاة والمحتلين والصهاينة والصليبيين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

رابعاً: عمق الوعي السياسي لدى النبي ﷺ :

لم تكن وثيقة العهد أو الصلح من نصارى نجران أو نصارى تغلب مجرد وثيقة تحدد مقدار الجزية ومسؤولية الدولة الإسلامية اتجاه النصارى. وإنما كان لها بُعد سياسي عميق أدركه النبي ﷺ من خلال بصيرته النافذة وحكمته ووعيه السياسي العميق.

فحملة الديانات الأُخرى وخاصة النصارى منهم كانوا على صلة وثيقة مع الدول التي تعتبر المركز الرئيسي لهذه الأديان. فكان رؤساء النصارى يحظون بالدعم المادي والمعنوي من الدولة الرومانية فكانوا يمدونهم ويدعمونهم مادياً ومعنوياً ويبنون لهم الكنائس، والوثائق التاريخية تنص على ذلك بوضوح[1].

فأراد رسول الله ﷺ ومن خلال الوثيقة والمعاهدة التي كتبها مع نصارى

(١) انظر: البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٣٨٣ .

نجران ونصارى تغلب، أن «يقطع الصلة بين أُولئك العرب المنتصرين وبين دولة الروم التي يشتبك معها في الحرب، بعدما ضمن الحرية الدينية لمن سالموه وكفوا عنه»[١].

وفي هذا التدبير السياسي النبوي، درس كبير في السياسة، لمن أراد أن يتعلم السياسة من خلال منابعها الأولية المتجسدة في خطوات النبيﷺ وسيرته المعطاءة، وليس من خلال متاهات السياسات المادية التي أُرسيت أُسسها على الأُسس الميكافيلية السياسية أو بروتوكوت حكماء صهيون!!

خامساً: مكانة أهل البيت من خلال آية المباهلة:

لم يكن خروج النبيﷺ إلى المباهلة بأهل بيته وخاصته، خروجاً اعتباطياً فرضته عوامل موضوعية، أو اتباعاً لسنَّة اجتماعية كانت جارية في ذلك المجتمع قبل الإسلام، فالعوامل الخارجية ليس لها مدخلية في هذا الاختيار، كما أن تلك السنَّة الاجتماعية المدعاة محلُّ تشكيك في مصداقيتها، وعلى فرض وجودها فلم يكن النبيﷺ - الذي جاء ليرسي قيماً ومفاهيم جديدة في ذلك المجتمع - ليتبع هذه السنّة. ولم يكن السبب لهذا الاختيار أيضاً صرف كونهم أهل بيته وأقرباءه، فقد كان هنالك من بني هاشم في المدينة ولم يَدْعُهُم النبيﷺ للخروج معه إلى المباهلة.

فلابد أن يكون من وراء هذا الاختيار أمر آخر غير ما يمكن تصوره، أو ما صوره بعض من يريد أن يحرف الأُمور عن مواضعها ومراتبها.

والذي تدل عليه حيثيات حادثة المباهلة، ويرشد إليه فعل النبيﷺ وطريقة خروجه بهمعليهم السلام . أنّ هذا الاختيار كان من الله سبحانه، والأسباب لا تخفى

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٢٩ .

على من يعرف واقع أهل البيت عليهم السلام ، وطهرهم وقدسيتهم، ومكانتهم عند الله.

ألا يدل فعل النبي صلى الله عليه وآله الذي ترويه لنا عائشة من أن رسول الله صلى الله عليه وآله بقولها: «خرج وعليه مرط مرجل.. فجاء الحسن فأدخله، ثمّ جاء الحسين فأدخله، ثمّ فاطمة، ثمّ علي، ثمّ قال: «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت..»[1]، على أنَّ هؤلاء الصفوة هم الذين اصطفاهم الله وطهرهم، وهو سبحانه الذي اختارهم لهذه المهمة؟

ولعلّ ما جاء في رواية ابن طاووس من قول النبي صلى الله عليه وآله عندما سأله نصارى نجران: «أفبهؤلاء تباهلنا؟ قال: نعم، بهؤلاء أمرتُ والذي بعثني بالحق أن أُباهلكم»[2].

والدرس العملي الذي نستفيده من هذه الواقعة بتفاصيلها هو أن نزداد يقيناً على يقيننا، وبصيرة على بصيرتنا، في حقانية مواقفنا اتجاه أهل البيت عليهم السلام ، فهم الطريق إلى الله سبحانه، وهم قادتنا وأُسوتنا، فالمتقدم عنهم مارق، والمتأخر عنهم زاهق، واللازم لهم لاحق، فلنأخذ بحجزتهم، ولنتبع خطاهم، ولنتخلق بأخلاقهم، ولنتربى ولنتعلم في مدرستهم الكبرى، سلام الله وصلواته ورضوانه عليهم أجمعين.

---

(١) الزمخشري، تفسير الكشاف: ١ / ٣٧٠ .

(٢) الرواية موجودة في كتاب «إقبال الأعمال» لابن طاووس، وقد نقلها بالأسانيد الصحيحة من كتابين في قصة المباهلة ونقل المجلسي الرواية بطولها في البحار: ٩ / ٤٣٣ وما بعدها من الطبعة الحديثة .

الأسئلة:

١ - ما هي الآثار الايجابية التي تركتها تبليغ براءة في موسم حج السنة التاسعة؟

٢ - ما هي أهم الوفود التي وفدت على المدينة في السنة العاشرة؟

٣ - ما هي الدوافع والأسباب التي دعت نصارى نجران إلى إرسال وفدها إلى المدينة؟

٤ - ما هي المهمة التي جاء من أجلها علماء نصارى نجران إلى المدينة؟

٥ - ما هي أسباب المباهلة؟ وما هي قصتها بحسب روايتها المتواترة؟

٦ - ما هي الاشكاليات التي تواجه الباحث في ضبط تاريخ المباهلة؟ وما هو حلها؟

٧ - ما هي المهام التي خرج من أجلها علي بن أبي طالب عليه السلام إلى بلاد اليمن؟

٨ - كيف تعامل رسول الله صلى الله عليه وآله مع فاجعة وفاة ولده إبراهيم؟

٩ - ما هي أهم الدروس والعبر المستفادة من الأحداث التي استعرضناها في هذا الدرس؟

الدرس الثاني والثلاثون
أحداث السنة العاشرة من الهجرة
(حجة الوداع)

محاور البحث:

١ - أهمية حجة الوداع، وأهدافها
٢ - تاريخ وعدد من خرج مع رسول الله ﷺ في حجة الوداع
٣ - الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام يوافي رسول الله ﷺ في مكة
٤ - مجمل مناسك حج رسول الله ﷺ كما أداها في حجة الوداع
٥ - من خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع
٦ - من معطيات حجة الوداع
٧ - الدروس والعبر
- الأسئلة

حجة الوداع

١ - أهمية حجة الوداع

اقتربت السنة العاشرة من الهجرة من نهايتها، وكانت بحق سنة حافلة بالعمل والحركة الدؤوبة التي كان طابعها العام هو التبليغ والدعوة والمبايعة، فكانت المدينة في حركة مستمرة تستقبل وفداً وتودع وفداً آخر، وكان رسول الله ﷺ يصل ليله بنهاره، ونهاره بليله، فيجلس مع هذا الوفد ويستمع إليهم ويحدثهم ويبايع من يسلم منهم على الإسلام ثمّ يودعهم، ليستقبل وفداً آخر، ثمّ بعد ذلك يبعث معهم أو بعدهم من يفقهونهم في الدين ويعلمونهم السنن والأحكام، ويقرؤونهم القرآن، كما ويبعث المصدّقين يجمعون الصدقات والحقوق المالية الشرعية من المسلمين، أو الجزية من الذميين.

وفي نهايات السنة العاشرة لم تشهد المدينة ما شهدته في بدايتها والسنة التي قبلها، فخفت أو انقطعت وفادة الوفود، وعاشت أياماً هادئة هنيئة لا يعكر صفوها نزاع أو شغب.

وبانقضاء عام الوفود ساد الإسلام الجزيرة وجنوبها من بلاد اليمن، ولم يبق من القبائل الوثنية أو أصحاب الديانات الأُخرى إلاّ ودخل الإسلام، أو أصبح في ذمة الإسلام والمسلمين، ولا يحدثنا المؤرخون بعد هذا التاريخ إلاّ عن وفد واحد فقط في بدايات السنة الحادية عشرة.

وكان رسول الله ﷺ - وهو يستشرف مستقبل الإسلام - يشعر شعوراً وجدانياً أن مهمته الرسالية ومقامه في الدنيا يوشك على نهايته! وقد أفصحت

بعض الكلمات التي قالها رسول الله ﷺ عن هذا الشعور الوجداني، أو هذا الإلهام الخفي الذي انبعث في قبله الكبير. فعندما أرسل معاذ بن جبل مبلِّغاً وقاضياً إلى اليمن، علّمه كيف يدعو من يلقاهم إلى الإسلام، وكيف يعرفهم أعمالهم العبادية، وكيف يقضي بينهم، ثمّ خرج معه إلى ظاهر المدينة يودعه: «فلما فرغ قال: «يا معاذ إنك عسى ألا تلقاني بعد عامي هذا، ولعلك أن تمرّ بمسجدي هذا وقبري» فبكى معاذ خشعاً لفراق رسول الله ﷺ.

وهذا الحديث فيه إشارة وظهور وإيماء إلى أن معاذاً رضي الله عنه لا يجتمع بالنبي ﷺ بعد ذلك، وكذلك وقع، فإنه أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع، ثمّ كانت وفاته ﷺ بعد واحد وثمانين يوماً من يوم الحج الأكبر»[1].

وإذا كان لكلّ شيء ختام، فليكن الختام من رسول الله ﷺ مع أُمته التي أخرجها الله من الظلمات إلى النور، ومن الوثنية وعبادة الأصنام والشرك والضلال، إلى نور التوحيد وعبادة الله، والهدى والطهر والاستقامة، كل ذلك بفضل هذا النبي الخاتم الذي أرسله الله ﴿شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾[2].

ولكن كيف يجتمع رسول الله ﷺ مع أُمته؟ أيذهب إليهم في مواطن سكناهم؟ أيبعث إليهم بكتبه بواسطة رُسله؟ أيبعث إليهم ليوافوه في المدينة مرة أُخرى ليجدد بهم عهداً ويجددوا به عهدهم وميثاقهم؟ كل هذه الطرق لا تجدي نفعاً، وتحتاج إلى زمن طويل لا يضمن فيها رسول الله ﷺ بقاءه في هذه الدنيا، مع ذلك الشعور الوجداني والإلهام الذي انبعث من قبله بقرب رحيله إلى الرفيق الأعلى.

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ١٩٣ - ١٩٤.

(٢) الأحزاب: ٤٥ - ٤٦.

لقد عرف عن رسول الله ﷺ ومن خلال سيرته العملية سنيّ دعوته المباركة، كيف يوظف الزمان والمكان المناسبين لصالح الإسلام والدعوة الإسلامية، فإذا كانت بداية الدعوة من مكة وشعابها، وعرفة ومنى ومشاعرها.. فلتكن خاتمة دعوته من هذه الأماكن المقدسة! وإذا كانت بداية انطلاق الدعوة الإسلامية من حِصَارِها من منى وفي موسم الحج ومن خلال بيعتي العقبة، فليكن موسم الحج في هذا العام، هي الخاتمة السعيدة لرسول الله ﷺ ولهذه الدعوة المباركة التي تحمَّل ما تحمَّل من أجلها.

نعم، اختار رسول الله ﷺ مكة المكرمة، وموسم حج العام العاشر من الهجرة، لتنظيم أضخم تظاهرة جماهيرية، وأوسع مؤتمر شهدته مكة منذ أن شرفها الله تعالى وعلى طول تاريخها. فكانت: «حجة الوداع، وحجة البلاغ، وحجة الكمال» في هذا العام، ولكل اسم من هذه الأسماء مداليله كما سوف يأتينا.

وقد أدرك المسلمون جميعاً أهمية هذه الحجة، ولهذا أولَوها عناية فائقة، فكانوا حريصين على المشاركة فيها لمن كان حاضراً في زمن رسول الله ﷺ وهو يعلن عن حجّه كما سوف يأتينا، أو من خلال تدوين وقائعها من قبل المؤرخين وكتّاب السيرة بل والفقهاء، والأُصوليين.. لأنّ في هذه الحجة المباركة آفاقاً واسعة من المعارف الأخلاقية والتربوية والسياسية الولائية، بالاضافة إلى المساحة الواسعة للأحكام الفقهية المتعلقة بالحج وصلاة المسافر، وأحكام المرأة، وغيرها من الأحكام التي كان يطبقها رسول الله أمام المسلمين عملياً، وفي بعض الأحيان يقرنها بكلمات أصبحت فيما بَعد تعدُ من القواعد الأُصولية أو القواعد الفقهية.

ولهذا نجد بعض الباحثين قد أفرد لهذه الحجة تصنيفاً مستقلا، أو عقد لها فصولا طويلة ضمن أبحاث كتابه.

يقول الصالحي الشامي: «أفردها - أي حجة الوداع - بالتصنيف محمد بن المنذر، وأبو جعفر أحمد بن عبد الله المحب الطبري، وأبو الحسن إبراهيم بن عمر البقاعي الشافعيون، وعلي بن أحمد بن حزم الظاهري، وبسط الكلام عليها أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الشهير بابن القيم - الجوزية - الحنبلي في «زاد المعاد»، والحافظ أبو الفداء إسماعيل بن كثير الشافعي في كتاب السيرة من تاريخه المسمى: «البداية والنهاية»، وهو أوسع من الذي قبله. كل منهم ذكر أشياء لم يذكرها الآخر، وظفرت بأشياء لم يذكروها»[١].

ومن الواضح أن ما كتب حول هذه الحجة أوسع بكثير مما ذكره هذا الكاتب، ومن يراجع كتب الفهارس والببليوغرافيا يجد عشرات العناوين لهذه المصنفات التي تناولت هذه الحجة ومن قبل علماء مختلف المذاهب الإسلامية، فلا يقتصر الأمر على من ذكر من الشافعية والحنابلة والظاهرية، وإنما تجد هذا الاهتمام عند علماء الشيعة الإمامية والشيعة الزيدية والمالكية والأحناف... والكل حريص على تدوين وقائع حجة رسول الله ﷺ لأهميتها البالغة لديهم.

أهداف رسول الله ﷺ من حجته:

هنالك جملة من الأهداف الكبيرة كان رسول الله ﷺ يتوخى تحقيقها من خلال هذه الحجة، إلى جانب الهدف العبادي العظيم من خلال اعمال ومناسك الحج العبادية. وهذه الأهداف يمكن ايجازها بما يلي:

أولا: الهدف التعليمي:

مما لا شك فيه أن رسول الله ﷺ كان معلماً لهذه الأُمة؛ قال تعالى: «يعلمهم الكتاب والحكمة»[٢]، وقد روي عنه قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى

(١) الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد: ٨ / ٦١٤ .

ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[١] وقوله: «إنما بعثتُ معلماً»[٢].

ولهذا نجد أن هذه السفرة المباركة كانت ذات طابع تعليمي، فكان ﷺ يعلم المسلمين مناسكهم، ويوقفهم على واجباتهم، ويعين لهم حدود مشاعرهم، ويزيل عنهم كل ما عَلُق بهذه العبادة من عادات الجاهلية والوثنية التي أخرجت هذه العبادة من طابعها العبادي إلى مجرد كونها ﴿وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ ٱلْبَيْتِ إِلَّا مُكَآءً وَتَصْدِيَةً . .﴾[٣] بحسب تعبير القرآن.

ثانياً: الهدف الاجتماعي:

من الواضح أن للحج - إلى جانب كونه عبادة تمثل علاقة الإنسان بربه - جانباً اجتماعياً مهماً من خلال تجمع الناس على صعيد واحد، وزمن واحد، ليمارسوا هذه العبادة بطريقة جماعية منظمة، تؤدي بدورها إلى تلاحم اجتماعي كبير بين أبناء الأُمة الإسلامية، ولعل القرآن الكريم يشير إلى هذه الخصوصية في شعائر الحج في قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾[٤].

ولهذا أراد رسول الله ﷺ أن يحتشد في ذلك المكان المقدس «مكة» أكبر عدد من المسلمين، للحصول على أكبر تلاحم اجتماعي من خلال لقاء بعضهم بعضاً، ولقاءهم برسول الله ﷺ ولقاء رسول الله ﷺ بهم. علماً بأن الكثير من هؤلاء المسلمين لم يوفقوا للقاء رسول الله ﷺ من قبل، فهم من حشود القبائل التي دخلت في الإسلام حديثاً بواسطة وفادات بعض رجالهم إلى المدينة، فما

---

(١) الجمعة: ٢ .

(٢) المجلسي، بحار الأنوار: ١ / ٢٠٦ عن أمالي الشيخ الطوسي: ٤٨٨ الحديث: ١٠٦٩، والقرطبي، جامع بيان العلم: ١ / ١٧ و ٦٠ .

(٣) الأنفال: ٣٥ .

(٤) الحج: ٢٧ - ٢٨ .

أغنمها من فرصة أن يلتقي هؤلاء برسول الله ﷺ ويلتقي رسول الله بهم، على صعيد تلك الأماكن المقدسة.

ثالثاً: الهدف الولائي السياسي:

لرسول الله ﷺ الولاية الكبرى، والحاكمية العظمى على جميع المسلمين، وقد انبسطت ولايته وحاكميته على الجزيرة العربية وامتدت إلى أقاصي جنوبها، وأقرَّ له بهذه الولاية والحاكمية كل القبائل التي دخلت في الإسلام، بل حتى الذين بقوا على دينهم أقروا بهذه الولاية والحاكمية من خلال دخولهم في ذمة الإسلام ودفعهم الجزية لرسول الله ﷺ.

ومن مستلزمات هذه الولاية والحاكمية أن يقوم صاحبها بابلاغ ما أمره الله به من أوامره ونواهيه، وما يتعلق بمبادئ الإسلام، والمنهج العام للنظام الإسلامي على جميع الأصعدة، الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، فكانت فرصة الحج، واجتماع الحشود الكبيرة في تلك المشاعر، أعظم فرصة لإبلاغ ما أمر الله به رسوله. وهذا ما سوف نراه متجسداً بوضوح من خلال الخطب والمواعظ والتوصيات التي أطلقها رسول الله ﷺ في مكة، ومنى، وغيرها من أماكن العبادة، والتي سوف ننقل مقاطع منها.

رابعاً: الهدف المستقبلي للأُمة الإسلامية:

لقد كان رسول الله ﷺ - كما نوهنا سابقاً - يشعر أن مهمته في الأرض توشك أن تنتهي، وقد نوه بذلك في خطبه التي خطبها في مكة، وفي أكثر من مناسبة...، فهل يجوز في منطق العقل أن يترك رسول الله ﷺ هذه الأُمة ومن دون أن يحدد لها مرجعيتها السياسية والفكرية من بعده؟ وهل هنالك فرصة أُخرى لمثل هذا اللقاء الكبير، يستطيع من خلالها رسول الله ﷺ أن يبين للأُمة مستقبلها السياسي والقيادي الذي تتطلع إليه بعد رحيل قائدها؟

لقد كانت فرصة حجة الوداع فرصة فريدة في عمر الزمن لا يمكن أن

تتكرر، ولهذا أبلغ رسول الله ﷺ وعلى رؤوس الأشهاد، ولاية علي بن أبي طالب عليه السلام، وبأمر من الله تعالى.

وهذا ما حصل بعد الانتهاء من حجة الوداع وأثناء العودة إلى المدينة ومن خلال البيعة المعروفة «ببيعة الغدير»، التي أهملها بعض المؤرخين، وقلل من أهميتها بعض آخر، وشوه معالمها بعض ثالث!!

إلاّ أنها من الوقائع التي شاء الله سبحانه لها البقاء، فبقيت خالدة، تردها الأجيال جيلا بعد جيل، كما سوف يأتينا.

٢ - تاريخ وعدد من خرج مع رسول الله في حجة الوداع

قبل الدخول في تفاصيل خروج رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع، لابد من الاشارة إلى بحث أدرجه مؤرخو السيرة حول عدد المرات التي حجّ فيها رسول الله ﷺ أو اعتمر سنيِّ نبوته، وهو من البحوث التي اختلف فيها المؤرخون اختلافاً كبيراً، ولهم فيها أقوال لا يمكن الجمع بينها.

أما بالنسبة إلى عمرته ﷺ فقد روي أن رسول الله ﷺ «اعتمر بعد الهجرة أربع عُمر، كلّهنّ في ذي القعدة، إلاّ التي كانت مع حجّته: عُمرة من الحديبية أو زمن الحديبية في ذي القعدة، وعمرة من العام المقبل في ذي القعدة، وعمرة من الجعرانة حيث قَسَّمَ غنائم حُنين في ذي القعدة، وعمرة مع حجته».

وفي رواية ثانية: «اعتمر رسول الله ﷺ في ذي القعدة قبل أن يحجّ مرتين».

وحاول بعضهم رفع التناقض بين الروايتين باعتبار أن الرواية الثانية تشير إلى العمرة المفردة المستقلة التي تمّت، ولا ريب أنهما اثنتان، فإنّ عمرة القِران لم تكن مستقلّةً، وعمرة الحديبية صُدَّ عنها، وحيل بينه وبين إتمامها[1].

---

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٢٥٦ - ٢٥٧.

وهكذا نجد الاختلاف في زمن وقوع هذه العُمر! ففي الرواية السابقة نجد عبارة: «كُلّهنّ في ذي القعدة» إلاّ أنه روي عن عبد الله بن عمر: «انّ النبيﷺ اعتمر أربعاً، إحداهن في رجب!» وخطّأت عائشة ابن عمر لما بلغها ذلك عنه فقالت: يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر رسول اللهﷺ عمرة في رجب قط. إلاّ أن عائشة تعود وتناقض نفسها فتقول: «خرجتُ مع رسول اللهﷺ في عُمرة في رمضان!...».

وعلّق ابن القيم على هذا الحديث فقال: «فهذا حديث غلط.. يرحم الله أُمّ المؤمنين، ما اعتمر رسول الله في رمضان قطّ، وقد قالت عائشة: لم يعتمر رسول اللهﷺ إلاّ في ذي القعدة»[١].

ومن الواضح أن هذه الروايات تتحدث عن عمرة رسول اللهﷺ بعد هجرته إلى المدينة، أما فترة مكوثه في مكة بعد نبوته فلم ينقل عنه أنه خرج إلى خارج مكة لدخولها معتمراً، «ولم يكن في عُمرِه عُمرةٌ واحدة خارجاً من مكة كما يفعل كثير من الناس اليوم، وإنما كانت عمراته كلّها داخلا إلى مكة، وقد أقام بعد الوحي بمكة ثلاث عشرة سنة لم ينقل أنه اعتمر خارجاً من مكة في تلك المدة أصلا.

فالعمرة التي فعلها رسول اللهﷺ وشرعها، هي عُمرةُ الداخل إلى مكة، لا عمرةُ من كان بها فيخرج إلى الحل ليعتمر، ولم يفعل هذا على عهده أحد قط، إلاّ عائشة لأنها قد أهلّت بالعمرة فحاضت، فأمرها فأدخلت الحجّ على العمرة... فأمر أخاها أن يعمرها من التنعيم.. ولم يعتمر هو من التنعيم في تلك الحجة ولا أحد ممن كان معه»[٢]. كان هذا كلّه في عمرته وعددها وزمانها.

أما بالنسبة إلى حجّهﷺ، فقد قيل أنْ: «لا خلاف أنه لم يحجّ بعد هجرته

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٢٥٧.

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٥٧ - ٢٥٨.

إلى المدينة سوى حجة واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف انها كانت سنة عشر». واختلف: هل حجّ قبل الهجرة؟

فروى الترمذي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه، قال: حجّ النبي ﷺ ثلاث حجج: حجتين قبل أن يهاجر، وحجّة بعد ما هاجر معها عُمرة. قال الترمذي: هذا حديث غريب من حديث سفيان قال: وسألت محمداً (يعني البخاري) عن هذا؟ فلم يعرفه من حديث الثوري.

ولعل وجه الغرابة في هذا الحديث يستند إلى ما روي من أن الحج إنما فرض سنة تسع أو عشر من الهجرة، فكيف حج رسول الله قبلها؟

يقول ابن القيم: «ولما نزل فرض الحج، بادر رسول الله ﷺ إلى الحجّ من غير تأخير، فإنّ فرض الحج تأخّر إلى سنة تسع أو عشر، وأما قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾[1]. فإنها وإن نزلت سنة ستٍّ عام الحديبية، فليس فيها فرضيّة الحج، وإنما فيها الأمر بإتمامه وإتمام العمرة بعد الشروع فيهما، وذلك لا يقتضي وجوب الابتداء»[2].

وهنالك أقوال وروايات أُخرى في سنة فرض الحج، وعدد المرات التي حجها رسول الله ﷺ قبل أن يهاجر إلى المدينة أو بعد ما هاجر إليها، وهي أقوال وروايات متضاربة متنافية لا يمكن الجمع بينها، وكشاهد على هذا التنافي ننقل ما قاله الديار بكري في تاريخه ضمن أحداث السنة الخامسة من الهجرة: قال: «وفي هذه السنة فرض الحج على القول الصحيح، أي نزلت فريضة الحج فيها لكن أَخره رسول الله ﷺ إلى السنة العاشرة من غير مانع..! وفي الوفاء: قد اختلفت في وقت فرض الحج، فقيل: قبل الهجرة! وهو غريب، والمشهور

(١) البقرة: ١٩٦ .

(٢) المصدر نفسه: ١ / ٢٦١ .

بعدها، وقيل: سنة خمس وجزم به الرافعي في موضع، وكذا في المنتقى قال: في سنة خمس، وقيل في ست، وصححه الرافعي في موضع آخر، وكذا النووي، وهو قول الجمهور، وقيل في سبع، وقيل في ثمان، وكذا في مناسك الكرماني أيضاً ورجحه من العلماء وقيل في تسع وصححه عياض»[١].

فهل يمكن الجمع بين فرض الحج قبل الهجرة وبعدها! وبين الخمس والستِّ والسبع والثمان والتسع؟

وهكذا الأمر بالنسبة إلى عدد حج رسول الله ﷺ فنجد روايات الفريقين مضطربة ومتنافية ولا يمكن الجمع بينها.

ففي رواية ابن عباس: أنّ النبي ﷺ حجّ قبل أن يهاجر ثلاث حجج!

وعن ابن الأثير: إنه ﷺ كان يحج كل سنة قبل أن يهاجر! وعن الثوري: حجّ النبي ﷺ قبل أن يهاجر حججاً! وقال ابن الجوزي: حج حججاً لا يعلم عددها! وعن الطبري: حجّ ﷺ قبل الهجرة حجتين!

وروي عن أبي عبد الله الصادق قال: «لم يحج النبي ﷺ بعد قدومه المدينة إلاّ واحدة، وقد حجّ بمكة حجات».

وروي عنه أيضاً: «حجّ رسول الله ﷺ عشر حجات، مستتراً في كلها».

وعنه أيضاً: «حجّ رسول الله ﷺ عشرين حجة».

وعنه أيضاً: «أنّه ﷺ قد حج عشرين حجة غير حجة الوداع»[٢].

فكيف يمكننا التوفيق بين هذه الأقوال والروايات التي لا تستقر على عدد

---

(١) الديار بكري، تاريخ الخميس: ١ / ٥٠٣، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢١٢ وما بعدها.

(٢) الصحيح من سيرة النبي: ١٤ / ٢٩ - ٣١ وانظر مصادر هذه الأقوال والروايات في هامش صفحات المصدر نفسه.

معين؟ وكيف يمكن رفع المنافاة بين روايات العشر والعشرين، والاستتار بها أو عدم الاستتار بها؟ وهل يمكن تعقل صدور أربع روايات عن الإمام الصادق عليه السلام تختلف في مضامينها ولا جامع بينها يرفع الاختلاف والمنافاة؟

ولا يمكن التبرع برفع المنافاة وبطريقة، قد، وربما، ولعل، ومن القريب جداً... التي اتّبعها بعض كتّاب السيرة[١].

ومهما يكن من أمر حج رسول الله صلى الله عليه وآله فليس بين أيدينا أي تفاصيل عن كيفية حجه في تلك السنوات - على فرض صحة القول في حجه فيها - سوى حجة الوداع، التي تحدث المؤرخون وكتّاب السيرة عنها باسهاب وتفصيل.

تفاصيل حجة الوداع:

وهنا نجد أيضاً الاختلاف الكثير في الروايات الحاكية لحجته وكيف كانت: «فإنّ النَّقلة اختلفوا فيها اختلافاً كثيراً جداً، بحسب ما وصل إلى كل منهم من العلم، وتفاوتوا في ذلك تفاوتاً كثيراً لا سيما من بعد الصحابة رضي الله عنهم»[٢].

ولا يمكن لنا استيعاب هذه الاختلافات الكثيرة عن الرواة والمؤرخين وإنما سوف نقتصر على رواية الواقدي في المغازي، وغيره من المؤرخين مع الاشارة إلى مواطن الاختلاف الحادة مع بعض المصادر التاريخية الأُخرى.

روى الواقدي عمّن حدثه قالوا: «.. لم يحج - رسول الله صلى الله عليه وآله - حتى كان في ذي القعدة سنة عشر من مُهاجره، فأجمع الخروج وآذن الناس بالحجّ، وقدم المدينة بشرٌ كثيرٌ كلّهم يريد أن يأتمّ برسول الله صلى الله عليه وآله ويعمل بعمله»[٣].

---

(١) انظر المصدر نفسه: ١٤ / ٣١ - ٣٢ و ٣٠ / ٢٩٠ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢١١ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٩٠ .

ولا يذكر لنا الواقدي عدد من خرج معهﷺ في حجة الوداع، إلاّ أن الحلبي يقول: «كان معه جموع لا يعلمها إلاّ الله تعالى، قيل كانوا أربعين ألفاً، وقيل كانوا سبعين ألفاً، وقيل كانوا تسعين ألفاً، وقيل كانوا مائة ألف وأربعة عشر ألفاً، وقيل وعشرين ألفاً، وقيل كانوا أكثر من ذلك»[١].

وقال الأميني في تعليقه على عدد من خرج معهﷺ: «هذه عدة من خرج معه، وأما الذين حجوا معه، فأكثر من ذلك، كالمقيمين بمكة، والذين أتوا من اليمن مع عليعليه السلام وأبي موسى»[٢].

وفي رواية ابن سعد والمقريزي: «وسار من المدينة، متدهّناً ومترجلا، متجرداً في ثوبين صحاريّين: إزار ورداء وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، ومعه أزواجه، وأهل بيته، وعامة المهاجرين والأنصار ومن شاء من قبائل العرب، وافناء الناس»[٣].

ومن الواضح أنّ كلّ الأرقام التي ذكروها لمن خرج مع رسول اللهﷺ في حجة الوداع، أرقام تخمينية غير دقيقة، ولهذا تجنب بعض المؤرخين ذكر رقم محدد واكتفى بالتعبير بالجموع الكثيرة، أو جمع كثير.. وأمثالها. إلاّ أنّه من المؤكد أن مكة لم تشهد في تاريخها من قبل جمعاً كثيراً مثل ما شهدته في حجة الوداع في السنة العاشرة من الهجرة.

أما عن تاريخ ويوم خروجهﷺ من المدينة يقول الواقدي: «خرج رسول اللهﷺ من المدينة يوم السبت لخمس ليال بقين من ذي القعدة، فصلّى الظُّهر بذي الحليفة ركعتين، وأحرم عند صلاة الظّهر من يومه ذلك، وهذا الثبت عندنا..».

---

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٦١ .

(٢) الأميني، الغدير: ١ / ٣٢ طبعة مركز الغدير، ط . الأُولى، (١٤١٦ - ١٩٩٥) .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٦، والمقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ١٠٢ .

ثمّ ينقل رواية أُخرى تقول: «إنّ رسول الله ﷺ انتهى إلى ذي الحُليفة عند الظُّهر، فبات لأن يجتمع إليه أصحابه والهدي حتّى أحرم عند الظهر من غد...». ومع ان كثرة من خرج مع رسول الله ﷺ كانت تستلزم التريث منه ﷺ في ميقات ذي الحليفة من خلال المبيت فيها ليلة واحدة على الأقل حتى يلتحق به من يلتحق... إلاّ أنّ الواقدي يقول: «والقول الأوّل أثبت عندنا أنّه لم يَبت»[١].

ولا ندري وجه الأثبتية عنده! وهو ينقل رواية أُمّ سلمة قالت: انتهينا إلى رسول الله ﷺ بذي الحليفة ليلا.. فبتنا بذي الحليفة، فلمّا أصبح رسول الله ﷺ رأيتُ الهدي يُعرضُ عليه، فلمّا صلّى رسول الله ﷺ الظهر أشعر هديه وقلّده قبل أن يُحرم»[٢].

ثمّ إنّ خروجه يوم السبت كما يقول الواقدي وابن سعد محل خلاف بين المؤرخين وهنالك أقوال أُخرى في تاريخ خروجه[٣].

ويتفق ابن سعد مع الواقدي في تاريخ خروج النبي ﷺ من المدينة، وعدم مبيته بذي الحليفة، ويختصر لنا كيفية احرامه وحركته من ذي الحليفة إلى حين وصوله إلى مكة فيقول: «فخرج رسول الله ﷺ من المدينة مغتسلا متدهنّاً مترجّلا متجرّداً في ثوبين صحاريين إزار ورداء، وذلك يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة، فصلّى الظهر بذي الحليفة ركعتين.. وأشعر هديه وقلّده ثمّ ركب ناقته، فلمّا استوى عليها بالبيداء أحرم من يومه ذلك، وكان على هديه ناجية بن جندب واختلف علينا فيما أهلّ به! فأهل المدينة يقولون أهلّ بالحجّ مُفرداً، وفي رواية

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٩٠ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١٠٩٠ .

(٣) انظر: ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٢٦١ وما بعدها .

غيرهم أنّه قرن مع حجته عمرةً، وقال بعضهم دخل مكة متمتعاً بعمرة ثمّ أضاف إليها حجّة وفي كلٍّ رواية، والله أعلم.

ومضى يسير المنازل ويؤمّ أصحابه في الصلوات في مساجد له قد بناها الناس وعرّفوا مواضعها، وكان يوم الاثنين بمرّ الظهران فغربت له الشمس بسَرف ثمّ أصبح فاغتسل ودخل مكّة نهاراً، وهو على راحلته القَصواء، فدخل من أعلى مكّة من كداء حتى انتهى إلى باب بني شيبة، فلمّا رأى البيت رفع يديه فقال: اللهمّ زد هذا البيت تشريفاً وتعظيماً وتكريماً ومهابةً، وزد من عظّمه ممّن حجّه واعتمره تشريفاً وتكريماً ومهابةً وتعظيماً وبرّاً!

ثمّ بدأ فطاف بالبيت - ثمّ صلّى خلف المقام ركعتين، ثمّ سعى بين الصفا والمروة على راحلته. . .»[1].

وفي هذا النص أشار ابن سعد إلى الخلاف المعروف بين المسلمين فيما أهل به رسول الله ﷺ وقد ذكر الأقوال في ذلك وأشار إلى وجود روايات لكل قول منها ولم ينقل هذه الروايات التي ذكرها أُستاذه الواقدي في مغازيه.

إلاّ أن الثابت تاريخياً أن رسول الله ﷺ قد حجّ قارناً لا متمتعاً. قال ابن القيم: «وقلّد قبل الاحرام بُدنه نعلين، واشعرها من جانبها الأيمن، فشقّ صفحة سنامها، وسالت الدم عنها». ثمّ قال: «وإنما قلنا: إنه احرم قارناً لبضعة وعشرين حديثاً صحيحة صريحة في ذلك» ثمّ ذكر طرفاً من هذه الأحاديث منها الحديث الثاني عشر من رواية أحمد من حديث سراقة بن مالك قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول: «دخلت العمرة في الحجّ إلى يوم القيامة» قال الراوي: وقرن النبيّ في حجة الوداع»[2].

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٦، وقارن برواية الواقدي: ٢ / ١٠٩١ وما بعدها.

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٢٦٤ - ٢٦٥.

وهنالك روايات تنص على أن رسول الله ﷺ قد فرض عليهم فسخ حجهم إلى عمرة، ليكون حجهم حج تمتع، وإنه ﷺ بقي على حج القِران، لأنه ساق الهدي.

ففي رواية ابن كثير عن الإمام أحمد من حديث الإمام جعفر بن محمد (الصادق) عليه السلام قال: «.. فلما كان السابع - أي الشوط السابع من السعي - عند المروة قال: يا أيها الناس إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسُق الهدي ولجعلتها عمرةً، فمن لم يكن معه هدي فليحلّ وليجعلها عمرة، فحلّ الناس كلهم. فقال سراقة بن مالك، وهو في أسفل الوادي: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟ فشبّك رسول الله ﷺ أصابعه فقال: للأبد ثلاث مرات، ثمّ قال: «دخلت العمرة في الحج إلى يوم القيامة»[١].

وفي رواية مروية في الصحيحين، عن حفصة زوج النبي ﷺ قالت: «قلت للنبي ﷺ: ما شأن الناس حلّوا ولم تحلّ أنت من عُمرتك؟ قال: «إنّي قَلَّدتُ هديي، ولَبَّدتُ رأسي، فلا أحل حتّى أحِلّ من الحجّ»[٢].

وفي رواية ابن عباس قال: «قدم رسول الله ﷺ وأصحابه لصبح رابعة - أي اليوم الرابع من ذي الحجة - مهلّين بالحجّ فأمرهم رسول الله ﷺ، أن يجعلوها عمرةً إلاّ من كان معه الهَدي، قال: فلبست القُمص وسطعت المجامر ونُكحت النساء»[٣].

فهذا الحديث وأمثاله الكثير التي تتحدث عن حج التمتع وثبوته تشريعاً

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٢٩١.

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٢٦٦، والواقدي، المغازي: ٢ / ١٠٩٢، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٢.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٣٧.

كقسم من أقسام الحج الواجب، وبعد ثبوته كتشريع من الله تعالى وابلاغه النبيﷺ لأُمته، لا يحق لأحد أن يحرمه أو يعاقب عليه؟!

ولا نجد وجهاً للقول المشهور المأثور عن عمر بن الخطاب: «متعتان كانتا على عهد رسول اللهﷺ وأنا أنهى عنهما، وأُعقاب عليهما: متعة الحج ومتعة النساء»(١).

وعلى أي حال، فإنّ الحديث عن قضية حجة التمتع ومقولة عمر بن الخطاب في سنة حجة الوداع، وفيما بعد أيام خلافته، وما اتخذه من اجراءات ضد هذا التشريع لمنعه! من الأحاديث الطويلة المؤسفة في تاريخ الإسلام وتاريخ التشريع الإسلامي، ولا نريد أن نخوض فيه لأسباب كثيرة، وقد كفانا مؤنة البحث وتقصي الأسباب فيه كبار المحققين والعلماء، ولا نرى بالامكان اضافة شيء على ما دونوه في هذه القضية(٢).

٣ - الامام عليعليه السلام يوافي رسول اللهﷺ في مكة

أنهى رسول اللهﷺ عمرة الحج ولكنه بقي على احرامه لأنه قرن معه الهدي كما مرّ بنا. إلاّ أنّهﷺ «أمر الناس أن يحلوا بعمرة، إلاّ من ساق الهدي.. فحل كلّ من كان لا هديَ له، وحلّ نساؤه بعمرة»(٣).

---

(١) انظر مصادر الحديث في الغدير للأميني: ٦ / ٢٩٨ (الهامش) والصحيح من سيرة النبي: ٣٠ / ٣٢٠ - ٣٢٢ (هامش الصفحات).

(٢) للتوسع انظر: الغدير للعلامة الأميني: ٦ / ٢٩٦ وما بعدها، والنص والاجتهاد، للسيد شرف الدين: ١٧٦ وما بعدها. وقد بحث ابن القيم الجوزية في زاد المعاد: ١ / ٢٦٤ وما بعدها، قضية ثبوت حج التمتع وأورد عشرات الروايات المؤيدة، وناقش في الأقوال الأُخرى مناقشة جادة ومستفيضة.

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٢ من حديث لعائشة.

وقبل الاسترسال في ذكر مناسك حج رسول الله ﷺ لابد من التوقف عند محطة تاريخية ذكرها ابن إسحاق في سياق حجة الوداع وتحت عنوان: «موافاة علي في قفوله من اليمن رسول الله في الحج»، وفي ثنايا هذا الحادث توضيح لما ذكرناه آنفاً حول حج التمتع وما دار حوله من كلام.

قال ابن إسحاق: «إنّ رسول الله ﷺ كان بعث علياً رضي الله عنه إلى نجران، فلقيه بمكّة وقد أحرم، فدخل على فاطمة بنت رسول الله ﷺ ورضي عنها، فوجدها قد حلّت. . . . فقال: ما لك يا بنت رسول الله؟ قالت: أمرنا رسول الله ﷺ أن نحلّ بعمرة فحللنا.

ثمّ أتى رسول الله ﷺ، فلما فرغ من الخبر عن سفره، قال له رسول الله ﷺ انطلق فطُف بالبيت، وحلّ كما حلّ أصحابك؟ قال: يا رسول الله إني أهللتُ كما أهللت، فقال ﷺ: ارجع فاحلل كما حلّ أصحابك، قال: يا رسول الله، إني قلتُ حين أحرمتُ: اللهمّ إني أُهلّ بما أهلَّ به نبيّك وعبدك ورسولك محمد ﷺ، فقال: فهل معك من هَدي؟ قال: لا. فأشركه رسول الله ﷺ في هَديه، وثبت على احرامه مع رسول الله ﷺ، حتى فرغا من الحج، ونحر رسول الله ﷺ الهدي عنهما»[1].

ونجد في رواية الشيخ المفيد في الإرشاد تفاصيل أُخرى لا نجدها عند ابن إسحاق، قال: «ثمّ أراد رسول الله ﷺ التوجه للحج. . فأذن في الناس. . وكاتَب أمير المؤمنين عليه السلام بالتوجه إلى الحج من اليمن ولم يذكر له نوع الحجّ الذي قد عزم عليه. . وخرج أمير المؤمنين عليه السلام عن طريق اليمن، وتقدم الجيش للقاء النبي ﷺ. . فأدرك النبي ﷺ وقد أشرف على مكة. . فَسُرَّ رسول الله وابتهج بلقائه وقال له: بما أهللت يا عليّ؟» فقال له: يا رسول الله إنّك لم تكتب إليّ

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٢، والمقريزي، امتاع الأسماع: ٢ / ١٠٢ .

باهلالك ولا عرفتنيه، فعقدتُ نيتي بنيتك، وقلت: اللهمّ إهلالا كإهلال نبيك، وسقتُ معي من البدن أربعاً وثلاثين بَدَنةً، فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر، فقد سقتُ أنا سِتاً وستين، وأنتَ شريكي في حَجّي ومناسكي وهديي، فأقم على احرامك وعُد إلى جيشك فعجِّل بهم إليّ حتّى نجتمع بمكة إن شاء الله»[1].

ونقاط الفرق واضحة بين روايتي ابن اسحاق والشيخ المفيد، فالذي يستفاد من رواية ابن اسحاق أن الإمام قد وافى رسول الله ﷺ في مكة بعد انتهائه من عمرته، وعلى رواية الشيخ المفيد أنه التقى رسول الله ﷺ قبل أن يدخل مكة، كذلك في رواية ابن إسحاق أن الإمام لم يسق معه الهدي، وعلى رواية المفيد انه ساق معه أربعاً وثلاثين بدنة!

ومهما يكن من أمر فقد يستفاد من حديث عودة علي عليه السلام من اليمن وقصة احرامه، أن النية الاجمالية تكفي ولا يلزم وقوف الناوي على تفاصيل العمل وجزئياته، كذلك يستفاد من هذه القصة تأكيد رسول الله ﷺ على حج التمتع، حيث يقول لعلي: «ارجع فاحلل كما حلَّ أصحابك» بحسب رواية ابن إسحاق.

ولقصة عودة علي من اليمن وموافاته لرسول الله في مكة، تتمة ذكرها ابن إسحاق والمفيد وغيرهما جاء فيها: قال ابن إسحاق: «لما أقبل عليّ رضي الله عنه من اليمن ليلقى رسول الله ﷺ بمكة، تعجّل إلى رسول الله ﷺ، واستخلف على جنده الذين معه رجلا من أصحابه، فعمد ذلك الرجل فكسا كلّ رجل من القوم حُلّة من البزّ الذي كان مع علي رضي الله عنه. فلما دنا جيشه خرج ليلقاهم، فإذا عليهم الحلل، قال: ويلك! ما هذا؟ قال: كسوت القوم ليتجمّلوا به إذا قدموا في الناس! قال: ويلك! انزع قبل أن تنتهي به إلى رسول الله ﷺ، قال: فانتزع الحلل من الناس، فردّها في البزّ، وأظهر الجيش شكواه لما صُنع بهم.

(١) المفيد، الإرشاد: ١ / ١٧١ - ١٧٢.

قال ابن إسحاق: «فحدثني فلان عن فلان.. عن أبي سعيد الخدريّ، قال: اشتكى الناس علياً رضوان الله عليه، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيباً، فسمعته يقول: أيها الناس، لا تشكوا عليّاً، فوالله إنه لأخشن في ذات الله، أو في سبيل الله، من أن يُشكى».

وفي رواية المفيد: «فلما دخلوا مكة كثرت شكايتهم من أمير المؤمنين عليه السلام، فأمر رسول الله ﷺ مناديه فنادى في الناس: «ارفعوا ألسنتكم عن علي بن أبي طالب، فإنه خَشنٌ في ذات الله عزّ وجل، غير مداهن في دينه» فكفّ الناس عن ذكره، وعلموا مكانه من النبي ﷺ، وسخطه على من رام الغَميزة فيه»[1].

وهنالك رواية يرويها الإمام أحمد.. عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، عن بريدة قال: «غزوت مع علي اليمن فرأيتُ منه جفوةً، فلما قدمت على رسول الله ﷺ ذكرت علياً فتنقَّصته فرأيتُ وجه رسول الله يتغيّر، فقال: «يا بريدة، ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله، قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[2].

وهذه الكلمة قد قالها رسول الله ﷺ في بيعة الغدير كما سوف يأتينا، ولا مانع من تكرارها.

٤ – مجمل مناسك حج رسول الله كما أداها في حجة الوداع

روى المحدثون والمؤرخون أعمال حج رسول الله ﷺ سنة حجة الوداع بتفصيل واسهاب، وذكروا جزئيات الأُمور بروايات متعددة متقاربة في ألفاظها

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٣، والمفيد، الإرشاد: ١ / ١٧٣ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤١٥ – ٤١٦ نقلا عن أحمد في مسنده، والنسائي في سننه .

ومداليها في أغلب الأحيان، مع وجود بعض الاختلاف بينها، وسوف نقتصر على بيان هذه الأعمال والمناسك بحسب تسلسلها الذي جاء به رسول الله ﷺ، من دون الاستغراق في الجزئيات الأُخرى، التي تخرج بنا عن الاختصار.

روى الواقدي: «وقدم رسول الله ﷺ - أي إلى مكة - يوم الثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة - وهو يوم التروية - وخطب رسول الله ﷺ قبل التروية بيوم بعد الظهر بمكّة.. ويقال: إنّ يوم الجمعة وافق يوم التروية فقام رسول الله ﷺ بين الرّكن والمقام، فوعظ الناس، وقال: من استطاع منكم أن يصلّي الظّهر بمنى فليفعل»[١].

وفي زاد المعاد: «.. فأقام بظاهر مكة أربعة أيام يقصر الصلاة يوم الأحد والاثنين والثلاثاء والأربعاء، ولما كان يوم الخميس ضحى، توجّه بمن معه من المسلمين إلى منى، فاحرم بالحجّ من كان أحلّ منهم من رحالهم.. فلما وصل إلى منى، نزل بها، وصلّى بها الظهر والعصر، وبات بها، وكان ليلة الجمعة، فلما طلعت الشمس، سار منها إلى عرفة»[٢].

وروى الواقدي: «أنّ رسول الله ﷺ لم يركب من منى حتى رأى الشمس قد طلعت، ثمّ ركب فانتهى إلى عرفة فنزل بنمرة، وقد ضرب له بها قبة من شعر.. فلما كان حين زاغت الشمس أمر رسول الله ﷺ براحلته القصواء إلى بطن الوادي - بطن عُرَنَة -... وخطب رسول الله ﷺ حين زاغت الشمس ببطن عرفة على ناقته القصواء، فلما كان آخر الخطبة أذّن بلال وسكت رسول الله من كلامه، فلما فرغ بلال من أذانه تكلّم رسول الله ﷺ بكلمات وأناخ راحلته، وأقام بلال، فصلّى رسول الله ﷺ الظهر، ثمّ أقام فصلّى العصر، فجمع بينهما بأذان وإقامتين.

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٠ . ولعل الصحيح: وأقام رسول الله .

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٣٠ .

وفي رواية أُسامة بن زيد بأ نّه رأى رسول الله ﷺ يخطب يومئذ في وادي عَرفة، ثمّ ركب، قال: فرأيت رسول الله ﷺ يشير بيده إلى الناس أن يقفوا إلى عرفة»[١].

وفي رواية ابن عباس قال: إنّ رسول الله ﷺ وقف بالهضاب من عرفة فقال: «كلّ عرفة موقف إلاّ بطن عُرنَة، وكلّ المزدلفة موقف إلاّ بطن محسِّر، وكلّ منى منحر إلاّ خلف العقبة».

وروى أن رسول الله ﷺ : «بعث إلى مَن هو بأقصى عَرفة فقال: الزموا مشاعركم، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم»[٢].

والذي نلاحظه في هذه النصوص هو تأكيد رسول الله ﷺ على وقوف عرفة وحدودها وخاصة كلمته التي يقول فيها: «الزموا مشاعركم، فإنكم على ارث إبراهيم» أي أن هذه الحدود هي حدود مشعر عرفة التي حددها إبراهيم الخليل عليه السلام .

وقد أراد رسول الله ﷺ بهذه التأكيدات أن يمحو سنّة جاهلية سنَّتها قريش حيث كانت تميز نفسها في موسم الحج عن بقية القبائل، فكانت هذه القبائل تقف بعرفة، وقريش تقف بجمع وتقول: نحن أهل الله!

روى الواقدي: «وكانت قريش لا تشك أنّ رسول الله ﷺ لا يجاوز المزدلفة يقف بها، فقال له نوفل بن معاوية الديلي وهو يسير إلى جنبه: يا رسول الله ﷺ، ظنّ قومك أنّك تقف بجمع، فقال رسول الله ﷺ : لقد كنتُ أقفُ بعرفة قبل النبوة خلافاً لهم! وقال جبير بن مطعم: رأيتُ رسول الله ﷺ يقف بعرفة قبل النبوة»[٣]

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠١ - ١١٠٤، والحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٧١ - ٣٧٢، وابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٣٠ .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠١ - ١١٠٤ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١١٠٢ .

من أدعية رسول الله في عرفة:

يوم عرفة يوم عظيم يتوجه فيه العبد المؤمن إلى خالقه، ويقف بين يدي معبوده، داعياً متضرعاً مبتهلا إليه، طالباً منه التوبة والمغفرة وحسن التوفيق لصالح الأعمال وأزكاها.

وما كان رسول الله ﷺ ليترك عرفة من دون أن يأخذ من هذه الأجواء الروحانية حقها لنفسه من الدعاء، ولهذا روي انه ﷺ : «لما فرغ من صلاته، ركب حتى أتى الموقف، فوقف في ذيل الجبل.. واستقبل القبلة.. فأخذ في الدعاء والتضرّع والابتهال إلى غروب الشمس.. وكان في دعائه رافعاً يديه إلى صدره كاستطعام المسكين، وأخبرهم أنّ خَير الدعاء دعاءُ يوم عرفة»[١].

وقد ذكر من دعائه ﷺ في عرفة، ما رواه البيهقي من حديث علي رضي الله عنه ، أنّه ﷺ قال: «أكثر دعائي ودعاء الأنبياء من قبلي بعرفة: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملكُ وله الحمد وهو على كلِّ شيء قدير. اللهمّ اجعل في قلبي نوراً، وفي سمعي نوراً، وفي بصري نوراً، اللهمّ اشرح لي صدري، ويسِّر لي أمري، وأعوذ بك من وسواس الصَّدر، وشتات الأمر، وفتنةِ القبر، اللهم إني أعوذُ بك من شرِّ ما يلجُ في الليل، وشرّ ما يلجُ في النهار، وشرِّ ما تهبُّ به الرياحُ وشرِّ بوائق الدَّهر»[٢].

وجاء من جملة دعائه في ذلك اليوم: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، ومن وسوسة الشيطان، ومن وسوسة الصدر، ومن شتات الأمر، ومن شرّ كلِّ ذي شر».

وعن ابن عباس قال: كان فيما دعا به رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «اللهمّ إنك تسمع كلامي، وترى مكاني وتعلمُ سرّي وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير، المستغيث المستجير، الوجل المشفق، المقر

---

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٣١ .

(٢) الحر العاملي، وسائل الشيعة: ١٣/ ٥٣٩-٥٤٠ .

المعترف بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وابتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبتهُ، وفاضت لك عيناه وذلَّ جسدهُ، ورغم أَنفه لك، اللهم لا تجعلني بدعائك ربي شقياً، وكن بي رؤوفاً رحيماً، يا خير المسؤولين، ويا خير المعطين».

واستمر كذلكﷺ يوم عرفة حين غابت الشمس فكان آخر كلامه هذا الدّعاء، وهملت عيناه بالبكاء ثمّ قال: «اللهمّ إني أعوذ بك من الفقر، ومن تشتّت الأُمور، ومن شرّ ما يحدث بالليل والنهار أصبح ذلّي مستجيراً بعزّك، وأصبح وجهي الفاني مستجيراً بوجهك الباقي، يا خير من سئل، وأجود من أعطى، وأرحم من استرحم، جلّلني برحمتك، والبسني عافيتك، واصرف عني شرّ جميع خلقك»[1].

الافاضة من عرفات إلى مزدلفة:

يقول الواقدي: ووقف رسول اللهﷺ - أي في عرفة - على راحلته حتى غربت الشمس يدعو، وكان أهل الجاهلية يدفعون من عرفة إذا كانت الشمس على رؤوس الجبال كهيئة العمائم على رؤوس الرجال، فظنّت قريش أنّ رسول اللهﷺ يدفع كذلك، فأخّر رسول اللهﷺ دفعه حتى غربت الشمس، وكذلك كانت دفعة النبيﷺ.

وفي زاد المعاد: «فلما غربت الشمس، واستحكم غروبها بحيث ذهبت الصُّفرة، أفاض من عرفة.. بالسكينة، وضمّ إليه زمام ناقته.. وهو يقول: «أيها الناس عليكم بالسكينة، فإنّ البرّ ليس بالايضاع...»[2] أي: ليس بالإسراع.

---

(١) المصدر نفسه: ٣٣١ - ٣٣٢، والسيرة الحلبية: ٣/ ٣٧٤، والمجلسي، بحار الأنوار: ٩٦/ ٢٥١ و ٤٠/ ٤٣٠ من الطبعة الحديثة، والكافي للكليني: ٤/ ٤٦٤-٤٦٥. ووسائل الشيعة: ١٣/ ٥٥٩.

(٢) النوري، مستدرك الوسائل: ١٠/ ٤٦.

وأفاض من طريق المأزمين، ودخل عرفة من طريق ضبّ، وهكذا كانت عادته صلوات الله عليه وسلامه في الأعياد أن يخالف الطريق.

ثمّ جعل يسيرُ العَنق، وهو ضربٌ من السَّير ليس بالسَّريع، ولا البطيء، فإذا وجد فجوةً وهو المتّسع، نصَّ سَيره، أي: رفعه فوق ذلك، وكلما أتى ربوةً من تلك الرُّبى، أرخى للناقة زمامها قليلا حتى تصعد.

ثمّ سار حتى أتى المزدلفة، فتوضأ. . ثمّ أمر بالأذان، فأذّن بلال، ثمّ أقام، فصلّى المغرب. . ثمّ صلى عشاء الآخرة باقامة بلا أذان، ولم يصلِّ بينهما شيئاً، وقد روي: أنّه صلاّهما بأذانين وإقامتين، وروي باقامتين بلا أذان، والصحيح: أنّه صلاهما بأذان وإقامتين كما فعل بعرفة.

ثمّ نام حتى أصبح، ولم يُحْي تلك الليلة، ولا صحّ عنه احياء ليلتي العيدين شيء، وأذِنَ في تلك الليلة لضعفة أهله أن يتقدموا إلى منى قبل طلوع الفجر. . وأمرهم أن لا يرموا الجمرة حتى تطلع الشمس»[1].

وهذه المسألة الأخيرة من المسائل الخلافية في فقه الحج، وللفقهاء فيها أقوال وفتاوى تراجع في محلها من كتب الفقه الاستدلالية، وموسوعات الحديث عند الفريقين.

من مزدلفة إلى منى:

روى الواقدي عن أبي جعفر (الباقر)عليه السلام: «لما بَرق الفجر، صلّى رسول اللهصلى الله عليه وآله الصبح، ثمّ ركب على راحلته القصواء ثمّ وقف على قزح. وكان أهل الجاهلية لا يدفعون من جمع حتى تطلع الشمس على ثبير، ويقولون: أشرق

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٤، وابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٣٦، وقارن ذلك بروايات الكليني في الكافي: ٤ / ٢٤٥ - ٢٤٧ و٤/ ٤٦٧ والحر العاملي في الوسائل: ١١ / ٤٥٨، وجامع أحاديث الشيعة: ١٠ / ٣٥٠ - ٣٥٤ و ١١ / ٤٦٣ والمستدرك الوسائل: ١/ ٥٠

ثبير، كيما نُفير! فقال ﷺ : إن قريشاً خالفت عهد إبراهيم، فدفع قبل طلوع الشمس، وقال: هذا الموقف، وكلُّ المزدلفة موقف.

وروي أنّ رسول الله ﷺ حمل حصى العقبة من المزدلفة. وإنه أمر ابن عباس أن يلتقط له حصى الجمار، فالتقط له سبع حصيات من حصى الخذف، فجعل ينفضهنّ في كفه ويقول: «بأمثال هؤلاء فارموا، واياكم والغلوّ في الدّين، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلوّ في الدين»[١].

أعمال رسول الله ﷺ في منى:

أولا: رمي جمرة العقبة:

قالوا: وسلك ﷺ الطريق الوسطى بين الطريقين، وهي التي تخرج على الجمرة الكبرى، حتى أتى منى، فأتى جمرة العقبة، فوقف في أسفل الوادي، وجعل البيت على يساره، ومنى عن يمينه، واستقبل الجمرة وهو على راحلته، فرماها راكباً بعد طلوع الشمس، واحدة بعد واحدة، يكبّر مع كلِّ حصاة.

وينقل لنا الواقدي من تواضع رسول الله ﷺ في ذلك الموقف وعند العقبة قول الراوي: «رأيت رسول الله ﷺ يرمي جمرة العقبة يوم النحر على ناقة صهباء، لا ضَرَبَ، ولا طَرَدَ، ولا إليكَ إليكَ» قال ابن الأثير في شرح عبارة الراوي: هو كما يقال: الطريق الطريق، ويفعل بين يدي الأُمراء، ومعناه: تنح وابعد، وتكريره للتأكيد[٢].

ثانياً: نحر الإبل (الأضحية):

بعد أن رمى رسول الله ﷺ جمرة العقبة بسبع حصيات، انتهى إلى المنحر،

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٧، وابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٣٩ ومستدرك الوسائل: ١٠/ ٧٢

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٤٠، والواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٧، وابن الأثير، النهاية: ١ / ٤٠ .

«ولما انتهى إلى المنحر، قالﷺ : هذا المنحر، وكلّ منى منحر. . ثمّ نحر بيده ثلاثاً وستين بالحربة، ثمّ أعطى رجلا! فنحر ما بقي، ثمّ أمر من كلِّ بدنة، ببضعة، من البدن التي نحر، فجُعل في قدر فطبخه، فأكل من لحمها وحسا من مَرقها.

وعن عليعليه السلام قال: أمرني رسول اللهﷺ أن اتصدق بجلال بدنه وجلودها ولحومها، ولا أعطي منها في جزرها شيئاً»[١].

هذه رواية الواقدي التي أبهم فيها اسم الرجل الذي أكمل نحر الإبل بعد رسول اللهﷺ ، إلاّ أنّ رواية غيره من المؤرخين تقول: «ثمّ انصرف إلى المنحر بمنى فنحر ثلاثاً وستين بدنة. . ثمّ أمر علياً كرم الله وجهه، فنحر ما بقي وهو تمام المائة. . الذي أتى به عليّ من اليمن. .»[٢].

ثالثاً: الحلق:

قال الواقدي: لمّا نحر رسول الله الهدي دعا الحلاّق وحضر المسلمون يطلبون شعر رسول اللهﷺ ، فأعطى الحلاّق شقّ رأسه الأيمن. . فلما حلق رسول اللهﷺ أخذ من شاربه وعارضيه، وقلّم أظفاره.

وفي السيرة الحلبية: حلقه معمر بن عبد الله. . وقسم شعره، فأعطى نصفه لأبي طلحة الأنصاري. . . وأعطى من نصفه الثاني، الشعرة والشعرتين للناس. . .[٣].

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٨ ومستدرك الوسائل: ١٠/ ٨٢ .

(٢) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٧٧، وابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٤١، والكليني، الكافي: ٤ / ٢٤٩ والوسائل: ١٤/ ١٠١

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٨، والسيرة الحلبية: ٣ / ٣٧٧ .

بهذا الترتيب أدى رسول الله ﷺ أعمال يوم العاشر من ذي الحجة (يوم عيد الأضحى) في منى وعلى هذا الترتيب (الرمي، النحر، الحلق) سار المسلمون من بعده، آخذين بهدي رسول الله ﷺ في حجه وأداء مناسكه.

إلاّ أنّ بعضهم خالف هذا الترتيب استناداً إلى بعض الروايات منها رواية ابن عباس: أنّه قيل له ﷺ في الذبح، والحلق، والرمي، والتقديم، والتأخير، فقال ﷺ: «لا حَرج».

وفي رواية أُخرى: سُئل عمن حلق قبل أن يرمي، وعمّن ذبح قبل أن يرمي، فقال: «لا حرج»[1].

وقد عقد الكليني باباً في فروعه من الكافي كتاب الحج تحت عنوان: «من قدم شيئاً وأخره من مناسكه» وذكر في هذا الباب أربع روايات صحيحة منها رواية علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن جميل بن درّاج قال: «سألت أبا عبد الله عليه السلام عن الرجل يزور البيت قبل أن يحلق، قال: لا ينبغي إلاّ أن يكون ناسياً، ثمّ قال عليه السلام: إنّ رسول الله ﷺ أتاه أُناس يوم النحر فقال بعضهم: يا رسول الله إني حلقتُ قبل أن أذبح، وقال بعضهم: حلقت قبل أن أرمي، فلم يتركوا شيئاً كان ينبغي لهم أن يؤخّروه إلاّ قدّموه، فقال: لا حرج» وبنفس المضمون الروايات الأُخرى.

وعلّق صاحب المدارك على قول المحقّق الحلي في الشرائع عند قوله: «وترتيب هذه المناسك واجب يوم النحر: الرمي، ثمّ الذبح، ثمّ الحلق، فلو قدّم بعضها على بعض أثِم ولا إعادة» قال: «لا ريب في حصول الإثم بالإخلال بالترتيب بناءً على القول بوجوبه، وإنما الكلام في الحكم الثاني أعني عدم الاعادة، فإنّ عدم تحقق الامتثال مع الاخلال بالترتيب الواجب يقتضي الاعادة،

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٤١ ووسائل الشيعة: ١٤/٢١٦

إلاّ أن الأصحاب قاطعون بعدم الوجوب، وأسنده في المنتهى إلى علمائنا مؤذناً بدعوى الاجماع عليه، واستدل عليه بصحيحة جميل بن دراج المتقدمة وما في معناها، وهو مشكل جداً، لأنّ تلك الأخبار محمولة على الناسي أو الجاهل عند القائلين بالوجوب، فلا تبقى لها دلالة على حكم العامد بوجه، ولو قيل بتناولها للعامد لدلت على ما ذهب إليه الشيخ في الخلاف وأتباعه من عدم وجوب الترتيب، والمسألة محل تردد، وإن كان المصير إلى ما ذهب إليه الأصحاب غير بعيد من الصواب»[١].

من منى إلى مكة:

قال الواقدي: «فأفاض - أي إلى مكة - رسول الله ﷺ يوم النَّحر. . فأتى زمزم فأمر بدلو فنزع له، فشرب منه وصبَّ على رأسه»[٢] ولا يذكر لنا شيئاً من أعمال الحج التي جاء بها رسول الله ﷺ يوم افاضته أو بعدها.

وقال في زاد المعاد: ثمّ أفاض ﷺ إلى مكة قبل الظهر راكباً، فطاف طواف الافاضة، وهو طواف الزيارة! وهو طواف الصدر، ولم يطف غيره، ولم يسع معه! هذا هو الصواب، وقد خالف في ذلك ثلاث طوائف: طائفة، زعمت أنه طاف طوافين، طوافاً للقدوم سوى طواف الإفاضة، ثمّ طاف للإفاضة.

وطائفة زعمت أنه سعى مع هذا الطواف لكونه كان قارناً، وطائفة زعمت أنه لم يطف في الإفاضة، وإنما أخّر طواف الزيارة إلى الليل. فنذكر الصواب في ذلك، ونبين منشأ الغلط وبالله التوفيق»[٣].

---

(١) الكليني، فروع الكافي: ٤ / ٥٠٤ - ٥٠٥، والعاملي - محمد، مدارك الأحكام: ٨ / ٩٨ - ١٠٢، طبعة مؤسسة آل البيت .

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٩ - ١١١٠ .

(٣) ابن قيم، زاد المعاد: ١ / ٣٤٦ .

ثمّ أخذ يناقش هذه الأقوال وما زعمته هذه الطوائف، وتفنيد أدلتها.. بما لا طائل تحته، ولا تعطينا صورة واضحة عن المناسك التي أداها رسول الله ﷺ في مكة بعد انتهائه من أعمال منى يوم العاشر من ذي الحجة.

بل إن قولهم أن رسول الله ﷺ أفاض إلى مكة يوم النحر غير ممكن إذا ضممنا إليه قولهم: «ثمّ رجع إلى منى فصلّى بها الظهر! وقيل صلاها بمكة!»[1].

ويكون الأمر أكثر تعقيداً إن قلنا إن خطبته ﷺ في منى كانت قبل ذهابه إلى مكة! فكيف يمكن أن نتعقل أن رسول الله ﷺ يباشر أعمال منى برمي جمرة العقبة بعد طلوع الشمس، ثمّ ينحر ثلاثاً وستين بدنه بيده، ويأمر علياً عليه السلام بنحر الباقي، وبعد نحرها يأخذ من كل بدنة بضعة فتطبخ فيأكل منها.. ثمّ يأتي دور الحلاق وتوزيع الشعر.. ثمّ يلبس ويتطيب ويلقي خطبة.. ثمّ يكون في مكة فيؤدي الطواف أو الطوافين والسعي..! ثمّ يأتي منى ويصلي بها صلاة الظهر؟

فهذه المناسك والأعمال وقطع المسافة من منى إلى مكة ذهاباً وإياباً تحتاج إلى وقت طويل في ذلك الزمن، بل وحتى في زمننا هذا الذي تستخدم فيها وسائل النقل السريعة، لا يمكن لأحد أن يتعقل وقوع ذلك، وكل من تشرف للحج وشاهد زحام اليوم العاشر من ذي الحجة؛ يستبعد ما قاله المؤرخون حول افاضة رسول الله ﷺ إلى مكة وعودته إلى منى بالشكل الذي ادعوه!

وحاول بعضهم معالجة ذلك بقوله: «إن النهار كان طويلا، فلا يضر صدور أفعال منه ﷺ كثيرة في صدر ذلك اليوم! أو نقول: إنه يجوز أن يكون - النبي ﷺ - صلّى الظهر بمكة أول الوقت ثمّ رجع إلى منى فصلاّها مرة أُخرى بأصحابه، الذين تخلفوا عنه في منى! فإنه ﷺ وجدهم ينتظرونه، فهي له ﷺ معادة»[2].

---

(١) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٧٩ .

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٧٩، والسيرة النبوية لابن كثير: ٤ / ٣٨٢ .

إلاّ أنها محاولات لا تستند على أُسس علمية، ولا تجيب عن اشكالية الزمن اللازم لأداء هذه الأفعال والمناسك، ثمّ العودة إلى منى قبل الظهر! وأداء الصلاة فيها.

وعلى أي حال، فما ذكروه من مناسك رسول الله ﷺ في مكة بعد افاضته من منى يبقى مجملا، ولا يستبين لنا منها أن رسول الله ﷺ قد أدى جميع نسك مكة من طواف وصلاة وسعي، وطواف وصلاة، كما هو معروف فقهياً، أو إنه ﷺ قد أخر طواف الوداع - طواف النساء - إلى ما بعد أيام التشريق.

ومن يرجع إلى رواياتهم لا يخرج بمحصلة وافية في هذا المجال فرواية عائشة تخالف رواية جابر، وجابر يخالف عائشة وكلاهما كانا مع رسول الله ﷺ وشهدا مناسكه!

وحتى الرواية الطويلة التي رواها الكليني في الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام حول حج النبي ﷺ، نراها مجملة في هذا المقطع من أعماله ﷺ فتكتفي بالقول: «.. وحلق، وزار البيت، ورجع إلى منى وأقام بها حتى كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق، ثمّ رمى الجمار ونفر حتى انتهى إلى الأبطح.. فارتحل من يومه ولم يدخل المسجد الحرام ولم يطف بالبيت..»[1].

المبيت في منى ورمي الجمار:

عاد رسول الله ﷺ من مكة إلى منى، وأقام بها حتى كان اليوم الثالث من آخر أيام التشريق، وكان في أثنائها يرمي الجمار الثلاث في كل يوم، وروي في صفة رميه للجمار: «وكان يرمي الجمار حين تزيغ الشمس قبل الصلاة، فكان إذا رمى الجمرتين علاهما، ويرمي جَمرة العقبة من بطن الوادي، وكان يقف عند

(١) الكليني، فروع الكافي: ٤ / ٢٤٨ .

الجمرة الأُولى أكثر ممّا يقف عند الثانية، ولا يقف عند الثالثة، فإذا رماها انصرف.

وفي زاد المعاد: ثمّ رجع إلى منى من يومه ذلك فبات بها، فلما أصبح، انتظر زوال الشمس، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار، ولم يركب، فبدأ بالجمرة الأُولى التي تلي مسجد الخيف، فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة، يقول مع كلِّ حصاة: «الله أكبر»... ثمّ أتى إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك.. ثمّ أتى الجمرة الثالثة وهي جمرة العقبة، فاستبطن الوادي، واستعرض الجمرة، فجعل البيت عن يساره، ومنى عن يمينه، فرماها بسبع حصيات»[١].

أما عن مبيته في منى فلا يروى لنا شيئاً يذكر سوى خطبته في أوسط أيام التشريق، أي ثاني يوم النحر، «واستأذنه العباس بن عبد المطلب أن يبيت في مكة ليالي منى من أجل سقايته، فأذن له. واستأذنه رعاءُ الإبل في البيتوتة خارج منى عند الإبل، فأرخص لهم..».

وتوسع بعضهم في هذه الرخصة فقال: «وإذا كان النبيﷺ قد رخّص لأهل السقاية، وللرِّعاء في البيتوتة، فمن له مال يخاف ضياعه، أو مريض يخاف من تخلّفه عنه، أو كان مريضاً لا تمكنه البيتوتة، سقطت عنه بتنبيه النص على هؤلاء، والله العالم».

وفي رواية الوسائل عن كتاب «العلل» للصدوق.. عن أبي جعفرعليه السلام: «إنّ العباس استأذن رسول اللهﷺ أن يبيت - يلبث - بمكة ليالي منى، فأذن له رسول اللهﷺ من أجل سقاية الحاج»[٢].

---

(١) الكليني، فروع الكافي: ٤ / ٢٤٨، والواقدي، المغازي: ٢ / ١١١٠، وابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٥٣ - ٣٥٤.

(٢) ابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٥٥، والواقدي، المغازي: ٢ / ١١١٠ والوسائل: ١٤/٢٥٨.

الإفاضة من منى:

أكمل رسول الله ﷺ رمي أيام التشريق الثلاثة، ولم يتعجل في يومين، وأفاض يوم الثلاثاء بعد الظهر إلى المحصَّب، وهو الأبطح، وهو خَيف بني كنانة، فوجد أبا رافع قد ضرب له فيه قبة هناك.. فصلّى الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، ورقد رقدة ثمّ نهض إلى مكة، فطاف للوداع ليلا سحراً.. ورغبت إليه عائشة تلك الليلة أن يعمرها عمرةً مفردةً.. فأمر أخاها عبد الرحمن أن يُعمرها من التنعيم، ففرغت من عمرتها ليلا ثمّ وافت المحصّب مع أخيها، فأتيا في جوف الليل، فقال رسول الله ﷺ: «فَرغتُما»؟ قالت: نعم، فنادى بالرَّحيل في أصحابه، فارتحل الناس، ثمّ طاف بالبيت قبل صلاة الصبح»[1].

إلاّ أنّ رواية الكافي تقول: «.. ثمّ رمى الجمار، ونفر حتى انتهى إلى الأبطح، فقالت له عائشة: يا رسول الله ترجع نساءك بحجة وعمرة معاً، وارجع بحجة؟ فأقام بالأبطح، وبعث معها عبد الرحمن بن أبي بكر إلى التَّنعيم.. ثمّ أتت النبي ﷺ، فارتحل من يومه ولم يدخل المسجد الحرام ولم يطف بالبيت...»[2].

وفي رواية الواقدي: «وكان رسول الله ﷺ إذا قفل من حجٍّ أو عمرة أو غزوة، فوافى على ثنية..، كبّر ثلاثاً ثمّ قال: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، يحيي ويميت وهو حي لا يموت، بيده الخير، وهو على كلِّ شيء قدير، آيبون، تائبون، ساجدون، عابدون، لربّنا حامدون! صدق الله وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، اللهمّ إنا نعوذ بك من وعثاء السَّفر، وكآبة المنقلب، وسوء المنظر في الأهل والمال، اللهمّ بلّغنا بلاغاً صالحاً نبلغ إلى خير مغفرة منك ورضوان».

---

(١) ابن قيم زاد المعاد: ٢ / ٣٥٦ عن البخاري في صحيحه. والواقدي، المغازي: ٢ / ١١١٤.

(٢) الكليني، فروع الكافي: ٤ / ٢٤٨.

وفي زاد المعاد أنّه ﷺ قال ذلك لما أتى ذا الحليفة ورأى المدينة[١].

ومهما يكن من أمر، فقد خرج رسول الله ﷺ من مكة قاصداً المدينة، تحفُ به الأُلوف من المسلمين الذين قدموا إلى مكة لأداء مناسك الحج، وانتهى برسول الله ﷺ مطاف السفر إلى منطقة «غدير خم» حيث وقعت البيعة الشهيرة لأمير المؤمنين عليه السلام والمعروفة ببيعة الغدير، كما سيأتينا تفاصيلها في الدرس القادم.

٥ - من خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع

كان لرسول الله ﷺ في حجة الوداع أكثر من خطبة وموعظة أو ردّ على سؤال أو استفتاء توزعت على أماكن مشاعر الحج، وتضمنت مجموعة من التوجيهات والمواعظ والارشادات والبيانات الهامة التي لامست قضايا المجتمع الإسلامي، ومستقبل المسلمين، وقضايا المرأة، ومستقبل الدعوة.. وغيرها من الأُمور الحيوية والحساسة.

ذكر الواقدي عمّن حدثه عن عمرو بن يثربي الضَمري قال: «رأيتُ رسول الله ﷺ يخطب قبل التروية بيوم بعد الظُهر، ويوم عرفة بعرفة حين زاغت الشمس على راحلته قبل الصلاة، والغد من يوم النحر بمنى بعد الظهر، قال الواقدي: هذا الأمر المأخوذ به المعروف»[٢]. وكأنه يشير بقوله الأخير إلى وجود خلاف في عدد خطبه ووقتها وأماكنها، ويبدو - ومن خلال مراجعة كلمات المؤرخين - أن الأمر كذلك!

فلم يروِ ابن إسحاق في السيرة سوى خطبته المعروفة في عرفة، وبعض

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١١٤، وابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٦٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ١١٠١، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٨٨، ٤٠٠.

المقاطع القصيرة من خطب أُخرى لم يعين أماكنها[١].

وذكر ابن سعد في الطبقات أن رسول الله ﷺ خطب في منى، وعند العقبة، وعشية عرفة[٢].

وفي زاد المعاد ذكر: «أن رسول الله ﷺ خطب الناس في عرفة.. وخطب الناس بمنى خطبتين: خطبة يوم النحر، والخطبة الثانية في أوسط أيام التشريق، وهو ثاني يوم النحر»[٣].

وفي السيرة الحلبية: «خطب ﷺ في الحج خمس خطب: الأُولى يوم السابع من ذي الحجة بمكة، والثانية يوم عرفة، والثالثة يوم النحر بمنى، والرابعة يوم النفر بمنى، والخامسة يوم النفر الأول بمنى أيضاً»[٤].

وكان من حق هذه الخطب النبوية أن تنقلها المصادر كاملة غير منقوصة.. ولكنك تراها مجزأة مقتضبة خاصة ما ورد منها في كتب الصحاح المعتمدة عند طائفة من المسلمين.

يقول أحد الباحثين: «وقد راجعنا نصوص هذه الخطب من أكثر من مائة مصدر، فوجدنا فيها الغرائب والعجائب من التعارض والتضارب»[٥].

وفيما يلي بعض المقاطع من هذه الخطب كما وردت في المصادر التاريخية مع مقارنة نقاط الاختلاف عندهم في متون هذه الخطب.

---

(١) انظر: ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٣ - ٦٠٥ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٢ - ٣٤٣ .

(٣) ابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٣٠، ٣٤٠، ٣٥٥ .

(٤) الحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٨١ .

(٥) الكوراني - علي، آيات الغدير: ٨٨ .

أولا: خطبة رسول الله قبل يوم التروية:

سميت بعض أيام الحج في كلمات المؤرخين بأسماء معينة مستوحاة من الأعمال التي يقوم بها أغلب الحجاج في تلك الأيام.

قال ابن كثير: فاليوم السادس من ذي الحجة، يقال له: «يوم الزينة» لأنه يزيّن فيه البُدن بالجلال وغيرها.

واليوم السابع يقال له: «يوم التروية» لأنهم يتروّون فيه من الماء ويحملون منه ما يحتاجون إليه حال الوقوف وما بعده.

وفي بهجة المحافل: «يوم التروية» هو ثامن ذي الحجة سمي بذلك لأنّ الناس يترووون فيه الماء، أي يستسقون، أو لأنّ إبراهيم تروَّى ذلك اليوم، أي فكر في رؤياه التي رآها هل هي من الله، أم من الشيطان!

وقال ابن كثير: واليوم الثامن يقال له: «يوم منى» لأنهم يرحلون فيه من الأبطح إلى منى.

واليوم التاسع يقال له: «يوم عرفة» لوقوفهم فيه بها.

واليوم العاشر يقال له: «يوم النحر، ويوم الأضحى، ويوم الحج الأكبر».

واليوم الذي يليه يقال له: «يوم القرّ» لأنهم يقرّون فيه، ويقال له يوم الرؤوس لأنهم يأكلون فيه رؤوس الأضاحي! وهو أول أيام التشريق[1].

وثاني أيام التشريق يقال له: «يوم النَّفر الأول» بجواز النفر فيه...

واليوم الثالث من أيام التشريق من أيام التشريق يقال له: «يوم النفر الآخر»

---

(١) أيام التشريق: ذكر لها ابن منظور معاني كثيرة منها: «وأيام التشريق: ثلاثة أيام بعد يوم النحر لأنّ لحوم الأضاحي يشرَّق فيها للشمس» (لسان العرب).

قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾[١].

كانت هذه أسماء بعض أيام الحج كما أوردها المؤرخون، وذكرناها بمناسبة ورود كلمة: «يوم التروية».

أما خطبة الرسولﷺ في هذا اليوم، فمما يؤسف له أنَّ المؤرخين لم ينقلوها لنا بنصوص ألفاظها، وإنما اكتفوا بالقول: «وقد روي أن النبيﷺ خطب قبل يوم التروية»[٢].

والذي يبدو من كلمات بعض المؤرخين أن خطبة الرسولﷺ في هذا اليوم، لم تكن على غرار خطبه التي خطبها فيما بعد عند المشاعر، (عرفة ومنى)، وإنما كانت بعض التوجيهات الفقهية فيما يجب على الحجيج الإتيان به في أماكن مناسك الحج.

روى البيهقي، عمّن حدثه عن ابن عمر قال: «كان رسول اللهﷺ إذا كان قبل يوم التروية خطب الناس فأخبرهم بمناسكهم»[٣].

ثانياً: خطبة الرسول في عرفة:

نقلت هذه الخطبة في المصادر التاريخية بنصوص مختلفة زيادة ونقصاناً، وتقديماً وتأخيراً، إلاّ أنّ هذا الاختلاف أمر طبيعي في تناقل الروايات مشافهة، مع الأخذ بعين الاعتبار مكان الخطبة وضجيج الناس وكثرتهم، فلا يقلل هذا الاختلاف من أهمية الخطبة وما تضمنته من محاور يدور عليها أمر المجتمع

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠٥، والعامري، بهجة المحافل: ٢ / ٨٧ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٣٣٧ .

(٣) البيهقي، أبي بكر أحمد بن علي، السُنن الكبرى: ٥ / ١٨٠، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الثالثة، (٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ) .

الإسلامي في حاضره آنذاك، وفي مستقبله الذي يتطلع إليه.

قال ابن إسحاق: «ثمّ مضى رسول الله ﷺ على حجّه، فأرى الناس مناسكهم، وأعلمهم سنن حجّهم، وخطب الناس خطبته التي بيّن فيها ما بيّن، فحمد الله وأثنى عليه، ثمّ قال: أيها الناس، اسمعوا قولي، فإني لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً، أيها الناس، إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، وكحرمة شهركم هذا، وإنكم ستلقون ربكم، فيسألكم عن أعمالكم، وقد بلّغت، فمن كانت عنده امانة فليؤدها إلى مَن ائتمنه عليها.

وإن كلّ ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أنه لا ربا، وإن ربا عبّاس بن عبد المطلب موضوع كلّه، وإن كلّ دم كان في الجاهلية موضوع، وإن أولّ دمائكم أضعُ دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب...!

أما بعد أيها الناس، فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبداً، ولكنّه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضي به مما تحقرون من أعمالكم، فاحذروه على دينكم.

أيها الناس: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٌ فِي ٱلْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامًا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾[1] ويحرموا ما أحل الله.

وإنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق السماوات والأرض، وإنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً، منها أربعة حرم، ثلاثة متوالية، ورجب مضر[2]،

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) ورجب مضر: إنما قال ذلك لأنّ ربيعة كانت تُحَرِّم رمضان، وتسميه رجباً، فبين ﷺ إنه رجب مضر لا رجب ربيعة، وإنه الذي بين جمادى وشعبان.

الذي بين جمادى وشعبان.

أما بعد أيها الناس، فإن لكم على نسائكم حقاً، ولهن عليكم حقاً، لكم عليهنّ أن لا يوطئن فُرشكم أحداً تكرهونه، وعليهنّ ضرباً غير مبرّح، فإن انتهين فلهنّ رزقهن وكسوتهنّ بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً، فانهنّ عندكم عوان[١]، لا يملكن لأنفسهنّ شيئاً، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله، واستحللتم فروجهنّ بكلمات الله.

فاعقلوا أيها الناس قولي، فإني قد بلّغت، وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، أمراً بيّناً، كتاب الله وسنّة نبيه.

أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمن أن كلّ مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أُخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاه عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم، اللهمّ هل بلّغت؟ اللهم اشهد».

وأضاف ابن إسحاق من رواية ابن خارجة أنّه سمع رسول الله ﷺ يوم عرفة يقول: «أيها الناس، إن الله قد أدّى إلى كلّ ذي حق حقه، وإنه لا يجوز وصيّة لوارث، والولد للفراش، وللعاهر الحجر، ومن ادّعى إلى غير أبيه، أو تولى غير مواليه، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا»[٢].

وقد روى هذه الخطبة الواقدي في المغازي باختصار، إلاّ أنه قد ورد في أولها: «... رحم الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فرُبَّ حامل فقه لا فقه له، وربَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه..» وجاء فيها أيضاً: «.. وأعلموا أنّ الصدور لا تغلّ على ثلاث: اخلاص العمل لله، ومناصحة أهل الأمر، ولزوم

(١) عوان، جمع عانية، وهي الأسيرة.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٠٣ - ٦٠٥.

جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم»[١].

وهنالك جمل وعبارات أُخرى نسبها بعض المؤرخين إلى هذه الخطبة تراجع في محلها[٢].

إلاّ أنّ الذي ينبغي أن نشير إليه باختصار هو ما جاء في آخر خطبة الرسولﷺ في قوله: «وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً، امراً بيّنا كتاب الله وسنّة نبيه» فإن كان هذا الحديث هو حديث الثقلين المعروف، فإن له متوناً، وألفاظاً أُخرى أصح سنداً ودلالة، مما نقله ابن إسحاق في مغازيه، وقد وردت في كتب الاصحاح والمسانيد، ولا يمكن أن نتصور أن ابن إسحاق لم يطلع عليها.

والأعجب من هذا ما ورد في مغازي الواقدي والسيرة النبوية لابن كثير، والسيرة الحلبية من رواية غريبة لهذا الحديث! فقد جاء في سياق خطبة رسول اللهﷺ في هذه المصادر قولهﷺ: «قد تركت فيكم ما لن تضلّوا بعده ان اعتصمتم به، كتاب الله تبارك وتعالى»[٣].

ولا نريد أن نتوغل كثيراً في ذكر حديث الثقلين وأسانيده ومتونه والمصادر التي ورد فيها الحديث.. لأنه خارج عن موضوع بحثنا، وقد كفانا مؤنة ذلك كبار العلماء والمحققين بما لا مزيد عليه من أحد بعدهم.

إلاّ أننا نذكر بعض النماذج لمتن هذا الحديث كما ورد في بعض المصادر

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٣، وبنفس المضمون نجد الرواية عند ابن كثير: ٤/ ٣٤١، والسيرة الحلبية: ٣ / ٣٧٢ .

(٢) انظر: الصالحي الشامي، سبل الهدى والرشاد: ٨ / ٤٦٨ - ٤٧٠ .

(٣) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٠٣، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٣٤١، والحلبي، السيرة الحلبية: ٣ / ٣٧٢ .

لكبار علماء السنة.

جاء في كتاب جامع الأُصول لابن الأثير، عن الترمذي برواية جابر بن عبد الله، قال: رأيت رسول الله ﷺ في حجة الوداع يوم عرفة، وهو على ناقته القصواء، يخطب فسمعته يقول: «إني تركت فيكم ما إن أخذتم به، لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي».

وفي الكتاب نفسه عن الترمذي أيضاً برواية زيد بن أرقم، قال: قال رسول الله ﷺ: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلّوا بعدي، أحدهما أعظم من الآخر، وهو كتاب الله، حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

وتوقف المحدث ابن حجر الهيتمي في الصواعق المحرقة عند حديث الثقلين طويلا، فروى الحديث بأسانيد متعددة، وشرح متن الحديث وبين معانيه، وقال: «ولهذا الحديث طرق كثيرة عن بضع وعشرين صحابياً لا حاجة لنا ببسطها» وردّ على ابن الجوزي الذي أشكل على حديث الثقلين فقال في ردّه: «ولم يصب ابن الجوزي في ايراده في العلل المتناهية..».

ومن متون حديث الثقلين التي ذكرها بعد أن ذكر رواية الترمذي التي نقلناها عن ابن الأثير قوله: وفي رواية صحيحة: «كأني قد دعيت فأجبتُ، إني قد تركت فيكم ثقلين أحدهما آكد من الآخر: كتاب الله عزّ وجل وعترتي، فانظروا كيف تخلفوني فيهما، فإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض».

ثمّ قال ابن حجر: وفي رواية: «وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض، سألتُ ربي ذلك لهما، فلا تتقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا ولا

(١) الجزري، ابن الأثير، جامع الأُصول: ١ / ٢٦٩ - ٢٧٠ عن الترمذي في المناقب، باب (٧٧).

تعلموهم فإنهم أعلم منكم».

ثمّ أخذ في شرح ألفاظ الحديث ومعانيه، وبين مكانة أهل البيت عليهم السلام من خلال حديث الثقلين[١].

نكتفي بهذه الاشارة الموجزة عن حديث الثقلين، والذي هو من الأحاديث المتواترة ولا يمكن التشكيك في سنده ودلالته، ولم يصدر هذا الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبته في عرفه أيام حجة الوداع فقط، «فقد صدع بها رسول الله صلى الله عليه وآله في مواقف شتى: تارة يوم غدير خمّ.. وتارة يوم عرفة في حجة الوداع، وتارة بعد انصرافه من الطائف، ومرّة على منبره في المدينة، وأُخرى في حجرته المباركة في مرضه، والحجرة غاصّة بأصحابه...»[٢].

ثالثاً: خطبة رسول الله صلى الله عليه وآله في منى:

ذكر بعض المؤرخين أن رسول الله صلى الله عليه وآله قد خطب في منى خطبتين:

الأُولى: يوم النحر عند عودته إلى منى من مكة.

والثانية: في ثاني يوم النحر، أي في أوسط أيام التشريق.

أما خطبته الأُولى في منى، فالملاحظ أن الواقدي يروي نفس خطبة الرسول صلى الله عليه وآله في عرفة مع تغير في بعض ألفاظها، وتقديم وتأخير في جملها، واضافة بعض الجمل الأُخرى! ومن المستبعد جداً أن يكون رسول الله صلى الله عليه وآله قد

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة: ٢٨٨ - ٢٨٩، تخريج وتعليق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة مكتبة القاهرة، الطبعة الثانية، (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

(٢) شرف الدين، المراجعات (المراجعةالثامنة)، وللتوسع انظر: الميلاني - السيّد علي، تشييد المراجعات: ١ / ٩٢ وما بعدها، والأجزاء الثلاثة الأُولى من موسوعة «نفحات الأزهار» للمؤلف نفسه.

كرر نفس ألفاظ خطبته التي ألقاها في عرفة، مرة أُخرى في منى!

وحاول البيهقي وابن كثير ومن تأخر عنهما من المؤرخين جمع روايات خطبتيه في منى، إلاّ أنّ هذه الروايات لا تسلم من التكرار لنفس ألفاظ خطبة الرسولﷺ في عرفة!

ومهما يكن من أمر، فقد روي من حديث المزني قال: «رأيت رسول اللهﷺ يخطب الناس بمنى حين ارتفع الضحى على بغلة شهباء، وعليٌّ يعبِّر عنه، والناس بين قائم وقاعد».

وفي رواية أُخرى يقول الراوي: «خطبنا رسول الله ونحن في منى ففتحت أسماعنا حتى كنا نسمع ما يقول ونحن في منازلنا.. ثمّ أمر المهاجرين فنزلوا في مقدّم المسجد، وأمر الأنصار فنزلوا من وراء المسجد، ثمّ نزل الناس بعد ذلك».

قال ابن كثير: «وقد خطب رسول اللهﷺ في هذا اليوم الشريف خطبة عظيمة تواتر بها الأحاديث..».

قال البخاري: باب الخطبة أيام منى:

«.. عن ابن عباس: أنّ رسول اللهﷺ خطب الناس يوم النحر فقال: يا أيها الناس أيُّ يوم هذا؟ قالوا: يوم حرام، قال: فأي بلد هذا؟ قالوا: بلد حرام، قال: فأي شهر هذا؟ قالوا: شهر حرام، قال: «فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا، في شهركم هذا» فأعادها مراراً، ثمّ رفع رأسه فقال: اللهم هل بلّغت؟ اللهم قد بلغت»!

قال ابن عباس: «فوالذي نفسي بيده إنها لوصيته إلى أُمته: فليبلّغ الشاهد الغائب لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض».

وفي رواية أُخرى للبخاري بنفس المضمون جاء في آخرها: «.. فليبلغ

الشاهد الغائب، فرّبّ مبلّغ اوعى من سامع . .».

وفي رواية الإمام أحمد: «. . . ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فلعلَّ من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه».

وفي رواية الأشجعي، قال: قال رسول اللهﷺ في حجة الوداع: «إنما هن أربع، لا تشركوا بالله شيئاً، ولا تقتلوا النفس التي حرّم الله إلاّ بالحق، ولا تزنوا، ولا تسرقوا»(١).

والخطبة الثانية والتي ذكروا أنهﷺ خطبها في أوسط أيام التشريق، فهي أيضاً - عند مَن ذكرها من المؤرخين - لا تخلوا من التكرار لنفس العبارات التي جاءت في خطبتهﷺ في عرفة، وخطبته الأُولى في منى! مع اضافة بعض العبارات والجمل الجديدة.

وقد روى أبو داود بسند ينتهي إلى سرّاء بنت نيهان - وكانت ربة بيت في الجاهلية! - قالت:

«سمعت رسول اللهﷺ يقول: «أتدرون أيُّ يوم هذا؟ وهو اليوم الذي تدعون يومُ الرّؤوس، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا أوسط أيام التشريق، هل تدرون أيّ بلد هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: هذا المشعر الحرام.

ثمّ قال: إنّي لا أدري لعلّي لا ألقاكم بعد عامي هذا، ألا وإنّ دماءكم، وأموالكم، وأعراضكم عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، حتى تلقوا ربّكم، فيسألكم عن أعمالكم، ألا فليبلّغ أدناكم أقصاكم، ألا هل بلّغت»؟

قالت: فلمّا قدمنا المدينة، لم يلبث إلاّ قليلا حتى ماتﷺ .

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٣٨٨ وما بعدها، وابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٤٠ - ٣٤١ .

قال ابن القيم: رواه أبو داود، ويوم الرؤوس: هو ثاني يوم النحر بالاتفاق»[١].

وقال ابن كثير: وهذا الحديث قد رواه الإمام أحمد متصلا مطولا فقال: حدثنا فلان عن فلان.. قال: كنت آخذ بزمام ناقة رسول اللهﷺ في أوسط أيام التشريق أذود عنه الناس، فقال: يا أيها الناس أتدرون.. الخ» ونقل نفس عبارات خطبة في عرفة، إلاّ انّه جاء في آخرها: «وبسطﷺ يده وقال: ألا هل بلّغت؟ ألا هل بلغت؟ ثمّ قال: ليبلّغ الشاهد الغائب فإنّه رُبَّ مبلّغ أسعد من سامع».

قال حُميد: «قال الحسن حين بلغه هذه الكلمة: قد والله بلّغوا أقواماً كانوا أسعدَ بِه»[٢].

هذه هي أهم ما ذكره المؤرخون من خطب رسول اللهﷺ ومواعظه وإرشاداته في حجة الوداع، ومن المؤكد أن ما فاتهم أكثر مما ذكروه!

إلاّ أن فيما ذكروه منها اشتملت على آفاق واسعة من المعارف الإلهية، والأحكام الشرعية، والأخلاق الإسلامية، والآداب الاجتماعية.. تحتاج إلى جهد ووقت للوقوف عندها وفهمها واستلهام الدروس والعبر منها.

٦ - من معطيات حجة الوداع

بعد هذه الجولة الايمانية الممتعة مع رسول اللهﷺ في حجته الموسومة بـ «حجة الوداع» لابد لنا من التوقف في خاتمتها، لنستجلي معطياتها وما تمخض عنها من نتائج والتي تشكل بدورها معلماً شاخصاً من معالم المنهج النبوي في الدعوة والتبليغ والمنهجية الحركية للإسلام.

---

(١) ابن قيم، زاد المعاد: ٢ / ٣٥٥، وابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤٠١ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤٠١ - ٤٠٢ .

أولا: تربية الأُمة على قيم ومفاهيم الإسلام:

لا يتمثل الحج بمجرد طقوس عبادية يؤديها الإنسان المسلم في زمن مخصص لها، ومكان محدَّد من أجلها، وإنما تتعدى الحدود العبادية الفردية، لتلامس أوضاع المسلمين الاجتماعية والسياسية والتربوية.

وهذا ما كان رسول الله ﷺ يهدف إليه من خلال دعوة المسلمين للاجتماع في صعيد واحد، وتحت شعار واحد، وقيادة موحدة، وفي موسم واحد، لتتربى هذه الأُمة من خلال عبادتها وتلقيها المباشر من قائدها على القيم والمفاهيم الجديدة التي جاء بها الإسلام.

فدخل المسلمون وعلى كافة مستوياتهم في هذه الدورة الروحية التربوية الاجتماعية، وتلقوا خلالها الدروس والمواعظ والإرشادات من نبيهم وقائدهم ﷺ مباشرة، وعادوا إلى قبائلهم وبلدانهم وهم مفعمون بهذه الروح التي شفت وطهرت في هذا الموسم، يحملون بشائر الخير إلى قومهم وأهلهم وذويهم، ليكونوا بدورهم المعلمين والمربين والمبلغين والداعين إلى الله، وليستمر هذا العطاء وينتقل من جيل إلى جيل آخر.

ثانياً: تربية الأُمة على التوحيد الخالص لله:

كانت حجة الوداع، أول حجة لرسول الله ﷺ من دار هجرته من المدينة، وآخر حجة له في حياته الشريفة. وكانت لهذه الحجة من الخصوصيات والمزايا الفريدة التي لا يشاركها فيها أي موسم حج شهدته الجزيرة العربية في تاريخها.

ومن أهم هذه المزايا وعلى رأسها، هو: التوحيد الخالص لله في أداء شعارها ومناسكها!

فالمسلمون جميعاً يلبون تلبية واحدة: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» فرفعت كل الزيادات الدالة على الشرك من هذه التلبية والتي اضافتها

العرب في جاهليتها على هذه التلبية، ووفدوا إلى بيت ربهم «مكة» فوجدوه خالياً من تلك الأصنام والأوثان.. فهتفهوا بهتاف واحد لا غير «الله أكبر، وحده وحده، أعز جنده، وغلب الأحزاب وحده..» فطافوا وسعوا بين الصفا والمروة وهما «من شعائر الله» من دون أن تشخص أمامهم «أساف ونائلة» وما علّق بهما من رجس الوثنية.

وهكذا أدى المسلمون مناسك حجهم، فوحدوا الله ذاتاً وصفاتاً، وعبودية، وعبادة،.. فكانت كلّ حركاتهم وسكناتهم وما تلهج به السنتهم وتخرج من حناجرهم.. كلّه لله سبحانه، مخلصين له الدين.

فكان من أكبر معطيات هذه الحجة المباركة هو تربية الأُمة عملياً على هذا التوحيد الخالص لله وحده.

ثالثاً: تربية الأُمة على مبادئ الإسلام الأساسية:

اتخذ رسول الله ﷺ من راحلته وناقته العضباء منبراً سياراً في وسط ذلك الحشد الكبير، وذلك التجمع البشري العظيم الذي لم تشهد له مكة مثيلا قبل هذا، وكان ﷺ من خلال ذلك يلقي على مرأى ومسمع الناس هنالك مبادئ الإسلام الكبرى، التي يجب أن تتجذر وتترسخ في ضمير الأُمة ووجدانها، فتتربى عليها وتترجمها إلى واقع عملي يدخل في كلِّ تفاصيل حياتها.

ومن أهم المبادئ الأساسية التي أعلنها رسول الله ﷺ على رؤوس الأشهاد آنذاك تمثلت بما يلي:

١ - حرمة الأموال والدماء والأعراض:

ويستفاد ذلك من خطبته ﷺ في عرفة وفي منى: «أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام... أيها الناس: الولد للفراش، وللعاهر الحجر...» والأموال والدماء والأعراض بالاضافة إلى الدين والعقل، تمثل منظومة الأُمور

الأساسية في حياة الفرد والمجتمع في كل التشريعات السماوية، فلابد من صيانتها من أي انتهاك، أو تعدي، فجاء الإسلام ليؤكد هذه المبادئ ويحفظ ويصون الفرد المسلم والمجتمع الإسلامي في دمه وماله وعرضه. فأعلن ذلك رسول الله ﷺ للناس جميعاً وعلى مرّ الأجيال وليس فقط للحاضرين في ذلك الوقت. ولم يكن اعلانه مجرد توصيات عابرة وإنما كانت اقراراً لمبادئ يجب الالتزام بها.

ولو قارنا هذه المبادئ مع وضع الجزيرة العربية في جاهليتها حيث الاعتداء على الأموال والأعراض وقتل الأنفس.. لتبين لنا حجم العطاء الذي أفرزته هذه الحجة المباركة.

٢ - حرمة الرِّبا:

ففي الوقت الذي احترم الإسلام الملكية الشخصية، وأعطى للمالك حق التصرف فيما يملك، إلاّ أنّ الإسلام قد حدّد وسائل وطرق كسب الملكية في حدود الوسائل والطرق المحللة المشروعة، ﴿أَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبَا﴾. وليس الربا كالبيع في ميزان الحق والعدل «وليس البيع كالربا». فالبيع والشراء وتداول الثروة والأموال.. وسيلة عقلائية أقرها الإسلام ووضع لها أُطرها التشريعية، أما الربا فهو من أبرز مظاهر الظلم الذي يسحق الفقراء في الأرض، ومن أبرز معالم الجاهلية التي يجب أن تدفن تحت الأقدام.

ولهذا أعلنها رسول الله ﷺ صريحة لا لبس فيها، وأرساها كمبدأ أساسي في حياة الأُمة الإسلامية، فجاء قراره النبوي القيادي: «إنّ كلّ ربا موضوع، ولكن لكم رؤوس أموالكم، لا تظلمون ولا تظلمون، قضى الله أن لا ربا...» ليرفع بذلك عن كاهل هذه الأُمة وسيلة الاستعباد والظلم التي كان يتخذها الأغنياء ضد الفقراء من خلال ربا الأموال.

٣ - إرْساء مبدأ الاخوة الإسلامية:

ومبدأ الاخوة من المبادئ الأساسية التي أرسى دعائمها التشريع الإسلامي، وحرص رسول الله ﷺ على تطبيقها عملياً من خلال عملية الاخاء بين المهاجرين والأنصار في بداية هجرته إلى المدينة وقيام دولة الإسلام. . .

وهاهو رسول الله ﷺ يقف اليوم على صعيد عرفة ومنى ليعلن هذا المبدأ بين المسلمين: «أيها الناس، اسمعوا قولي واعقلوه، تعلمُنَّ أنّ كلّ مسلم أخ للمسلم، وأن المسلمين أُخوة، فلا يحلّ لامرئ من أخيه إلاّ ما أعطاهُ عن طيب نفس منه، فلا تظلمن أنفسكم».

هذه الاخوة الإسلامية، التي هي بمثابة العروة الوثقى التي تربط بين جميع المسلمين، أرادها الله لعباده المؤمنين، ونادى بها رسوله ﷺ في يوم الحج الأكبر.

وهي من أكثر عطايا حجة الوداع وأعمها نفعاً إن تمسك بها المسلمون، وجعلوها نصب أعينهم في علاقاتهم الاجتماعية.

٤ - التقوى أساس التفاضل:

جاء في بعض المصادر أن رسول الله ﷺ قال في خطبة حجة الوداع: «لا فضل لعربيٍّ على أعجمي، ولا أعجميٍّ على عربيٍّ، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلاّ بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب»[1].

فإذا كانت الجاهلية تفخر وتتمسك بتقاليد العصبية والقبلية، وفوارق اللغة والأنساب والأعراق. . . وغيرها من مفاهيم الجاهلية، فإنّ للإسلام مفاهيمه في التفاضل، وليست هذه منها، فإنّ أساس التفاضل في الإسلام لا يبتنى على

(١) رواه أحمد في مسنده: ٥ / ٢١١ .

الأُسس العرقية ولا اللون، ولا العشيرة، ولا القومية. . . ، وإنما أساس التفاضل صفة نفسانية تحمل صاحبها على السير في خط الايمان والاستقامة وهي «التقوى» التي تمثل قيمة خلقية رفيعة ترفع من مكانة الإنسان إلى أعلى عليين.

والتفاضل على أساس ومبدأ التقوى هو الذي ينبغي أن يسود في المجتمع الإسلامي، وتدفن تحت الاقدام ومع نفايات التاريخ تلك المفاهيم الجاهلية في التفاضل بين البشرية.

٥ - مبدأ الحقوق والواجبات في التعامل مع النساء:

لقد خصص رسول الله ﷺ فقرة من خطبته للحديث عن النساء، وأوصى بهن خيراً، وبين لذلك المجتمع - الذي لا زالت فيه آثار الجاهلية ونظرتها المتدنية للمرأة - مبدأ التعامل مع النساء على أساس تبادل الحقوق والواجبات المتبادلة بين الجنسين، ومن دون أن يلغي مبدأ القوامة للرجل التي أقرها له الإسلام.

«ولقد كانت هذه الحقيقة جديرة بتأكيد التوصية بها، بسبب أولئك المسلمين الذين كانوا قريبي عهد بتقاليدهم الجاهلية التي تقضي باهمال شأن المرأة وعدم الاعتراف بأي حق لها»[1].

٦ - التمسك بمصدري التشريع:

وهذا المبدأ الأساسي الذي يتعلق بمصير الأُمة الإسلامية التشريعي والسياسي لخصه رسول الله ﷺ في فقرة موجزة من خطابه من خلال قوله: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم - أو اعتصمتم به. . .». فبين للأُمة مصدري التشريع الأساسيين، وضمن لأُمته بعد الاعتصام بهما، الأمان من الضلال والشقاء والتيه!

---

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٨٤ .

وهذان المصدران يتمثلان في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وعترته أهل بيته الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم، أو سنته التي تمثل أقواله وأفعاله وتقريراته، والتي حملها بأمانة وصدق أهل بيته عليهم السلام .

ووصية رسول الله صلى الله عليه وآله بالتمسك بهذين المصدرين والاعتصام بهما لم يقتصر على خطبته في حجة الوداع وإنما قال هذا الحديث - والذي اصطلح عليه العلماء ورواة الأحاديث (حديث الثقلين) - في أكثر من مكان ومناسبة كما بينا في أثناء الدرس، مما يعني أهمية هذا الحديث، ودوره في مستقبل الأُمة التشريعي والسياسي.

يقول أحد الباحثين: «وإنك لتجده يتقدم بهذا التعهد والضمان إلى جميع الأجيال المتعاقبة من بعده، ليبيّن للناس أنَّ صلاحية التمسك بهذين الدليلين ليس وقفاً على عصر دون آخر، وأنه لا ينبغي أن يكون لأيّ تطور حضاري أو عرف زمني أي سلطان أو تغلب عليهما»[1].

هذه هي أهم المبادئ الأساسية التي أعلنها رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع، وبينها بصيغة مقررات يجب الإلتزام والعمل بها، ليس فقط للحاضرين معه والسامعين لخطبته، وإنما لكل المسلمين على مرّ الأجيال، بل ولكلّ البشرية في مختلف أصقاع الأرض، وعلى اختلاف ألوانهم وألسنتهم، وانتماءاتهم، ولهذا نجد هذا التعميم في خطابه صلى الله عليه وآله بقوله: «أيها الناس» ويكرر ذلك في أكثر من فقرة في خطابه، دون أن يخصصه بجنس، أو بزمان، أو مكان، فقد بعثه الله للناس كافّة، وأرسله رحمة للعالمين.

نعم، هذه أيضاً بعض معطيات حجة الوداع، وما أكثر معطياتها وأوسعها خيراً وبركة للأُمة الإسلامية وللبشرية كافة.

---

(١) البوطي، فقه السيرة: ٤٨٤ .

٧ - الدروس والعبر

كثيرة هي دروس حجة الوداع! وفي كل خطوة خطاها رسول الله ﷺ في هذه المرحلة الإيمانية الدعوتية يمكن أن نستلهم درساً وعبرة وعظة بالغة، إلاّ أننا سوف نتوقف عند محورين مهمين، يتعلقان بأُسلوب التبليغ والدعوة إلى الله، لنستلهم منهما الأُسلوب الأمثل في حياتنا كدعاة إلى الله سبحانه، وكحملة أمانة ورسالة ينبغي لنا أن نتخذ الأساليب الحكيمة والمؤثرة في ابلاغها إلى الناس.

المحور الأول: اختيار الزمان والمكان المناسبين للدعوة:

لا تقتصر الدعوة إلى الله على زمان أو مكان معيّنين، وإنما هو واجب مطلق من حيث الزمان والمكان، كما هو ظاهر الآية المباركة: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ﴾[1]، إلاّ أن مقتضى الحكمة - وهو وضع الشيء في موضعه المناسب - يستوجب على الداعية اختيار الزمان والمكان المناسبين لدعوته، ومن دونهما قد لا تعطي دعوته ثمارها، بل قد تكون نتائجها عكسية عليه وعلى المبادئ والمفاهيم التي يدعو لها، كما قال الشاعر:

ووضعُ النَّدى في موضع السَّيف بالعُلا مُضرٌّ كوضعِ السَّيف في موضعِ النّدى

وعندما نعود إلى أُسلوب النبي الأكرم ﷺ في الدعوة والتبليغ نجد هذه الفكرة متجلية بوضوح في خطواته في الدعوة إلى الله سبحانه، فنجد أُسلوب المرحلية الذي طبقه بدقة متناهية، ونجد ضمن كلِّ مرحلة من المراحل خطوات متأنية حكيمة للوصول إلى الأهداف المرجوة. وهذا ما نوهنا إليه في أكثر من مناسبة سابقة.

وفي حجة الوداع نجد بوضوح حُسن اختيار الزمان والمكان المناسبين

---

(١) النحل: ١٢٥ .

للقيام بمهمة الدعوة في مسك ختامها.

لقد فتح رسول الله ﷺ مكة في السنة الثامنة وانتهى من أمر هوازن وثقيف بعدها، وكان بإمكانه أن يقيم في مكة إلى موسم الحج الذي قرب وقته، إلاّ أنه اعتمر وغادر مكة عائداً إلى المدينة، وجعل أميراً على المسلمين في مكة – عتّاب بن أُسيد – فحج بالناس في تلك السنة! ودارت دورة الزمن وجاء موسم حج العام التاسع، وكان بالامكان أيضاً أن يكون أمير الحج رسول الله ﷺ بنفسه، إلاّ أنه مدد الأمر سنة أُخرى، وأرسل من ينوب عنه حاملا البيانات النهائية لإبلاغها على رؤوس الأشهاد في الموسم.

فلماذا أخّر رسول الله ﷺ حجه إلى العام العاشر؟ وهل مِن حكمة في هذا التأخير؟

من المسلَّم به أن رسول الله ﷺ كان رائده الحكمة في كلِّ ما يقدم عليه من عمل يتعلّق بشؤون المسلمين وبالدعوة إلى الله سبحانه، بل تتجلى الحكمة لنا في كل مفردات سيرته المباركة.

والذي نستلهمه كسبب لهذا التأخير، والذي دلت عليه وقائع وأحداث حجة الوداع، أنّ رسول الله ﷺ أراد أن يعطي الفرصة الزمنية الكافية لعملية التغيير والتحول وتربية نفوس الذين أسلموا في فتح مكة وما بعدها.

فلم يكن عام فتح مكة مناسباً للقيام بحج خالي من كل آثار الوثنية، ولم تكن فرصة سنة بعدها كافية لأَسْلَمَةِ الحج، وإنما كان العام العاشر من الهجرة، هو الزمان المناسب لهذا الحج.

لقد كانت الفترة الزمنية ما بين السنة الثامنة – فتح مكة – إلى نهايات السنة العاشرة، فترة زمنية حافلة بالعمل التبليغي، حيث عمل رسول الله ﷺ على ابقاء معاذ بن جبل في مكة ليفقه الناس ويعلمهم القرآن، وأرسل المبلغين والدعاة إلى

القبائل مع وفودها، وكانت فرصة حج العام التاسع، الفرصة المناسبة لابلاغ صدر براءة وتوصيات رسول الله ﷺ بواسطة الإمام علي عليه السلام ، حتى جاء موسم حج العام العاشر، فاختار رسول الله ﷺ هذا الموسم ليكون بين المسلمين في حجهم، بعد أن أخذ التغيير والتربية والتفقيه مداهُ في نفوس الناس، وانتهت آثار الشرك والوثنية - إلى حدٍّ ما - من القلوب والنفوس، وطهرت مكة وما حولها من مظاهر الشرك، فلا صنم منصوب، ولا عريان يطوف، ولا مكاء ولا تصدية، وإنما هي كلمة التوحيد تنطلق من الحناجر والأفواه، لتردد صداها مكة وشعابها.

أليس في هذا درس كبير للدعاة إلى الله، في تعاملهم مع الناس؟ ليتنا ندرك عظمة هذا الدرس، ونتعامل مع الناس على أساس من الحكمة، وننظر إليهم كبشر يحملون مشاعر وأحاسيس، وألفوا عادات وتقاليد، واعتقدوا بأشياء، وكل هذه الأُمور تحتاج إلى المرحلية والتدرج لازالتها من النفوس، وغرس مبادئ الخير والصلاح مكانها، واختيار الزمان والمكان المناسبين لهذا الأمر المهم، ومن دون ذلك سوف لا تعطي دعوتنا ثمارها المرجوة، بل قد تتحول إلى وسيلة لتنفير الناس، واشمئزازهم، كما هو حاصل في هذه الأيام - وللأسف الشديد - من بعض المبلغين، الذين تركوا هدي رسول الله ﷺ في الدعوة والتبليغ، ولم يعوا يسر الشريعة ومرونتها، فتمسكوا بالقشور وتركوا اللباب، فأصبحوا وسيلة للصدّ عن سبيل الله، بدلا من الدعوة إليه!!

المحور الثاني: الأُسلوب الأمثل في الخطابة والتبليغ والدعوة:

ولا نريد أن نتوسع في هذا المحور كثيراً لأنا قد تحدثنا عنه سابقاً، إلاّ أننا نجد في حجة الوداع قد تجلت امامنا الأساليب التعليمية التي اتبعها رسول الله ﷺ في دعوة الناس، وتعليمهم، من خلال التعليم العملي المباشر وهو يقول لهم: «خذوا عنّي مناسككم». فعلمهم مناسك الحج عملياً منسكاً بعد منسك، وصحح لهم اخطاءهم السابقة.

كذلك نجد الأُسلوب الخطابي المؤثر من خلال تكرار خطبه، أو تكرار جمل وعبارات منها، أو بيان ذلك بأُسلوب بلاغي مؤثر. . كلّ ذلك من أجل افادة السامعين، وترسيخ المعاني في أذهانهم، وتمكينهم من حفظها حيث كان ذلك المجتمع يعتمد على حافظته اعتماداً كلياً.

بالاضافة إلى ترغيب السامعين في وعي وحفظ ما يقوله لهم ثمّ ابلاغه لمن غاب عنهم من قومهم، فيقول لهم: «رحم الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها. .» ويقول: «فليبلّغ الحاضر منكم الغائب بما سمعه».

وفي كلّ ذلك درس للدعاة والمبلغين والخطباء وأئمة المساجد، الذين يرتقون منابر المسلمين لإلقاء دروسهم ومواعظهم وخطاباتهم، لكي يتخذوا الأساليب المحببة التي تشد الناس إليهم، وتجلب انتباههم، وتؤثر فيهم، فإنّ جمال الأُسلوب له تأثيره الكبير في السامعين.

نكتفي بهذا المقدار من الدروس والعبر وهنالك الكثير منها لا يسعنا استيعابها في هذا الدرس الذي أطلنا فيه لأهمية الموضوع الذي تناولناه بالبحث.

الأسئلة:

١ - لماذا اهتم المؤرخون وكتّاب السيرة بتدوين وقائع حجة الوداع؟

٢ - ما هي الأهداف التي كان رسول الله ﷺ يتوخاها من حجة الوداع؟

٣ - ما هي عدد المرات التي حجّ فيها رسول الله ﷺ أو اعتمر بحسب روايات المؤرخين؟

٤ - في أي سنة فرض وجوب الحج على المسلمين؟ وكيف نعالج الروايات المضطربة في هذا الموضوع؟

٥ - من أين أحرم رسول الله ﷺ لحجة الوداع؟ وما هو نوع الحج الذي أحرم له؟

٦ - ما هي قصة التحاق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام برسول الله ﷺ في الحج؟

٧ - ما هي الكلمة التي قالها رسول الله بحق علي عليه السلام بعد عودته من اليمن؟ وما هو سببها؟

٨ - ما هي مجمل مناسك حج رسول الله ﷺ التي أداها في حجة الوداع؟

٩ - كم عدد الخطب التي خطبها رسول الله في حجة الوداع؟ وما هي المواضيع التي تناولتها؟

١٠ - ما هي أهم مداليل حديث الثقلين؟ وكيف نقيّم هذا الحديث سنداً ودلالة؟

١١ - ما هي أهم معطيات حجة الوداع؟ وما هي أهم آثارها الاجتماعية والتربوية والعقائدية؟

١٢ - ما هي أهم الدروس والعبر المستفادة من حجة الوداع؟

الدرس الثالث والثلاثون
أحداث السنة العاشرة من الهجرة
(بيعة الغدير)

محاور البحث:

١ - النص التاريخي والروائي لبيعة الغدير
٢ - تواتر حديث الغدير
٣ - دلالة نص حديث الغدير
٤ - ما نزل من القرآن في حديث الغدير
٥ - حديث الغدير في الشعر والأدب
٦ - اشكاليات متأخرة اثيرت حول حديث الغدير
٧ - من معطيات بيعة الغدير
٨ - الدروس والعبر
- الأسئلة

بيعة الغدير

المدخل

تعتبر حادثة «بيعة الغدير» من أهم أحداث أواخر السنة العاشرة من الهجرة، ولها ارتباط مباشر بما سبقها من أحداث حجة الوداع، بل هي الجزء المتمم لها وفي امتدادها، ولا تنفصل في سياقها التاريخي عنها.

وتأتي أهمية هذه الواقعة من جهة ارتباطها بإمامة المسلمين، وبمصير الأُمة الإسلامية، وخلافة رسول الله ﷺ بعد وفاته، وهي من القضايا الهامة والحساسة والمصيرية في حياة الأُمة وفي مستقبلها.

ولهذا أخذت قضية «بيعة الغدير» أبعاداً متعددة من البحث، فلها بعدها العقائدي، الذي يرتبط بنظرية الإمامة عند مختلف المذاهب الإسلامية، ولها بعدها السياسي الذي له ارتباط مباشر بقضية الولاية والحاكمية ورئاسة الدولة، بالاضافة إلى أبعادها الفكرية والاجتماعية والفقهية. . . .

ولهذا نجد لقضية الغدير حيزاً واسعاً من البحوث والدراسات، وكتبت فيها عشرات بل مئات المؤلفات والموسوعات التي تناولت هذه الواقعة من مختلف جوانبها.

وسوف نحاول في هذا الدرس أن نَلُمَّ بأحداث هذه الواقعة من جوانبها المختلفة، من دون أن ندخل في الجزئيات والتفاصيل التي استوعبها العلماء في موسوعاتهم حول الموضوع، لأنها بدرجة من السعة لا يمكن استيعابها في هذا

الملخص، إلاّ أننا سوف نحيل إلى المصادر التي استوعبت الموضوع لمن أراد التوسع في البحث.

١ - النص التاريخي لبيعة الغدير

لقد دونت هذه الواقعة في الكثير من الكتب التاريخية، وذكرها أئمة المؤرخين في كتبهم التاريخية، وكذلك دوّنها المحدثون في كتب الصحاح والمسانيد، وجمعوا رواياتها وطبقات رواتها، وهكذا فعل المفسرون في تفاسيرهم، وكذلك نجد صدى هذه الواقعة عند المتكلمين عند حديثهم عن الإمامة وشرائطها، بل حتى علماء اللغة أشاروا إلى الواقعة عند الحديث عن بعض المفردات اللغوية التي لها صلة بها[١].

والنص التاريخي الذي ذكره أغلب هؤلاء لهذه الواقعة تكاد أن تكون ألفاظها متقاربة إلاّ أن بعضهم توسع في ذكر جزئيات الواقعة، وبعضهم اختصر ذلك.

وحاول العلامة الأميني (رحمه الله) أن يجمع بين هذه الروايات بضمِّ بعضها إلى بعض، وحذف المكرر منها؛ ليخرج بنص تاريخي جامع لأحداث هذه الواقعة.

قال الأميني: «أجمع رسول الله ﷺ الخروج إلى الحجّ في سنة عشر من مهاجره، وأذّن في الناس بذلك، فقدم المدينة خلق كثير يأتمّون به في حجّته تلك التي يقال عليها - هكذا - حجّة الوداع، وحجّة الإسلام، وحجّة البلاغ، وحجّة الكمال، وحجّة التمام...

---

(١) للتوسع انظر: الأميني، الغدير في الكتاب والسنة والأدب: ١ / ٢٦ - ٢٩، طبعة مركز الغدير، ط. الأُولى، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م).

فلما قضى مناسكه، وانصرف راجعاً إلى المدينة ومعه من كان من الجموع، وصل إلى غدير خمّ من الجُحفَة[١]، التي تتشعّب فيها طرق المدنيّين والمصريّين والعراقيّين، وذلك يوم الخميس الثامن عشر من ذي الحجة، نزل إليه جبرئيل الأمين عن الله بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ. . .﴾ الآية، وأمره أن يقيم علياً علماً للناس، ويبلّغهم ما نزل فيه من الولاية وفرض الطاعة على كلّ أحد، وكان أوائل القوم قريباً من الجحفة، فأمر رسول الله أن يردّ من تقدم منهم، ويحبس من تأخّر عنهم في ذلك المكان، ونهى عن سَمرات[٢]، خمس متقاربات دوحات عظام أن لا ينزل تحتهنّ أحد، حتى إذا أخذ القوم منازلهم، فقُمَّ ما تحتهنّ، حتى إذا نودي بالصلاة - صلاة الظهر - عمد إليهنّ، فصلّى بالناس تحتهنّ وكان يوماً هاجراً، يضع الرجل بعض ردائه على رأسه، وبعضه تحت قدميه، من شدّة الرمضاء، وظُلّل لرسول الله ﷺ بثوب على شجرة سمرة من الشمس، فلمّا انصرف ﷺ من صلاته، قام خطيباً وسط القوم، على أقتاب الإبل، واسمع الجميع، رافعاً عقيرته، فقال:

«الحمد لله ونستعينه ونؤمن به، ونتوكّل عليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، الذي لا هادي لمن أضلّ، ولا مضلّ لمن هدى، وأشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله.

أما بعد: أيها الناس قد نبّأني اللطيف الخبير: أنّه لم يُعمَّر نبيٌّ إلاّ مِثلَ نصفِ عمر الذي قبله، وأني أُوشك أن أدعى فأُجيب، وأ نّي مسؤول، وأنتم مسؤولون، فماذا أنتم قائلون؟

قالوا: نشهد أنّك قد بلّغت ونصحت وجهدت، فجزاك الله خيراً.

---

(١) غدير خم: موضع على ثلاثة أميال بالجحفة بين الحرمين (القاموس: مادة خم).

(٢) سمرات: جمع سمرة: شجرة الطلح.

قال: الستم تشهدون أن لا إله إلاّ الله، وأنّ محمداً عبده ورسوله، وأنّ جنّته حقّ وناره حقّ، وأن الموت حقّ، وأنّ الساعة آتية لا ريب فيها، وأنّ الله يبعث من في القبور؟

قالوا: بلى نشهد بذلك. قال: اللهمّ اشهد، ثمّ قال: أيها الناس ألا تسمعون؟ قالوا: نعم. قال: فإني فرطٌ على الحوض[١]، وأنتم واردون عليَّ الحوض، وإنّ عُرضه ما بين صنعاء وبصرى[٢]، فيه أقداح عدد النجوم من فضّة، فانظروا كيف تخلفوني في الثقلين.

فنادى مناد: وما الثقلان يا رسول الله؟

قال: الثقل الأكبر كتاب الله طرف بيد الله عزّ وجل وطرف بأيديكم، فتمسكوا به لا تضلّوا، والآخر الأصغر عترتي، وإنّ اللطيف الخبير نبّأني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فسألت ذلك لهما ربّي، فلا تقدموهما فتهلكوا، ولا تقصروا عنهما فتهلكوا.

ثمّ أخذ بيد عليّ فرفعها حتى رؤي بياض آباطهما وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: إنّ الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، - يقولها ثلاث مرات، وفي لفظ أحمد إمام الحنابلة: أربع مرات - ثمّ قال: اللهمّ والِ من والاه، وعاد من عاداه، وأحبَّ من أحبه، وأبغض من أبغضه وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقَّ معه حيث دار، ألا فليبلّغ الشاهد الغائب.

---

(١) الفرط: المتقدم قومه إلى الماء، ويستوي فيه الواحد والجمع.

(٢) صنعاء: عاصمة اليمن اليوم، وبُصرى: قصبة كورة حوران من أعمال دمشق.

ثمّ لم يتفرقوا حتى نزل أمين وحي الله بقوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾[1] فقال رسول الله ﷺ: الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الربِّ برسالتي، والولاية لعليٍّ من بعدي.

ثمّ طفق القوم يهنّئون أمير المؤمنين - صلوات الله عليه - وممّن هنّأه في مقدّم الصحابة، الشيخان: أبو بكر وعمر، كلّ يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة. وقال ابن عباس: وجبت - والله - في أعناق القوم.

فقال حسان: ائذن لي يا رسول الله أن أقول في عليٍّ أبياتاً تسمعهنّ.

فقال ﷺ: «قُل على بركة الله».

فقام حسان، فقال: يا معشر مشيخة قريش اتبعها قولي بشهادة من رسول الله في الولاية ماضية ثمّ قال:

يُنَادِيهُمُ يومَ الغَديرِ نَبِيُّهم بِخُمٍّ فأَسْمِع بالرسولِ مُناديا[2]

هذا هو مختصر النص التاريخي والروائي لواقعة الغدير المشهور، والذي جمع ألفاظها العلامة الأميني من مئات المصادر التاريخية والروائية المعتبرة.

٢ - تواتر حديث الغدير

لقد شاء الله سبحانه - ولا راد لمشيئته - أن ينشر حديث الغدير، من خلال حضور مائة ألف أو يزيدون، ممن حضروا حجة الوداع، ليكونوا كلّهم رواة لهذا الحديث، وليبلغ شاهدهم غائبهم، ثمّ أنزل الله سبحانه في أمرها آيات قرآنية تتلى آناء الليل أو أطراف النهار تُذّكر المسلمين بهذه الواقعة وما جرى فيها، ولتبقى

---

(١) المائدة: ٣ .

(٢) الأميني، الغدير: ١ / ٣١ - ٣٦ . وانظر مصادر روايته في هامش الصفحات .

حيّة في ذاكرة ووجدان الأُمة الإسلامية.

ولا توجد واقعة أو حدث من وقائع وأحداث الإسلام - وما أكثرها - تواترت فيه الروايات وأخذ الحيز الأوسع من اهتمام علماء الإسلام وفي كل طبقة وعصر مثل ما حظيت به واقعة الغدير وحديثها.

«ورغم الظروف السياسية القاسية التي جرت على المسلمين في الصدر الأول من الإسلام في عصر بني أُمية، واهتمام الحكام يومئذ بالتعتيم والتكتم على فضائل الإمام أمير المؤمنين علي عليه السلام، فقد شاء الله تعالى أن ينشر حديث الغدير، ويتولّى الصحابة والتابعون لهم باحسان وطبقات المحدّثين والعلماء بعدهم رواية هذا الحديث حتى استفاض نقله وشاع، مما لا يدع مجالا لاشكال أو تشكيك»[1].

يقول الأميني: «وأما كتب الإمامية في الحديث والتفسير والتاريخ وعلم الكلام، فضع يدك على أيٍّ منها تجده مفعماً باثبات قصّة الغدير والاحتجاج بمؤدّاها... ولا أحسب أنّ أهل السنة يتأخرون بكثير عن الإمامية في إثبات هذا الحديث، والبخوع لصحّته، والركون إليه، والتصحيح له، والإذعان بتواتره، اللهمّ إلاّ شذاذاً تنكبت عن الطريقة، وحدت بهم العصبية العمياء إلى رمي القول على عواهنه، وهؤلاء لا يمثّلون من جامعة العلماء إلاّ أنفسهم، فإن المثبتين المحقّقين للشأن المتولعين في الفنّ، لا تخالجهم أية شبهة في اعتبار أسانيدهم التي أنهوها - متعاضدة متظافرة بل متواترة - إلى جماهير من الصحابة والتابعين».

ثمّ ذكر جملة ممن وقف على الطرق المنتهية إليهم بحسب حروف الهجاء، فذكر من رواة حديث الغدير من الصحابة مائة وعشرين صحابياً، ومن التابعين،

(١) الآصفي، المدخل إلى دراسة نص الغدير: ١٠٦.

أربعة وثمانين تابعياً، ومن طبقات الرواة من العلماء، ثلاثمائة وستين عالماً، بالاضافة إلى عشرات المؤلفين الذين أفردوا الواقعة بتأليف منهم»[١].

ومما لا شك فيه أن العلامة الأميني (رحمه الله) قد بذل جهداً كبيراً في تدوين موسوعته «الغدير» فجمع أسانيده وطرقه وناقش المؤاخذات التي أوردها بعضهم على سند الحديث ودلالته.. وحاول بما أُوتي من جهد أن يستوعب كلَّ ما يتصل بحديث الغدير.

إلاّ أن تلميذه الألمعي العلامة السيد عبد العزيز الطباطبائي (رحمه الله) قد استدرك على أُستاذه الأميني بمجلد أسماهُ «على ضفاف الغدير» وقال في تعليقته على كتاب الغدير في طبعته الجديدة المحققة، وفي آخر ما ذكره الأميني من طبقات الرواة لحديث الغدير، قال: «وهناك حشد كبير من التابعين وأتباعهم ورجال الإسناد والمحدّثين والعلماء والمؤلفين ومحقّقي التراث من المعاصرين، رووا حديث الغدير وأدرجوه في كتبهم وأخبتوا إلى صحّته، لم يسبق لهم ذكر هنا - أي في كتاب الغدير - فجمعتُ منه ذلك ممّا نالته يدي وبلغه علمي، ورتبّتهم حسب التسلسل الزمني على نهج شيخنا هنا، واستدركت بها عليه وسمّيته على ضفاف الغدير»[٢].

ولم يكن الأميني في الغدير ولا تلميذه الطباطبائي في ضفافه - رحمهما الله-، ممن تفردا في التأليف بواقعة الغدير، وإنما هنالك من سبقهم من علماء الشيعة والسنة في هذا المجال كما ذكرنا سابقاً، وممن لا يهمل ذكره في هذا المجال من علماء الشيعة هو علامة الهند السيد حامد حسين اللكهنوي، وموسوعته القيمة «عبقات الأنوار» حيث أفرد مجلدين كبيرين لهذا الحديث، بحث في المجلد الأول منهما

(١) الأميني، الغدير: ١ / ٤٠، وللتوسع انظر: ١ / ٤١ إلى ٣٢٥ من المصدر نفسه.

(٢) الغدير: ١ / ٣١١ (الهامش) وانظر مقدمة كتاب على ضفاف الغدير للسيد الطباطبائي.

حديث الغدير من حيث السند، وفي المجلد الثاني منهما في الدلالة والمتن، وقد حُقِّقَ الكتاب مؤخراً ونشر في عشرة مجلدات كبيرة، بتحقيق الشيخ غلام رضا مولانا، ثمّ قام بتحقيقه مجدداً العلامة السيد علي الميلاني ونشر ضمن موسوعته القيمة: «نفحات الأزهار» بالاضافة إلى ذلك فقد حقق السيد الميلاني حديث الغدير أيضاً ضمن عمله على كتاب «المراجعات» للسيد عبد الحسين شرف الدين، ونشر الكتاب تحت عنوان «تشييد المراجعات» وباربع مجلدات كبيرة[١].

أما من علماء السنة فإنّ هنالك من اعتنى بهذا الحديث وجمع أطرافه وأسانيده في مجلدات.

ومن طريف ما يذكر في هذا المجال ما ذكره الشيخ سليمان الحنفي القندوزي في كتابه «ينابيع المودة» قال: «حكي عن أبي المعالي الجويني، الملقّب بإمام الحرمين، أُستاذ أبي حامد الغزالي، يتعجب ويقول: رأيت مجلداً في بغداد في يد صحّاف فيه روايات خبر غدير خمّ مكتوباً عليه: المجلّدة الثامنة والعشرون من طرق قوله ﷺ: «من كنت مولاه فعليّ مولاه» ويتلوه المجلّدة التاسعة والعشرون»[٢].

وممن أفرد تأليفاً لحديث الغدير المؤرخ والمفسر الشهير محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠ هـ).

قال ابن كثير في البداية والنهاية:

«.. وقد اعتنى بأمر هذا الحديث - أي خطبة الرسول وحديث الغدير - أبوجعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه وألفاظه.. وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد

---

(١) انظر، الميلاني: نفحات الأزهار، المجلدات: ٦ إلى ٩، وتشييد المراجعات: ٤ / ٥ - ٦٩.

(٢) الغدير: ١ / ٣٢٤، نقلا عن ينابيع المودة: ١ / ٣٤، الباب ٤.

أحاديث كثيرة في هذه الخطبة، ونحن نورد عيون ما روي في ذلك..»[١].

وهنالك كلام لابن كثير متقدم ومتأخر عن الذي نقلناه عنه، يعبر فيه عن رأيه في هذه الأحاديث يأتينا الكلام عنها في ثنايا هذا الدرس.

وأما الكتابان اللذان أشار إليهما ابن كثير، فهما: كتاب تاريخ دمشق الكبير لأبي القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي المعروف بابن عساكر المتوفى سنة (٥٧١ هـ)، فهو من الموسوعات القيمة وقد استكمل العثور على جميع أجزاءه، وطبع في أكثر من سبعين جزءً خصص فيه المؤلف الجزء الخامس والأربعين لترجمة الإمام علي بن أبي طالب وأورد فيه الأحاديث الكثيرة التي أشار إليها ابن كثير وأورد منها في كتابه البداية والنهاية.

أما الطبري وكتابه، فالمعروف أن الطبري لم يذكر حادثة الغدير في موسوعته التاريخية الموسومة بـ «تاريخ الأُمم والملوك» وما أشار إليه ابن كثير هو كتاب مستقل بعنوان: «طرق حديث الولاية». إلاّ أنَّ مما يؤسف له أن هذا الكتاب مفقود في الوقت الحاضر، وإن كان يقتنيه بعض العلماء حتى القرن الثامن الهجري[٢].

ونقل عنه ابن كثير (ت ٧٧٤) في البداية والنهاية روايات كثيرة، ومن طريف ما ينقله عن الطبري في كتابه، أنّ الطبري روى حديث الغدير عن عمر بن الخطاب[٣].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٥ / ٢٢٧ - ٢٢٨، والسيرة النبوية: ٤ / ٤١٤ .

(٢) للتوسع، انظر: العدد (٢١) من مجلة تراثنا التي تصدرها مؤسسة آل البيت لاحياء التراث، مقالة المرحوم السيّد عبد العزيز الطباطبائي «الغدير في التراث الإسلامي»: ١٦٦ وما بعدها، ففي المقال معلومات قيمة عن هذا الكتاب .

(٣) ابن كثير، البداية والنهاية: ٥ / ٢٣٢ .

ومهما يكن من أمر، فإنّ اهتمام علماء الإسلام بهذا الحديث يفوق حدَّ التصور، ولا نعرف واقعة من وقائع الإسلام الكثيرة تواترت فيه الروايات، واستحوذت على اهتمام المؤرخين والرواة في كل عصر وزمان كما هو الحال في حديث الغدير.

ومع استفاضة الحديث وتواتره في جميع طبقات رواته من عصر الصحابة إلى عصر التابعين، وتابعي التابعين، وإلى عصرنا هذا، فلسنا بحاجة إلى الدراسة السندية لهذا الحديث!

إلاّ أن العلماء ومن كلا الفريقين قاموا بجهد كبير في توثيق رجال سند الحديث، وأثبتوا وثاقتهم وفق المباني المتبعة عندهم في التوثيق والجرح والتعديل. ونقل أقوالهم من كتبهم العلامة الأميني في الغدير[1].

٣ - دلالة نص الغدير

يعتبر البحث الدلالي في نص حديث الغدير من أهم بحوث هذه الواقعة وحديثها.

فبعد أن عجز بعضهم عن التشكيك في أسانيد الحديث، أو شكك مكابرة أو جهلا ولم يسعفه الدليل على مكابرته.. انتقل إلى البحث الدلالي ليشكك فيه كما سوف يأتينا.

وإذا أردنا أن نبحث «واقعة الغدير» بحثاً دلالياً، فهنالك جوانب متعددة من البحث في هذه الواقعة، فتبحث الواقعة من حيث الظروف الموضوعية التي حفت بها، والموضوع الذي تناولته، والألفاظ والجمل التي قيلت فيها، وظواهر دلالة هذه الألفاظ والجمل، والقرائن الحالية والمقالية التي تساعد على فهم مفاد هذه

(١) الغدير: ١ / ٥٣٤ وما بعدها، و ١ / ٥٧٣ وما بعدها، و ١ / ٦٩٤ وما بعدها.

الواقعة، بالاضافة إلى خلود الواقعة والاستشهاد بها جيلا بعد جيل، والذي يعطي بدوره مزيداً من اليقين بصدقية هذه الواقعة.

وكل هذه الحيثيات الدلالية متوفرة في هذه الواقعة، ويمكننا أن نقول - وبكل ثقة - إن واقعة الغدير ودلالتها على الإمامة والخلافة العظمى للمسلمين بعد رسول الله ﷺ، بدرجة من الوضوح لا يدانيها في وضوحها أي واقعة تاريخية أُخرى، ولا يكاد يرتاب في هذه الدلالة أحد مهما كان انتماؤه المذهبي إن تجرد عن الرواسب التاريخية والغبش الذي أثاره البعض حول الواقعة ودلالتها.

ونحن في الوقت الذي لا نستطيع أن ندرس دلالة واقعة الغدير بكل حيثياتها التي أشرنا إليها، لأنها تخرج بنا عن حد الاختصار، إلاّ أننا نشير إشارة موجزة إلى بعض جوانبها، مع الاحالة إلى المصادر التي تناولتها بالتفصيل.

وقبل ذلك كلّه لابد من التنويه بأُمور لها مدخلية في فهم دلالة نص الغدير وهي:

أولا: مسألة الإمامة وخلافة رسول الله ﷺ في وعي وادراك الأُمة:

لم تكن مسألة خلافة رسول الله ﷺ غائبة عن وعي وإدراك ذلك المجتمع الذي انطلقت فيه دعوة الإسلام، فهو مجتمع عربي قَبلي، يمثل فيه رئيس القبيلة قمة الهرم الاجتماعي وله الحل والفصل والتدبير فيها، وإذا توفي أو قتل رئيسها خلفه في منصبه من يقوم مقامه من القبيلة نفسها.

وتوجد في بعض مفردات سيرة رسول الله ﷺ ودعوته للقبائل شواهد على وجود هذا الادراك والوعي لقضية خلافة رسول الله ﷺ، فنجد بعض رؤساء القبائل، عندما عرض رسول الله عليهم الإسلام، تقبل بعرض رسول الله ﷺ بشرط أن يكون لهم الأمر من بعده! وكان رسول الله ﷺ يجيبهم، بأن الأمر لله،

يضعه حيث يشاء!

وأبرز ما لدينا من الشواهد التاريخية من سيرة رسول الله ﷺ في هذا المجال قصة عامر بن صعصعة، وقصة قبيلة كندة، وكلا القصتين في أول بعثته ﷺ، كذلك نجد قصة عامر بن طفيل في عام الوفود وهي في أواخر حياة النبي ﷺ.

وقد ذكرنا تفاصيل هذه القصص في الدروس السابقة، ولا نريد أن نكررها هناك، إلاّ أننا نذكر هنا ببعض أقوالهم، وجواب رسول الله ﷺ لهم.

جاء في سيرة ابن هشام: «أتى رسول الله ﷺ بني عامر بن صعصعة فدعاهم إلى الله، وعرض عليهم نفسه، فقال له رجل منهم: . . أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك، ثمّ أظهرك الله على من خالفك، أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال ﷺ: الأمر إلى الله، يضعه حيث يشاء!!

فقال له: أفنهدف نحورنا للعرب دونك، فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا! لا حاجة لنا بأمرك»[1]!

ويروي ابن كثير في سيرته من قصة قبيلة كندة قوله: «قال عبد الله. . حدثني أبي عن أشياخ قومه أن كندة قالت له - أي رسول الله ﷺ -: إن ظفرت تجعل لنا الملك من بعدك؟ فقال ﷺ: «إن الملك لله يجعله حيث يشاء». فقالوا: لا حاجة لنا فيما جئتنا به»[2].

وهاتان القصتان في بداية عودة الرسول ﷺ وفي أيام العهد المكي، حيث لم يكن للإسلام دولة آنذاك.

وقد مرّ بنا قصة وفد «عامر بن الطفيل». . الذي وفد مع «أربد بن قيس» إلى

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ٢ / ٢٨٩، والطبري: ٢ / ٨٤ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٢ / ١٩٢ .

المدينة، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لي إن اسلمت؟ فقال رسول الله ﷺ: لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم.

فقال عامر: أتجعل لي الأمر إن أسلمت، من بعدك؟ فقال رسول الله ﷺ: ليس ذلك لك، ولا لقومك»[1].

هذه بعض الشواهد التاريخية التي تدل على أن الخلافة وتولي الأمر بعد رسول الله ﷺ كانت مطروحة وتتداولها الألسن، ولم تكن من الممنوعات التي يحرم تداولها، وقد تكون هنالك شواهد أُخرى لم يسجلها قلم المؤرخ، وقد تكون هنالك قبائل أو أفراد أكثر طموحاً من القبائل والافراد التي ذكرناها، وكانوا يخططون لأمر خلافة رسول الله ﷺ من دون أن يفصحوا عن نواياهم! كل هذا وارد في مجتمع قبلي فيه رئيس ومرؤوس، وفيه طموحات سياسية للوصول إلى خلافة الرسول ﷺ.

ثانياً: حرص النبي ﷺ على مستقبل الأُمة الإسلامية:

بغض النظر عن نصوص الوصية والخلافة التي قالها رسول الله ﷺ ورويت عنه بالاستفاضة والتواتر، فإنّ طبيعة الأشياء تقتضي من النبي ﷺ أن يستخلف من يتولى الأمر من بعده.

والمقصود بطبيعة الأشياء: «مجموعة الظروف والخصائص الموضوعية والذاتية المسلمة واليقينية التي عاشها النبي والمسلمون واختصوا بها». فإن حرص النبي على مستقبل الأُمة الإسلامية، والأخطار التي كانت تهدد دولته من الروم والفرس والمنافقين وحركة الردة.. تجعلنا نجزم بأن رسول الله لا يمكن أن يترك أُمته من دون خليفة لتتخبط في الفوضى من بعده!

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ١١٤.

فالنبيﷺ الذي لم يكن يخرج من المدينة إلاّ وله من يستخلفه، فكيف يمكن لنا أن نتصور رحلته النهائية إلى ربه من دون أن يستخلف؟ مع حرصه الشديد على واقع الأُمة ومستقبلها[١]؟! وسوف يأتينا مزيد من البحث في هذه القضية في الدروس القادمة.

ثالثاً: الإمامة وخلافة رسول اللهﷺ أمرها إلى الله:

تشعبت الآراء والاتجاهات في مسألة الإمامة والولاية بعد رسول اللهﷺ، وهنالك نظريات متعددة في هذا المجال، من أبرزها:

الأُولى: نظرية انعقاد الامامة بالغلبة والثورة المسلحة.

الثانية: نظرية الاختيار (الشورى).

الثالثة: نظرية النص.

والنظريتان الأُولى والثانية يتبناهما جمهور أهل السنة، وأما نظرية «النص» فهي نظرية الشيعة الإمامية[٢].

وقد تناول علماء الشيعة - الذين تسالموا على أن الإمامة لا تكون إلاّ «بالنص» - بالنقد والمناقشة أدلة الطرف الآخر الذي يؤمن بنظرية الغلبة أو نظرية الاختيار (الشورى)، وأثبتوا بما لا مزيد عليه بطلان هاتين النظريتين، وثبوت نظرية النص التي يؤمنون بها[٣].

وخلاصة ما ذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية كعقيدة راسخة في قضية الإمامة

---

(١) للتوسع في دليل طبيعة الأشياء الذي طرحه السيد الشهيد الصدر كدليل على ثبوت النص القرآني، وتدوين القرآن في حياة النبيﷺ انظر: السيد الحكيم، علوم القرآن: ١٠١ وما بعدها.

(٢) الآصفي، مدخل لدراسة نص الغدير: ٩.

(٣) انظر المصدر نفسه: ١١ وما بعدها.

هو: «أنّ الإمامة عهدٌ كالنبوة، فهي بيد الله، ولا تنال إلاّ من شاء الله أن تناله، وأنّ الله لم يفوض أمرها إلى النبيﷺ، فضلا عن الأُمة..»[١].

واستدلوا لهذا الأمر بعشرات الأدلة المتينة والبراهين الرصينة من الكتاب والسنة ودليل العقل.. والتي يمكن مراجعتها والوقوف عندها في كتب الكلام والعقائد.

رابعاً: نصوص الوصية لعليعليه السلام بالخلافة والإمامة بعد رسول اللهﷺ:

لقد سجل علماء الإمامية صحائف مطولة من الأدلة والبراهين الدالة على إمامة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وخلافته بعد رسول اللهﷺ[٢]، ومن خلال تتبعهم لهذه الأدلة واستقرائها وجدوا أنه: قد تكررت الوصية من رسول اللهﷺ لعليّ بن أبي طالب بالخلافة والإمامة من بعده، منذ السنين الأُولى من البعثة، والأيام الأُولى لإعلان الدعوة إلى الأيام الأخيرة من حياته.

والذي يتتبع هذه النصوص ويتابع ظروف صدورها يتأكد من أنّ رسول اللهﷺ كان مكلفاً بنصب عليعليه السلام خليفة وإماماً من بعده، وكان يخطط لإعلان هذا العهد على المسلمين بالتدريج، وبصور وصيغ مختلفة، حتى لا يختلف المسلمون من بعده في أمر إمامته وولايته.

وأول نص نجده في أمر الوصاية والولاية من بعدهﷺ نص: «يوم الدار» وآخر محاولة لرسول اللهﷺ في هذا الشأن كان على فراش الموت في الأيام الأخيرة من حياته المباركة.

وقد تحدثنا في الجزء الأول من هذا الكتاب عن حديث الدار ودلالاته،

---

(١) انظر: الشريف المرتضى، الشافي في الإمامة: ١ / ٧.

(٢) للتوسع انظر: كتابي العلامة الحلي: نهج الحق، والألفين في إمامة أمير المؤمنين.

وأشرنا في دروس السيرة هذه إلى كثير من الأحاديث التي صدرت من رسول الله ﷺ وبمناسبات مختلفة بحق علي عليه السلام والتي تدل على امامته وخلافته بوضوح، كحديث الراية، وحديث المنزلة، وحديث ابلاغ براءة، وحديث الثقلين.. حتى انتهينا إلى حديث الغدير، وسيأتينا حديث الكتاب الذي لم يكتب ورزية يوم الخميس ضمن أحداث السنة الحادية عشرة.

عودة إلى دلالة نص الغدير:

ما ذكرنا من نقاط سابقة قد تساعدنا في فهم دلالة «نص الغدير» أو هي بمثابة المدخل لهذا الفهم، إلاّ أننا سوف نساير الظروف الموضوعية التي صدرت خلال النص، والأجواء التي رافقت صدوره، بالاضافة إلى الطريقة التي تمّ من خلالها اعلان النص واشهاده على رؤوس الأشهاد، وما تبعها من أحداث.

لقد صدر نص الغدير عند منصرف رسول الله ﷺ من حجة الوداع، وهذا يعني أن حشداً جماهيرياً هائلا قد سمع هذا النص، بالاضافة إلى حرص النبي ﷺ على عدم تفرقهم حتى يسمعوا منه ﷺ هذا النص، «فأمر بردِّ المتقدم، وجمع المتأخر» كما تقول الرواية.

ثمّ إن رسول الله ﷺ قد أنزل تلك الجماهير الهائلة في ذلك الهجير الصائف، وفي منطقة غير مأهولة ولا تساعد أوضاعها الجغرافية على النزول فيها.. وفي حشد لا زال يعاني من التعب والجهد الذي بذله في مناسك الحج.. كل هذه الظروف الموضوعية إن دلت على شيء فإنما تدل على أهمية ما سوف يبلغه رسول الله ﷺ لتلك الجموع.

وقد كان بامكان رسول الله ﷺ أن يلقي خطابه على تلك الجموع وهو على ناقته كما كان يفعل في أيام حجة الوداع، لكننا نرى هنا أن الأمر يختلف، فيصنع له منبراً من أهداج الإبل، وعند تلك الشجرات، فيرتقي ذلك المنبر ومعه علي بن

أبي طالب عليه السلام ، فيشرف على تلك الجماهير، فيرون شخصه وشخص من معه، وكلهم أُذن صاغية لسماع ما يقول.

أما مفردات الألفاظ والجمل التي قالها رسول الله صلى الله عليه وآله في خطبة الغدير، فهي على درجة عالية من الوضوح وتدل على معانيها بصراحة لا لبس فيها.

فهو صلى الله عليه وآله يقدم ويمهد لخطبته بمقدمة واضحة الدلالة فيقول: «. . . أُوشك أن ادعى فأجيب، وإني مسؤول وأنتم مسؤولون» وهذا يعني إن ما يريد أن يبلغه لهم يتعلق بمستقبل الأُمة من بعده، ومن منطلق المسؤولية الخطيرة التي يحملها، وإنهم يحملون هذه المسؤولية كمسلمين.

ثمّ يُشْهِدهم على أُصول التوحيد، والرسالة، والمعاد. . وكأنه يريد أن يقول لهم إن ما سوف أُبلغكم به بمثابة هذه الأُصول التي تشهدون وتقرون بها.

ثمّ يؤكد على التمسك بالثقلين! وهو ما أكده عليهم في خطبه في حجة الوداع، وهنا أيضاً يؤكد ذلك.

بعد هذه المقدمات التي تسلط الأضواء على ما يريد أن يقوله صلى الله عليه وآله ، يفصح لهم عما يريد بصراحة ووضوح، بل لم يكن ما صدر منه صلى الله عليه وآله قولا فقط، وإنما قول وفعل دال عليه! فيأخذ بيد عليّ فيرفعها مع يده أمام ذلك الحشد حتى يبين بياض آباطهما. . ثمّ يقول: «أيها الناس من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟. . إن الله مولاي، وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليٌّ مولاه» ويكرر ذلك ثلاث مرات! أو أربع!

ثمّ لم يكتف صلى الله عليه وآله بذلك، ولم ينهِ خطابه إلاّ بدعاء له دلالاته الواضحة: «اللهمّ والي من والاه، وعادِ من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وأبغض من أبغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحقّ معه حيث دار» ثمّ يقول: «ألا فليبلّغ الشاهد الغائب».

فهل لدينا اشهار واعلان لأمر من الأُمور أوضح دلالة وصراحة من هذا الاشهار والاعلان النبوي في خطبة الغدير؟ وإذا لم يدل هذا الاشهار والاعلان وبهذه الحيثيات والألفاظ على الخلافة والوصية لعلي بعد رسول الله ﷺ فعلى ماذا تدل؟

ولم تنتهِ قصة حديث الغدير بانتهاء خطبة رسول الله ﷺ ، وإنما استتبعتها أُمور صدرت من السماء، ومن النبي ﷺ ، ومن الصحابة.. تُرسّخ بما لا شك فيه دلالة نص الغدير على الخلافة والوصية لعلي عليه السلام .

فهذا جبريل الأمين ينزل بقوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[1].

وهذا رسول الله ﷺ الذي «لا ينطق عن الهوى..» يقول عند نزول الآية: «الله أكبر على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ورضا الرب برسالتي، والولاية لعليٍّ من بعدي».

وها هو رسول الله ﷺ ينصب خيمة لعلي ويطلب من المسلمين أن يتقدموا بالتهنئة لعلي بالخلافة. وها هم الصحابة يهنئون أمير المؤمنين، وفي مقدمتهم أبو بكر وعمر، كلٌّ يقول: بخ بخ لك يا ابن أبي طالب أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة.

وها هو ابن عباس يقول: وجبت والله - أي ولاية علي - في أعناق القوم.

ويقف حسان بن ثابت لينشد أبياته على مسمع من ذلك الجمع، فيسمعها منه رسول الله ﷺ ويستحسنها ويدعو له....

هذه الأفعال والأقوال والأشعار.. على درجة من وضوح الدلالة بحيث لا

(١) المائدة: ٣ .

تترك مجالا للتأمل والتوقف في مدلول نص الغدير، وإنه نص في الخلافة والولاية لعلي عليه السلام بعد رسول الله صلى الله عليه وآله .

٤ - ما نزل من القرآن في حديث الغدير

ذكر المفسرون في تفاسيرهم الروائية للآيات والسور القرآنية مجموعة من الآيات القرآنية التي نزلت في حديث الغدير، وذلك من خلال الاستناد إلى الأحاديث والروايات التي تتحدث عن أسباب نزولها.

ونجد مثل هذه الروايات في كتب الفضائل وذلك عند الحديث عن فضائل الإمام علي عليه السلام ، ونجدها أيضاً في كتب العقائد وعلم الكلام، في فصل الإمامة، والنص على إمامة علي عليه السلام .

ومن هذه الآيات:

ما جاء في سورة المائدة عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[1] .

قال الأميني: «نزلت هذه الآية الشريفة يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة حجة الوداع (١٠ هـ) لمّا بلغ النبي الأعظم صلى الله عليه وآله غدير خم، فأتاه جبريل بها على خمس ساعات مضت من النهار..».

ثمّ يقول: «وما ذكرناه من المتسالم عليه عند أصحابنا الإمامية غير أنّا نحتجُّ في المقام بأحاديث أهل السنة في ذلك...»[2].

---

(١) المائدة: ٦٧ .

(٢) الأميني، الغدير: ١ / ٤٢٣ - ٤٢٤ . وللتوسع انظر تفسير القمي، والعياشي، والبرهان، ونور الثقلين. وغيرها، عند تفسير الآية(٦٧) من سورة المائدة.

وذكر بعدها أقوال كبار المفسرين والمحدثين الذين قالوا بنزولها في قصة الغدير، منهم الحافظ أبو جعفر محمد بن جرير الطبري في كتابه «الولاية في طرق حديث الغدير» في رواية طويلة عن زيد بن أرقم. ومنهم أبو هاشم الرازي عن أبي سعيد الخدري.. وهكذا إلى ثلاثين مفسراً ومحدثاً، مع ذكر تفاسيرهم وكتبهم...، ثمّ ذكر الوجوه الأُخرى لنزول الآية وناقشها مناقشة مستفيضة[١].

ومن هذه الآيات: ما جاء في سورة المائدة أيضاً عند قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٢].

يقول العلامة الأميني:

«فقد أجمعت الإمامية عن بَكرة أبيهم على نزول الآية الكريمة حول نصّ الغدير بعد إصحار النبي بولاية مولانا أمير المؤمنين.. وصافق الإمامية على ذلك كثيرون من علماء التفسير وأئمة الحديث وحفظة الآثار من أهل السنة، وهو الذي يساعده الاعتبار ويؤكّده النقل الثابت..»[٣].

ومن الذين رووا نزول الآية بعد واقعة الغدير: الطبري، وابن مردويه، وأبو نعيم، والخطيب البغدادي، وأبو سعيد السجستاني، وابن المغازلي، والحسكاني، وابن عساكر، وابن كثير، والشافعي... وغيرهم، وباسناد ينتهي إلى الصحابي أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة، وجابر بن عبد الله الأنصاري، والإمامين الباقر والصادق عليهما السلام[٤].

والآية الأُولى تسمى في لسان المفسرين بآية التبليغ، والآية الثانية تعرف

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٢٣ - ٤٤٦.

(٢) المائدة: ٣.

(٣) الأميني، الغدير: ١ / ٤٤٧.

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٤٤٧ - ٤٥٩.

بآية الإكمال.

ومن الآيات الأُخرى التي لها علاقة بحديث الغدير، ونزلت بعدها كما ينص على ذلك علماء التفسير والحديث، آيات سورة المعارج في قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلُۢ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ۝١ لِّلْكَٰفِرِينَ لَيْسَ لَهُۥ دَافِعٌ ۝٢ مِّنَ ٱللَّهِ ذِى ٱلْمَعَارِجِ ۝٣﴾[١]

روي في تفسير غريب القرآن للهروي (ت ٢٢٤ هـ): «لمّا بلّغ رسول الله ﷺ في غدير خم ما بلّغ، وشاع ذلك في البلاد، أتى جابر بن النضر بن الحارث بن كلدة العبدري، فقال: «يا محمد أمرتنا من الله أن نشهد أن لا إله إلاّ الله، وأنك رسول الله، وبالصلاة، والصوم، والحج، والزكاة، فقبلنا منك، ثمّ لم ترض بذلك حتى رفعت بِضبع[٢] ابن عمك ففضّلته علينا، وقلت: من كنت مولاه فعلي مولاه، فهذا شيء منك، أم من الله؟

فقال رسول لله ﷺ: والذي لا إله إلاّ هو انّ هذا من الله».

فولّى جابر يريد راحلته، وهو يقول: «اللهم إن كان ما يقول محمد حقّاً فأمطر علينا حجارة من السماء، أو ائتنا بعذاب أليم!

فما وصل إليها حتى رماه الله بحجر، فسقط على هامته، وخرج من دبره، وقتله، وأنزل الله تعالى: ﴿سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَاب وَاقِع﴾ الآية»[٣].

ونقل هذه الرواية جملة من المفسرين، وباسناد معتبرة عن سفيان بن عيينة، عن أبيه، عن جعفر بن محمد (الصادق)، عن آبائه «صلوات الله عليهم». وهي مروية أيضاً عن حذيفة بن اليمان[٤].

---

(١) المعارج: ١ - ٣.

(٢) الضبع: وسط العَضد، وأخذ بضبعيه أي بعضديه (لسان العرب).

(٣) الأميني، الغدير: ١ / ٤٦٠ - ٤٦١ وقارن برواية الواحدي في أسباب النزول: ٢٩٤.

(٤) للتوسع، انظر المصدر نفسه: ١ / ٤٦١ وما بعدها.

إلاّ أنّ الروايات اختلفت في تحديد اسم الشخص المعترض والذي وقع عليه العذاب، ففي الرواية التي نقلناها هو: «جابر بن النضر..» وفي رواية الثعلبي هو «الحارث بن النعمان الفهري» وفي رواية فرات بن إبراهيم الكوفي في تفسيره، والكراجكي في كنز الفوائد إنّ السائل هو «الحسين بن محمد الخارقي»[١].

ولا ندري هل هو تصحيف في الأسماء، أم أن الحادثة قد تعددت وكثر المعترضون!

على أي حال هذه هي الآيات التي ذكرت من قبل المفسرين والمحدثين أنها نزلت في حديث الغدير.

٥ - حديث الغدير في الشعر والأدب

للشعر والأدب مكانتهما بين الأُمم والشعوب، وخاصة الشعر والأدب «الملحمي» الذي يسجل فيه الشاعر والأديب أمجاد أُمته ومآثارها الخالدة.

ولكلّ أُمة من الأُمم ملحمتها التي سجعلت فيها الانتصارات التي أحرزتها على أعدائها، أو المُثل العليا التي تخلقت بها رجالها، مع امتزاج بعضها بالأساطير والقصص الشعبي الذي يمكن أن يوصف بعضها بالخرافة.

وتشكل هذه الملاحم والشعر الذي نظم بها مرجعية تاريخية محفزة، لها معطياتها في نفوس الأجيال اللاحقة، فتوقد في نفوسهم جذوة الغيرة على الأمجاد الغابرة، وتثير فيهم حماسة المقاومة لأعدائهم، وروح الاعتزاز بالمُثل التي خلّفها أسلافهم.

---

(١) المصدر نفسه: ١ / ٤٦٠ - ٤٦١ (الهامش في الصفحتين).

ولهذا نجد للأغريق ملحمتهم الخالدة باسم «الالياذة» أو «الفردوس المفقود» وتعتبر «الياذة» شاعر اليونان الكبير «هوميروس» من أوسع الياذات الاغريق وأكثرها تأثيراً، ولقد كانت لهذه الملحمة من التأثير وقوة البيان بحيث تُرجمت إلى اللغات العالمية الحيّة ومنها اللغة العربية.

كذلك نجد للحضارة الفارسية ملحمتها الشِّعرية المعروفة بـ «الشاهنامة» لشاعر إيران المعروف «الفردوسي» التي ذكر فيها أمجاد ملوك فارس في قرابة ستين ألف بيت.

كذلك نجد لشعوب القارة الهندية ملحمتها المعروفة بـ «المهباراتا».

ولا يخلو نصيب الشعوب العربية من هذه الملاحم، فنجد القصائد الطوال المعروفة بـ «المعلّقات» والتي تحكي أيام العرب ووقائعها باللغة العربية الفصحى، وإلى جانب ذلك نجد ملاحم أدبية مشهورة مثل سيرة بني هلال، وسيرة سيف بن ذي يزن، وقصة عنترة بن شداد.

إلاّ أن الطابع العام لكلّ هذه الملاحم أنها تسجل الوقائع التاريخية ممزوجة بالكثير من الأساطير والخرافات والقصص الخيالية حيث يسبح شاعر الملحمة ولا رقيب عليه إلاّ ذوقه الأدبي، وما يسبغه على الوقائع من فنه وجودة شعره.

وبعد بزوغ فجر الإسلام، وانتشار نوره في اصقاع الأرض، ظهرت هنالك مفاهيم جديدة، انعكست بدورها على رؤية الانسان المسلم للكون والحياة، واتسعت آفاق المعرفة الفكرية لديه، مما كان له انعكاس ايجابي على أدبه وشعره ونثره، فخرج الشعر من طابعه الخيالي إلى طابع آخر يعكس الواقع الجديد للمجتمع الإسلامي من حيث مُثُله وقيمه وفضائله.

ولهذا نجد القصائد والأشعار التي قالها شعراء الإسلام في صدره الأول تعكس لنا أحداث ووقائع الإسلام وخاصة في عهده المدني، فامتزجت فيها

المواقف بالحقائق، والبطولات بالمُثل العليا، والعقيدة بالتضحية والفداء، والشخصية بالفضائل والقيم الكريمة.

وبمقارنة بسيطة بين قصائد المعلقات، والقصائد التي قالها حسان بن ثابت أو كعب بن مالك، أو الكميت الأسدي.. نجد الفرق الكبير في الألفاظ والمحتوى الفكري والمعنوي بينها.

ومن أهم تلك الأحداث التي ألهمت قريحة الشعراء والأُدباء وعلى مرّ الأجيال، قضية «حديث الغدير» والبيعة الكبرى بالامامة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام. لأنها تناولت أكبر قضية من قضايا الإسلام بعد الرسالة، وهي قضية الإمامة وخلافة رسول الله صلى الله عليه وآله.

ولا نبالغ إن قلنا إنا لا نجد حادثة من حوادث الإسلام الكبرى قد حظيت بالاهتمام البالغ كما حظيت واقعة الغدير، فبعد أن استقطبت اهتمام المحدثين والمفسرين والكلاميين.. حظيت كذلك باهتمام الشعراء والأُدباء الذين قالوا في هذه الواقعة أروع قصائدهم، وخلفوا لنا ثروة أدبية كبيرة من الشعر والنثر وبلغات مختلفة من العربية إلى الفارسية إلى لغة الاردو.

ولم يقتصر هذا الاهتمام الأدبي الشعري على شعراء المسلمين فقط وإنما سرى إلى عشاق الحق والفضيلة والعدل والشجاعة التي تجسدت في علي عليه السلام فسجلوا فضائله ومنها وعلى رأسها واقعة الغدير، ومن هؤلاء، الشاعر اللبناني الشهير بولس سلامة صاحب «ملحمة الغدير» الذي دون فيها تاريخ الإسلام الخالد، ووجهه المشرق حتى وصل إلى حديث الغدير فسجلها بأحرف من نور ولم يشذ عن الرواية المتواترة بحسب ما سجلها الرواة لهذه الواقعة، فيبدأ من حين انتهاء حجة الوداع وبتسلسل مع الرواية حيث يقول عن قول النبي صلى الله عليه وآله:

أيها الناس إنما مولاكم ومولاي ناصري ومجيري
ثم أني وليكم منذ كان الدهر طفلا حتى زوال الدهور

يا إلهي من كنت مولاهُ حقاً فعليٌّ مولاه غير نكير
يا إلهي والِ الذين يوالون ابن عمي وانصر حليف نصيري
كن عدواً لمن يعاديه واخذل كل نكس وخاذل شرير
قالها آخذاً بِضُبع علي رافعاً ساعد الهمام الهصور

ثم يتلو ذلك بأبيات إلى أن يصل إلى قوله:

بثَّ طه مقاله في علي واضحاً كالنهار دون ستور
لا مجاز ولا غموض ولبسٌ يستحث الأفهام للتفسير
فأتاه المهنئون عيون القوم يبدون آية التوقير
جاءه الصاحبان يبتدران القول طلاّ على حقاق العبير
«بثَّ مولى للمؤمنين هنيئاً للميامين بالإمام الجدير
هنأته أزواج أحمد يتلوهنّ رتلٌ من الجمع الغفير»[1]

وهذا الأديب الشاعر مع مسيحيته قد قال في الإمام علي وبنيه عليهم السلام كلاماً في مقدمة ديوانه أكثر علواً مما يقوله مسلم علوي، يقول: «.. لم يجتمع لواحد ما اجتمع لعلي من البطولة والعلم والصلاح، ولم يقم في وجه الظالمين أشجع من الحسين، فقد عاش الأب للحق وجرّد سيفه للذياد عنه منذ يوم بدر، واستشهد الابن في سبيل الحرية في كربلاء، ولا غرو فالأول ربيب محمد والثاني فلذة منه»[2].

ثمّ ختم ديوانه «ملحمة الغدير» بأبيات تعبر عن عشقه لعلي فيقول:

يا أمير الإسلام حسبي فخراً أنني منك ماليٌ اصغريّا
جَلجَل الحق في المسيحي حتى عُدَّ من فرط حبّه علويا

(١) بولس سلامة، ملحمة الغدير: ١٢٤ - ١٣١ .
(٢) المصدر نفسه، المقدمة: ١٨ .

انا من يعشق البطولة والإلهام والعدل والخِلاق الرضيا
فإذا لم يكن عليّ نبياً فلقد كان خلقه نبويا
سِفرُ خير الأنام من بعد طه ما رأى الكون مثله آدميا
يا سماءُ اشهدي ويا أرض قرّي واخشعي، إنني ذكرت علياً[١]

وفي ديوانه المطبوع نجد غرر الأشعار في النبي وأهل بيته وواقعة الطف وما جرى فيها مما يطول ذكره ونقله.

وعلى أي حال فقد خلدت واقعة الغدير من يوم وقوعها في الثامن عشر من ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، واستمرت عبر القرون وإلى زماننا هذا، فلا تمرُّ هذه المناسبة إلاّ وتجد تجديداً لذكرها شعراً ونثراً وأدباً.

وأول ما عرف من الشعر الملحمي في رواية واقعة الغدير هو ما ألقاه حسان ابن ثابت الأنصاري، في نفس اللحظة التي بويع فيها أمير المؤمنين وعلى مسمع ذلك الجمع العظيم، وبحضور رسول الله ﷺ الذي أقرّه على ما قال واستحسن قوله بقوله: «لا تزال يا حسّان مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا بلسانك»[٢]، وأبيات حسان معروفة تتداولها الألسن، وروتها الكتب الأدبية والشعرية، وقد جاء ذكرها في كتب التراجم ومعاجم الشعراء عند ترجمة حسان بن ثابت[٣]:

إلاّ أن رواية هذه الأبيات تختلف من مصدر إلى آخر، فبعضهم أورد ما وصله من أبيات القصيدة، وبعض اقتصر فيها على أبيات منها.

يقول الأميني: «وأقدم كتاب سبق إلى رواية هذا الشعر هو كتاب سليم بن قيس الهلالي.. وتبعه على روايته لفيف من علماء الإسلام لا يستهان بعدّتهم».

---

(١) المصدر نفسه: ٣٤٦.

(٢) الأميني، الغدير: ٢ / ٦٥.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٦٦.

جاء في الرواية: أنّ حسّان بن ثابت قال: يا رسول الله اتأذن لي أن أقول في عليّ شعراً؟ فقال ﷺ: «قل على بركة الله»، فقال:

يناديهمُ يومَ الغديرِ نَبِيُّهم ... بِخمٍّ وأسْمِعْ بالنبيِّ مُنادياً
وقد جاءَهُ جبريلُ عَنْ أَمرِ ربه ... بأنّك معصوم فلا تكُ وانيا
وبلّغْهم ما أنزلَ اللهُ ربُّهم ... إليك ولا تخشَ هُناك الأَعاديا
فقام به إذ ذاك رافع كفِّه ... بكفٍّ عليٍّ مُعلنَ الصوتِ عاليا
فقال فمن مولاكُمُ ووليّكم ... فقالوا ولم يُبدوا هُنَاك تَعاميا
إلهكَ مولانا وأنت وليّنا ... وَلن تجدن فينا لك اليوم عاصيا
فقال له قُم يا عليُّ فإنّني ... رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كُنْتُ مولاهُ فهذا وليّه ... فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهمّ والِ وليّهُ ... وكن للّذي عادى عليّاً مُعاديا
فيا ربِّ أُنصر ناصريه لِنَصْرِهِمْ ... إمام هدىً كالبدر يجلوالدياجيا[1]

ومما يؤسف له اننا نجد أن ديوان حسان بن ثابت المطبوع والمتداول، خالي من هذه الأبيات وغيرها من الأبيات التي قالها هذا الشاعر في حق علي وأهل البيت عليهم السلام ! والذي يبدو أن يد الخيانة قد امتدت إلى ديوان هذا الشاعر فحذفت منه ما حذفت، وغيرت منه ما شاء لها ان تُغير كما فعلت ذلك بغيره من الدواوين والكتب والمعاجم، التي اسقطت منها مدائح أهل البيت وفضائلهم، والذكريات الحميدة لاتباعهم[2].

ومهما يكن من أمر، فإن واقعة الغدير قد تركت الأثر الكبير في شعر الشعراء وأدبهم، فجاء من بعد حسان عشرات، بل مئات الشعراء الذين خلدوا

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٦٦ - ٧٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٢/ ٧٦ وما بعدها .

هذه الواقعة، وقد حاول العلامة الأميني احصاءهم فجاء على تراجم الكثير منهم بحسب التسلسل الزمني عبر القرون، وما فاته منهم أكثر مما ذكر لو أراد أحد أن يستدرك عليه.

القيمة العلمية لما قيل من شعر في الغدير:

ذكرنا سابقاً أن الشعر الملحمي يكون محوره الأساسي هو التاريخ، ويكون دور الشاعر هو تسجيل تلك الحادثة التاريخية شعراً، فلا مجال للخيال الشعري للتدخل في الواقعة.

وواقعة الغدير التي نظم الشعراء وقائعها اعتمدت على خطبة النبيﷺ في ذلك المكان وأمام ذلك الجمع وبحق من بويع بالخلافة والولاية، فلا مجال للتزوير والاضافة والتحريف فيها.

ولهذا لا يمكن لأحد أن يقول: ان ما تستشهدون به من شواهد شعرية لاثبات واقعة الغدير، ليس بحجة لأنه كلام شاعر، والشعراء قد يجنح بهم الخيال فيقولون ما ليس بواقع، وقد قال سبحانه عنهم: ﴿وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلْغَاوُۥنَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِى كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾﴾[1].

فإن هذا الادعاء ليس بصحيح على إطلاقه، وهنالك طائفة من الشعراء مستثنون من الآيات السابقة وقد نص القرآن الكريم على هذا الاستثناء في قوله تعالى: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا۟ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟﴾[2].

بالاضافة إلى ذلك فإن ما يقال حول الشعر والشعراء من مدح واستحسان أو

---

(١) الشعراء: ٢٢٤ - ٢٢٦.

(٢) الشعراء: ٢٢٧.

ذم وهجاء والذي هو محل أخذ ورد بين العلماء والمحققين، لا ينطبق على واقعة الغدير بعد تواتر حديثها بين العلماء والمحدثين، ولم يكن دور هؤلاء الشعراء إلاّ تسجيل مفردات الواقعة كما وردت من قول النبيﷺ فيها، وكذلك الحوادث التي سبقتها أو تأخرت عنها.

يقول العلامة الأميني: «إلاّ أنّ كلاّ من أُولئك الشعراء الفطاحل.. معدود من رواة هذا الحديث، فإنّ نظمهم إيّاه في شعرهم القصصي ليس من الصور الخيالية الفارغة، كما هو المطّرد في كثير من المعاني الشعرية، ولدى سواد عظيم من الشعراء، ﴿أَلَمْ تَرَى أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ﴾.

لكن هؤلاء نظموا قصّةً لها خارج، وأفرغوا ما فيها من كَلم منثورة أو معان مقصورة، من غير أيّ تدخّل للخيال فيه، فجاء قولهم كأحد الأحاديث المأثورة، فتكون تلك القوافي المنضّدة في عقودها الذهبية من جُملة المؤكّدات لتواتر الحديث»[1].

٦ - اشكاليات متأخرة أُثيرت حول حديث الغدير

بعد هذه الجولة المختصرة في حديث الغدير، لابد لنا من التوقف عند بعض الاشكاليات التي أثارها بعض المتأخرين عن واقعة الغدير وحديثها بقرون.

والذي نلاحظه بدايةً، أنّ هذه الواقعة وما جاء فيها من تنصيب وولاية لأمير المؤمنين عليعليه السلام لم تواجه أي اعتراض أو تشكيك في مضمونها ودلالتها، عند وقوعها حيث بادر كبار صحابة الرسولﷺ إلى تهنئة أمير المؤمنينعليه السلام بالولاية، وأول من بادر إلى ذلك الصحابيان أبو بكر وعمر، ونقل بالتواتر قولهما لعليعليه السلام: «بخ بخ لك يا ابن أبي طالب، أصبحت وأمسيت مولاي ومولى كلّ

(١) الأميني، الغدير: ٢ / ١١ .

مؤمن ومؤمنة»[١].

ثمّ روى حديث الغدير صحابة رسول الله ﷺ ثمّ التابعون، ثمّ الأجيال اللاحقة لهم، فاستفاضت روايته حتى وصل إلى حد التواتر، ولم نجد أحداً ممن شهد الواقعة قد شكك في دلالتها على الولاية والإمامة الكبرى، ولا من تأخر عنهم عبر القرون قد توقف أو ناقش في الحديث سنداً أو دلالة رغم الظروف القاسية التي مرّت على المسلمين في عصر بني أُمية، ورغم حرص الجهاز الحاكم على التكتم على فضائل علي وأهل بيته عليهم السلام، بل معاقبة من يتحدث بفضائلهم بأشد العقوبات وأقساها، والشواهد التاريخية كثيرة في هذا المجال.

فالاشكالات التي أثارها بعضهم حول نص الغدير جاءت متأخرة بكثير عن عصر صدور النص، وجاءت بعد تواتر النص بين المحدثين والرواة، ونقلتها الأجيال المتعاقبة.

فلا تمتلك هذه الاشكالات المثارة قيمة علمية يمكن التعويل عليها، سوى إثارة الشكوك والاشكاليات! في قضية أوضح من الشمس في رابعة النهار.

وفيما يلي نماذج من هذه الاشكاليات:

أولا: ابن تيمية (ت ٧٢٨) واشكالاته حول حديث الغدير:

لابن تيمية في كتابه المعروف «منهاج السنة» منهج عجيب في الردّ على العلامة الحلي في كتابه «منهاج الكرامة»!

فبدلا من الأُسلوب العلمي في الردّ والمناقشة، نجده يتخذ أُسلوب الشتائم والتهم وإصدار الأحكام القاسية ضد شيعة أهل البيت عليهم السلام إلى حد قوله: «الشيعة أكذب الطوائف»!

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤١٧ .

وجاء إلى فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام فكذب الكثير منها، وحرّف دلالة بعضها الآخر من مدلولاته الواقعية.

ولا نريد أن نستعرض كلَّ آراء وكلمات ابن تيمية في تعامله مع فضائل علي بن أبي طالب، فهو حديث طويل لا يسع له المجال في هذا الكتاب[1]. إلاّ أن نموذج ذلك نجده في طريقة تعامله مع نص حديث الغدير المتواتر.

قال في منهاج السنة في كلام طويل له يردُّ فيه على العلاّمة الحلي في برهانه الثالث من البراهين الدّالة على إمامة عليّ من الكتاب العزيز، وهي آية الاكمال في قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[2] حيث ذكر العلامة سبب نزول الآية وروايتها عن أبي نُعيم عن أبي سعيد الخدري.. ثمّ ذكر قول رسول الله صلى الله عليه وآله: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله».

قال ابن تيمية: والجواب من وجوه:

أحدها: إن المستدل عليه بيان صحة الحديث، ومجرد عزوه إلى رواية أبي نعيم لا تفيد الصحة باتفاق الناس: علماء السنة والشيعة...

الوجه الثاني: إن هذا الحديث من الكذب الموضوع باتفاق أهل المعرفة بالموضوعات! ولا يوجد هذا في شيء من كتب الحديث التي يرجع إليها أهل العلم بالحديث!

الوجه الثالث: إنه قد ثبت في الصحاح والمسانيد والتفسير أن هذه الآية نزلت على النبي صلى الله عليه وآله وهو واقف بعرفة....

---

(١) للتوسع: انظر: الميلاني، دراسات في منهاج السنة، وتشييد المراجعات. وصائب عبد الحميد في كتابه: ابن تيمية، حياته وعقائده، والأميني، الغدير: ٣ / ٢١١ وما بعدها.

(٢) المائدة: ٣.

الوجه الرابع: إن هذه الآية ليس فيها دلالة على عليٍّ ولا إمامته بوجه من الوجوه، بل فيها إخبار الله باكمال الدين وإتمام النعمة.. فدعوى المدّعي أن القرآن يدل على إمامته من هذا الوجه كذب ظاهر!

الوجه الخامس: إن هذا اللفظ، وهو قوله: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره وأخذل من خذله» كذب باتفاق أهل المعرفة بالحديث!

وأما قوله: «من كنت مولاه فعليٌّ مولاه» فلهم فيه قولان، وسنذكره في موضعه.

الوجه السادس: إن دعاء النبيﷺ مجاب، وهذا الدعاء ليس بمجاب، فعُلم انه ليس من دعاء النبي!

وقال في موضع آخر من كتابه: «وأما النص على عليّ فليس في شيء من كتب أهل الحديث المعتمدة، وأجمع أهل الحديث على بطلانه»[1].

وهنالك كلمات ودعوى أُخرى لابن تيمية في حق علي وشيعته أكثر شناعة مما نقلناه عنه، نجدها مبثوثة في كتاب منهاج السنة، فهو لم يبق فضيلة لعليٍّ إلاّ وأنكرها حتى شجاعته وعلمه وزهده..! فضلا عن خلافته وولايته!

وهكذا - وبكلِّ جرأة - كذّب ابن تيمية ما قاله النبيﷺ في حديث الغدير، وأنكر نزول آيات القرآن المجيد في الواقعة، وانتهى إلى عدم وجود أيّ نص يدل على إمامة عليعليه السلام! مكذباً بذلك كبار أئمة الحديث والحفّاظ في مختلف القرون الذين هم رواة حديث نزول آية الاكمال في يوم الغدير، وهو يوم الثامن عشر من ذي الحجة سنة عشر من الهجرة، والروايات الواردة في نزولها بعرفة، روايات متعارضة، وعلى فرض عدم تعارضها فلا مانع من نزول الآية مرة

(١) ابن تيمية، منهاج السنة: ٧ / ٥١ - ٥٩ و ٨ / ٣٦٢.

في عرفة وأُخرى يوم غدير خمّ، ولا ينقضي العجب من ابن تيمية حيث يعمد إلى حديث الغدير المتواتر، فيضعّف الشطر الأول منه، ويقول عن الشطر الثاني إنه كذب! فيقول: «حديث الموالاة قد رواه الترمذي وأحمد في مسنده عن النبي ﷺ أنه قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه» وأما الزيادة وهي قوله: «اللهم وال من والاه، وعاد من عاداه... الخ» فلا ريب أنه كذب».

فالشطر الثاني من الحديث «كذب» بحسب موازين ابن تيمية وقال عن الشطر الأول: «من كنت مولاه فعلي مولاه»: فليس هو في الصحاح، لكن هو مما رواه العلماء وتنازع الناس في صحته...»[1].

ومن حقنا أن نسأل عن الدوافع التي حملت ابن تيمية على محاولة افراغ حديث الغدير عن محتواه، من خلال الطعن في سنده ودلالته! هل هو التسرع والعجلة في التعامل مع الأحاديث والحكم عليها! كما يقول الألباني بعد تصحيحه لحديث الغدير حيث قال: «إذا عرفت هذا فقد كان الدافع لتحرير الكلام على الحديث - أي حديث الغدير - وبيان صحته: أنني رأيتُ شيخ الإسلام ابن تيمية قد ضعّف الشطر الأول من الحديث، وأما الشطر الآخر فزعم أنه كذب! وهذا من مبالغته الناتجة في تقديري من تسرعه في تضعيف الأحاديث قبل أن يجمع طرقها، ويدقق النظر فيها»[2].

والذي نعتقده - ومن خلال الشواهد الكثيرة من كتاب منهاج السنة - أن ابن تيمية لم تكن تنقصه معرفة طرق الحديث وأسانيده ورواته من القرن الأول إلى عصره في مطلع القرن الثامن، وهي طرق معروفة، ومسالكها واضحة للعيان

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة: ٧ / ٣١٩ وما بعدها .

(٢) الألباني - ناصر الدين: ٥ / ٣٣٠ برقم ١٧٥٠ وكذلك: ٥ / ٣٤٤ نقلا عن كتاب آيات الغدير للكوراني: ٢٥٤ .

لمن القى السمع وهو شهيد، ولكن نوازع ابن تيمية النفسية اتجاه علي وشيعته هي التي أغلقت عليه منافذ البصيرة، فأخذ يكذب الأحاديث النبوية وآيات القرآن النازلة في علي وأهل بيته عليهم السلام ، فحديث المنزلة ليس فيه أية مزيّة لعلي! وآية التطهير لا تدل على أكثر من مجرد إرادة الله لأهل البيت بالتطهير. . ولا يعني هذا أن الله قد طهّرهم حقاً. . وهكذا.

لقد كان بإمكان ابن تيمية أن يستعرض وجوه الرأي في قضية الغدير وبموضوعية وتجرد، ثمّ يبدي رأيه كمجتهد له رأيه، أو كعالم يحترم علمه. . إلاّ أنّه أبى إلاّ أن يسلك طريقاً وعراً وينهج لنفسه ولمريديه منهجاً متعسفاً، جعلت الكثير من علماء زمانه يشجبونه ويتنكرون له ولمنهجه وسلاطة لسانه، حتى قال فيه ابن حجر: «ابن تيمية عبدٌ خذله الله وأضلّه وأعماه وأصمه وأذلّه»[1].

ثانياً: الحافظ ابن كثير (ت ٧٧٤ هـ) وتشكيكه في دلالة حديث الغدير:

لم يتنكر أبو الفداء بن كثير لحادثة الغدير وخطبة رسول الله صلى الله عليه وآله فيها، وإنما ذكرها بتفاصيلها المعروفة معتمداً في ذلك على مصدرين أساسيين هما: كتاب الولاية لابن جرير الطبري، وكتاب تاريخ دمشق الكبير لابن عساكر.

إلاّ أنّه سلك مسلكاً عجيباً، ونهج منهجاً غريباً، في تعامله مع الواقعة ودلالاتها الواضحة على الإمامة والخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي عليه السلام فحاول جاهداً افراغ الواقعة عن محتواها الأساسي وجعلها مجرد قضية شخصية دافع فيها رسول الله صلى الله عليه وآله عن علي ونبه على فضله وقدره!

فنجده أولا يشير إلى واقعة الغدير عند حديثه عن بعث رسول الله علي بن أبي طالب إلى اليمن قبل حجة الوداع، فيذكر رواية عودة علي قبل جيشه إلى مكة

(١) ابن حجر الهيثمي، الفتاوى الحديثة: ١٥٦ طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت .

واستخلافه عليهم رجلا منهم: «فعمد ذلك الرجل فكسى كل رجل حلة من حلل الغنائم.. فلما دنوا من مكة خرج علي يستقبلهم.. فنزع الحلل منهم، فلما قدموا على رسول الله اشتكوه لذلك..».

فيقول ابن كثير معقباً على هذه الحادثة: «إنّ علياً لما كثر فيه القيل والقال من ذلك الجيش.. واشتهر الكلام فيه في الحجيج، فلذلك لما رجع رسول الله ﷺ من حجته، وتفرغ من مناسكه ورجع إلى المدينة، فمر بغدير خم، قام في الناس خطيباً فبرأ ساحة عليّ ورفع من قدره ونبّه على فضله، ليزيل ما وقر في نفوس كثير من الناس، وسيأتي هذا مفصلا في موضعه..»[1].

ثمّ يذكر في ثنايا حجة الوداع قدوم علي من اليمن.. واهلاله للحج كإهلال رسول الله ﷺ.

حتى إذا انتهى من بيان حجة الوداع وخروج رسول الله ﷺ من مكة.. عقد فصلا تحت عنوان: فصل في إيراد الحديث الدال على أنه عليه السلام خطب بمكان بين مكة والمدينة مرجعه من حجة الوداع قريب من الجحفة يقال له غدير خم. فبين فيها فضل علي بن أبي طالب، وبراءة عرضه مما كان تكلم فيه بعض من كان معه بأرض اليمن، بسبب ما كان صدر منه إليهم من المعدلة التي ظنها بعضهم جوراً وتضييقاً وبخلا، والصواب كان معه في ذلك، ولهذا لما تفرغ عليه السلام من بيان المناسك ورجع إلى المدينة بيّن ذلك في أثناء الطريق، فخطب خطبة عظيمة في اليوم الثامن عشر من ذي الحجة عامئذ وكان يوم الأحد بغدير خم تحت شجرة هناك، فبين فيها أشياء! وذكر من فضل عليّ وامانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه»[2].

---

(١) ابن كثير، البداية والنهاية: ٥ / ١٢٢ - ١٢٣ .

(٢) المصدر نفسه: ٥ / ١٨٥ و ٢٢٧ .

ثمّ بين المصدرين اللذين اعتمد عليهما في بيان حديث الغدير فقال: «وقد اعتنى بأمر هذا الحديث أبو جعفر محمد بن جرير الطبري صاحب التفسير والتاريخ فجمع فيه مجلدين أورد فيهما طرقه والفاظه، وساق الغث والسمين والصحيح والسقيم، على ما جرت به عادة كثير من المحدثين يوردون ما وقع لهم في ذلك الباب من غير تمييز بين صحيحه وضعيفه. وكذلك الحافظ الكبير أبو القاسم بن عساكر أورد أحاديث كثيرة في هذه الخطبة. ونحن نورد عيون ما روي في ذلك مع إعلامنا أنه لا حظَّ للشيعة فيه! ولا متمسك لهم ولا دليل لما سنبينه وننبه عليه!»[١].

ثمّ أخذ يستعرض هذه الروايات بألفاظها التي رواها رواتها، إلاّ أنّه بدأ برواية ابن إسحاق التي تتحدث عن قدوم علي من اليمن.. وانتزاعه للحلل التي لبسها جيشه من أموال الغنيمة، وإن الجيش أظهر شكواه من علي.. فقام رسول الله ﷺ خطيباً فقال: «أيها الناس لا تشكوا علياً فوالله إنه لاخشن في ذات الله أو في سبيل الله من أن يشكى».

ثمّ يذكر رواية بريدة الذي يقول: «غزوت مع علي اليمن فرأيت منه جفوة، فلما قدمت على رسول الله ذكرت علياً فتنقصته فرأيت وجه رسول الله يتغير فقال: يا بريدة الستُ أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قلت: بلى يا رسول الله! قال: «من كنت مولاه فعلي مولاه»[٢].

ومن الواضح أن ابن كثير بذكره لهاتين الروايتين قبل روايات واقعة الغدير يريد أن يوحي للقارئ بأن ما يأتي من روايات حديث الغدير سببها شكوى جيش اليمن من علي عليه السلام في قصة الحُلَلْ التي انتزعها منهم علي عليه السلام؛ بعد أن كساهم بها ذلك الرجل الذي استخلفه عليهم!

---

(١) المصدر نفسه: ٥ / ٢٢٧ - ٢٢٨.

(٢) المصدر نفسه: ٥ / ٢٢٨.

وإلاّ فالروايتان ليس لهما أي ارتباط بما جرى في الغدير وحديثها المعروف، وفي نفس الوقت تدل الروايتان على أن النبيﷺ قد عالج قضية شكوى بعض الأشخاص الذين لم يستوعبوا عدل علي وحيطته في الغنائم.

وعلى هذا فلا وجه لما ابتدعه ابن كثير من أن سبب خطبة الغدير هو الدفاع عن عليٍّ من قبل النبيﷺ .

فإذا كان النبيﷺ قد عالج قضية الشكوى المزعومة من أُولئك الأشخاص وهو في مكة بحسب هاتين الروايتين، فما الداعي أن يجمع الناس مرة أُخرى ليدافع عن علي؟

«فليس من المعقول ولا من المألوف أن ينزل رسول اللهﷺ بجماهير المسلمين، الذين يربو عددهم على مائة ألف، وفي ذلك الهجير الصائف من طريق عودة الحجيج إلى بلادهم، ويأخذ بيد عليعليه السلام أمام هذا الحشد الكبير حتى يتبين آباطهما، ويشهر ولايتهعليه السلام عليهم، كولايتهﷺ عليهم، إعلاناً، وإشهاراً، ويأمرهم أن يبلغ الشاهد الغائب.. ثم يتزاحم المسلمون على عليعليه السلام ليهنئوه بالولاية.. ثمّ لا يكون لذلك دلالة على (الوصية) ولا يزيد هذا الأمر كله على التذكير بفضائل عليعليه السلام وردّ الاعتبار إلى الإمام عليّ عن شكوى أسرّ به بعض الأصحاب إلى رسول اللهﷺ في جفوة كانت بينه وبين عليعليه السلام في طريق عودتهم من اليمن.. ولا اعتقد أنّ الحافظ أبا الفداء بن كثير كان يرتضي لنفسه مثل هذا التسطيح والتبسيط للتاريخ بهذه الصورة لو كان هذا الاعلان والاشهار في غير هذا الأمر من أُمور المسلمين، ولم يكن الأمر محملا بهذه التبعية الثقيلة من الحساسيات السياسية التي تراكمت حول قضية الخلافة السياسية بعد رسول اللهﷺ »[1].

(١) الآصفي، مدخل إلى دراسة نص الغدير: ١١٦ - ١١٧ .

ثمّ إن ابن كثير يقول عن خطبة رسول الله ﷺ بغدير خمّ انه ﷺ : «فخطب خطبة عظيمة . . وذكر من فضل عليّ وأمانته وعدله وقربه إليه ما أزاح به ما كان في نفوس كثير من الناس منه . .» إلاّ أننا عندما نستعرض روايات خطبة الغدير التي رواها ابن كثير عن المصدرين اللذين اعتمدهما، لا نجد لرسول الله ﷺ إلاّ كلمة واحدة قالها بحق عليٍّ عليه السلام في ذلك اليوم وهي: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه . . الخ»، فليس في الخطبة ذكر لأمانة علي وعدله وقربه! كما يدعي ابن كثير!

وأخيراً، نجد ابن كثير يحاول أن يجعل قضية الغدير في حدود الاطار الشيعي! فيقول: «ونحن نورد عيون ما روي في ذلك مع اعلامنا أنه لا حظَّ للشيعة فيه ولا متمسك لهم ولا دليل لما سنبينه وننبه عليه».

فهل قضية الغدير وحديثها ودلالاتها تختص بالشيعة كطائفة من طوائف المسلمين؟ أم أنها قضية إسلامية كبرى، تتعلق بمستقبل الإسلام والمسلمين ومصير الأُمة الإسلامية بعد رحيل رسول الله ﷺ ؟».

وعلى أي حال، نكتفي بهذين النموذجين من الاشكاليات التي حاول بعض المتأخرين إثارتها حول حديث الغدير، فمن جاء من بعدهم من أمثال الآلوسي، وأحمد أمين المصري، وصاحب المنار . . . كانوا صدى لهم ورددوا نفس هذه الاشكاليات، وهي اشكالات واهية لا تصمد أمام تواتر الحديث ووضوح دلالته ومعانيه ووجود القرائن الكثيرة المعينة على فهم معانيه.

«وإجمالا إنّ قراءة مجردةً لنص الغدير، بكل ظروفه والقرائن التي تحفُّ به، مجردةً عن مخلّفات الماضي ورواسبه وحساسياته كافية لإثبات الوصية والولاية للإمام علي عليه السلام من بعد رسول الله ﷺ »[1].

(١) المصدر نفسه: ١١٨ .

٧ - من معطيات بيعة الغدير

من خلال التأمل في حيثيات بيعة الغدير، وما نزل فيها من قرآن.. تبرز لنا جملة من المعطيات الايمانية والسياسية والعقائدية.. والتي هي بمثابة الثوابت الأساسية في حياة الأُمة، فتعتقد بها، وتسير على هديها في حياتها وسيرها التكاملي إلى الله.

وهذه المنظومة من المعطيات لها مجالها الواسع من البحث في كتب العقائد وعلم الكلام وما يندرج تحت عنوان الملل والنحل، ولا يمكن لنا استيفاء الكلام فيها بهذه العجالة، وإنما نشير إليها إشارة موجزة:

أولا: أهمية منصب الإمامة في الإسلام:

لقد أكدت النصوص القرآنية - وفي أكثر من آية - على مفهوم الإمامة وأهميتها في حياة الأُمم من أتباع الرسالات السماوية السابقة، كرسالة إبراهيم، ونوح، وموسى، وعيسى عليهم السلام، ومن أوضح هذه الآيات:

الآية الكريمة التي تحدثت عن جعل الإمامة لإبراهيم في قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٢٤﴾﴾[1].

كذلك الآية المباركة التي تحدثنا عن الإمامة واقترانها بالهدى منها قوله تعالى في معرض حديثه عن قصص إبراهيم عليه السلام وولده: ﴿وَجَعَلْنَٰهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِمْ فِعْلَ ٱلْخَيْرَٰتِ وَإِقَامَ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءَ ٱلزَّكَوٰةِ ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا عَٰبِدِينَ ﴿٧٣﴾﴾[2] بالاضافة إلى الآيات القرآنية الأُخرى التي تحدثت عن هذا

---

(١) البقرة: ١٢٤.

(٢) الأنبياء: ٧٣.

المفهوم وأهميته ومركزيته في الرسالات السابقة[١].

والرسالة الإسلامية، - وهي الرسالة الخاتمة - تبرز فيها أهمية منصب الإمامة، لأنّ استمرارية هذه الرسالة لا يكون إلاّ من خلال الإمامة بعد أن انقطعت رسالات السماء برسالة الإسلام ونبوة نبينا الأكرمﷺ . ولهذا نجد النبيﷺ ومن خلال أحاديثه لأُمته يبين لهم بشكل واضح أهمية وخطورة منصب الإمامة في مسيرتهم الإيمانية، ومن أوضح هذه الأحاديث ما رواه الفريقان من قولهﷺ : «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية»[٢]. بالاضافة إلى عشرات الأحاديث الأُخرى والتي تصرح في ألفاظها ومداليلها على أهمية منصب الإمامة.

وجاءت واقعة الغدير وحيثياتها وظروفها، والآيات التي سبقتها ولحقتها، وخطب وكلمات رسول اللهﷺ في حجة الوداع إلى خطبته المعروفة بخطبة الغدير.. جاءت كل هذه لتؤكد للأُمة الإسلامية أهمية الإمامة ومحوريتها ومركزيتها في إكمال مسيرتها الإيمانية والسياسية والاجتماعية بعد رسالة النبي الخاتمة.

ثانياً: إن الإمامة كالنبوة: اصطفاء واختيار من الله سبحانه:

وهذا من المعطيات التي تجلت واضحة لنا من خلال ما نزل من القرآن في بيعة الغدير، ومن خلال ما أكده رسول اللهﷺ من أن ما حصل في غدير خم هو من عند الله سبحانه، فالإمام يقوم بنفس المهام الخاصة التي اصطفى الله سبحانه وتعالى من أجلها الأنبياء والتي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع عديدة مثل

---

(١) انظر الآيات القرآنية، السجدة: ٢٤، الأنعام: ٨٩ - ٩٠، آل عمران: ٣٣ - ٣٤ .

(٢) بحار الأنوار: ٢٣ / ٧٦ - ٩٥ وبلفظ مقارب تجده في صحيح مسلم بشرح النووي: ١٢ / ٢٤٠ كتاب الأمارة .

الشهادة، والهداية، والبشارة، والتربية والتعليم، والتزكية وإقامة القسط والعدل بين الناس.. فكما أن النبي يعيّن من قبل الله تعالى كذلك الإمام.

ثالثاً: إن علياً عليه السلام يمثل الامتداد لرسول الله صلى الله عليه وآله :

لم تكن واقعة الغدير وحديثها تمثل الواقعة الأُولى التي يؤكد فيها رسول الله صلى الله عليه وآله على شخصية علي عليه السلام وانه وصيّه وخليفته من بعده وإنّ منصب الإمامة الكبرى له من بعده دون سواه!

فلقد أكد رسول الله صلى الله عليه وآله هذا المعنى في أكثر من موطن وواقعة - كما مرّ بنا في ثنايا هذه الدروس - ولم يترك فرصة من أول بعثته إلى حين وفاته دون تأكيد دور وشخصية الإمام علي عليه السلام .

إلاّ أن حديث الغدير من أوضح وأصرح هذه الأحاديث، بل ومن أفضل الأحاديث سنداً ودلالة، لما اقترن به من القرائن المقالية والحالية والتي منها أخذ البيعة لعلي من جمهور المسلمين وعلى رؤوس الأشهاد، والتي لا يمكن أن نفسرها إلاّ بالإمامة والخلافة دون غيرها من المعاني البعيدة.

رابعاً: وجوب الاتباع والموالاة والنصرة لعلي عليه السلام :

وهذه أيضاً من المعطيات التي سجلتها الآيات القرآنية التي نص المفسرون على نزولها في حق أهل البيت عامة وعلي خاصة، كآيات الاصطفاء، وآيات التطهير، وآيات المباهلة، وآية المودة.. وغيرها من الآيات التي يمكن أن تشكل محوراً أساسياً لموضوع واسع عنوانه، «أهل البيت في القرآن» أو «علي في القرآن»[1].

---

(١) للتوسع: انظر، تأويل الآيات الظاهرة للاسترابادي الغروي، طبعة جامعة المدرسين، ط. الأُولى، (١٤٠٩ هـ) .

أما الروايات المروية عن النبيﷺ ومن قبل الفريقين في حق أهل البيت عامة وعلي خاصة ووجوب اتباعهم وموالاتهم ونصرتهم ومحبتهم.. فهي كثيرة جداً، يصل الكثير منها إلى درجة التواتر في طبقات رواتها، كحديث الكساء، وحديث الثقلين، وحديث السفينة، وحديث النجوم.. وغيرها من الأحاديث التي وردت في أهل البيتعليهم السلام.

أما الأحاديث التي وردت في خصوص الإمام عليعليه السلام فهي أيضاً كثيرة جداً ولها أبعاد ودلالات متعددة من أهمها وعلى رأسها بُعد «الوصية والخلافة والإمامة».

«ويمكن أن يكون السرّ في ذلك هو أن الإمام عليّاًعليه السلام يمثل الرمز لأهل البيتعليهم السلام في زمن النبيﷺ لأنه الشخصية التي أراد الله عزّ وجل والنبيﷺ طرحها للمسلمين وللجماعة المسلمة وللبشرية كإمام وامتداد للنبوة..»[1].

ووجوب الطاعة والموالاة والنصرة من اللوازم التي لا تنفك عن الإمامة والقيادة ولهذا نجد رسول اللهﷺ يؤكد ذلك في آخر خطبة الغدير بقوله: «اللهم والِ من والاه، وانصر من نصره...».

هذه أهم المعطيات التي يمكن أن نشير إليها في نهاية حديثنا عن واقعة الغدير، ومما لا شك فيه أن هذه المعطيات تحتاج إلى مزيد من الشرح والتفصيل ليس هنا مجال بحثها، كما أن هنالك معطيات أُخرى يمكن استلهامها من حيثيات هذه الواقعة ولا يسع المجال لذكرها.

٨ - الدروس والعبر

لقد أطلنا البحث في واقعة بيعة الغدير، إذ أنَّ أهمية الواقعة وحيثياتها ونتائجها قد استوجبت منا هذا الاسهاب والتطويل، في الوقت الذي نظن فيه أننا

---

(١) الحكيم، السيد باقر: الإمامة وأهل البيت: ٢١٨ طبعة المركز الإسلامي المعاصر - بيروت، ط. الأُولى، (٢٠٠٣ م - ١٤٢٤ هـ).

اختصرنا أو طوينا الكثير من جزئياتها وأحداثها، ولا ينبغي لنا أن نختتم هذا الدرس من دون الاشارة إلى ما يستفاد منها من دروس وعبر.

أولا: يوم الغدير، يوم إكمال الدين وإتمام النعمة:

عندما نتأمل في الآيتين القرآنيتين اللتين لهما ارتباط وثيق بقضية الغدير، وهما: آية الإبلاغ، وآية الكمال[1].

يلفت انتباهنا الأُسلوب البياني للآية الأُولى، إذ توحي لنا الآية المباركة أن النبيﷺ كان قد بلّغ للناس وللأُمة في فترة رسالته كلّ تفاصيل رسالته، وكلّ ما تحتاج إليه في أُمور دينها ودنياها، ولم يبق إلاّ أمر واحد به وحده تستكمل عملية ابلاغ الرسالة! والامتناع عن تبليغ هذا الأمر يساوي الامتناع عن تبليغ الرسالة من الأساس!

ووقف النبيﷺ في ذلك المكان الخالد بخلود الواقعة (غدير خم) وفي حرِّ ذلك الهجير القائظ، وبين ذلك الحشد العظيم، ليقول لهم بعد أن أقرهم على أنفسهم «ألست أولى بكم من أنفسكم» قالوا: بلى، قالﷺ: «من كنت مولاه فهذا علي مولاه..». فبلغ إمامة علي بن أبي طالبعليه السلام للأُمة. فتأتي هنا الآية الثانية لتبين للأُمة الإسلامية الحاضرة في ذلك المشهد العظيم، وللأجيال القادمة بعدهم.. بأن ما تمّ في هذا اليوم، هو «إكمال الدين وإتمام النعمة» فقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾.

ولا يمكن أن يكون هذا الأمر الذي به كمال الدين وإتمام النعمة إلاّ «قضية الإمامة» والتي أبلغها رسول اللهﷺ للأُمة في ذلك اليوم من خلال إعلان الولاية والإمامة لعليعليه السلام.

والدرس الإيماني والعقائدي الذي نستفيده من أجواء الآيتين وما قام به

(١) الآية: ٦٧ والآية: ٣ من سورة المائدة.

رسول الله ﷺ في ذلك اليوم من ابلاغ . . هو أهمية ومحورية الإمامة في حياتنا العملية، والتي من دونها لا يمكن أن نضمن سلامة المسيرة على الصراط المستقيم! لأنّ الإمامة تعني الاستمرار في خط رسول الله ﷺ وتعني الأُسوة والقدوة التي لابد من وجودها في حياتنا كما قال علي عليه السلام : «ألا وإنّ لكل مأموم إماماً يقتدي به ويستضيء بنور علمه . .»[1].

ونحن في الوقت الذي ينبغي لنا أن نشكر الله سبحانه على إكمال الدين، وإتمام النعمة، ينبغي لنا أن نعرف قدر نعمة الإمامة ومحوريتها في حياتنا، وأن نتمسك بحجزة صاحبها، صاحب الولاية الكبرى الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام .

ثانياً: يوم الغدير، يوم الإنسانية الخالد:

والدرس الآخر الذي يلفت الانتباه في واقعة بيعة الغدير، هو خلود الواقعة.

فرغم كل ما اتُخذ من قبل البعض لطمس معالم هذه الواقعة، أو افراغها من محتواها ودلالتها، إلاّ أنها بقيت خالدة في التاريخ وفي وجدان الأُمة، ويتجدد ذكراها في كلِّ عام رغم تطاول الزمن والقرون المتوالية عليها! فلا يُبليها تقادم الزمن وكرُّ الدهور والأيام.

فما هو السر في هذا الخلود الدائم لهذه الواقعة؟ وبعبارة أُخرى ما هي أسباب خلود واقعة بيعة الغدير رغم مرور القرون الكثيرة على وقوعها؟

ولعل الاجابة تكمن فيما يلي:

١ - إن قضية الغدير تمثل قضية وموضوع الإمامة، وهي من قضايا الإسلام الكبرى بنصِّ القرآن الكريم، وليست من القضايا الشخصية التي تخص عليّاً وأهل

(١) نهج البلاغة، من رسالة له عليه السلام لعثمان بن حنيف، واليه على البصرة .

البيت عليهم السلام وان كان مصداق هذه الإمامة قد تجسد فيه دون غيره من خلال مجموعة النصوص التي تدل على امامته وعلى رأسها بيعة الغدير.

فالملاحظ «أن الرسالات الإلهية السابقة كانت تعتمد في إدامتها واستمرارها وبقائها على مجموعة من الأنبياء الذين يأتون بعد كل نبي من أنبياء أُولي العزم.. ولكن الرسالة الخاتمة التي هي أعظم هذه الرسالات وأفضلها، وأراد الله لها الاستمرار والبقاء إلى آخر الحياة البشرية، يلاحظ فيها أنها رسالة لا يوجد فيها نبي بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، لما نصّ عليه القرآن من قوله تعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ...﴾[1]، وكذلك ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وتواتر عنه لدى المسلمين من قوله لعلي عليه السلام: «.. ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلاّ أنّه لا نبيّ بعدي»[2].

ولهذا شاء الله سبحانه - ولا راد لمشيئته - أن يكون استمرار الرسالة الخاتمة عن طريق (الإمامة) وأن تكون هذه الإمامة في أهل البيت سلام الله عليهم»[3].

وان تبقى واقعة الغدير خالدة بخلود الإمامة التي لا تخلو الأرض منها.

٢ - ان قضية الغدير قد نزل فيها آيات من القرآن الكريم، وخلودها بخلود القرآن الذي يتلى آناء الليل وأطراف النهار، فمادام القرآن باق، تبقى هذه الحادثة حية تلهج بها ألسنة التالين للقرآن والمتدبرين في معانيه وأسباب نزوله.

والآيات التي نزلت في واقعة الغدير تشكل جزءً من مجموع الآيات التي نزلت في علي وأهل البيت عليهم السلام، وقد أَلَفَ قدماء المفسرين والمحدثين.. كتباً خاصة في الآيات التي أنزلها الله تعالى في أهل بيت نبيه، والأحاديث التي قالها

---

(١) الأحزاب: ٤٠.

(٢) البخاري: المجلد الثالث، الجزء الخامس: ١٥١ كتاب المغازي، الحديث رقم (٤٤١٦).

(٣) الحكيم - محمد باقر، الإمامة: ١٢ - ١٣.

فيهم النبيﷺ ، الذي لا ينطق عن الهوى، نذكر منها: كتاب الحافظ أبي نعيم الإصفهاني باسم (ما نزل في علي من القرآن).

وكتاب النسائي صاحب الصحيح باسم (خصائص أمير المؤمنين).

وهما كتابان معروفان مطبوعان، وكتاب (الولاية) للمؤرخ الطبري، في جزأين، غير مطبوع»[١].

٣ - اتخاذ يوم الغدير عيداً لأولياء الله:

تعتبر ظاهرة الأعياد من الظواهر الاجتماعية البارزة عبر التاريخ، وعرفتها المجتمعات البشرية منذ فجر التاريخ وإلى يومنا هذا، حيث تتخذ من بعض الأحداث والمناسبات والأيام التي تقع فيها تلك الأحداث والمناسبات عيداً لها، تحتفل به جيلا بعد جيل، ولا تمحوها تطاول الأيام والسنين من ذاكرتها.

ويحدثنا القرآن الكريم عن عيسى بن مريمعليه السلام الذي طلب من الله سبحانه أن ينزل على قومه مائدة تكون لهم عيداً، يقول تعالى: ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ. . .﴾[٢].

والعيد، من العَود: وهو الرجوع إلى الشيء بعد الإنصراف عنه. . والعيدُ: ما يُعاود مرةً بعد أُخرى وخُصَّ في الشريعة بيوم الفطر ويوم النحر، ولما كان ذلك اليوم مجعولا للسرور في الشريعة. . صار يستعمل العيد في كلِّ يوم فيه مسرّة. .»[٣].

ويوم الغدير من المواسم والأيام الإسلامية التي تفاعل معها المجتمع

---

(١) الكوراني - علي، آيات الغدير: ٣ .

(٢) المائدة: ١١٤ .

(٣) الراغب الإصفهاني، المفردات: (مادة عود) .

الإسلامي فاتخذوه عيداً من الأعياد الإسلامية الكبرى، لأنه كان ولا يزال يوم بهجة وسرور بولاية علي عليه السلام، فأخذ يتكرر هذا اليوم في كل عام، وتتخذ له أشكال الزينة والاحتفال كما تتخذ في الأعياد الإسلامية الأُخرى، فأصبح هذا اليوم خالداً في ضمير الأُمة ووعيها وشعورها «وتقرؤنا كتب التاريخ دروساً من هذا العيد، وتسالم الأُمة الإسلامية، عليه في الشرق والغرب، واعتناء المصريين والمغاربة والعراقيين بشأنه في القرون المتقادمة، وكونه عندهم يوماً مشهوداً للصلاة والدعاء والخطبة وانشاد الشعر على ما فُصِّل في المعاجم»[١].

وكون يوم الغدير من الأعياد الخالدة أمر مسلم به عند المسلمين، حتى ان بعض المؤرخين يؤرخ به، ويوثق تاريخه بهذا اليوم، فنجد ابن خلكان في الوفيات يترجم للخليفة الفاطمي المستعلي بن المستنصر.. فيقول: «.. فبويع في يوم عيد غدير خم، وهو الثامن عشر من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة..».

ويقول في ترجمة المستنصر العبيدي: «.. وتوفي ليلة الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من ذي الحجة سنة سبع وثمانين وأربعمائة.. قلت: وهذه الليلة هي ليلة عيد الغدير، أعني ليلة الثامن عشر من ذي الحجة وهو غدير خم، ورأيتُ جماعة كثيرة يسألون عن هذه الليلة متى كانت من ذي الحجة؟ ثم أخذ بذكر مكان الواقعة وما قال رسول الله فيها»[٢].

كذلك نجد المسعودي في التنبيه والاشراف، والثعلبي في ثمار القلوب[٣]، وغيرهما ينوهان بهذا اليوم، وكونه من الأعياد الإسلامية الكبرى عند طائفة واسعة

---

(١) الأميني، الغدير: ١ / ٥٠٤ .

(٢) ابن خلكان، وفيات الأعيان: ١ / ١٨٠ و ٥ / ٢٣٠، تحقيق: الدكتور احسان عباس، طبعة دار الفكر - بيروت، أُفست، طبعة دار صادر (بلا - ت) .

(٣) الغدير: ١ / ٥٠٥ .

من أبناء الأُمة الإسلامية.

والاحتفال بعيد الغدير يفتح أمام الأجيال الجديدة من المسلمين التي لم تشهد ذلك اليوم عن السؤال عن سببه، وما جرى فيه، ورواته.. وهذا يعني تجدد البحث جيلا بعد جيل عن هذه الواقعة وما جرى فيها، وهذا بدوره يؤدي إلى خلود هذا اليوم الأغر.

يقول العلامة الأميني: «وممّا هيّأ من جهته لحديث الغدير الخلود والنشور، ولمفاده التحقّق والثبوت، اتخاذه عيداً يحتفل به وبليلته بالعبادة والخشوع.. فمتى كان للملأ الديني نزوع إلى تلكم الأحوال، فبطبع الحال يكون له اندفاع إلى تحرّي أسبابها، والتثبّت في شؤونها، فيفحص عن رواتها، وأنّ الاتفاق المقارن لهاتيك الصفات يوقفه على من ينشدها ويرويها، وتتجدّد له وللأجيال في كلّ دور لفتة إليها في كلِّ عام، فلا تزال الأسانيد متواصلة، والطرق محفوظة، والمتون مقروءة، والأنباء بها متكرّرة»[1].

يبقى أن نشير إلى أن اتخاذ يوم الغدير عيداً من أعياد المسلمين لا يختص بالشيعة فقط، وإن كانت لهم مزيد عناية به تباعاً للنصوص الواردة عن النبي وأهل البيت عليهم السلام باتخاذ هذا اليوم عيداً، وإنما يشاركهم في ذلك فرق من المسلمين من غير الشيعة، يقول محمد بن طلحة الشافعي: «.. يوم غدير خم، وقد ذكره علي عليه السلام في شعره.. وصار ذلك اليوم عيداً وموسماً لكونه كان وقتاً خصَّ رسول الله صلى الله عليه وآله علياً بهذه المنزلة العليّة وشرفه بها دون الناس كلّهم.. ثمّ يقول: وكلّ معنى أمكن اثباته ممّا دلّ عليه لفظ المولى لرسول الله صلى الله عليه وآله فقد جعله لعلي عليه السلام، وهي مرتبة سامية، ومنزلة سامقة ودرجة عليّة ومكانة رفيعة خصصّه صلى الله عليه وآله بها دون غيره، فلهذا صار ذلك اليوم يوم عيد وموسم سرور

(١) الأميني، الغدير: ١ / ٥٠٣.

لأوليائه»[١].

ومما يؤسف له أن يأتي بعض الكتاب ليعطي واقعة الغدير صبغة مذهبية، فيجعلها من مختصات الشيعة أو من بدعهم! ثمّ يجعلها سُبَّة عليهم! مع أن الشيعة كغيرهم من المسلمين يحتفلون بهذا اليوم، ويتخذونه عيداً اتباعاً لنبيهم الأكرم صلى الله عليه وآله «الذي أمر في ذلك اليوم من حضر المشهد من أُمّته، ومنهم الشيخان ومشيخة قريش ووجوه الأنصار، كما أمر أُمّهات المؤمنين بالدخول على أمير المؤمنين عليه السلام وتهنئته على تلك الحظوة الكبيرة باشغاله منصّة الولاية ومتربع الأمر والنهي في دين الله»[٢].

٤ - يوم الغدير، يوم الحق المغتصب:

فالغدير يوم أُعطي فيه الحق لصاحب الحق، فقال فيه من لا ينطق عن الهوى «اللهم أدر الحق معه حيث ما دار..» وقد قال فيه من قبلُ: «علي مع الحق والحق مع علي..» واستلمها ميزان الحق من رسول الله صلى الله عليه وآله ناصعة بيضاء ليحمل بها الناس على المحجة البيضاء، ولو فعلوا: ﴿لَأَكَلُوا مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾[٣].

إلاّ أنه الحق وثقله والاعراض عنه من قبل الكثير من الناس!! ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ﴾[٤].

وإنه الحق الذي في جانبه الباطل، والذي يحاول أن يُلبّس ويغم على الناس

---

(١) ابن طلحة - كمال الدين محمد الشافعي، مطالب السؤول في مناقب آل الرسول: ١ / ٨٠ - ٨٢، تحقيق: ماجد العطية، طبعة مؤسسة أُم القرى، الطبعة الأُولى - بيروت، (١٤٢٠ هـ).

(٢) الأميني، الغدير: ١ / ٥٠٧.

(٣) المائدة: ٦٦.

(٤) المؤمنون: ٧.

اشراقة الحق، ليكون هو الظاهر أمام أعين الناس ولو إلى حين: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ٧١﴾[١].

نعم إنه الحق الذي قال فيه رمز الحق وصاحبه الإمام علي عليه السلام: «ما ترك ليّ الحق صديقاً»[٢].

إلاّ إنه الحق الذي يقذف به الله سبحانه الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق! وإنه الحق الذي له سِمَة البقاء والدوام والمكوث والاستمرارية، كما يقول سبحانه وتعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ...﴾[٣].

فالحق خالد وباق، وواقعة الغدير وصاحبها يمثلان جانب الحقِّ، فلابدَّ أن يكتب لها الخلود بخلود الحق. فعليٌّ ذكره في الخالدين، ويوم غديره خالد خلود الإسلام.

---

(١) آل عمران: ٧١ .

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢ / ٥٨ .

(٣) الرعد: ١٧ .

الأسئلة:

١ - ما هي الأدلة التي تدل على أن خلافة النبيﷺ كانت مطروحة للبحث في حياته؟

٢ - ما هو السياق التاريخي لبيعة الغدير؟

٣ - كيف نستدل على تواتر حديث الغدير؟

٤ - كيف نصنف رواة حديث الغدير من حيث طبقات رواته؟

٥ - ما هي دلالات حديث الغدير؟ وما هي أقرب المعاني لكلمة «مولى»؟

٦ - ما هي أدلة المشككين في حديث الغدير؟ وكيف نناقشها؟

٧ - ما هي أهم معطيات حديث الغدير؟

٨ - ما هي الدروس والعبر التي نستفيدها من حديث الغدير؟

٩ - ما هي العوامل التي ساعدت على خلود واقعة الغدير عبر التاريخ؟

الدرس الرابع والثلاثون
أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

(الإعداد لجيش أُسامة)

محاور البحث:

١ - عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد حجة الوداع
٢ - أوضاع الجزيرة وأطرافها في أواخر حياة الرَّسول
٣ - الأوضاع السياسية لبلاد اليمن، وظهور حركة المتنبئين
أ - ظهور حركة الأسود العنسي
ب - ظهور حركة مسيلمة الكذاب
٤ - تهديد الروم للدولة الإسلامية من حدودها الشمالية
٥ - أسباب إعداد جيش أُسامة بن زيد
٦ - توجيهات واعتذارات واهية
٧ - الدروس والعبر
- الأسئلة

الإعداد لجيش أُسامة

١ – عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة

عاد رسول الله ﷺ إلى المدينة بعد إتمام حجة الوداع وبيعة الغدير، وذلك في أواخر ذي الحجة من السنة العاشرة للهجرة، ليستقبل بذلك السنة الحادية عشرة التي اشتهرت عند المؤرخين بعام الوفاة[١].

وببيعة الغدير المباركة – والتي بها كَمُل الدين وتمّت النعمة – أُزيح عن كاهل رسول الله ﷺ الحمل الثقيل الذي حمله طيلة ثلاث وعشرين سنة وبذل من أجله كل جهده وطاقته، فبّلغ رسالة ربّه إلى الناس، ودعاهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وها هو ﷺ يؤمّن لهم مستقبلهم السياسي من خلال القيادة الربانية الحكيمة التي سوف تحملهم على المحجة البيضاء، ويقود دفّة سفينتهم إلى شاطي الأمان، إن تمسكوا بتلك القيادة، وركبوا تلك السفينة.

إلاّ أنّ هذا كلّه لا يعني أن رسول الله ﷺ كان مطمئناً من أن أُمور الدولة الإسلامية السياسية سوف تسير وفق ما خططت له السماء وبلّغه رسول الله لأُمته! فكلمات رسول الله وأفعاله كانت تدل بشكل واضح على قلقه وخوفه الشديد من الأيام المقبلة وما سوف تكتنفها من أحداث ووقائع وقد تغير اتجاه المسيرة التي وضعت لها السماء خارطتها المشخصة الواضحة.

وعندما نعود إلى بعض ما قاله ﷺ خلال هذه الفترة الأخيرة من عمره

---

(١) المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢٤٠ .

الشريف نجده ﷺ يستشرف المستقبل فيخبر بما يرى بعين الغيب من مخاطر تحيط بأُمته ودولته التي لم يشتد عُودها بعد!

فيذكر المحدثون والمؤرخون أنّ رسول الله ﷺ وفي هذه الأيام الأخيرة من حياته كان يكثر من الخروج إلى بقيع الغرقد، حيث يرقد بسلام فيها بعض أصحابه وأهل بيته فيستغفر الله لهم، ويدعو لهم.. ويضمن كلامه ببعض الكلمات المعبرة عن عمق ما يشعر به من حزن وأسى على ما سوف تؤول إليه الأُمور من بعده.

يروي ابن سعد عن أبي مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ، من جوف الليل: «يا أبا مويهبة إني قد أُمرتُ أن استغفر لأهل البقيع فانطلق معي! فخرج وخرجتُ معه حتى جاء البقيع فاستغفر لأهله طويلا ثمّ قال: «ليَهنئكم ما أصبحتم فيه ممّا أصبح الناس فيه! أقبلت الفتنُ كقطع الليل المظلم يتبع بعضها بعضاً يتبع آخرها أوّلها، الآخرة شرّ من الأُولى»! ثمّ قال: يا أبا مويهبة إنّي قد أعطيت خزائن الدنيا والخلد ثمّ الجنّة فخيرتُ بين ذلك ولقاء ربي والجنة.. وقد اخترت لقاء ربّي والجنة»[١].

وفي رواية ثانية عن عقبة بن عامر حدّثهم: أنّ رسول الله ﷺ صلّى على قَتلى أُحد بعد ثماني سنين كالمودّع للأحياء والأموات ثمّ اطّلع المنبر فقال: «إني بين أيديكم فرط، وأنا عليكم شهيد! وإن موعدكم الحوض، وإني لأنظر إليه وأنا في مقامي هذا وإني لست أخشى عليكم أن تشركوا، ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تنافسوا فيها»[٢].

وفي حديث ثالث يردّ فيه رسول الله ﷺ على ما كان يروجه بعضهم من أن

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٥٢.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٥٢.

رسول الله ﷺ لا يتوفى إلاّ بعد أن يتوفى جميع أصحابه! وهو زعم تبناه عمر بن الخطاب ونادى به بأعلى صوته كما سوف يأتينا. فيقول الراوي: خرج علينا رسول الله ﷺ فقال: «أتزعمون أنّي من آخركم وفاةً؟ ألا وإنّي من أولكم وفاة وتتبعوني اقتاداً - أو أقفاداً - يهلك بعضكم بعضاً»(١).

والذي نستفيده من هذه الأحاديث وأحاديث أُخرى كثيرة على غرارها:

أولا: إنّ رسول الله ﷺ كان مطمئناً أن الشرك والوثنية وعبادة الأصنام لا عودة لها إلى الجزيرة العربية بعد أن حاربها الإسلام وقضى عليها، فانطوت بذلك صفحة الصراع الإسلامي والوثني إلى ما لا عودة فيه.

ثانياً: إنّ هنالك لوناً آخر من الصراع ينتظر المسلمين بعد وفاة نبيهم، وهو الصراع الدنيوي بين المسلمين أنفسهم.

ثالثاً: إنّ هذا الصراع الثاني سوف يقبل عليهم كقطع سواد الليل المظلم، فتنعدم فيها الرؤيا، وتدلهم فيها الأُمور، ويلبس الباطل فيه لبوس الحق، فيلبّس على الناس دينهم...

رابعاً: ان هذه الفتن والصراعات لا تنتهي عن واقعة أو اثنتين أو ثلاثة، وإنما سوف تتابع الواحدة تلو الأُخرى «يتبع آخرها أولها، والآخرة شرٌّ من الأُولى».

والضمانة الوحيدة التي تنجي من هذه الفتن والصراعات هو أمر أخبر به رسول الله في أكثر من مكان ومقولة، ورواه أكثر من محدث ومؤرخ ألا وهو التمسك بالثقلين، كتاب الله وعترته ﷺ.

روي ابن سعد في الطبقات عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إنّي

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٣٤٧.

أوشك أن أُدعى فأُجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي أهل بيتي، وإنّ اللطيف الخبير أخبرني أنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[١].

وفي رواية أُخرى له جاء فيها عن النبيعليه السلام : «في كل خلف من أُمتي عدول من أهل بيتي ينفون عن هذا الدين تحريف الضالين وانتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، ألا وإنّ أئمتكم وفدكم إلى الله عزّ وجل فانظروا من توفدون»[٢].

وقد استفاد ابن حجر من هذا الحديث بعض الفوائد فقال: . . . ثمّ الذين وقع الحث عليهم منهم إنما هم العارفون بكتاب الله وسنة رسوله، إذ هم الذين لا يفارقون الكتاب إلى الحوض، ويؤيده الخبر السابق «ولا تعلموهم فإنهم أعلم منكم» وتميزوا بذلك عن بقية العلماء لأنّ الله أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا، وشرفهم بالكرامات الباهرة والمزايا المتكاثرة. . ثمّ يقول: «فإذا ثبت هذا العموم في قريش فأهل البيت أولى منهم بذلك لأنهم امتازوا عنهم بخصوصيات لا يشاركهم فيها بقية قريش. . . ثمّ يقول: ثمّ أحق من يتمسك به منهم إمامهم وعالمهم علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، لما قدمناه من مزيد علمه ودقائق مستنبطاته. . . »[٣].

ومهما يكن من أمر فإن ما استشرفه رسول اللهصلى الله عليه وآله من أحوال أُمته من بعده من اختلاف سياسي حول محور الإمامة وخلافة رسول اللهصلى الله عليه وآله قد وقع وللأسف، وهذا ما سوف نتحدث عنه لاحقاً.

---

(١) ابن حجر، الصواعق المحرقة: ١٥٠ .

(٢) المصدر نفسه: ١٥٠ .

(٣) المصدر نفسه: ١٥١ .

٢ - أوضاع الجزيرة العربية وأطرافها في أواخر حياة الرَّسول

اتسمت الأشهر الأُولى من السنة الحادية عشرة - وهي الفترة التي عاشها رسول الله ﷺ بين أُمته - بالهدوء النسبي، إذ مرت هذه الفترة هادئة، لم ينشغل فيها المسلمون بحوادث وأُمور مهمة، فلم تشهد المدينة أي تحرك عسكري سوى ما كان من أمر الاعداد لجيش أُسامة إلى تخوم الشام، والذي لم يُقدّر له الخروج في حياة النبي ﷺ إلى مقصده، ولم يتعدَّ خروج هذا الجيش حدود المدينة وعلى بعد فرسخ منها فقط، حيث عاد هذا الجيش ادراجه إلى المدينة بعد أن عاد قائده - أُسامة بن زيد - ومن معه من الوجوه المعروفة. وسوف يأتينا تحليل ملابسات اعداد هذا الجيش وعودته من وجهته لاحقاً.

كذلك لم تشهد المدينة توافد الوفود بكثافة كما شهدتها في السنة التاسعة والعاشرة إلاّ وفد قبيلة «النخع» اليمنية، التي يقول عنها ابن سعد: «كان آخر من قدم من الوفود على رسول الله ﷺ وفد النَّخع، وقدموا من اليمن للنصف من المحرم سنة إحدى عشرة، وهم مائتا رجل، فنزلوا دار رملة بنت الحارث، ثمّ جاؤوا رسول الله ﷺ مقرّين بالإسلام...»[١].

ويروي المسعودي في أحداث السنة الحادية عشرة فيقول: «فيها كان توجيه رسول الله ﷺ عمرو بن العاص إلى جيفر وعباد ابني الجُلندي بن مسعود الأزديين صاحبي عُمان يدعوهما إلى الإسلام فأسلما»[٢].

هكذا كانت أوضاع المدينة والجزيرة العربية السياسية والعسكرية أمام بدايات السنة الحادية عشرة.

أما أطراف الجزيرة وحدودها الجنوبية والشمالية، والتي كانت خاضعة

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٦٧ والطبري: ٣ / ٢٤٠ .

(٢) المسعودي، التنبيه والإشراف: ٢٤٠ .

للفرس والروم ونفوذهما في هاتين المنطقتين، فإنها كانت في بدايات هذه السنة في وضع مستقر نسبياً ولم تسجل أحداث ذات بال خلال هذه الفترة سوى ما تحدث عنه المؤرخون من ظهور حركة المتنبئين في الجنوب، وفي بلاد اليمن تحديداً، واعداد رسول الله لجيش أُسامة لغزو بلاد الروم في الشمال.

ولابد لنا من التوقف عند هذين الحدثين.

٣ - الأوضاع السياسية في اليمن وظهور حركة المتنبئين

ظهرت في أواخر حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته بفترة وجيزة مجموعة من الحركات المناؤة للإسلام وتعاليمه وأحكامه، اصطلح عليها المؤرخون بحركات المتنبّئين أو المتمردين، أو المعارضين للسلطة المركزية.

ولم تكن هنالك قواسم مشتركة بين هذه الحركات ; إذ كانت متفرقة في مواضعها الجغرافية، إلاّ أنّ موطنها كان الجزيرة وجنوبها (اليمن).

ولكل حركة من هذه الحركات المناوئة للإسلام قصة متباينة في زمن ظهورها وامتدادها وانتهائها، وكيفية القضاء عليها.

إلاّ أنّها بشكل عام تمثل حركات تمرّد قبلية قام بها أفراد يختلفون في ارتباطاتهم القبلية وأساليب حياتهم ودوافعهم ومواقفهم. . مما يعني عدم وجود روابط معينة تجمعهم وتدفعهم إلى التعاون والتآزر لتحقيق أهدافهم التي يسعون للتوصل إليها، والتي بدورها لم تكن واضحة المعالم.

ومن الممكن تصنيف هذه الحركات إلى ثلاثة أصناف أساسية:

الصنف الأول: يشمل حركة المتنبّئين الذين بدأت حركاتهم في زمن الرسول ﷺ وهم: الأسود العنسي، ومسيلمة، وسجاح، وطليحة بن خويلد.

والصنف الثاني: حركات تمرد على السلطة المركزية - والامتناع عن -

دفع الزكاة، وهي تتجلى في حركات بني تميم وبعض قبائل الجزيرة.

والصنف الثالث: حركات معارضة للدخول في الإسلام ودولته في البحرين وعُمان وحضرموت[١].

وهذه الأصناف الثلاثة تتطلب من الباحث دراسة منفردة مفصلة لكل واحدة منها، لتنوع أُسسها واختلاف مظاهرها.

إلاّ أن الصنف الثاني والثالث منها خارج عن موضوع بحثنا لوقوعها بعد وفاة رسول الله ﷺ كما أنها تحتاج إلى مزيد تدقيق وتعمق في بيان ما ذكره المؤرخون حولها من تفاصيل وجزئيات كثيرة، والتي هي محل أخذ وردٍّ بين المؤرخين أنفسهم.

ولهذا سوف يقتصر حديثنا - وباختصار - على الصنف الأول وهي حركة المتنبّئين في اليمن، مستعرضين واقع اليمن السياسي والقبلي قبل الإسلام وبعده، والذي كان له الدور الأساسي في تشكيل وظهور هذه الحركة إلى الوجود.

لقد حظيت بلاد اليمن وقبائلها والأحداث التي جرت فيها باهتمام كتّاب السير والتاريخ من المؤرخين والجغرافيين والنسابة وعلماء الآثار. ولم يأتِ هذا الاهتمام من فراغ، وإنما كان ينطلق من تشابك الأحداث وارتباطها بهذا البلد. فنجد النسابة يتحدث عن هذا البلد عند استعراضه لأنساب القبائل العربية القاطنة فيه، ونجد المفسر يتحدث عنها عند مروره بالقصص القرآني التي تتحدث عن سبأ وملكتها، وقصة أصحاب الفيل وما جرى فيها، ونجد هذا الاهتمام عند علماء الآثار والجغرافية لما لهذا البلد من عمق حضاري وجغرافية معقدة في تضاريسها. وهكذا نجد هذا الاهتمام عند علماء الاجتماع حيث يدرسون بشغف الطبقات الاجتماعية والتركيبة القبلية لهذا البلد.

---

(١) العلي - صالح أحمد، دولة الرسول في المدينة: ٤٧٠ - ٤٧١ .

ولم يقتصر هذا الاهتمام على حقبة زمنية طواها التاريخ، وإنما لا زال هذا الاهتمام قائماً إلى الآن حيث نجد البعثات المتتالية تفد إلى هذا البلد وخاصة من المهتمين بالآثار وعلم الاجتماع البشري.

وعندما نعود إلى التاريخ السياسي لليمن قبل الإسلام وبعده، نجد أن هذا البلد قد تعرض لغزو سياسي من قبل دولة الأحباش أولا، ثمّ نفوذ الدولة الفارسية وسيطرتها على أجزاء واسعة منها.

ولا نريد أن نتوغل في تاريخ هذه الحقبة من الزمن الطويل الذي تشابكت أحداثه وتوسع المؤرخون في بيان جزئياته باسهاب وتطويل[1] وإنما نمرّ سريعاً على بعض الأحداث التي لها صلة بحركة المتنبّئين في اليمن.

فيحدثنا التاريخ أن بعض أهل اليمن قد أُتى قيصر الروم فاستنصره على ذي نواس وجنوده، فكتب قيصر الروم إلى ملك الحبشة يأمره بنصره، فقدم على النجاشي ملك الحبشة فأمده بسبعين ألفاً من الحبشة معهم إبرهة الأشرم صاحب قصة الفيل. فكانت هذه بدايات سيطرة الحبشة على أرض اليمن والتي تولاها بعد ذلك أبرهة الأشرم.

واعتبرت الحقبة الزمنية التي حكم فيها أبرهة والأحباش اليمن من أحلك الحقب الزمنية التي مرّت على هذا البلد، فقد استذل أهل اليمن تسخيراً وقتلا وتشريداً، حتى أهلكه الله ومن معه في وجهته إلى مكة لهدم الكعبة في قصة أصحاب الفيل المعروفة عند المؤرخين والمفسرين، إلاّ أن محنة أهل اليمن لم تنتهِ بهلاك أبرهة، فقد حكم اليمن من بعده أولاده.. فساموا أهلها الذل والهوان، «فلما طال البلاءُ على أهل اليمن خرج سيف بن ذي يزن الحميري،

(١) انظر: ابن هشام: ١ / ٣٨ وما بعدها، والسهيلي، الروض الأنف: ١ / ١٩ وما بعدها، والطبري: ١ / ٥٦٦ وما بعدها.

حتى قدم على قيصر ملك الروم فشكا إليه ما هم فيه، وسأله أن يخرجهم عنه ويليهم هو. . فيكون له ملك اليمن، فلم يجد عنده شيئاً مما يريد»[١].

ولما يئس سيف من نصرة الروم يمَّم وجهه اتجاه كسرى ملك فارس، فاستعان بوالي كسرى على الحيرة النعمان بن المنذر الذي سهل له الدخول على كسرى. . فاستجاب كسرى لطلب سيف إلاّ أنها كانت استجابة محدودة، ينقل كل من ابن إسحاق والطبري: «إن كسرى جمع مزاربته[٢]، فقال لهم: ماذا ترون في أمر هذا الرجل، وما جاء به؟ فقال قائل: أيها الملك، إن في سجونك رجالا قد حبستهم للقتل، فلو أنك بعثتهم معه، فإن يهلكوا كان ذلك الذي أردت بهم، وإن ظفروا كان ملكاً ازددته. فبعث معه كسرى مَن كان في سجونه، وكانوا ثمانمائة رجل، واستعمل عليهم رجلا منهم يقال له «وهرز» وكان ذا سنّ فيهم، وأفضلهم حسباً وبيتاً. . .»[٣].

وهكذا تحولت اليمن من النفوذ الحبشي إلى النفوذ الفارسي، فدخل «وهرز» صنعاء فاتحاً ناصباً رايته على بابها!

قال ابن إسحاق: «فأقام وهرز والفرس باليمن، فمن بقية ذلك الجيش من الفرس الأبناء الذين باليمن اليوم[٤]، وكان ملك الحبشة باليمن. . اثنين وسبعين سنة، توارث ذلك منهم أربعة: أرياط، ثمّ أبرهة، ثمّ يكسوم بن أبرهة، ثمّ مسروق بن أبرهة.

---

(١) ابن هشام: ١ / ٦٤، والطبري: ٢ / ١٣٩ .

(٢) المزاربة: وزراء الفرس، وأحدهم مرزبان .

(٣) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٦٥، والطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ١٤٠ - ١٤١ .

(٤) من العوائل المعروفة في اليمن، عائلة الزنداني، ومنهم السياسي وعالم الدين المعروف «عبد المجيد الزنداني» وهو ينتمي إلى قبيلة أرحب، والزندان كلمة فارسية تعني (السجن)، فيحتمل أن تكون هذه العائلة من سلالة أُولئك الذين فتحوا اليمن!!

قال ابن هشام: ثمّ مات وهرز فأمّر كسرى ابنه المرزبان بن وهرز على اليمن، ثمّ مات المرزبان فأمر كسرى ابنه التينجان على اليمن، ثمّ مات التينجان، فأمر كسرى ابن التينجان على اليمن، ثمّ عزله وأمّر باذان، فلم يزل باذان عليها حتى بعث الله محمداً النبي ﷺ »[١].

كانت هذه هي الحالة السياسية لليمن في الفترة الزمنية المتصلة بظهور الإسلام في الجزيرة، حيث توالت دولة الروم بواسطة الأحباش، ودولة كسرى بمرازبتها على السيطرة على هذا الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية.

إلاّ أن كلا الدولتين لم يتمكنا من توحيد بلاد اليمن ضمن حكومة مركزية قوية قادرة على بسط نفوذهما، وقد يكون السبب في ذلك يعود إلى الطبيعة الجغرافية المعقدة لهذا البلد، وكثرة الأُمراء والعشائر التي تهيمن بدورها على مناطق واسعة من تلك الجبال الشاهقة والوديان العميقة، والتي كانت تتقاسم السلطة بينها وفق نظامها العشائري والقبلي ضمن منظومة من الأعراف التي توارثتها.

ولهذا واجهت كلا الدولتين الثورات متصلة أدت بالنتيجة إلى تفكك النظام السياسي والإداري الضعيف فيها، فأضحى تاريخ اليمن قبل الإسلام عبارة عن سلسلة متصلة من الثوارت والغزوات والغارات، والتي سجل حوادثها مؤرخو هذا البلد باسهاب[٢].

علاقة اليمن بالحجاز:

رغم التفكك السياسي والإداري الذي كانت تشهده اليمن في تلك الحقبة الزمنية، إلاّ أنها كانت تتمتع بمركز تجاري وازدهار صناعي مرموق، فكانت

---

(١) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٦٦ - ٧١، والطبري: ١ / ١٤١ .

(٢) للتوسع انظر: الهمداني في كتابيه: الاكليل، وصفة جزيرة العرب .

مصدراً للكثير من المنتوجات التجارية التي ترد إلى أسواق الحجاز والعراق وبلاد الشام.

وقد بوّأها هذا المركز التجاري مكانة عالية في المناطق التي كانت تفد إليها بضاعتها وخاصة الجزيرة العربية وأهل الحجاز ومكة خاصة. حيث «احتفظ أهل اليمن بعلاقات وثيقة مع أهل مكة الذين أمّنوا بالإيلاف سَير القوافل من اليمن إلى بلاد الشام. وقد أسهم كثير من رجال مكة البارزين في تنظيم التجارة وتنميتها مع اليمن، وكوّنوا علاقات طيبة مع أهل اليمن، فتزوج عدد من المكّيين بنساء من أهل اليمن، ولم تؤثر حملة أبرهة في عرقلة ما بين اليمن ومكة من علاقات طيبة استمرت بعد الحملة»[1].

اتصال أهل اليمن بالإسلام:

بقيت اليمن وأهلها في حالة تحفّظ من ظهور الإسلام في مكة إلاّ أن تحفّظها لم يولّد أي احتكاك عسكري أو مخاصمة مع الدعوة الإسلامية، لكن علاقة المخاصمة بين المسلمين وأهل مكة كان له أثره في تأخر اتصال أهل اليمن بالإسلام، لأنّ القبائل العربية عامة ومنها قبائل اليمن كانت تنظر إلى قريش على أن لها السيادة على الحرم وأهله وهي في صراع مستمر مع النبيﷺ والمسلمين، إلاّ أنّ هذا الموقف قد تغير بعد صلح الحديبية وفتح خيبر ومكة «فبعد عقد صلح الحديبية، توقّف القتال بين رسول اللهﷺ وأهل مكة، وحلّت علاقات سلمية أمّنت سير القوافل التجارية في الطريق السالكة إلى الشمال والتي أصبح رسول اللهﷺ يهيمن عليها بعد أن أتمّ فتح خيبر ووسع الدولة الإسلامية في الشمال. وبعد أن أتمّ الرسول فتح مكة مدّ سلطان الدولة الإسلامية إلى الطائف ومخاليفها والقبائل التي تقيم فيها. وبذلك شملت البلاد التي تمرّ بها قوافل اليمن.. وبذلك

(١) العلي - صالح أحمد: دولة الرسول في المدينة: ٤٧٤ - ٤٧٥ .

صار لدولة الإسلام اتصال مباشر باليمن ومصالحها التجارية»[١].

وينبغي أن نذكِّر بما تحدثنا عنه في بعض الدروس السابقة عند الحديث عن كتب رسول الله ﷺ إلى الملوك والأُمراء، والموقف المتعجرف الذي وقفه كسرى ملك فارس من كتاب رسول الله ﷺ إليه، حيث مزّق كتاب رسول الله ﷺ وطرد حامل الكتاب ثمّ: «كتب كسرى إلى باذان - واليه على اليمن -: أنّه قد بلغني أن رجلا من قريش خرج بمكة يزعم أنّه نبي، فَسِر إليه فاستتبه، فإن تاب وإلاّ فابعث إليّ برأسه! فبعث باذان بكتاب كسرى إلى رسول الله ﷺ، فكتب إليه رسول الله ﷺ: إنّ الله قد وعدني أن يُقتل كسرى في يوم كذا من شهر كذا، فلما أتى باذان الكتاب توقّف لينظر وقال: إن كان نبيّاً فسيكون ما قال. فقتل الله كسرى في اليوم الذي قال رسول الله ﷺ، قُتل على يدي ابنه شيرويه.. فلمّا بلغ ذلك باذان بعث بإسلامه وإسلام من معه من الفرس إلى رسول الله ﷺ»[٢].

بعد هذه الأحداث المتلاحقة لم يبق أمام أهل اليمن أي عائق يحول دون اتصالهم بدولة الإسلام وتوثيق صلتهم بالمسلمين، فأخذت وفود القبائل اليمانية تقدم على رسول الله ﷺ وكان آخرها في السنة الحادية عشرة. وقد بيّنا سابقاً عدد هذه الوفود وسنة وفادتها بالتفصيل الذي ذكره ابن سعد وغيره من المؤرخين، يقول البلاذري: «لما بلغ أهل اليمن ظهور رسول الله ﷺ وعلو حقّه اتته وفودهم، فكتب لهم كتاباً بإقرارهم على ما أسلموا من أموالهم»[٣].

التقسيم الإداري لبلاد اليمن في عهد رسول الله ﷺ:

أصبحت اليمن بعد دخول أهلها في الإسلام ضمن الولايات التابعة لدولة الإسلام، فكانت بحاجة إلى نظام إداري ينظم شؤون أهلها يتناسب مع طبيعة

---

(١) المصدر نفسه: ٤٧٥.

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ١ / ٧١ - ٧٢.

(٣) البلاذري، فتوح البلدان: ٧٩.

البلد وتركيبة أهلها وخلفياتهم القبلية والاجتماعية.

ولهذا وضع رسول الله ﷺ لأهل اليمن تقسيمات إدارية محددة، ووزع عماله على مناطقها المختلفة، وأصبح لكل منطقة والي يحكمها، ضمن نظام أشبه بنظام الولايات التي ترتبط بالحكومة المركزية في المدينة.

واختلفت روايات المؤرخين في عدد أُولئك الولاة ومناطق ولايتهم إلاّ أن الروايات التاريخية تنص على أنّ رسول الله ﷺ قد أقرّ باذان على اليمن كلّها بعد أن أعلن إسلامه وانضمامه إلى دولة الإسلام.

يروي الطبري: «كان رسول الله ﷺ جمع «لباذام»[1] حين أسلم وأسلمت اليمن عمل اليمن كلّها، وأمّره على جميع مخالفيها، فلم يزل عامل رسول الله ﷺ أيام حياته، فلم يعزله عنها ولا عن شيء منها، ولا أشرك معه فيها شريكاً حتى مات باذام، فلمّا مات فرّق عملها بين جماعة من أصحابه».

ثمّ يذكر الطبري روايات في أسماء ولاة رسول الله ﷺ على بلاد اليمن.

ففي رواية منها عن الليثي: أنّ النبي ﷺ رجع إلى المدينة بعد ما قضى حجّة الإسلام، وقد وجّه إمارة اليمن وفرّقها بين رجال، وأفرد كلّ رجل بحيّزة، ووجّه إمارة حضرموت وفرّقها بين ثلاثة، وأفرد كلّ واحد منهم بحيّزة، واستعمل عمرو ابن حزم على نجران، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد، وعامر بن شهر على همدان، وعلى صنعاء ابن باذام، وعلى عكّ والأشعريين الطاهر بن أبي هالة، وعلى مأرب أبا موسى الأشعري، وعلى الجند يَعلى بن أُميّة، وكان معاذ معلّماً يتنقّل في عمالة كلّ عامل باليمن وحضرموت، واستعمل على أعمال حضرموت، على السّكاسك والسكون عُكاشة بن ثور، وعلى بني معاوية بن كندة عبد الله أو المهاجر... وعلى حضرموت زياد بن لبيد

(١) هكذا ورد اسمه في رواية الطبري، وعند غيره اسمه «باذان».

البياضيّ. . فمات رسول الله ﷺ وهؤلاء عمّاله على اليمن وحضرموت، إلاّ مَن قُتل في قتال الأسود أو مات، وهو باذام مات ففرّق النبي ﷺ العمل من أجله، وشهر ابنه - يعني ابن باذام - فسار إليه الأسود فقاتله فقتله[١].

وهذا النص التاريخي وغيرها من النصوص المقاربة لها تعطينا فكرة واضحة عن الأُسس التي اعتمدها النبي ﷺ في تقسيمه لولايات بلاد اليمن، فهو يعتمد على أساس التوزيع المناطقي فكل عامل على منطقة، ثمّ الولاة على القبائل، همدان والأشعريين. وهنالك ولاة على بعض المناطق الجغرافية بصرف النظر عن القبائل التي تقيم فيها. بالاضافة إلى جعل معاذ بن جبل معلماً أو مشرفاً على هؤلاء، من دون أن تكون له منطقة معينة يحكمها مباشرة.

وبهذا التقسيم الإداري المتقن بسطت دولة الإسلام المركزية نفوذها على رقعة واسعة من بلاد اليمن «إذ كان هؤلاء العمال ممثّلين للرسول ﷺ ، فكانت لهم مكانة مميّزة، غير أن سلطاتهم كانت محدودة أمام الأُمراء ورؤساء القبائل المحليين الذين لم يعزلوا عن سلطانهم»[٢].

ظهور حركة الأسود العنسي:

اختلطت كلمات المؤرخين في بيان قصة ظهور الأسود العنسي في اليمن، فاطنب بعضهم في بيان جزئيات هذه القصة، وأجمل بعضهم ذلك!

فلابد لنا من استخلاص موجز لهذه الحركة، والأهداف التي دعت إليها، والنتائج التي انتهت إليها.

ففي أثناء الترتيبات الإدارية التي كان يقوم بها ولاة رسول الله ﷺ في

---

(١) الطبري: ٣ / ٢٢٧ - ٢٢٩ . وقارن بين روايات الطبري وروايات ابن سعد في الطبقات، وما ذكره البلاذري في فتوح البلدان، واليعقوبي في تاريخه .

(٢) العلي - صالح أحمد، دولة الرسول في المدينة: ٤٨٣ .

ولاياتهم التي عينهم فيها رسول الله ظهرت حركة الأسود العنسي إلى الوجود، يروي الطبري عن عبيد بن صخر الأنصاري السُّلمي - وكان فيمن بعث النبيﷺ مع عمّال اليمن - قال: «فبينا نحن بالجَنَد قد أقمناهم على ما ينبغي، وكتبت بيننا وبينهم الكتب، إذ جاءنا كتاب من الأسود: أيها المتوّردون علينا، أمسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا، ودفِّروا ما جمعتم، فنحن أولى به وأنتم على ما أنتم عليه، فقلنا للرسول: مِن أين جئت؟ قال: من كهف خُبّان»[1].

ولهذا يمكن أن نصف حركة الأسود العنسي بأنها حركة سريعة ومباغتة، فاجأت ولاة رسول اللهﷺ وعماله وهم يرتِّبون أمر ولاياتهم في بلاد اليمن.

فمن هو الأسود العنسي؟ وما هي منطلقاته الدينية والفكرية التي انطلق منها؟ وكيف كانت استجابة قبائل اليمن لحركته؟ وما هو المصير الذي انتهت إليه هذه الحركة؟ وكيف واجه النبيﷺ هذه الحركة؟

يذكر البلاذري قصة الأسود العنسي باجمال فيقول: «كان الأسود بن كعب بن عوف العنسي قد تكهّن وادعى النبوة فاتّبعه عنس... واتّبعه أيضاً قوم من غير عنس، وسمى نفسه رحمن اليمن، كما تسمّى مسيلمة رحمان اليمامة، وكان له حمار مقلّم يقول له: اسجد لربك فيسجد، ويقول له أبرك فيبرك، فسُمّي ذا الحمار، وقال بعضهم هو ذو الخِمار لأنه كان متخمراً مُعتمّاً أبداً وأخبرني بعض أهل اليمن أنه كان أسود الوجه فسمّي الأسود للونه، وإن اسمه «عبهلة»»[2].

وفي نص الطبري: «إنّ أوّل ردّة كانت في الإسلام باليمن كانت على عهد رسول اللهﷺ على يدي ذي الخمار عَبهلة بن كعب - وهو الأسود - في عامّة مذحج.. كان الأسود كاهناً شعباذاً، وكان يريهم الأعاجيب، ويسبي قلوب من

---

(١) الطبري: ٣ / ٢٢٩ .

(٢) البلاذري، فتوح البلدان: ١١٣ .

سمع منطقه، وكان أول ما خرج أن خرج من كهف خُبّان، وهي كانت داره، وبها ولد ونشأ، فكاتبته مذحج، وواعدته نجران فوثبوا بها وأُخرجوا عمرو بن حزم، وخالد بن سعيد بن العاص وانزلوه منزلهما، ووثب قيس بن عبد يغوث على فروة بن مسيك وهو على مراد فأحلاه. . . فلم ينشب عَبهلة بنجران إن سار إلى صنعاء فأخذها. . . »[١].

وفي أنساب السمعاني: «حُكي أن الأسود كان معه شيطانان يقال لأحدهما إسحاق، وللآخر شقيق، وكانا يخبرانه بكل شيء يحدث من أمر الناس، فساد الأسود حتى أخذ ذمار، فلما مات باذان، أخبره شيطانه بموته فعجّل بالتقدم إلى صنعاء فدخلها»[٢].

تعطينا هذه النصوص التاريخية صورة عن شخصية الأسود العنسي، والخطوط العامة لحركته.

فهو رجل يماني أصيل في انتمائه القومي والقبلي، وليس من الدخلاء عليها، إلاّ أن النصوص التاريخية لا تشير إلى مكانته الاجتماعية أو القبلية، ومن المستبعد أن يكون من الملوك والأُمراء أو ذوي المكانة الاجتماعية المرموقة ولا تذكر المصادر شيئاً من ذلك في حقه.

إلاّ أن حركته السريعة للاستيلاء على أكبر مساحة يمكنه الاستيلاء عليها، ومن ثمّ وصوله إلى صنعاء واستيلاؤه عليها تدل على طموحه للسلطة ومثابرته من أجل ذلك.

أما الأُسس التي قامت عليها دعوته فهي الشعوذة والسحر والكهانة والتي كانت معروفة في اليمن وفي جزيرة العرب «ومن المعلوم أن الكهانة كانت معروفة

---

(١) الطبري: ٣ / ١٨٥ .

(٢) السمعاني، الأنساب: ٦ / ١٠ طبعة حيدر آباد .

في شبه جزيرة العرب ومقدّرة عند أهلها الذين كثيراً ما كانوا يلجأون إلى الكهّان، ولعلّ مما يتصل بهذا لبسه الخمار وهو ما كان معروفاً عند الكهان العرب»[١].

إلاّ أنّه في نفس الوقت أعطى لحركته مسحة دينية فادعى النبوة، وسمّى نفسه رحمان اليمن، إلاّ أن المصادر لا تشير إلى أنّه كان يدعي نزول الوحي عليه، وإنما كان يقول: «إن شيطانه الذي معه يقول كذا»[٢]. كذلك لا تشير المصادر التاريخية إلى أي تفاصيل تذكر عن الأفكار الدينية التي دعا إليها، أو أن هنالك طقوساً دينية أو فرائض معينة فرضها على اتباعه.

والملاحظ في نص الطبري أنه يصف حركة الأسود العنسي بأنها: «أوّل ردّة كانت في الإسلام» مع أن النصوص التاريخية لا تشير إلى اعتناق الأسود العنسي للإسلام! ولعل وصف الردّة تنطبق على قبيلة «عبس» التي كانت من القبائل التي وفدت على رسول اللهﷺ عام الوفود[٣]، أو على قبيلة مذحج التي تابعته في حركته، وهي أيضاً من القبائل التي وفدت على النبيﷺ. أو قبيلة كندة، أو غيرها من القبائل.

ولا نستغرب كثيراً من استجابة هذه القبائل لدعوة الأسود العنسي، إذ إن إسلامها لم يكن إسلاماً راسخاً وعقائدياً، وإنما كانوا جديدي عهد بالإسلام، ولا زالت البدوية والهمجية القبلية هي الحاكمة على سلوكهم وتصرفاتهم، وبتعبير آخر كانوا من الهمج الرعاع الذين ينعقون مع كلِّ ناعق.

«إن استجابة عنس ومذحج لدعوة الأسود قد يرجع بعضها إلى ما كان يريهم من الأعاجيب، أو منطقه الذي يسلب قلوب من سمعه... ولابد أنه كان

---

(١) العلي، دولة الرسول في المدينة: ٤٨٥.

(٢) الطبري: ٣ / ٢٣٧.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤٣.

للروابط القبلية أثر في التأييد الذي لقيه من عنس ومذحج»[١].

والذي نلاحظه من خلال النصوص التاريخية أيضاً، أن حركة الأسود العنسي كانت حركة عسكرية سريعة ومباغتة، فقد بدأ حركته من ديار قبيلته «عنس» التي هي في الأطراف الشرقية من اليمن، وتمتد إلى مأرب[٢]، ثمّ توغل سريعاً نحو الشمال حتى دخل صنعاء بعد خمسة وعشرين يوماً[٣].

والذي ساعد إلى سرعة امتداد حركة الأسود العنسي، عوامل كثيرة يمكن اجمالها في التفكك السياسي الذي كان عميق الغور في اليمن، وكانت محاولات توحيد البلد سياسياً وعقائداً على أيدي ولاة وعمال النبيﷺ في بداياتها ولم تكن قد أخذت وقتها الكافي من الزمن. بالاضافة إلى الطموحات والمطامع التي كان يحلم بها الأسود العنسي نفسه ومن تابعه في حركته من رؤساء القبائل ورعاع الناس.

ولا يعود سر نجاح حركة العنسي إلى عوامل عقائدية أو دينية ترسخت في نفوس أتباعه ومريديه، إذ لم تكن قصة «رحمان اليمن» إلاّ قشرة ظاهرية لحركته التي سرعان ما تلاشت بمقتله.

أما المصير الذي انتهى إليه الأسود العنسي وحركته، فهي قصة اطال المؤرخون في بيان فصولها بشكل درامي أشبه ما تكون بالأساطير الخرافية[٤].

لم تستمر حركة الأسود العنسي في اليمن إلاّ ثلاثة أو أربعة أشهر، ففي رواية الطبري بسنده عن عبيد بن صخر، قال: «كان أول أمره - أي الأسود - إلى

---

(١) العلي، دولة الرسول: ٤٨٧ .

(٢) الهمداني، صفة جزيرة العرب: ١٥١ .

(٣) الطبري: ٣ / ٢٢٩ .

(٤) انظر المصدر نفسه: ٣ / ٢٣١ وما بعدها .

آخره ثلاثة أشهر» وفي رواية ثانية عن الضحاك بن فيروز، قال: «كان ما بين خروجه بكهف خُبّان ومقتله نحواً من أربعة أشهر، وقد كان قبل ذلك متسرّاً أمره. . .»[1] والذي يبدو من هذا النص أن الأسود العنسي كانت له قبل اعلان حركته دعوة سرية، إلاّ أن النصوص التاريخية لا تحدثنا عن تفاصيل ذلك.

ومهما يكن من أمر، فإن حركة الأسود العنسي العلنية والتي وصل بها إلى صنعاء وقتل والي النبيﷺ فيها، لم تستمر طويلا، لأنها كانت محكومة بالفشل من أول يوم، فهي دعوة اقليمية محدودة في حدود جغرافية معينة، وتواجه وضعاً سياسياً مفككاً في بلد تكثر فيه الأُمراء والزعماء، فهي تواجه قوة نفوذ هؤلاء الحكام المحليين الذين كثيراً ما كانت مصالحهم الخاصة متضاربة، وفي نفس الوقت لم تكن لدى الأسود العنسي ودعوته أي برنامج سياسي أو اجتماعي أو اقتصادي أو اصلاحات معينة في مفاصل الحياة العامة، ولهذا لم تكن استجابة بعض القبائل لدعوته سوى استجابة ذاتية املتها مصلحة العشيرة أو حميتها الجاهلية، التي سرعان ما تنتهي مع الزمن.

ولهذا اتخذ النبيﷺ أُسلوباً حكيماً في معالجة هذه الحركة والقضاء عليها، فلم يجد أي ضرورة في تجهيز جيش من المدينة، بعد أن أدرك الضعف الذي تعانيه هذه الحركة. وامكانية مواجهته محلياً، ولهذا كتبﷺ إلى بعض ولاته في اليمن بتطويق هذه الحركة والقضاء عليها ففي رواية عبيد بن صخر: «. . جاءتنا كتب النبيﷺ يأمرنا فيها أن نبعث الرجال لمجادلته أو لمصاولته، ونُبلغ كلّ من رجا عنده شيئاً من ذلك عن النبيﷺ، فقام معاذ في ذلك بالذي أمر به، فعرفنا القوّة ووثقنا بالنصر». وفي رواية أُخرى: «وكتب النبيﷺ إلى أهل نجران، إلى عربهم ومساكني الأرض من غير العرب فثبتوا فتنحّوا وانضموا إلى مكان واحد،

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠ .

وبلغه ذلك - أي الأسود - وأحسّ بالهلاك» وفي رواية ثالثة عن هشام بن عروة عن أبيه، قال: «حاربهم رسول الله ﷺ بالرسل، فأرسل إلى نفر من الأبناء رسولا، وكتب إليهم أن يحاولوه، وأمرهم أن يستنجدوا رجالا - قد سمّاهم - وأرسل إلى أُولئك النَّفر أن ينجدوهم، ففعلوا ذلك، وانقطعت سُبل المرتدّة.. فأُصيب الأسود في حياة رسول الله ﷺ وقبل وفاته بيوم أو ليلة»[١].

حاول رسول الله ﷺ أن يجمع شتات ولاته الذين هرب بعضهم إلى مناطق أُخرى، وعاد بعضهم إلى المدينة «وخرج معاذ هارباً، حتى مرّ بأبي موسى وهو بمأرب، فاقتحما حضرموت، فأما معاذ فإنه نزل في السَّكون، وأما أبو موسى فإنه نزل في السّكاسك.. وانحاز أُمراء اليمن إلى الطاهر إلاّ عمراً وخالداً، فإنهما رجعا إلى المدينة...»[٢].

وكان معاذ بن جبل الذي هرب إلى حي من السكون، قد تزوج امرأة منها يقال لها رملة، وكان معاذ بها معجباً! فلما وصلت كتب النبي ﷺ إلى اليمن يأمر أهلها أن تبعث الرجال لمجادلة الأسود والقضاء عليه «فقام معاذ في ذلك بالذي أُمر به».

وكان النبي ﷺ يرى أن القضاء على الأسود العنسي قضاء على حركته، ولهذا كتب إلى بعض ولاته بذلك، روى الطبري بسنده عن ابن الديلمي، قال: «قدم علينا وبر بن يُحنّس بكتاب النبي ﷺ يأمرنا بالقيام على ديننا، والنهوض في الحرب، والعمل في الأسود: إمّا غيلة وإما مصادمة، وأن نبلغ عنه من رأينا أنّ عنده نجدة ودِيناً»[٣].

---

(١) الطبري: ٢ / ٢٣١ - ٢٣٢ و ٣ / ١٨٧ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٣٣٠ .

(٣) المصدر نفسه: ٣ / ٢٣١ .

وأتت كتب النبيﷺ نتيجتها المرجوة، حيث استجابت هذه القوى لما دعاهم الرسول إليه، فجاءت الضربة الحاسمة في صنعاء حيث أفلح قيس بن مكشوح بالتعاون مع اثنين من زعماء الأبناء، وهما فيروز، وراذويه، في قتل الأسود العنسي، وذلك قبيل وفاة رسول اللهﷺ بيوم أو ليلة.

يقول الطبري: «فحاربه النبيﷺ بالرُّسل والكتب حتى قتله الله، وعاد أمر النبيﷺ كما كان قبل وفاة النبيﷺ بليلة»(١).

ويصف الديلمي في روايته الحالة التي انتهت إليها اليمن بعد مقتل الأسود العنسي فيقول: «وخلصت صنعاء والجَند، وأعزّ الله الإسلام وأهله، وتنافسنا الأمارة، وتراجع أصحاب النبيﷺ إلى أعمالهم، فاصطلحنا على معاذ بن جبل، فكان يصلي بنا، وكتبنا إلى رسول اللهﷺ بالخبر، وذلك في حياة النبيﷺ فأتاه الخبر من ليلته، وقدمت رسلنا، وقد مات النبيﷺ صبيحة تلك اليوم».

وفي رواية ابن عمر قال: «أتى الخبر النبيﷺ من السماء الليلة التي قُتل فيها العنسي ليبشّرنا، فقالﷺ: قُتل العنسي البارحة، قتله رجل مبارك من أهل بيت مباركين، قيل: ومن هو؟ قال: فيروز، فاز فيروز».

وفي رواية أُخرى قال الراوي: «وقال رسول اللهﷺ لأصحابه: إنّ الله قد قتل الأسود الكذّاب العنسي، قتله بيد رجل من إخوانكم، وقوم أسلموا وصدّقوا، فكنّا كأ نّا على الأمر الذي كان قبل قدوم الأسود علينا، وأمن الأُمراء وتراجعوا، واعتذر الناس وكانوا حديثي عهد بالجاهلية»(٢).

وبمقتل الأسود العنسي انطوت صفحة من الصراع في رقعة واسعة من بلاد اليمن، وعادت البلاد إلى حالتها الأُولى بعد هذه الفترة العصيبة التي مرت بها،

---

(١) المصدر نفسه: ٣ / ٣١٨ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٣٦ - ٢٣٩ .

والتي اصطلح عليها المؤرخون بالردة الأُولى لأهل اليمن، إلاّ أن الأمر لم يدم طويلا، فبعد وفاة رسول الله ﷺ دخلت اليمن في ردّة ثانية وثالثة واضطربت أُمورها بشكل عجيب تجد تفاصيله عند الطبري وغيره من المؤرخين لهذه الأحداث[١].

ظهور حركة مسيلمة الكذاب وما رافقها من أحداث:

ذكر ابن إسحاق قصة ظهور مسيلمة الكذاب والأسود العنسي في سياق واحد وتحت عنوان: ذكر الكذابين مسيلمة الحنفي والأسود العنسي، فقال: «وقد تكلّم في عهد رسول الله ﷺ الكذابان مسيلمة بن حبيب في اليمامة في بني حنيفة، والأسود بن كعب العنسي في صنعاء» ثمّ يذكر روايتين عن النبي ﷺ يخبر من خلالهما بخروج صاحب اليمن، وصاحب اليمامة، وإنه: «لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالا، كلهم يدعي النبوة»[٢].

وقد ذكرنا عند الحديث عن عام الوفود وتحديداً عند الحديث عن وفد قبيلة حنيفة أن مسيلمة قد وفد مع وفد حنيفة إلى المدينة، ولكنه بقي في رحل قومه ولم يقابل النبي ﷺ ! ولا ندري هل أعلن إسلامه مع وفد قومه أم لا، فالنصوص التاريخية لا تشير إلى ذلك، وهنالك بعض الروايات تقول إن وفد بني حنيفة أتوا بمسيلمة إلى رسول الله ﷺ يسترونه بالثياب! . . فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه وسأله فقال له رسول الله ﷺ : «لو سألتني هذا العيب الذي في يدي ما أعطيتكه».

وفي رواية أُخرى تقول: قدم مسيلمة الكذاب على عهد رسول الله ﷺ المدينة فجعل يقول: إن جعل لي محمد الأمر من بعده اتبعته، وقدمها في بشر

---

(١) للتوسع انظر الطبري: ٣ / ٣١٨ وما بعدها .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩٩ .

كثير من قومه، فأقبل النبيﷺ ومعه ثابت بن قيس بن الشماس، وفي يد النبي قطعة من جريد، حتى وقف على مسيلمة وأصحابه فقال: «إن سألتني هذه القطعة ما أعطيتكها ولن تعدو أمر الله فيك، ولئن أدبرت ليعقرنك الله، وإني أراك الذي رأيت فيه ما رأيت..»[١]. ومن كلا الروايتين لا يتضح لنا أمر إسلام مسيلمة!

وتشير الروايات إلى أن مسيلمة وبعد عودته إلى موطنه «اليمامة» كتب إلى رسول اللهﷺ: «من مسيلمة رسول الله! إلى محمد رسول الله: سلام عليك، أما بعد، فإني قد أُشركت في الأمر معك، وإن لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكن قريشاً قوم يعتدون» فأجابه رسول اللهﷺ: بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله، إلى مسيلمة الكذاب: «السلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإنّ الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين» وذلك في آخر سنة عشر بحسب رواية ابن إسحاق[٢].

ولم يذكر لنا المؤرخون مراسلات أُخرى بين النبيﷺ ومسيلمة الكذاب، ومن المستبعد أن يكون النبيﷺ قد كتب إلى مسيلمة يدعوه إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أُمية الضمري، كما يدعي ذلك بعض من المؤرخين[٣] إذ لم يرو نصّ لهذا الكتاب المزعوم، ولم يكن مسيلمة رئيس قومه أو ذا مكانة اجتماعية أو وجاهة حتى يكتب له النبيﷺ. نعم كتب النبيﷺ إلى هوذة بن علي الحنفي ملك اليمامة، ونص رسالته محفوظة في كتب التاريخ[٤].

---

(١) المصدر نفسه: ٤ / ٥٧٦، والبيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٣٣٠ - ٣٣٤، وقارن برواية البلاذري، فتوح البلدان: ١٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٤ / ٦٠٠ - ٦٠١ وقارن برواية ابن سعد في الطبقات: ١/ ١٣٢، والطبري: ٣ / ١٤٦.

(٣) حميد الله، مجموع الوثائق السياسية للعهد النبوي: ٣٠٤ - ٣٠٥، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٣٢.

(٤) المصدر نفسه: ١٥٦ - ١٥٧، وابن سعد، الطبقات: ١ / ١٢٦.

ومهما يكن من أمر، فإنّ مسيلمة بعد أن عاد إلى أرض اليمامة ادعى النبوة، وإنه شريك النبيﷺ في رسالته! وشهد له «الرّجال بن عُنفَوة» أن رسول اللهﷺ، أشركه في الأمر، فافتتن الناس به[١].

والرَّجّال بن عُنْفُوَةَ - كما في رواية الطبري -: كان قد هاجر إلى النبيﷺ، وقرأ القرآن وفُقِّه في الدين، فبعثه معلّماً لأهل اليمامة، وليشغب على مسيلمة، وليشدد من أمر المسلمين، فكان أعظم فتنةً على بني حنيفة من مسيلمة - شهد له - أي لمسيلمة أنّه سمع محمداًﷺ يقول: «إنه قد أشرك معه، فصدقوه واستجابوا له»[٢].

والذي يبدو من النصوص التاريخية إنه بعد وفاة هوذة بن علي ملك اليمامة عام الفتح[٣]، أصبح مسيلمة رئيساً أو ملكاً مهيمناً على اليمامة، إلاّ أن بعض كتب الأنساب تذكر أن المعترض ابن غزال بن سبيع «كان أشرف في قومه من مسيلمة» وإن مطرف بن النعمان كان سيداً وحريث بن جابر كان سيداً[٤].

ولا نريد أن ندخل في التفاصيل الكثيرة التي ذكرها الطبري وغيره من المؤرخين عن حركة مسيلمة والمصير الذي انتهى إليه لأنها أحداث لا تدخل ضمن وقائع السيرة النبوية، وإن كانت بدايتها في أواخر حياة النبيﷺ إلاّ أنّها تمتد إلى السنة الثانية عشرة من الهجرة وتدخل في مجال حروب الردّة التي لها تفاصيلها في كتب التاريخ.

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٥٣ .

(٢) الطبري: ٣ / ٢٨٢ .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٢٦ .

(٤) ابن حزم، جمهرة أنساب العرب: ٣١٢ تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار المعارف - مصر، الطبعة السادسة، (بلا - ت) .

وينبغي الاشارة إلى أن المفاوضات بين النبيﷺ ومسيلمة قد انقطعت بعد الرسالة التي بعث بها النبيﷺ جواباً على رسالته، حيث أعلن النبيﷺ كذبه، «وأصبحت العلاقة بينهما حالة عَداء، غير أنّ الرسولﷺ كان معنياً بتنظيم دولة الإسلام المتوسعة، ولا سيما في الأطراف الشمالية من الحجاز، فلم يُجهّز جيشاً لقتال مسيلمة، الذي انصرف بدوره إلى تثبيت سلطانه في اليمامة، ولم يجهز جيشاً لتوسيع ملكه، وإنما اتّبع سياسة سلمية «وكان مسيلمة يصانع كلّ أحد ويتألّفه ولا يبالي أن يطّلع الناس منه على قبيح»[١].

وانتهى مصير مسيلمة بن حبيب الكذاب بالقتل على يدي جيوش المسلمين في السنة الثانية عشرة من الهجرة في معركة «عقربا» التي بلغت شدتها أنها سمّيت «حديقة الموت» لكثرة من قُتل فيها من المسلمين، ويروى انه قتل فيها خمسمائة، منهم خمسة وثلاثون من حملة القرآن، وبلغ عدد القتلى من قريش والأنصار مائة وأربعين، وهي أكبر معركة خاضها المسلمون في قتال المرتدين، ويروي الطبري عن هذه المعركة فيقول: فقتل في المعركة، وحديقة الموت عشرة آلاف مقاتل»[٢].

وقد رافق حركة الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب حركات أُخرى للمتنبئين منها: حركة سجاح بنت الحارث التميمية التغلبية التي اتصلت بمسيلمة الكذاب، ودخلت معه في حلف، وتزوجت منه... في قصة معروفة في كتب التاريخ والأدب ننزه كتابنا عن ذكر تفاصيلها واشعارها القبيحة[٣].

وهنالك أيضاً حركة طليحة بن خويلد الأسدي الذي يصفه الجاحظ بانه

---

(١) الطبري: ٣ / ٢٨٢، والكلاعي، الاكتفاء: ٢ / ١١٢ وما بعدها .

(٢) الطبري: ٣ / ٢٩٠ - ٢٩٤، وتاريخ خليفة: ٧٢ .

(٣) انظر الطبري: ٣ / ٢٧٣، والأغاني: ١٨ / ١٦٥ .

«كان خطيباً وشاعراً شجاعاً كاهناً»[١].

«وكان في وفد بني أسد الذين وفدوا إلى النبي في سنة تسع»[٢] إلاّ أنه ادّعى النبوة بعدما ادّعاها مسيلمة والأسود، ويذكر المؤرخون «أن طليحة أرسل ابن أخيه إلى النبي يخبره بادعائه ويدعوه إلى الموادعة»[٣].

واستخدم النبيﷺ مع طليحة نفس الأُسلوب الذي اتخذه مع الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب، فقد حاربه بالرُّسل، فلم ينفذ إليه حملة عسكرية، وإنما وجه ضرار بن الأزود إلى عماله على بني أسد وأمرهم بالقيام في ذلك على كل من ارتد.. فما زال المسلمون في نماء، والمشركون في نقصان»[٤].

وبعد وفاة رسول اللهﷺ وأثناء حروب الردة اشتبكت جيوش المسلمين مع طليحة وقاتلته في حروب دامية انتهت بهزيمة جيش طليحة، إلاّ أنه أفلت من القتل، فقد انهزم ولحق باطراف الشام ولجأ إلى قبيلة كلب، وسرعان ما اتصل بأبي بكر وأعلن إسلامه، فكفَّ عنه أبو بكر! وفي زمن خلافة عمر بن الخطاب انضمّ طليحة إلى الجيش الإسلامي بقيادة سعد بن أبي وقاص فشارك في القادسية وفي المعارك التالية[٥].

والذي يبدو من خلال دراسة حركة المتنبئين، والتوقيت الزمني لظهور هذه الحركات، والرقعة الجغرافية التي ظهرت فيها، أن هذه الحركات كانت تعبّر عن

---

(١) الجاحظ، البيان والتبيين: ١ / ٢٣١، تحقيق: حسن السندوبي، طبعة المكتبة التجارية - مصر، الطبعة الأُولى، (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م).

(٢) ابن سعد، الطبقات: ١ / ١٤١.

(٣) الطبري: ٣ / ١٨٦.

(٤) المصدر نفسه: ٣ / ١٨٧، ٢٥٧.

(٥) انظر البلاذري، فتوح البلدان: ١٠٥ وما بعدها.

طموحات شخصية لدى القائمين بها، والمؤيدين لهم في حركتهم، فلم يكن بامكانهم إظهار نواياهم وتحقيق طموحاتهم إلاّ بعد أن تبين لهم مرض النبيﷺ أووفاته، فوجدوا الفرصة مؤاتية لذلك، من حيث توقيتها الزمني، حيث انشغال المسلمين بمرض النبيﷺ وقضية خلافته بعد وفاته فهذه الأُمور وغيرها كانت لصالح حركتهم في بعدها الزمني.

أما الذين أيدوا هذه الحركات فكانوا جديدي عهد بالإسلام ومن أعراب الجاهلية وأصحاب المطامع، فانساقوا وراء تلك الشخصيات أما عصبية لقومهم أوطمعاً في مغانم يكسبونها في الوقت الذين كانوا يعرفون جيداً أن أصحاب هذه الدعوات كاذبون في إدعائهم النبوة أو ما شابه ذلك من فنون الكهانة والسجع والسحر.

يروي الطبري بسند عن عمير بن طلحة النمري، عن أبيه، أنّه جاء اليمامة، فقال: أين مُسيلمة؟ قالوا: مه رسول الله! فقال: لا، حتّى أراه، فلمّا جاءه، قال: أنت مسيلمة؟ قال: نعم.

قال: من يأتيك؟ قال: الرحمان، قال: أفي نور أو في ظلمة؟ فقال: في ظلمة، فقال: أشهد أنّك كذاب، وأنّ محمداً صادق، ولكن كذّاب ربيعة أحبّ إلينا من صادق مُضر! فقتل معه يوم «عقرباء»[1]. وكان الرَّجّال بن عُنْفُوَة - الذي شهد لمسيلمة بالنبوة - يقول: كبشان انشطحا فأحبهما إلينا كبشنا[2].

فكلام هذان الرجلان - والذي يمثل تياراً واسعاً من أمثالهما - ينمّ عن عقلية عشائرية وعصبية جاهلية.

---

(١) الطبري: ٣ / ٢٨٦ .

(٢) الديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٥٩، والكلاعي، الاكتفاء: ٢ / ١١٣ .

ويروي الطبري: أن عيينة بن حصن قاتل مع طليحة في سبعمائة من بني فزارة قتالا شديداً، وطليحة متلفّف في كساء له بفناء بيت له من شعر، يتنبأ لهم، والناس يقتتلون، فلما هزّت عيينة الحرب، وضرس القتال، كرّ على طليحة، فقال: هل جاءك جبريل بعد؟ قال: لا، وهكذا يعاوده ثلاث مرات وفي الثالثة أخبر طليحة أن جبريل أتاه وقال له: «إنّ لك رحاً كرحاه، وحديثاً لا تنساه» فقال عيينة: أظنّ أن قد علم الله أنه سيكون حديث لا تنساه، يا بني فزارة فانصرفوا، فهذا والله كذّاب..»[1].

ويقول عطارد بن حاجب، وهو أحد أصحاب سجاح:

أَمْسَتْ نبيّتُنا أُنثى نُطيفُ بِها وأَصْبَحَتْ أنبياءُ النّاسِ ذُكْرَانا[2]

وعندما نعود إلى الأفكار الدينية التي طرحها هؤلاء المتنبئة - وخاصة فيما ينسب إلى مسيلمة من كلمات كان يدعي أنها من وحي السماء - نجدها أشبه ما تكون بهذيان المحموم الذي لا يعي ما يقول، ولا يفهمها من يسمعها!

ومما ينسب إلى مسيلمة من آيات يعارض بها آيات القرآن الكريم قوله:

«والليل الأطم، والذئب الأدلم، والجذع الأزلم، ما انتهكت أُسيد من مُحرَّم».

«والليل الدامس، والذئب الهامس، ما قطعت أُسيد من رطب ولا يابس».

«والشاء وألوانها، وأعجبها السود وألبانها، والشاة السوداء، واللبن الأبيض، إنه لعجب مَحض، وقد حرّم المذق، فما لكم لا تمجّون».

وكان يقول: «والمبذّرات زرعاً، والحاصدات حصداً، والذاريات قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لقماً، إهالة

(١) الطبري: ٣ / ٢٥٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٣ / ٢٧٤ .

وسمناً، لقد فُضّلتم على أهل الوبر، وما سبقكم أهل المدر، ريفكم فامنعوه، والمعترّ فآووه، والباغي فناوئوه».

وكان يقول: «يا ضفدع ابنة ضفدع، نُقّي ما تنقيّن، أعلاك في الماء، وأسفلك في الطين، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين».

ويذكر الطبري أن وفداً من بني حنيفة جاء إلى أبي بكر فقال لهم: ويحكم! ما هذا الذي استزلّ منكم ما استزل!.. ما الذي دعاكم به! قالوا: كان يقول: «يا ضفدع نقيّ نقي، لا الشارب تمنعين، ولا الماء تكدّرين، لنا نصف الأرض، ولقريش نصف الأرض، ولكنّ قريشاً قوم يعتدون».

قال أبو بكر: سبحان الله! ويحكم، إن هذا لكلام ما خرج من إلٍّ ولا برّ، فأين يذهب بكم[1].

ولا ندري هل دوّن بنو حنيفة قوم مسيلمة هذا الهذيان في مصحفهم، بعد أن حفظوه في صدورهم؟! الذي يبدو من رواية البلاذري والبيهقي أن آثار هذيان مسيلمة بقيت في صدور قومه من بني حنيفة، وليس من المستبعد أن يكون قد دون في صحائف يحتفظون بها ويتدارسونها فيما بينهم!

ففي رواية البيهقي بسنده عن قيس بن أبي حازم قال: جاء رجل إلى عبد الله بن مسعود فقال: إني مررت ببعض مساجد بني حنيفة وهم يقرأون قراءة ما أنزلها الله على محمدﷺ: الطاحنات طحناً والعاجنات عجناً، والخابزات خبزاً، والثاردات ثرداً، واللاقمات لَقماً، قال: فأرسل إليهم عبد الله - ابن مسعود - فأتى بهم، وهم سبعون رجلا ورأسهم عبد الله بن النَّواح، قال: فأمر به عبد الله فقُتل، ثمّ قال: ما كنا بمحذور الشيطان من هؤلاء، ولا كنا نحذرهم إلى الشام لعل الله أن يكفيناهم».

---

(١) الطبري: ٣ / ٢٨٣ - ٢٨٤، ٣٠٠، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٥٨ .

وفي رواية البلاذري: «. . . ابن النواحة، الذي قتله عبد الله بن مسعود بالكوفة، وبلغه أنه وجماعة معه يؤمنون بكذب مسيلمة»[١].

وعبد الله بن مسعود كان والياً على الكوفة أيام خلافة عمر بن الخطاب وشطراً من أيام خلافة عثمان بن عفان الذي عزله وأمره بالرجوع إلى المدينة في قضية معروفة[٢].

وهذا يعني أن بقايا هذيان مسيلمة وما كان يتلوه عليهم قد بقيت أوظاره وآثاره في بعض بني حنيفة الذين - على ما يبدو من الرواية - كان لهم مسجد في الكوفة يقرأون فيه ما أخبر به الراوي في روايته!

ومهما يكن من أمر؛ بمقتل الأسود العنسي، ومسيلمة الكذاب، وهروب طليحة وسجاح، انتهت هذه العاصفة الهوجاء التي أثارها هؤلاء المتنبؤون في أطراف الجزيرة وجنوبها، واستنزفت قوة المسلمين ونفوس الكثير من حملة الإسلام والقرآن لأكثر من سنتين بعد وفاة رسول الله ﷺ.

٤ - تهديد الروم للدولة الإسلامية من حدودها الشمالية

لم تأخذ حركة المتنبئين في أطراف الجزيرة وجنوبها من رسول الله ﷺ حيزاً كبيراً من الوقت لمعالجتها، ولا صرفت اهتمامه عن سلم أولوياته في ترتيب أُمور الدولة الإسلامية ودرء الأخطار المستقبلية عنها. فعالج مسألة المتنبئين بحكمة بالغة وترك أمرهم إلى أهل بلادهم لمواجهتهم وكشف كذبهم وبهتانهم الذي كان واضحاً لهم.

فكان رسول الله ﷺ يقدر لمثل هكذا حركات محلية إقليمية الفشل الذريع

---

(١) البيهقي، دلائل النبوة: ٥ / ٣٣٢ - ٣٣٣، والبلاذري، فتوح البلدان: ٩٧ .

(٢) ابن حجر، الاصابة: ١ / ٣٦٩ - ٣٧٠، وابن الأثير الجزري، أسد الغابة: ٣ / ٣٩٨ .

والسريع وسرعان ما تنتهي بمقتل من يقوم بها.

ولهذا وجّه رسول الله ﷺ عنايته إلى شمال الجزيرة حيث الدولة الرومانية وامتداداتها، فهي القوة الوحيدة التي تشكل خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية، بعد الانتصارات التي حققتها على منافستها الامبراطورية الفارسية، التي ابتليت بدورها بتفكك سياسي وفساد اداري وحكومي وصل إلى حد التنازع والتقاتل بين الأكاسرة أنفسهم، على كرسي الملكية، والذي أدّى إلى اندحارها السريع والمدوّي أمام قوات الفتح الإسلامي بعد سنوات قلائل من وفاة رسول الله ﷺ.

فالخطر الحقيقي يكمن في ناحية الروم في شمال الدولة الإسلامية، التي كانت في أوج قوتها، وتسيطر على رقعة جغرافية واسعة، ولها امتداداتها بين القبائل العربية التي اعتنقت النصرانية في بلاد الشام والعراق وبلاد النوبة. ثمّ أنها دولة لها استراتيجيتها وخططها العسكرية المستقبلية، ودخلت سابقاً في مواجهة مع المسلمين في أكثر من واقعة كان آخرها غزوة تبوك التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه، ولهذا كانت الدولة الرومانية تقدر ثقل قيادة النبي ﷺ في إدارة دفة الدولة الإسلامية وخاصة في الجانب العسكري والدفاع فكانت تنتظر فرصة الفراغ القيادي بعد وفاته للإجهاز على هذه الدولة الفتية التي لا زالت في طور التشكيل ولم تتجذر كثيراً في تشكيلاتها الإدارية والعسكرية.

٥ - أسباب إعداد جيش أُسامة

عُرف هذا الجيش بجيش أُسامة، وهي آخر البعوث العسكرية التي أشرف رسول الله ﷺ عليها بنفسه، إذ حدّد وجهتها نحو الشمال، وعيّن قائدها وهو أُسامة بن زيد، وعبأ فيها أكثر من ثلاثة آلاف رجل من المسلمين فيهم كبار الصحابة من المهاجرين والأنصار.

وقد حاول بعض الباحثين في السيرة أن يبرزوا السبب أو الأسباب التي دعت رسول الله ﷺ إلى اعداد هذا الجيش وبهذه الكثافة العددية، وتحت لواء

قيادة شابة لم تتجاوز العقد الثاني من عمرها!

وعندما نتعرض كلماتهم نجدهم يشيرون إلى جملة من الأسباب يمكن تصنيفها بما يلي:

الرأي الأول: الثار لمقتل زيد بن حارثة وأصحابه في واقعة مؤتة:

وهذا الرأي تبناه رواة السيرة القدماء، وبعض كتّابها من المحدثين، استناداً إلى قول رسول الله ﷺ لأُسامة بن زيد حين ولاّه قيادة هذا الجيش: «سر إلى موضع قتل أبيك فأوطئهم الخيل، فقد وليتك هذا الجيش، فأغِر صباحاً على أهل «أُبنَى»[١] وحرّق عليهم، وأسرع السير تسبق الأخبار، فإن أظفرك الله بهم فأقلّ اللّبث فيهم، وخذ الأدلاء وقدم العيون والطلائع معك»[٢].

إلاّ أنّ ما قاله رسول الله ﷺ لأُسامة لا يصلح أن يكون سبباً لهذه السرية، فهو ﷺ لم يقل له اذهب للثأر لمقتل أبيك، وإنما أشار إلى الموضع الذي يتوجه إليه بجيشه، وهو الموضع الذي دارت فيه معركة مؤتة الذي قتل فيه زيد بن حارثة، وجعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحة.

الرأي الثاني: لتوطيد سلطان المسلمين على حدود الشام:

يقول الكاتب محمد حسين هيكل: «كان «محمد» يحسب لناحية الروم حسابها ويرى ضرورة توطيد سلطان المسلمين على حدود الشام... وظلّ يقدّر لناحية الشمال أن تثور الذكريات بحماة المسيحية وأصحاب الغلب في ذلك العصر من أهل الامبراطورية الرومانية، فيعلنوا الحرب على من أجلوا النصرانية عن نجران وغير نجران من أنحاء بلاد العرب»[٣].

---

(١) أُبنى: موضع قريب من مؤتة على حدود الشام.

(٢) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١١٧، والسيرة الحلبية: ٣ / ٢٩١.

(٣) هيكل - محمد حسين، حياة محمد: ٤٩٤.

إلاّ أنّ ما ذكره هذا الباحث وإن كان معقولا في نفسه، فرسول الله ﷺ كما أنّه يحسب للروم حسابها كما أسلفنا، وهي مخاوف مستقبلية واقعية، إلاّ أنها لا ترتبط بقضية نصارى نجران الذين لم يجلهم رسول الله ﷺ من ديارهم، وإنما جاء وفدهم إلى المدينة وعاهدوا رسول الله ﷺ ودخلوا في ذمة الإسلام كما مرّ بنا سابقاً، ولا يحدثنا التاريخ أن رسول الله ﷺ قد أجلى نصارى نجران عن ديارهم، بالاضافة إلى أنّ قضية نصارى نجران لم تكن ذات أهمية بالنسبة إلى الامبراطورية الرومانية، ولهذا لم يسجل لهم أي اعتراض على نصارى نجران عندما عاهدوا رسول الله ﷺ والتزموا بدفع الجزية المالية للدولة الإسلامية.

الرأي الثالث: لإرهاب الروم واعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود:

يقول المرحوم محمد الغزالي في كتابه «فقه السيرة»: «قَفَل الرسول ﷺ إلى المدينة ليعبئ جيشاً آخر يقاتل به الروم. فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام، جعلتها تأبى عليه حق الحياة، وحملها على أن تقتل من اتباعه من يدخل فيه.

كان «فروة بن عمر الجذامي» والياً من قبل الروم على «معان» وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام وبعث إلى النبي يخبره بذلك.

وغضب الرومان، فجردوا على «فروة» حملة جاءت به، وألقي في السجن حتى صدر الحكم بقتله، فضرب عنقه على ماء لهم يقال له «عفراء» بفلسطين، وترك مصلوباً ليرهب غيره أن يسلك مسلكه! وقيل: إنه لما تقدم للقتل قال:

بَلّغ سَراةَ المسلمينَ بأنني سَلْمٌ لربي، أعظمي ودمائي

فأعد رسول الله ﷺ جيشاً كبيراً وأمّر عليه أُسامة بن زيد بن حارثة، وأمره أن يوطئ الخيل تخوم البلقاء والداروم من أرض فلسطين، يبغي بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود، حتى لا يحسبنّ أحد

أن بطش الكنيسة لا معقب له، وأن الدخول في الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب»[١].

وهذا السبب الذي يذكره المرحوم الغزالي قد لا يتعارض مع ما ذكره الدكتور هيكل، إلاّ أن قصّة فروة الجذامي التي استخلص منها سبب هذه الغزوة يذكرها ابن إسحاق في عام الوفود[٢] أي في العام التاسع من الهجرة أو العام العاشر، ولا ندري لماذا تأخّر النبيﷺ إلى السنة الحادية عشرة ولم يرسل حملة إلى الشام قبل ذلك؟

ومهما يكن من أمر، فإنّ ما ذكر كأسباب لهذه الحملة وما يعرف بجيش أُسامة يؤول في نتيجته إلى ما قلناه في صدر الحديث حول وجود مخاطر حقيقية تهدد كيان الدولة الإسلامية ومصدرها الأساسي الدولة الرومانية بما تمتلك هذه الدولة من امكانات مادية وعسكرية، بالاضافة إلى نزعتها التوسعية، وامتدادها بين القبائل الخاضعة لسلطانها.

إلاّ أنّنا عندما نعود إلى الحيثيات التي اختصت بقضية جيش أُسامة، وتأملنا بعمق في هذه الحيثيات من حيث التوقيت الزمني لتجهيز هذا الجيش، وإيكال القيادة فيه إلى أُسامة، وحشد وجوه المهاجرين والأنصار فيه، واستثناء بعض رموز الأصحاب من المشاركة فيه، وتشديد النبي على المتخلفين عنها إلى درجة لعنهم، ومن ثمّ ما صدر من بعض وجوه الأصحاب ممن كان ينبغي أن يشترك في الحملة من أقوال وأفعال... كلّ هذه الحيثيات وغيرها إذا درسناها بتمعن وبعيداً عن الخلفيات السياسية واساقطها على القضية، نصل إلى سبب وجيه دفع النبيﷺ إلى اتخاذ ما يلزم لتسيير هذه الحملة، كتدبير نبوي أراد من خلاله ابعاد الأُمة عن الاختلاف فيما بينها! وهذا السبب - على اجمالة - أكثر عمقاً وواقعية،

---

(١) الغزالي - محمد، فقه السيرة: ٤٥٩ .

(٢) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٥٩١ .

من الأسباب التي ذكرها أُولئك الكتّاب وحاولوا جاهدين توجيه الأنظار إليها.

وأفضل من بحث قضية جيش أُسامة من خلال الحيثيات التي ذكرناها وما تمخض عنها من نتائج انتهت إلى سقيفة بني ساعدة، هو المرحوم الشيخ محمد رضا المظفر في كتابه القيّم «السقيفة» وسوف نستعرض لاحقاً ما قاله الشيخ المظفر مع توضيح لبعض النصوص التاريخية، وذكر المصادر التي استند إليها.

وفيما يلي النص التاريخي للقضية والذي أجمله الشيخ المظفر في كتابه:

قال ابن سعد في الطبقات: «لمّا كان يوم الاثنين لأربع ليال بقين من صَفر سنة إحدى عشرة من الهجرة مهاجر رسول الله ﷺ أمر رسول الله ﷺ الناس بالتهيّؤ لغزو الروم، فلمّا كان من الغَد دعا أُسامة بن زيد، فقال: سِر إلى موضع مقتل أبيك.. فقد وليتك هذا الجيش فأغِر صباحاً.. فلمّا كان يوم الأربعاء بُدئ برسول الله ﷺ فحُمَّ وصُدع، فلمّا أصبح يوم الخميس عقد لأُسامة لواءً بيده ثمّ قال: واغزُ بسم الله في سبيل الله، فقاتل مَن كفر بالله! فخرج بلوائه معقوداً فدفعه إلى بُريدة بن الحُصيب الأسلمي، وعسكر بالجُرف، فلم يبق أحد من وجوه المهاجرين الأوّلين والأنصار إلاّ انتدب في تلك الغزوة، فيهم أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وأبو عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وقتادة بن النعمان، وسلمة بن أسلم، فتكلّم قوم وقالوا: «يستعمل هذا الغلام على المهاجرين الأوّلين!».

فغضب رسول الله ﷺ غضباً شديداً فخرج وقد عصب على رأسه عصابةً وعليه قطيفة، فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال: أمّا بعد أيّها الناس فما مقالةٌ بلغتني عن بعضكم في تأميري أُسامة، ولئن طعنتم في إمارتي أُسامة فقد طعنتم في إمارتي أباه من قبله! وايم الله إن كان للامارة لخليقاً، وأن ابنه من بعده لخليق للإمارة، وإن كان لمن أحبّ الناس إليّ، وإنما لُمخيلان لكلّ خير[1]،

(١) فلان مخيل للخير، أي خليق له. (الصحاح).

واستوصوا به خيراً فإنه من خياركم! ثمّ نزل فدخل بيته، وذلك يوم السبت لعشر خلون من ربيع الأول. وجاء المسلمون الذين يخرجون مع أُسامة يودّعون رسول الله ﷺ، ويمضون إلى العسكر بالجُرف، وثقل رسول الله ﷺ فجعل يقول: انفذوا بَعثَ أُسامة! فلمّا كان يوم الأحد اشتد برسول الله ﷺ وجَعَه فدخل أُسامة من مُعسكرهِ والنبي مغمور[١]... فطأطأ أُسامة فقلّبه ورسول الله ﷺ لا يتكلم فجعل يرفع يديه إلى السماء ثمّ يضعها على أُسامة، قال: فعرفت أنّه يدعو لي، ورجع أُسامة إلى معسكره ثمّ دخل يوم الاثنين، وأصبح رسول الله ﷺ مفيقاً، صلوات الله عليه وبركاته، فقال له: اغدُ على بركة الله! فودّعه أُسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرَّحيل، فبينا هو يريد الرّكوب إذا رسول أُمّه أُمّ أيمن[٢] قد جاءه يقول: إنّ رسول الله يموت! فأقبل وأقبل معه عمر، وأبو عبيدة فانتهوا إلى رسول الله ﷺ وهو يموت فتوفّي، صلّى الله عليه صلاة يحبّها ويرضاها، حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الأول، ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف إلى المدينة ودخل بريدة بن الحُصيب بلواء أُسامة معقوداً حتى أتى به باب رسول الله ﷺ فغرزه عنده..»[٣].

يتوقف الشيخ المظفر عند حيثيات بعثة أُسامة بحسب سياقها التاريخي، ثمّ يستخلص تفسيراً معقولا لهذه الحيثيات، فيقول (رحمه الله): لشد ما يعتلج العجب في نفوس المتفكرين من هذا الحادث فيعجب الإنسان:

أولا: أن تسند قيادة أعظم جيش إسلامي يومئذ، في ذلك الظرف الدقيق.. إلى شاب يافع لم يتجاوز العشرين.. وهو لم يجرِّب الحروب بعد..

---

(١) مغمور: أي صامت لا يتكلم.

(٢) روى ابن عساكر في تاريخ دمشق: ٨ / ٣٦ في ترجمة أُسامة: وأُمّه أُم أيمن واسمها «بركة» حاضنة رسول الله ﷺ ومولاته.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٥، والديار بكري، تاريخ الخميس: ٢ / ١٥٤ - ١٥٥.

والجيش معبأ لجهاد أقوى أعداء الإسلام في ذلك الموقع البعيد عن العاصمة الإسلامية.

ثانياً: أن يؤمَّر هذا الفتى على شيوخ المسلمين.. الذين يرون لأنفسهم مقاماً اسمى ومنزلة رفيعة، ويرشحون أنفسهم لمنصب أعظم كثيراً من منصب قائدهم الصغير هذا.

ثالثاً: ان يتباطأ المسلمون عن الالتحاق بهذا البعث بالرغم على اصرار النبي وتشديده النكير على المتخلفين ولعنه إياهم[1]، ويكفي أن نعرف أن البعث وقع قبيل شكاته أو في أوّلها، وقد استدامت علّته أربعة عشر يوماً، وفي كل هذه المدة الطويلة يتغافل القوم عن الخروج.. فماذا دهى المسلمين حتى خالفوا الصريح من أمر النبي، من غير حياء منه ولا خجل ولا خوف من الله ورسوله.. أتراهم استضعفوا النبي وهو مريض فتمردوا عليه، أم ماذا؟

رابعاً: أن ينكر هؤلاء المسلمون على نبيهم تأميره لهذا الفتى، ثمّ لا يرتدعون ان نهاهم عن ذلك، وليس لهم على كل حال حق هذا الانكار إذا كانوا حقاً قد تغذوا بتعاليم الإسلام، وعرفوا أن النبيﷺ لا ينطق عن الهوى، وما كان لهم الخيرة.

خامساً: أنّ النبي قد علم بقرب أجله ويعلم أن الفتن قد أقبلت كقطع الليل المظلم، فكيف يبعد جيشه وقوته عن العاصمة ومركز الدعوة، بل كيف يخلي المدينة من شيوخ المهاجرين والأنصار.. فلابد أن يكون كل ذلك لأمر ما عظيم، أكثر من هذه الظواهر التي يتصورها الناس.

بعد هذه الإثارات والتساؤلات التي يطرحها الشيخ المظفر أمام الواقع

---

(١) انظر الشهرستاني، الملل والنحل: ١ / ٢٣، تحقيق محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة - بيروت، أُفست الطبعة الثانية، (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م).

التاريخي لبعثة أُسامة وحيثيتها، يبحث عن حلٍّ لهذه الإثارات تطمئن له النفس، وينسجم مع شخصية النبيﷺ الذي لا ينطلق في أفعاله وأقواله إلاّ عن حكمة بالغة، وعن وحي وسر إلهي.

فيقول: «لم يصح عندنا تفسير لمشاكل هذا الحادث إلاّ بأن نقول إنهﷺ أراد:

أولا: أن يهيئ المسلمين لقبول «قاعدة الكفاية» في ولاية أمرهم، من الناحية العملية، فليست الشهرة، ولا تقدم العمر هما الأساس لاستحقاق الأمارة والولاية، فلذا قال عن أُسامة مؤكداً جدارته بالغنم ولام التأكيد. . . .

وإذا علمنا أن علي بن أبي طالب هو المهيأ لولاية أُمور المسلمين بعد النبي - على الأقل - إن فرض أنه لم يكن هو المنصوص عليه; أفلا يثبت لنا أن قضية أُسامة كانت لقبول الناس أمارة علي على صغر سنّه يومئذ بالقياس إلى وجوه المسلمين، وكان إذ ذاك لا يتجاوز الثلاثين؟ وهذا ما يفسر به المشكل الأول والثاني في هذا البعث.

وثانياً: أن يبعد عن المدينة ساعة وفاته من يطمع في الخلافة خشية أن يزيحوها عن صاحبها الذي نصبه لها، وقد ثبت عنهﷺ أنّه كان يتوجس خيفة على أهل بيته ولا سيما على علي، فوصفهم بأنهم المظلومون من بعده. ولذا نراه أوعب في هذا الجيش كل شخصية معروفة تتطاول إلى الرئاسة، ولم يدخل فيه علياً ولا واحداً ممن يميل إليه، والذين كانوا له بعد ذلك شيعة، ووافقوه على ترك البيعة لأبي بكر، فلم يذكر واحداً منهم في البعث ، وهم ليسوا أُولئك النكرات الذين لا يذكرون!

وهذا ما يفسر تباطؤ القوم عن البعث وعرقلتهم له بخلق الاشاعات في المعسكر عن وفاة الرسول، مع اصرارهﷺ ذلك الاصرار العظيم، ولم يمكنهم

أن يصرحوا بما في نفوسهم، فاعتذروا بصغر قائدهم، وفي هذا كل معنى التهجين لرأي النبي، وعصيان أمره الصريح!

فكان الغرض اخلاء المدينة من المزاحمين لعلي ليتم الأمر له، بعد أن اتضح للنبيﷺ أن التصريحات بخلافته لا تكفي وحدها للعمل بها عندهم.. فقدر أن القوم إذا ذهبوا في بعثهم هذا يرجعون وقد تمّ كلّ شيء لخليفته المنصوب من قبله، فليس يسعهم إلاّ أن ينضووا حينئذ تحت جماعة المسلمين ورايتهم.

وثالثاً: ان يقلل من نزوع المتوثبين للخلافة، ليقيم الحجة لهم وللناس بأن من يكون مأموراً طائعاً لشاب يافع، ولا يصلح لامارة غزوة مؤقتة كيف يصلح لذلك الأمر العظيم وهو ولاية أُمور جميع المسلمين العامة وهي في مقام النبوة وصاحبها أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟

وزبدة المخض: إنّ بعث أُسامة لا يصح أن يفسر إلاّ بأ نّه تدبير لاتمام أمر علي بن أبي طالب، بمقتضى الظروف المحيطة به من تقدم النص على عليّ، وقرب أجل النبيﷺ، وعلمه بأنّ هنالك من لا يروق له ولاية ابن عمه، وبمقتضى الدلائل الموجودة في الواقعة نفسها..».

ثمّ بعد هذا التفسير للسبب الحقيقي لبعث أُسامة والتي تفسر لنا الحيثيات التي احفت بهذه البعثة، يحاول الشيخ المظفر أن يردّ ما قاله بعض الباحثين المحدثين حول سبب تخلف القوم عن بعث أُسامة، والذي يتلخص بنظره بما يلي:

أولا: عدم رضاهم بامارة قائدهم الصغير إذ «كان أُسامة يومئذ حدثاً.. فكان لإمارته على المتقدمين الأوّلين من المهاجرين وكبار الصحابة ما أثار دهشة النفوس..».

ثانياً: الشفقة على النبيﷺ، «ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبيّ أحبّ إليهم من أنفسهم أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض، وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض»[١].

يقول الشيخ المظفر في ردِّ هذين التبريرين: «ولا يصح للباحث أن يدعي أن السبب الحقيقي لتخلف القوم هو ما تظاهروا به من عدم الرضى بامارة قائدهم الصغير.. لأنا نرى أن لو كان هذا هو السبب الحقيقي لما تنفذ البعث بعد أن تم أمر الخلافة الذي به زال المانع الحقيقي...، ولم يتأبَّ عمر نفسه بعد ذلك أن يخاطب أُسامة بالأمير طيلة حياته اعترافاً بامارته»[٢].

وأما الشفقة على النبيﷺ.. فلا يصح أن تكون سبباً حقيقياً، إذ ينبغي أن يكونوا عليه أشفق بالتحاقهم بالبعث، وقد غضب أشد الغضب من تأخرهم على ما فيه من حال المرض، ولئن ذهبوا يسألون عنه الركبان كان أكثر براً بنبيهم من أن يعصوا أمره ويغضبوه ذلك الغضب المؤلم له.

وبعد أن ينتهي الشيخ المظفر من رد هذين التبريرين اللذين ذكرهما الدكتور محمد حسين هيكل - ولم يذكر الشيخ اسمه - يخلص إلى الثمرة المرجوة من التدبير النبوي لهذه البعثة، لو أنّ القوم امتثلوا أوامره فيها، ولم يتقاعسوا عنها، فيقول: «ولو أن القوم كانوا قد امتثلوا الأمر لأصابوا خيراً، ولتبدل سير التأريخ ومجرى الحوادث تبدلا قد لا يحيطه به حتّى الخيال ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾[٣] ولما وقع ما وقع بعد ذلك من خلاف بين المسلمين، وتطاحن

(١) انظر، هيكل - محمد حسين، حياة محمد: ٤٩٤ - ٤٩٥ .

(٢) انظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨ / ٤٥ .

(٣) الأعراف: ٩٦ .

وحروب دموية انهكت قوى الإسلام وأضعفت روحية الدين حتى انقصمت عرى الجامعة الإسلامية سريعاً وانتهكت حرمات الأحكام الدينية، فعاد الإسلام كما نشاهد اليوم غريباً كما بدئ.

أيُّ أمر عظيم وتدبير حازم صنعه النبيﷺ لسد باب كل خلاف يحدث؟ «وكل أفعاله عظيمة» لو تم ما أراد، ولكن لا أمر لمن لا يطاع»[١].

لقد نقلنا كلام الشيخ المظفر بطوله لأنه يجلي لنا الكثير من الاشكاليات والتساؤلات التي يمكن أن تثار حول بعثة أُسامة وما رافقها من مواقف وما انتهت إليه من نتائج.

إلاّ أنّ هذا لا يمنع أن نسجل بعض الملاحظات على النتائج التي انتهى إليها بحث الشيخ المظفر.

الملاحظة الأُولى: قد يكون اختيار أُسامة من قبل رسول اللهﷺ لقيادة الجيش على أساس كفايته في تولي الأمر، مع أنه شاب حدث السن لم يجرب الحروب ولم يتولَّ قيادة أي حملة أو بعثة قتالية من قبل، وقد تكون هنالك أسباب أُخرى لهذا الاختيار شخصها رسول اللهﷺ في حينها.

وعلى هذا لا يمكن أن نقول إن من كان مأموراً لأمارة أُسامة في جيشه، أقل كفاءة من أُسامة، أو أنه لا يصلح للأمارة لعدم صلاحيته لغزوة من الغزوات أو بعثة من البعثات، فقد يكون في وجوه المهاجرين والأنصار من هو أكفأ من أُسامة وانضوى تحت لواءه امتثالا لأمر رسول الله.

وهنالك من اعترض على هذا الاختيار متذرعاً بحداثة سنّ أُسامة، ولم يكن له أن يعترض بعد اختيار رسول اللهﷺ له.

---

(١) المظفر - محمد رضا، السقيفة: ٧٤ - ٨٠، أُفست مكتبة الزهراء - عن طبعة النجف الأشرف.

الملاحظة الثانية: إن التباطؤ عن الالتحاق ببعث أُسامة رغم اصرار النبيﷺ وتشديده، لم تكن هي الحالة العامة للمسلمين آنذاك، فقد تكامل جمع المسلمين في منطقة الجرف وكانوا على وشك الانطلاق في بعثهم - بحسب النص التاريخي للواقعة - فجاءهم خبر وفاة رسول اللهﷺ فلا يمكن أن نعمم حالة التباطؤ والتثاقل، على كل المسلمين آنذاك، ونصفهم جميعاً بالمتمردين عن أمر رسول اللهﷺ .

نعم قد تكون حالة التباطؤ والتثاقل موجودة عند بعض الأفراد ولأسباب مختلفة فلا يمكن التعميم على الجميع!

الملاحظة الثالثة: إنّ حالة التباطئ والتثاقل عن أمر رسول اللهﷺ في الالتحاق ببعثة أُسامة، قد يكون سببه عند بعضهم هو الطموح الشخصي للوصول إلى الخلافة بعد رسول اللهﷺ ، إلاّ أنّه يمكن تصور أسباب أُخرى لهذه الحالة عند عامة المسلمين آنذاك، كمرض رسول اللهﷺ ، أو حبهم للراحة والدعة وكراهتهم للقتال، أو خوفهم من جيش الروم الذي لا زالت آثار المواجهة معه في غزوة مؤتة ماثلة أمامهم. والقرآن الكريم يصرّح بوجود هذه الأسباب الداعية للتباطؤ والتثاقل في حياة المسلمين.

يقول تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾[1].

ويقول تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾[2].

---

(١) التوبة: ٣٨ - ٣٩ .

(٢) البقرة: ٢١٦ .

هذه هي أهم الملاحظات التي يمكن تسجيلها على رأي الشيخ المظفر بالاضافة إلى شدّة لغة البحث والمصطلحات التي وظّفها في بحثه.

إلاّ أنّ هذا لا يقلل من أهمية البحث، والنتائج التي توصل إليها، والمنهجية العلمية التي استخدمها للوصول إلى هذه النتائج، فكان الباحث موفقاً في كشف الملابسات التي أحفت بقضية جيش أُسامة، وبأُسلوب علمي موضوعي نال اعجاب الكثير من الباحثين والمعنيين بهذا الشأن[١].

ويشير ناشر كتاب السقيفة في مقدمته للكتاب إلى وجود ردّ على هذا الكتاب بعنوان: «الرد على السقيفة» ولكنه لم يذكر مؤلفه ولا الدار التي قامت بنشره، حتّى يتسنى لنا الاطلاع عليه.

٦ - توجيهات واعتذارات واهية

بعد أن أثبتَ لنا النص التاريخي في قضية بعثة أُسامة أنّ هنالك تأكيداً وحثّاً من قبل النبيﷺ على الاسراع في تجهيز هذا البعث من جهة، وتثاقل وتباطؤ بعض الصحابة عن هذا الأمر والذي كان سبباً في عدم خروجه في حياة النبيﷺ. من جهة أُخرى، وجد بعضهم في هذه القضية ما يمسُّ بما يعتقده في عدالة الصحابة المطلقة وانقيادهم المطلق لأمر الله وأمر رسولهﷺ! فحاول جاهداً أن يلتمس التوجيهات والأعذار لهم!

وليت الأمر توقف عند هذا الحد من ايجاد الأعذار والمبررات والتوجيهات، بل تمادى الأمر ببعضهم إلى انكار مسلمات التاريخ والروايات الصحيحة، بل اجماع المحدثين والمؤرخين!

وممن حاول الاعتذار للصحابة أو ايجاد المبررات لتخلفهم الشيخ سليم

---

(١) انظر رسالة السيّد شرف الدين للشيخ المظفر في مقدمة كتاب السقيفة.

البشري في إحدى مراجعاته مع السيّد عبد الحسين شرف الدين، وحاصل ما اعتذر لهم:

أولا: «إنّ النبيﷺ وإن كان حثهم على الاسراع، ولكنه تمرض بعد ذلك.. فلم تسمح نفوسهم بفراقه وهو في تلك الحال، فتربصوا ينتظرون «في الجرف» ما تنتهي إليه حاله، وهذا من وفور إشفاقهم عليه، وولوع قلوبهم به. ومقصدهم في تثاقلهم إمّا قرة عيونهم بصحته، وإما التشرف بتجهيزه، وتوطيد الأمر لمن يتولى عليهم من بعده، فهم معذورون في تربصهم.

ثانياً: واعتذر عن طعنهم في امارة أُسامة: بأنّ سببها هو حداثة سنّه، وهم شيوخ وكهول، ونفوس الشيوخ والكهول تأبى النزول على حكم الشبان»[1].

ونفس هذه الاعذار ردّدها الكاتب محمد حسين هيكل وغيرهما، وجوابهم واضح، إذ إنّ هؤلاء يسلمون بوجود النص وهو أمر النبيﷺ لهم بالاسراع في بعثة أُسامة، إلاّ أنّهم آثروا البقاء إما شفقة على النبيﷺ، أو انتظاراً لما يؤول إليه أمر المسلمين من بعده.. فهم كانوا معذورين في ذلك - بحسب زعمهم -. فهل من الشفقة على النبيﷺ مخالفة أمره؟ ألا يعني هذا «أنهم آثروا في هذا الأمر مصلحة الإسلام بما اقتضته أنظارهم لا بما أوجبته النصوص النبوية»[2].

أ مّا الاعتذار لهم في طعنهم بتأمير أُسامة لحداثة سنّه، وان نفوس الشيوخ والكهول تنفر بطبعها من الانقياد للأحداث.. فيقول السيّد شرف الدين إنه: «ممنوع إن كان المراد الاطلاق في هذا الحكم، لأنّ نفوس المؤمنين من الشيوخ الكاملين في ايمانهم لا تنفر من طاعة الله ورسوله في الانقياد للأحداث، ولا في غيره من سائر الأشياء ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ

(١) شرف الدين، المراجعات: ٣٧٠ .

(٢) انظر، حياة محمد: ٤٩٥ - ٤٩٦ .

﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾[١]، ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾[٢]»[٣].

وقد مرّ بنا سابقاً جواب الشيخ المظفر عن هذين التبريرين، وليت الأمر قد توقف عندهما! ولم يتطور إلى انكار مسلمات التاريخ وما تطابق عليه المؤرخون وكتّاب السيرة والمغازي والآثار!

وهذا ما حصل - وللأسف الشديد - على أيدي ابن تيمية وابن كثير وأمثالهما من بعض الكتّاب المحدثين.

فمن المسلم به بين المؤرخين دخول أبي بكر وعمر في بعثة أُسامة، وقد صرّح بذلك أئمة التاريخ والمغازي منهم: ابن سعد في الطبقات، واليعقوبي في تاريخه، والذهبي في تاريخ الإسلام، وابن عساكر في تاريخ دمشق، وابن سيد الناس في عيون الأثر، والنبهاني في الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية، وزيني دحلان في السيرة النبوية، ومن الكتّاب المحدثين، محمد حسين هيكل في حياة محمد، ومحمد أبو زهرة في خاتم النبيين الذي قال «أجمع الرواة أنّه ﷺ جعل في امرته - أي في أمرة أُسامة - الشيخين» بالاضافة إلى مصادر تاريخية أُخرى[٤].

مع هذا التسالم والاجماع من المؤرخين والرواة على دخول الشيخين في

---

(١) النساء: ٦٥ .

(٢) الحشر: ٧ .

(٣) شرف الدين، المراجعات: ٣٧٠ .

(٤) انظر: ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٥، واليعقوبي: ٢ / ٧٧، والذهبي، تاريخ الإسلام مجلد المغازي: ٧١٤، وابن عساكر، تاريخ دمشق: ٨ / ٤٣ و ٤٥، وابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢/ ٣٥٠، والنبهاني، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية: ١٣٣، وزيني دحلان، السيرة النبوية: ٢ / ١٤٤، وهيكل، حياة محمد: ٤٩٤، وأبو زهرة، خاتم النبيين: ٢ / ١٤٧٩ .

بعثة أُسامة يأتي ابن تيمية ليقول مكابرة وعناداً: «إنّ هذا من الكذب المتفق على أنه كذبٌ عند كلٍّ من يعرف السيرة، ولم ينقل أحد من أهل العلم أن النبيّ أرسل أبا بكر وعثمان في جيش أُسامة، وإنما روي ذلك في عمر، وكيف يرسل أبا بكر في جيش أُسامة وقد استخلفه يصلّي بالمسلمين مدّة مرضه»[١].

وقد كرّر هذا التكذيب في أكثر من موضع من كتابه مدعياً الاجماع!! قال: «فأما تأمير أُسامة عليه - أي على أبي بكر - فمن الكذب المتفق على كذبه»[٢].

وردّ عليه الصالحي الشامي بعد أن نقل كلامه، فقال: «وفيما ذكره نظر من وجهين، أوّلهما قوله: لم ينقل أحد من أهل العلم... فقد ذكره محمّد بن عمر وابن سعد، وهما من أئمة المغازي. ثانيهما قوله: كيف يرسل أبا بكر في جيش أُسامة؟ ليس بلازم، فإنّ إرادة النبي بعث جيش أُسامة كان قبل ابتداء مرض رسول الله، فلما اشتد به المرض استثنى أبا بكر وأمره بالصلاة بالناس..»[٣].

وكلام ابن تيمية ساقط من أساسه بعد أن أجمع كبار المؤرخين على خلافه. ولكن يبقى الكلام في دعوى أن النبي استثنى أبا بكر للصلاة فهذا ما يأتينا بحثه لاحقاً.

وممّن ردّ كلام ابن تيمية الحافظ ابن حجر في كتاب فتح الباري[٤].

ولم تنتهِ أمر هذه المكابرة عند ابن تيمية في قضية تاريخية مُسلَّمة، فقد جاء من بعده ابن كثير الدمشقي ليردد ما قاله ابن تيمية فيقول: «وقد انتدب - أي رسول الله - كثيراً من الكبار من المهاجرين الأولين والأنصار في جيشه - أي

---

(١) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥ / ٤٨٦ .

(٢) المصدر نفسه: ٥ / ٤٩١، وانظر: ٤ / ٢٧٦ و ٦ / ٣١٩ و ٨ / ٢٩٢ من المصدر نفسه .

(٣) ابن تيمية، منهاج السنة: ٥ / ٤٨٦ .

(٤) ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٨ / ١٢٤ باب بعث أُسامة بن زيد .

جيش أُسامة - فكان من أكبرهم عمر بن الخطاب. ومن قال أن أبا بكر كان فيهم فقد غلط..». مكرراً بذلك ما قاله سَلَفه، إلاّ أنّه يتراجع خطوة إلى الوراء فيقول بعد ذلك: «ولو فرض أنه كان قد انتدب معهم فقد استثناه الشارع من بينهم بالنص عليه للإمامة في الصلاة التي هي أكبر أركان الإسلام»[١].

ولا ندري لماذا هذه المكابرة في تزييف حقائق التاريخ، وتكذيب ما هو مسلم عند المؤرخين والرواة؟

فإذا كان ابن تيمية وهو الذي يعرفونه بالحافظ وشيخ الإسلام، وابن كثير وهو عندهم أيضاً الحافظ ويعتبرونه من أئمة التفسير والسيرة، لا يتورعان في تكذيب المسلمات القطعية في التاريخ، فلا نستغرب أن يأتي بعدهما من يتمادى أكثر من ذلك ليقول: «الصحيح أنّ أبا بكر وعمر!! لم يكونا في بعث أُسامة، بدليل أنهما كانا في المدينة يوم وفاة رسول الله ﷺ في حين كان جيش أُسامة خارجها»[٢]، فيجعل من وجودهما في المدينة الذي يدل على تخلفهما عن بعث أُسامة دليلا على أنهما لم يكونا في بعث أُسامة!! فتأمل.

٧ - الدروس والعبر

في هذا القسم من مفردات أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة، كثير من الدروس والعبر التي يمكن لنا أن نستلهمها ونوظفها في حياتنا الايمانية والعملية، وسوف نقتصر على بعضها:

أولا: حكمة وتدبير القيادة:

لقد كان في التقسيم الإدارية الذي اتخذه رسول الله ﷺ في تقسيم عماله

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤١٤.

(٢) أبو شهبة - محمد، السيرة النبوية: ٢ / ٥٨٥ (الهامش)، طبعة دار القلم - دمشق، الطبعة السادسة، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

وولاته في بلاد اليمن الأثر الكبير في القضاء على حركة التنبؤ والردة التي قادها الأسود العنسي ومسيلمة الكذاب.

فهذه البلاد المتنوعة جغرافياً، وفيها نسيج قبلي متنوع، وتتوزع فيها الولاءات القبلية، لا يمكن السيطرة عليها من دون تعدد الولاة والعمال بحسب جغرافية المكان، وتعدد القبائل، وتوزع الولاءات، ومن هنا لم تتمكن حركات الردة والتنبؤ من توحيد هذا البلد تحت سيطرتها، فبقي من يقاومها ويحاربها، مما سهل القضاء عليها بعد ذلك.

ولهذا لم يرسل النبيﷺ من المدينة بعثة عسكرية للقضاء عليها وإنما حاربها بالرُسل كما تقول الرواية. وهو أُسلوب قيادي حكيم، نستلهم منه أوجه من الحكمة في إدارة البلاد وتوزيع المهام ومعالجة المشاكل الداخلية للبلد، وهو درس كبير نستفيده من السيرة العملية لرسول اللهﷺ في كيفية توزيع المهام، والتعامل مع الأحداث الطارئة.

ثانياً: الحيطة والحذر وسبق النظر:

لقد كان رسول اللهﷺ بعيد النظر، عميق الغور في كل أفعاله وأقواله وتصرفاته، وخاصة فيما يتعلّق بمستقبل الإسلام ودولتها الفتية من بعده، ولهذا كان دائم التفكير في هذا الأمر، ويضع لكل الاحتمالات القريبة والبعيدة ما يناسبها من خطط عملية مناسبة. وما بيعة الغدير إلاّ خطوة عملية في هذا الاتجاه، وما تجهيز جيش أُسامة إلاّ خطوة ثانية في الاتجاه الصحيح لتطبيق ما تمّ في بيعة الغدير، ولتجتنب الأُمة آثار الاختلاف من بعده.

وصفة الحيطة والحذر وبعد النظر والتحسب للأُمور.. من أهم الصفات القيادية التي ينبغي أن يتحلى بها الداعية. وهو يتعامل مع الأحداث والوقائع المحيطة به. وفي مفردات سيرة الرسول الأكرمﷺ يجد الكثير من الخطوات

العملية التي اتخذها ﷺ والتي تدل على هذه الميزة القيادية العظيمة فيه، والأمثلة على ذلك أكثر من أن تحصى.

ثالثاً: اكتشاف القابليات والمواهب في جيل الشباب:

بغض النظر عن ملابسات بعث أُسامة وما رافقها من اعتراضات، ومن ثمّ تثاقل وتباطؤ وتخلف البعض.. فإنّ اختيار رسول الله ﷺ لأُسامة بن زيد لقيادة هذا الجيش وهو الشاب الذي لم يتجاوز العقد الثاني من عمره، ومن ثمّ ردّ اعتراضات المعترضين على ذلك وبقوة وحزم، يدل على أن رسول الله ﷺ كان على معرفة بالقابليات والملكات والمواهب التي يتمتع بها هذا الشاب، وجيل الشباب من أمثالها، والتي لابد من توظيفها لصالح الإسلام والمسلمين، ويجب على الجيل الذي شاخ في الحروب والغزوات أن يفسح المجال لهذه الطاقات الشابة لأخذ دورها في سوح الجهاد والقتال.

إلاّ أنّ هذا الدرس لم يتمكن المعترضون من استيعابه فاعترضوا على قيادة أُسامة لصغر سنّه! رغم أمر رسول الله ﷺ بالانضواء تحت لوائه! هذا إن لم نفسر اعتراضهم بتفسير آخر دلّت عليه الأحداث اللاحقة!

الأسئلة:

١ – كيف كانت أوضاع الجزيرة وأطرافها في أواخر حياة الرسولﷺ ؟

٢ – كيف كانت أوضاع بلاد اليمن في السنة الحادية عشرة؟

٣ – ما هي الأُسس التي اتبعها رسول اللهﷺ في توزيع ولاته وعمّاله في بلاد اليمن؟

٤ – كيف بدأت حركة الأسود العنسي في اليمن؟ وماذا كانت نتائجها؟

٥ – هل كانت الدولة الرومانية تشكل تهديداً للدولة الإسلامية؟ ولماذا؟

٦ – ما هي أسباب وحيثيات إعداد جيش أُسامة؟

٧ – ما هي الدروس والعبر المستفادة من أحداث السنة الحادية عشرة؟

الدرس الخامس والثلاثون

أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة

(جيشٌ لَمْ يَذْهَب، وكتابٌ لَمْ يُكتَب، والرَّسول يرحل)

محاور البحث:

١ - حوادث ما قبل وفاة رسول الله ﷺ :

أ - مصير جيش أُسامة

ب - الكتاب الذي لم يكتب.

ج - ماذا كان يريد الرَّسول ﷺ أن يكتب؟

٢ - حوادث وفاة رسول الله ﷺ :

أ - مرض النبي ﷺ

ب - وفاة النبي ﷺ

ج - تجهيز النبي ﷺ والصلاة عليه

د - تاريخ دفن النبي ﷺ

هـ - أين دفن النبي ﷺ

٣ - كلمات الرثاء والعزاء بمصاب فقد النبي ﷺ

٤ - الدروس والعبر

- الأسئلة

جيشٌ لَمْ يَذْهَب، وكتابٌ لَمْ يُكتَب، والرَّسول يرحل

١ – حوادث ما قبل وفاة رسول الله ﷺ :

أ – مصير جيش أُسامة:

من المعروف تاريخياً أنّ جيش أُسامة لم يذهب في الوجهة إلى أراد رسول الله ﷺ لهذا الجيش أن يذهب إليها، ولم يتعدَّ تحرك هذا الجيش منطقة الجُرف على مقربة من المدينة!

ولم يكن سبب عدم ذهاب الجيش أو تعليق ذهابه، بأمر من النبي ﷺ ! أو إشارة منه إلى ذلك. بل إنّ النصوص التاريخية تؤكد على أنّ النبي ﷺ كان حريصاً أشد الحرص على خروج هذا الجيش إلى جهة البلقاء من أرض الروم، حتّى آخر لحظات حياته الشريفة!

فما هو السبب الذي حال دون مسيرة هذا الجيش إلى الوجهة التي وجهها إليها رسول الله ﷺ ؟

حاول بعض كتّاب السيرة أن يجعلوا من مرض رسول الله ﷺ السبب الرئيسي لذلك!

يقول الدكتور هيكل: «وخرج أُسامة والجيش معه إلى الجُرف على مقربة من المدينة، يتجهّزون للسفر إلى فلسطين، وإنهم لفي جهازهم إذ حال مرض رسول الله ﷺ ، ثمّ اشتداد المرض به دون مسيرهم»!

ثمّ يحاول هيكل أن يجيب على تساؤل منطقي موضوعي يتبادر إلى ذهن

كل مُسلم يؤمن بولاية الرسول ووجوب اتّباع أمره، فيقول: «وقد يسأل إنسان: كيف يحول مرض رسول الله ﷺ دون مسيرة جيش أمر هو بجهازه وسفره؟ لكنّ مسيرة جيش إلى الشام يقطع البيد والصحاري أياماً طويلة ليست بالأمر الهيّن، ولم يكن يسهل على المسلمين، والنبيّ أحبّ إليهم من أنفسهم، أن يتركوا المدينة وهو يشكو المرض وهم لا يعلمون ما وراء هذا المرض! . . . فمن حقّ الصحابة أن يخافوا، وأن يتمهّلوا في السير من معسكرهم بالجُرف إلى الشام حتّى تطمئن نفوسهم إلى ما يكون من أمر الله في نبيّه ورسوله»[1].

إلاّ أنّ الدكتور هيكل - وللأسف الشديد - لم يكن موفقاً في ابراز السبب الحقيقي الذي حال دون مسيرة جيش أُسامة، ولم يوفق أيضاً في التبريرات التي ذكرها للصحابة في تخلفهم من هذا الجيش ومن ثمّ تأخير مسيره إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ .

فالسبب الحقيقي لتخلّف رموز الصحابة عن بعث أُسامة لم يكن مرض رسول الله ﷺ بذاته، وإنَّ ما سوف تؤول إليه الأُمور السياسية وخلافته ﷺ بعد وفاته! والوقائع المتسارعة خلال هذه الفترة الزمنية القصيرة، من الكتاب الذي لم يكتب إلى قصة سقيفة بني ساعدة، وقضية البيعة التي تمت فيها لأبي بكر. . تدلّ بوضوح على السبب الحقيقي للتخلف عن جيش أُسامة والحيلولة دون مسيره.

ومهما أحسنّا الظن بالصحابة وحاولنا أن نلتمس المبررات اللازمة لبعض تصرفاتهم، إلاّ أنّنا نواجه في هذه القضية تخلفاً واضحاً عن أمر رسول الله ﷺ ! فكيف يمكن أن يكون التخلف عن أمر رسول الله وتأكيداته، بل ولعنه للمتخلفين عن جيش أُسامة! من الأُمور الحسنة للصحابة، ودافعهم فيها حب رسول الله ﷺ؟ والشفقة عليه من المرض؟ في الوقت الذي يؤكد القرآن الكريم وفي أكثر

(١) هيكل - محمد حسين، حياة محمد: ٤٩٥ - ٤٩٦ .

من آية على طاعة رسول الله ﷺ المطلقة والانقياد لأوامره ونواهيه، بما لا يترك لنا التماس الأعذار التي تخالف الواقع الموضوعي لمجريات الأحداث.

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾(١).

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾.

وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ﴾.

وقال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾.

وقال سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾(٢).

وقال عزّ من قائل: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ عَلَىٰٓ أَمْرٍ جَامِعٍ لَّمْ يَذْهَبُوا۟ حَتَّىٰ يَسْتَـْٔذِنُوهُ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ﴾(٣).

ألم يكن بعث أُسامة من الأمر الجامع الذي جمع رسول الله ﷺ له الناس وحثهم عليه بما يقطع العذر على كلِّ معتذر؟ وهل يحق لنا أن نقول بعد هذا كلّه: «فمن حقّ أصحابه أن يخافوا وأن يتمهّلوا في السير من معسكرهم

---

(١) الحشر: ٧.

(٢) النساء، الآيات: ٥٩، ٦٤، ٦٥، ٦٩.

(٣) النور: ٦٢.

بالجرف.. حتّى تطمئن نفوسهم»!

ومهما يكن من أمر، فقد عاد جيش أُسامة من الجرف إلى المدينة بعد وفاة رسول اللهﷺ، ومن قبلهم عاد قائدهم مع رموز الصحابة إليها.

قال الواقدي: «فأقبل أُسامة إلى المدينة ومعه عمر وأبو عبيدة بن الجراح، فانتهوا إلى رسول اللهﷺ يموت.. ودخل المسلمون الذين عسكروا بالجُرف المدينة، ودَخل بُريدة بن الحُصيب بلواء أُسامة مَعقوداً حتّى أتى به باب رسول اللهﷺ فَغَرَزه عنده»[١].

وهكذا انتهت بعث أُسامة إلى لواء معقود عند باب بيت رسول اللهﷺ! وبعد أن استتب الأمر السياسي وتبوّأ الخلافة أبو بكر، بدأ بجيش أُسامة فانفذهُ، إذ استنفد الغرض الذي من أجله لم يذهب الجيش في حياة رسول اللهﷺ، وهو أمر الخلافة السياسية لرسول اللهﷺ! وقد تخلف عن جيش أُسامة في بعثه الثاني من تخلّف عنه في بعثه الأول!

يقول أبو زهرة: «وتخلّف عنها الشيخان أبو بكر وعمر، فأما أبو بكر فقد اختبره الله تعالى بالخلافة، وأما عمر، فلأنه كالوزير لأبي بكر، استأذن أُسامة في أن يبقى بجواره..»[٢].

لقد أراد رسول اللهﷺ أن تكون بعثة أُسامة في حياته، وشدد في تنفيذها وهو حي، وليس لدينا أي نص تاريخي يؤكد ما يدعيه أبو زهرة من أنّ النبيﷺ: «شدد في التوصية بتنفيذها إذا مات»[٣].

فما أراده رسول اللهﷺ لم يقع! وما وقع بعد وفاته لم يردهﷺ لانتفاء

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٢٠ .

(٢) أبو زهرة، خاتم النبيين: ٢ / ١٤٨٠ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ١٤٨٠ .

الغرض، وانتفاء الأسباب التي دعته ﷺ إلى تجهيز هذا الجيش، والتي ذكرناها في الدرس السابق!

ب - الكتاب الذي لم يكتب:

لقد كان رسول الله ﷺ حريصاً على أُمته كما وصفه القرآن الكريم: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾[1]، فكان يحرص أشد الحرص على هداية أُمته، واستقامتها وثباتها على خط الهداية.

فكان يقلقه كثيراً مصير هذه الأُمة من بعده، ويتخوّف عليهم من الضَلال والزيغ والانحراف عن الحق.

ولهذا وضع لهم طريق الهداية والاستقامة من بعده، من خلال أحاديثه وخطبه، وخاصة خطبه في حجة الوداع وبيعة الغدير، التي تضمنت حديث الثقلين المتواتر بين العلماء.

وبقيت هذه الخصلة العظيمة ملازمة لرسول الله ﷺ حتى أواخر أيام حياته الشريفة، حيث عمد وهو على فراش المرض لأن يكتب لأُمته كتاباً يعصمها من الضلال من بعده، إلاّ أنّ هذا الكتاب لم يكتب! لملابسات توضحها النصوص التاريخية، فكانت الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين أن يكتب لأُمته ذلك الكتاب.

وقصّة هذا الكتاب وما جرى من ملابسات عند إرادة كتابته من القضايا المعروفة والمشهورة في كتب الصحاح والسنن والآثار، وتضمنتها أشهر كتب الحديث عن عامة المسلمين، وعرفت بـ «رزيّة يوم الخميس» عندهم.

---

(١) التوبة: ١٢٨.

وفيما يلي طرفاً من روايات هذه القضية، لنتوقف بعدها عند بعض مداليلها:

عقد ابن سعد في طبقاته فصلا تحت عنوان: «ذكر الكتاب الذي أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه لأُمته في مرضه الذي مات فيه» وذكر تحت هذا العنوان جملة من الروايات التي تسلط الأضواء على هذه القضية بالتفصيل، ومن هذه الروايات:

ما رواه سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: اشتكى النبيّ ﷺ، يوم الخميس، فجعل - يعني ابن عباس - يبكي ويقول: يوم الخميس وما يوم الخميس! اشتدّ بالنبي ﷺ وجعه فقال: ائتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً، قال: فقال بعض من كان عنده إنّ نبيّ الله لَيهجُر[1]!! قال: فقيل له: ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: أوَ بعد ماذا؟ قال: فلم يدعُ به.

وفي رواية ثانية بنفس السند: قال ابن عباس: «يوم الخميس وما يوم الخميس! قال: اشتدّ برسول الله ﷺ وجعه في ذلك اليوم فقال: ائتوني بدواة وصحيفة اكتب لكم كتاباً لا تضلّوا بعده أبداً، فتنازعوا، ولا ينبغي عند نبيّ تنازع، فقال: ما شأنه، أَهَجَرَ؟ استفهموه! فذهبوا يعيدون عليه فقال: دَعوني فالّذي أنا فيه خيرٌ ممّا تدعونني إليه..».

وفي رواية ثالثة عن ابن عباس أيضاً، قال: «لمّا حضرت رسول الله ﷺ الوفاة وفي البيت رجالٌ فيهم عمر بن الخطاب، فقال رسول الله ﷺ: هلُمَّ اكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده! فقال عمر: إنّ رسول الله قد غلبه الوجع وعندكم القرآن، حَسبُنا كتابُ الله! فاختلفَ أهلُ البيت واختصموا، فمنهم مَن يقول: قرّبوا يكتبُ لكم رسول الله ﷺ، ومنهم من يقول ما قال عمر، فلما كثر اللّغط

(١) الهجر: هَجَرَ يَهْجُر هَجْراً، بالفتح: إذا خلط في كلامه وإذا هذى (لسان العرب). والمراد به هنا ما يقع من كلام المريض الذي لا ينتظم، ولا يعتد به لعدم فائدته.

والاختلاف وغمّوا رسول الله ﷺ ، فقال: قوموا عنّي! فقال عبيد الله بن عبد الله ; فكان ابن عبّاس يقول: الرزيّة كلّ الرزيّة ما حالَ بين رسول الله ﷺ ، وبين أن يكتب لهم ذلك الكتاب من اختلافهم ولغطهم».

وفي رواية جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «لمّا كان في مرض رسول الله ﷺ الذي توفّي فيه دعا بصحيفة ليكتب فيها لأُمته كتاباً لا يضلّون ولا يُضلّون، قال: فكان في البيت لغطٌ وكلامٌ، وتكلم عمر بن الخطاب، قال: فرفضه النبي!».

وهنالك رواية عن عمر بن الخطاب قال: «كُنّا عند النبيّ، وبيننا وبين النساء حجاب، فقال رسول الله ﷺ : اغسلوني بسبع قرب وائتوني بصحيفة ودواة أكتب لكم كتاباً لن تضلّوا بعده أبداً، فقال النسوة: ائتوا رسول الله ﷺ بحاجته، قال عمر: فقلتُ اسكتْنَ فإنكنّ صواحبه إذا مرض عصرتُنّ اعينكنّ، وإذا صحَّ أخذتن بِعنقهِ! فقال رسول الله ﷺ : هُنّ خير منكم»[1].

وهذه الروايات يرويها البخاري ومسلم في صحيحيهما، وأحمد بن حنبل في مسنده، وغيرهم من أهل السنن والآثار، وتجدها في أبواب متفرقة من هذه الكتب.

وقد علّق السيّد عبد الحسين شرف الدين على الرواية الثالثة فقال: «وهذا الحديث مما لا كلام في صحته ولا في صدوره، وقد أورده البخاري في عدّة مواضع من صحيحه، وأخرجه مسلم في آخر الوصايا من صحيحه أيضاً، ورواه أحمد من حديث ابن عباس في مسنده، وسائر أصحاب السنن والأخبار، وقد تصرفوا فيه إذ نقلوه بالمعنى، لأنّ لفظه الثابت أن النبي يهجر، لكنهم ذكروا أنه قال: إنّ النبيّ قد غلب عليه الوجع، تهذيباً للعبارة، وتقليلا لما يستهجن منها».

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٧٠ - ٣٧١ .

ثمّ يذكر السيّد شرف الدين ما يؤيد هذا التصرف من قبل الرواة من رواية الجوهري في كتاب السقيفة الذي يروي نفس الرواية إلاّ أنّه ينقل ما قاله عمر بالمعنى فقول: فقال عمر كلمة معناها أن الوجع قد غلب على رسول الله ﷺ !

ثمّ يقول: «ويدلك على هذا - أي تصرف الرواة في متن الحديث - إن المحدثين حيث لم يصرحوا باسم المعارض يومئذ، نقلوا المعارضة بعين لفظها» ويذكر رواية البخاري ومسلم التي لم يصرح فيها باسم عمر بن الخطاب التي جاء فيهما: فقالوا: هَجَر رسول الله، أو أنّ رسول الله يهجر[1].

وما ذكره السيّد شرف الدين حول تغيّر الرواة اللفظة، وتهذيب العبارة، والنقل بالمعنى.. وأمثال ذلك، فهي من الأُمور الثابتة عن الرواة والمحدثين وخاصة في الأُمور الحساسة والتي تلامس شأن الخلافة أو الصحابة!! فيجعلون كلمة مكان كلمة، أو يحذفون العبارة ويضعون مكانها (كذا وكذا)، وهذا ليس بغريب وامثلتها لدى الرواة كثيرة جدّاً لمن تمعن في كتبهم وقارنها بأمثالها من كتب الرواية.

ومهما يكن من أمر الرواة والمحدثين وتلاعبهم بألفاظ الأحاديث، فمن الثابت تاريخياً أن عمر بن الخطاب هو الذي قال ما قال في محضر رسول الله ﷺ ! ولا نستغرب صدور ذلك منه، فله أمثال ذلك من المواقف الكثيرة.

يقول الكاتب والمؤرخ المصري الشهير الدكتور حسين مؤنس عن هذه القضية ومقولة عمر بن الخطاب:

«.. وفي هذا الجو الحافل بالحركة والفوضى يقول قائل: «إنّ رسول الله يَهْجُر» والتهجير هنا معناه ما يصدر عن الإنسان من كلام بغير حساب إذا اشتدت به الحمى، وهي كلمة كبيرة اجتهد أهل السنة في أن ينفوها عن عمر، أو

(١) شرف الدين، المراجعات، المطبوع مع تشييد المراجعات: ٤ / ٣٣٣ - ٣٣٥ .

يفسروها تفسيراً يرضي من يحب رسول الله ﷺ ويعرف قدره، ولكن من المؤكد أن عمر بن الخطاب قال ذلك. . . وقد اجتهد علماء السنة في الدفاع عن عمر فيما قال، وتبرير موقفه، وانظر في هذا ما قاله القاضي عياض في «الشفاء» وما قاله الفاسي في «غاية المرام» وابن كثير في «البداية والنهاية» والنوري، والبلاذري»[١].

ولا نريد أن ندخل في تفاصيل ما ذكره هؤلاء الكتّاب في كتبهم في دفاعهم عن عمر وتبرير موقفه، لأ نّها أعذار واهية، بل إن بعضها تخطئ النبي ﷺ في موقفه! وتجعل من عمر صاحب الهام من الله، وانه كان موفقاً في ادراك المصالح[٢]!

فالقضية أو الرزية - كما يسميها حبر الأُمة عبد الله بن عباس - أكبر من أن نلتمس لها الأعذار والتبريرات، لأنها فوتت على الأُمة الإسلامية ما يحفظها من الضلال والزيغ والانحراف[٣].

ج - ماذا كان يريد الرَّسول ﷺ أن يكتب؟:

تحت هذا العنوان روى ابن كثير طرفاً من الروايات التي ذكرها البخاري حول الكتاب الذي لم يكتب، أو رزية يوم الخميس - كما سمّاها ابن عباس - وتحاشى ذكر أي رواية تشير إلى من قال «إن النبي يهجر!» ثمّ علّق على هذه الروايات فقال: «وهذا الحديث مما قد توهّم به بعض الأغبياء! من أهل البدع من الشيعة وغيرهم، كلٌ مدّع أنه كان يريد أن يكتب في ذلك الكتاب ما يرمون إليه

---

(١) مؤنس - حسين، دراسات في السيرة النبوية: ٢٥٥ - ٢٥٦، طبعة الزهراء للإعلام العربي - القاهرة، ط . الثانية، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م) .

(٢) شرف الدين، المراجعات، المطبوع مع تشيد المراجعات: ٤ / ٣٣٨ - ٣٤٣ .

(٣) انظر ما قاله ابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج: ١ / ١٨٣ تبريراً لمقولة عمر بن الخطاب .

من مقالاتهم، وهذا هو التمسك بالمتشابه وترك المحكم. وأهل السنة يأخذون بالُمحكم ويردّون ما تشابه إليه، وهذه طريقة الراسخين في العلم.. وهذا الذي كان يريد عليه الصلاة والسلام أن يكتبه قد جاء به الأحاديث الصحيحة التصريح بكشف المراد منه!».

ثمّ ذكر ثلاث روايات ذات مضمون واحد، وينتهي سندها إلى عائشة بنت أبي بكر! وفي رواتها عبد الرحمن بن أبي بكر!

جاء في الرواية الأُولى منها: عن عائشة، قالت: «لما كان وجع رسول الله ﷺ الذي قبض منه قال: «ادعوا لي أبا بكر وابنه لكي لا يطمع في أمر أبي بكر طامع ولا يتمناه مُتمنٍّ. ثمّ قال: يأبى الله ذلك والمؤمنون» مرتين. قالت عائشة: فأبى الله ذلك والمؤمنون!

وفي الرواية الثانية، عن عائشة - أيضاً - قالت: لما ثَقُل رسول الله ﷺ قال لعبد الرحمن بن أبي بكر: «ائتني بكتف أو لوح حتى اكتب لأبي بكر كتاباً لا يختلف عليه أحد» فلما ذهب عبد الرحمن ليقوم، قال: «يأبى الله والمؤمنون أن يُختلف عليك يا أبا بكر».

وفي الرواية الثالثة كذلك عن عائشة، قالت: قال رسول الله: «لقد هَمَمتُ أن أرسل إلى أبي بكر وابنه فأعهد، أن يقول القائلون أو يتمنى مُتمنّون، فقال: يأبى الله، أو يدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون!».

ثمّ حاول ابن كثير أن يعزز هذه الروايات بمؤيدات فذكر رواية يرويها البخاري، جاء فيها: اتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فأمرها أن ترجع إليه، فقالت: أرأيت إن جئت ولم أجدك؟ - كأنها تقول الموت - قال: «إن لم تجديني فأتِ أبا بكر».

فعلّق ابن كثير على هذه الرواية بقوله: والظاهر والله أعلم إنها إنما قالت

ذلك لهعليه السلام في مرضه الذي مات فيه صلوات الله وسلامه عليه!

ثمّ قال: وقد خطب عليه الصلاة والسلام يوم الخميس قبل أن يُقبضعليه السلام بخمسة أيام خطبة عظيمة بيَّن فيها فضل الصديق من بين سائر الصحابة، مع ما كان قد نصّ عليه أن يؤمَّ الصحابة أجمعين.. ولعل خطبته هذه كانت عوضاً عما أراد أن يكتبه في الكتاب»[1].

بهذا المنهج استعرض ابن كثير قضية ما رواه رسول اللهصلى الله عليه وآله من كتابه الذي لم يكتب، وبهذا التسطيح تعامل مع الأدلّة، في أعظم قضية تتعلّق بمستقبل الأُمة الإسلامية وسيرها على طريق الهدى والاستقامة.

وهذا المنهج هو نفس المنهج الذي سار عليه ابن تيمية الحراني، وابن قيم الجوزية، ومن حذا حذوهم واتبع طريقهم في التعامل مع الأدلّة والروايات التي تلامس قضية الخلافة السياسية والفكرية لرسول اللهصلى الله عليه وآله .

ولا نريد أن نتوقف كثيراً عند كلام ابن كثير، ففيه الكثير من المفارقات والتدليس العلمي والتاريخي لواقع هذه القضية وما جرى عندها من لغط وكلام غير مسؤول مما آذى النبيصلى الله عليه وآله وصرفه عن كتابة ما عزم على كتابته لهداية أُمته.

إلاّ أنّنا نتوقف عند بعض هذه المفارقات العجيبة وباختصار:

أولا: استدل ابن كثير بروايات حذف منها اسم القائل لمقولة: «انّ النبي يهجر» مع أن هنالك روايات كثيرة تنص على أن قائل هذه المقولة هو عمر بن الخطاب! ورددّها من بعده القوم...

ثانياً: استدل بروايات عائشة في إثبات ما أراد النبيصلى الله عليه وآله أن يكتبه وهو - بحسب زعمها - أراد أن يعهد إلى أبي بكر من بعده! إلاّ أنّهصلى الله عليه وآله لم يكتب ذلك

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤٥٠ - ٤٥٣ . والبداية والنهاية: ٥ / ٢٤٧ - ٢٤٨ .

لأنه: «يأبى الله والمؤمنون أن يختلف عليك يا أبا بكر» بحسب الرواية.

وهذا اللون من الاستدلال فيه مفارقات عجيبة:

١ - إن عمدة الروايات مرويّة عن عائشة بحق أبيها! فهي «تجر النار لقرصها» كما يقال، فهل يمكن أن نثبت أن النبيﷺ أراد أن يعهد لأبي بكر من خلال روايات ابنته عائشة، وولده عبد الرحمن؟

٢ - إن عائشة كان لها موقف معروف من الإمام عليعليه السلام، وهو موقف أتسم بالبغضاء والعداء وجرَّ الأُمة إلى حرب الجمل الأصغر والجمل الأكبر، التي سطرت وقائعها في كتب التاريخ.

ففي رواية يرويها ابن كثير نفسه عن البخاري عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، أنّ عائشة زوج النبيﷺ قالت: لما ثقل رسول اللهﷺ واشتدّ به وجعه استأذن أزواجه أن يمرّض في بيتي فأذن له، فخرج وهو بين الرجلين تخطُّ رجلاه الأرض بين عباس.. وبين رجل آخر. قال عبيد الله: فأخبرت عبد الله بن عباس بالذي قالت عائشة. فقال لي: هل تدري من الرجل الآخر الذي لم تسمِّ عائشة؟ قال: قلتُ: لا. قال ابن عباس: هو عليّ[١].

ولهذه الرواية تتمة في كثير من المصادر حذفها البخاري في صحيحه وتبعه ابن كثير وغيره على ذلك، وهو قول ابن عباس: «إنّ عائشة لا تطيب له - أي لعلي - نفساً بخير» أو «لا تقدر على أن تذكره بخير»[٢].

فإذا كانت عائشة لا تطيب لعلي نفساً بخير، ولا تطيق ذكره في مَن مشى معه النبيﷺ خطوة، فمن الطبيعي أن تنفي وصية النبي - كما سوف يأتينا - أو

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٤٤٦.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٦٥، الطبري: ٣ / ١٨٩.

تروي أن النبيﷺ أراد أن يوصي لأبي بكر، وأمثال ذلك من مروياتها التي كثرت عند احتضار النبيﷺ ووفاته!

٣ - ثمّ إنّ ألفاظ هذا الحديث فيها اختلاف واضطراب، فالنبيﷺ تارة يهم أن يرسل إلى أبي بكر! وأُخرى يدعو عبد الرحمن بن أبي بكر ليأتي بكتف ودواة، وثالثة يقول لعائشة: دعي لي أباك وأخاك!

فلا ندري هل أراد النبيﷺ أن يعهد إلى أبي بكر شفاهاً، أم أراد أن يكتب؟ ولا ندري ما الذي منع النبيﷺ من الكتابة أو المشافهة لأبي بكر بالخلافة! مع أن المجلس ليس فيه إلاّ عائشة وعبد الرحمن بن أبي بكر؟

٤ - في هذه الأحاديث المروية عن عائشة نجد النبيﷺ - وهو الذي عرف بسداد الرأي والقاطعية في تصرفاته - متردداً في أمره، متقلباً في رأيه، يأمر تارة أن يأتى بالكتف والدواة، ثمّ يعدل عن ذلك، ويهم أن يكتب أو يوصي ثمّ يعرض عن ذلك؟! هكذا تصور لنا هذه الروايات شخصية النبيﷺ الذي ﴿وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى * إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحى﴾! وفي أدق الأُمور حساسية لما لها من ارتباط بمصير الأُمة ومستقبلها!

٥ - إنّ هذه الأحاديث تكذب نفسها، ويكذبها الواقع الموضوعي بعد وفاة رسول اللهﷺ ! فهي تنسب لرسول اللهﷺ أنّه قال: «يأبى الله والمؤمنون أن يُختلف عليك يا أبا بكر!» أو: «يأبى الله، أو يدفع المؤمنون، أو يدفع الله ويأبى المؤمنون»! وأمثال ذلك من العبارات المضطربة في تركيبها!!

فإنّ الكثير من المؤمنين ومن صحابة رسول اللهﷺ ، قد أبوا خلافة أبي بكر، ويكفي أن يكون من بين هؤلاء الإمام علي والزهراءعليهما السلام . ولا زال الاختلاف على أبي بكر وخلافته قائماً منذ اليوم الأول لوفاة رسول اللهﷺ وإلى ويومنا هذا، بل إنه أول خلاف وقع بين المسلمين بعد رسول اللهﷺ ، وقصة

سقيفة بني ساعدة وما جرى بعدها خير شاهد على هذا الخلاف، وابطال هذا الزعم.

يقول الشهرستاني في الملل والنحل: . . وأعظم خلاف بين الأُمة خلاف الإمامة، إذ ما سُل سيف في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سل على الإمامة في كل زمان[١].

وبكلمة واحدة، دعوى النص على استخلاف أبي بكر شرف لم يدعيه أبو بكر لنفسه! ولا ادعاه له من تحمس لخلافته!!

٦ - ثمّ إن كانت خلافة أبي بكر بهذه المثابة ويأبى الله والمؤمنون الاختلاف فيه! فما معنى قول عمر بن الخطاب: «ألا إنّ بيعة أبي بكر كانت فلتة[٢]، وقى الله المسلمين شرها، فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه! فأيما رجل بايع رجلا من غير مشورة من المسلمين، فإنهما تَغِرَّة[٣]، يجب أن يقتلا»[٤].

٧ - وأخيراً، إن كانت أُمور الخلافة محسومة لأبي بكر في علم الله وعلم رسوله، كما تدعي الرواية، فلا يبقى معنى لبكاء ابن عباس، بعد أن جرت الأُمور وفق مشية الله وإرادة الرسول! ولا معنى لأن يقف النبيﷺ في هاجرة الحر الشديد في غدير خم ليقول من كنت مولاه فهذا علي مولاه، ولا معنى حينئذ لحديث الثقلين وعشرات الأحاديث الدالة على الوصية والخلافة لأهل البيت. . فهل يمكن لنا أن نلتزم بذلك؟

---

(١) الشهرستاني - أبي الفتح محمد بن عبد الكريم، الملل والنحل: ١ / ٢٤، طبعة دار المعرفة - بيروت .

(٢) فلتة: أي دون تدبر وتمهل .

(٣) تغرة: أي غرر بنفسه تغريراً، وعرضها للهلاك .

(٤) المصدر نفسه: ١ / ٢٤ .

لهذه الملاحظات التي لم نفصل الكلام فيها كثيراً، وغيرها نجزم بأن هذه الأحاديث وأمثالها من الأحاديث موضوعة، وهذا ما اعترف به ابن أبي الحديد المعتزلي حيث قال عن هذا الحديث: «إنّه مصنوع، مع ما فيه من المخالفة والمباينة»[١].

أما المؤيدات التي ذكرها ابن كثير من رواية المرأة التي جاءت النبيﷺ . . إلى قصة صلاة أبي بكر بالمسلمين، إلى خطبة رسول اللهﷺ . . فقصة المرأة التي جاءت النبيﷺ ليس فيها شاهد أو مؤيد إلى ما ذهب إليه، وعلى فرض وقوعها فهي لا تدل على أنها وقعت في أيام مرضهﷺ ، أو أن رجوعها إلى أبي بكر تكون في أيام خلافته، وقضية الصلاة بالمسلمين، وخطبة رسول اللهﷺ فسوف تأتي الاشارة إليهما.

وحاول بعضهم أن يوجد بدائل أُخرى لما أراد رسول اللهﷺ أن يوصي به ويكتبه في كتابه فقال: «وقيل: أراد أن يكتب كتاباً فيه مهمات الأحكام ملخصة ليحصل الاتفاق على المنصوص عليه، وكان ذلك بوحي أو باجتهاد، ثمّ تركه بوحي أو باجتهاد ونسخ الأمر الأول»[٢].

وجاء في رواية البخاري أن رسول اللهﷺ وبعد أن تنازع عنده القوم وقالوا: «هجر رسول الله، قال: دعوني فالذي أنا فيه خير مما تدعوني إليه، وأوصى عند موته بثلاث: أخرجوا المشركين من جزيرة العرب، وأجيزوا الوفد بنحو ما كنت أجيزهم، قال - الراوي - ونسيت الثالثة»[٣].

ثمّ فرعوا على الثالثة التي قال الراوي «نسيتها» فجاء في فتح الباري: قال

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٦ / ١٣ و ١١ / ٤٩ .

(٢) اليمني - محمد الأشخر، بهجة المحافل . . بشرح الفقيه العامري: ٢ / ١٠٩ .

(٣) البخاري، باب جوائز الوفد من كتاب الجهاد والسير .

الداودي: الثالثة الوصيّة بالقرآن، وبه جَزَمَ ابن التين، وقال المهلّب: بل هو تجهيز جيش أُسامة.. لرواية أبي بكر: إنّ النبيﷺ عهد بذلك عند موته! وقال عياض: يحتمل أن تكون هي قوله: «ولا تتخذوا قبري وثناً» فإنها ثبتت في الموطأ مقرونة بالأمر بإخراج اليهود، ويحتمل أن يكون ما وقع في حديث أنس قوله: «الصلاة وما ملكت أيمانكم»[١].

ومن الواضح أنّ هذه الأقوال وأمثالها لا تستند إلى دليل واضح يمكن الركون إليه، ولا تعدو كونها مجرد تخمينات وتخرصات ورجم بالغيب من قبل قائليها، وتبتعد بالقضية عن حقيقتها.

حقيقة ما أراد النبيﷺ أن يكتبه في كتابه:

عندما نتأمل في النصوص والروايات الكثيرة والمقطوع بصدورها من رسول اللهﷺ في ما يتعلق بأمر خلافته من بعده، ابتداءً من حديث الدار وانتهاءً بحديث الثقلين، وبيعة الغدير، لا يساورنا أي شك في أن رسول اللهﷺ كان يريد أن يوثق عهد الخلافة لعليعليه السلام وتأكيد النص بها عليه خاصة، وعلى الأئمة من عترته عامة.

وبمقارنة وتأمل بسيط بين قول رسول اللهﷺ: «ائتوني اكتب لكم كتاباً لن تضلوا بعده.. وقوله في حديث الثقلين: «إني تارك فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا، كتاب الله وعترتي أهل بيتي» يتضح لنا أن المرمى في الحديثين واحد، وأنّهﷺ أراد في مرضه أن يكتب لهم تفصيل ما أوجبه عليهم في حديث الثقلين»[٢].

وهذا المعنى هو الذي فهمه عمر بن الخطاب في ذلك الموقف، وهو الذي

---

(١) ابن حجر، فتح الباري في شرح صحيح البخاري: ٨ / ١٣٥ .

(٢) اليماني، شرف الدين، المراجعات، المطبوع مع تشييد المراجعات: ٤ / ٣٣٧ .

دعاه إلى مقولته العجيبة تلك! «ففهم عمر من قوله: «لن تضلوا بعده أبداً» ماذا سيريد أن يكتب الرسول. ويشهد لتنبيه عمر لذلك قوله: «حسبنا كتاب الله» إذ فهم أن غرض النبي أن يقرن الثقلين أحدهما بالآخر، فكأنه قال: يكفينا واحد منهما، وهو الكتاب ولا حاجة لنا بالآخر، وإلاّ فما معنى قوله: حسبنا.. وهو يدعي هجر النبي ﷺ »[١].

ومن السذاجة بمكان أن نُبعد هذا الفهم عن عمر كما حاول ذلك بعض المدافعين عن عمر، «إذ لم يكن عمر من البعد عن الفهم، وما كان ليخفى عليه من هذا الحديث ما ظهر لجميع الناس، لأنّ القروي والبدوي إنما فهما منه أن ذلك الكتاب لو كتب لكان علّة تامة في حفظ كلّ فرد من الضلال، وهذا المعنى هو المتبادر من الحديث إلى أفهام الناس..»[٢].

وإلاّ لو كانت القضية تتعلق بأبي بكر وأنّ رسول الله ﷺ أراد أن يعهد إليه بذلك! كما يدعي ابن كثير ومن سلك مسلكه، لما رأينا هذا الموقف من عمر بن الخطاب، ولا الكلام الذي صدر منه! وكيف يكون ذلك مع كثرة مواقف عمر في سبيل اتمام البيعة لأبي بكر، فإنه «هو الذي شيّد بيعة أبي بكر وكافح المخالفين، ولولاه لم يثبت لأبي بكر أمر ولا قامت له قائمة، فقد كسر سيف الزبير، ودفع في صدر المقداد، ووطأ سعد بن عبادة وقال: اقتلوهُ فإنه صاحب فتنة، وحطم أنف الحباب بن المنذر، وتوعد من لجأ إلى بيت فاطمة عليها السلام، وكان بيده عسيب نخل بعد خروجه من السقيفة يدعو الناس إلى البيعة»[٣].

ومواقف عمر بن الخطاب من علي عليه السلام، وحساسيته المفرطة فيما يخصُّ

---

(١) المظفر، السقيفة: ٨٤.

(٢) شرف الدين، المصدر نفسه: ٤ / ٣٤١ - ٣٤٢.

(٣) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ٢/ ٨٥.

استخلافه شاهد على انه كان يفهم ويعي جيداً ما يريد رسول الله ﷺ أن يكتبه في كتابه، ولهذا منع ذلك وقال ما قال!

ومما يؤيد ذلك تلك المحاورات التي دارت بين ابن عباس وعمر أيام خلافته والتي نقل طرفاً منها المؤرخون في كتبهم[١]، ولا نجد ضرورة لنقلها بكاملها إلاّ أننا ننقل طرفاً منها:

روى ابن عباس رضي الله عنه قال: دخلتُ على عُمر في أوّل خلافته، قال: من أين جئت يا عبد الله؟ قلت: من المسجد، قال: كيف خلّفتَ ابن عمك؟ فظننته يعني عبد الله بن جعفر، قلتُ: خلّفته يلعب مع أترابه، قال: لم أعنِ ذلك، إنما عَنيتُ عظيمكم أهل البيت، قلت: خلّفته يمتح بالغرب[٢] على نخيلات من فلان، وهو يقرأ القرآن، قال: يا عبد الله، عليك دماءُ البُدن أن كتمتنيها! هل بقى في نفسه شيء من أمر الخلافة؟ قلت: نعم، وأزيدك، سألتُ أبي عمّا يدّعيه، فقال: صدق.

فقال عمر: لقد كان من رسول الله ﷺ في أمره ذَرو[٣]، من قول لا يثبت حجّة، ولا يقطع عذراً، ولقد كان يربع في أمره وقتاً ما، ولقد أراد في مرضه أن يصرّح باسمه فمنعت من ذلك اشفاقاً وحيطة على الإسلام، ولا وربّ هذه البنيّة لا تجتمع عليه قريش أبداً! ولو وليها لانتقضت عليه العرب من أقطارها، فعلم رسول الله ﷺ أنّي علمتُ ما في نفسه، فأمسك، وأبى الله إلاّ إمضاء ما حتم.

قال ابن أبي الحديد: ذكر هذا الخبر أحمد بن أبي طاهر صاحب كتاب

---

(١) انظر: ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢ / ٧٨، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٢١٨، والطبري: ٤ / ٢٢٤.

(٢) الغرب: الدلو الذي يستسقى به.

(٣) ذرو، أي: طرف.

تاريخ بغداد في كتابه، مسنداً[١].

وفي حوار ثان في المصدر نفسه، قال عمر لابن عباس: يابن عباس: وأراد رسول الله ﷺ الأمر له - أي لعلي - فكان ماذا إذا لم يرد الله تعالى ذلك! إنّ رسول الله ﷺ أراد أمراً، وأراد الله غيره، فنفذ مراد الله ولم ينفذ مراد رسوله، أو كلّما أراد رسول الله ﷺ كان! إنّه أراد إسلام عمّه ولم يرده الله فلم يسلم[٢].

وفي ثنايا هذين الحوارين نلاحظ اعتراف عمر بما أراد رسول الله ﷺ أن يكتبه في كتابه، إلاّ أنّ عمر منع من ذلك، ثمّ إن في كلامه نوعاً من عدم الاهتمام أو الاستخفاف بما أراده رسول الله ﷺ . . بالاضافة إلى ادعاء كونه أكثر حيطة واشفاقاً على الإسلام من رسول الله ﷺ ! والأدهى من ذلك كلّه نلاحظ لوناً من ألوان الجبر الإلهي! حيث لم تتوافق إرادة الله سبحانه مع إرادة الرسول ﷺ بحسب ما يدعيه عمر!

ولا ندري هل غاب عن فهم ووعي عمر الآيات الكثيرة التي تأمر المسلمين بطاعة رسول الله ﷺ والانقياد لأمره؟

وعلى أي حال، لم يكن دور ابن عباس في هذين الحوارين إلاّ دور المستمع، ولم يدخل في نقاش وحوار مع عمر فيما قاله له! ولعله كان يخشى عمر وسطوته ولهذا كان يتجنّب مواجهته!

إلاّ أنّه في حوار طويل آخر نجده على غير هذه الحالة، فيكون مصيره في آخر الحوار إبعاده عن مجلس الحوار الساخن.

روى الطبري وابن الأثير في رواية طويلة: قال عمر لابن عباس: يابن

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢ / ٢٠ -٢١ .

(٢) المصدر نفسه: ١٢ / ٧٨ -٧٩ .

عباس، أتدري ما منع قومكم منهم بعد محمد؟ - قال ابن عباس - فكرهت أن أُجيبه، فقلت: إن لم أكن أدري فأمير المؤمنين يُدريني! فقال عمر: كرهوا أن يجمعوا لكم النبوّة والخلافة، فتبجحوا[١] على قومكم بَجحاً بجحاً، فاختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت!

قلت: يا أمير المؤمنين، إن تأذن لي في الكلام، وتُمِط عني الغضب تكلمتُ.

فقال - عمر -: تكلم يابن عباس.

فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: اختارت قريش لأنفسها فأصابت ووفّقت، فلو أنّ قريشاً اختارت لأنفسها حيث اختار الله عزّ وجل لها لكان الصواب بيدها غير مردود ولا محسود.

وأما قولك: إنهم كرهوا أن تكون لنا النبوّة والخلافة، فإنّ الله عزّ جل وصف قوماً بالكراهية، فقال: ﴿ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ﴾[٢].

فقال عمر: هيهات والله يابن عباس! قد كانت تبلغني عنك أشياء كنتُ أكره أن أقرّك عنها، فتزيل منزلتك مني!

فقلت: وما هي يا أمير المؤمنين؟ فإن كانت حقّاً فما ينبغي أن تزيل منزلتي منك، وإن كانت باطلا فمثلي أماط الباطل عن نفسه.

فقال عمر: بلغني أنك تقول: إنما صرفوها عنّا حسداً وظلماً!

فقلت: أمّا قولك يا أمير المؤمنين: ظلماً، فقد تبيّن للجاهل والحليم، وأما

---

(١) بجح بالشيء: افتخر به.

(٢) سورة محمد: ٩.

قولك: حسداً، فإنّ إبليس حسد آدم، فنحن ولده المحسودون.

فقال عمر: هيهات! أبت والله قلوبكم يا بني هاشم إلاّ حسداً ما يحول، وضِغناً وغشّاً ما يزول!

فقلت: مهلا يا أمير المؤمنين، لا تصف قلوب قوم أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً بالحسد والغشّ، فإنّ قلب رسول الله ﷺ من قلوب بني هاشم.

فقال عمر: إليك عني يابن عباس.

فقلت: أفعل[1].

لقد نقلنا هذا الحوار بطوله لما فيه من تصاعد وتيرة الحوار بين المتحاورين والتي كشفت عن أشياء مهمة جداً في هذه القضية الحساسة، والتي من أهمها مبدأ كون الإمامة باختيار الله، وإنّ الله سبحانه اختار أهل البيت عليهم السلام للإمامة والخلافة، وإن قريشاً قد اختارت لأنفسها بخلاف ما أراده الله لها، حسداً وبغياً وظلماً لآل البيت.

وفي آخر الحوار لم يعِ عمر جواباً فما كان منه إلاّ زجر ابن عباس بقوله: «إليك عنّي».

ولأبي جعفر النقيب، تعليق وتعقيب مهم على هذه الحوارات، مع أنّ ابن أبي الحديد يقول عنه إنه: «لم يكن إماميّ المذهب، ولا كان يبرأ من السلف، ولا يرتضي قول المسرفين من الشيعة، ولكنه كلام أجراه على لسانه..»[2] ولولا خوف الإطالة لنقلنا طرفاً من كلامه القيّم في هذا الموضوع.

لماذا امتنع رسول الله ﷺ عن الكتابة؟:

يبقى السؤال الذي يفرض نفسه بقوة على البحث وهو سبب عدم اصرار

---

(١) الطبري، تاريخ الأُمم والملوك: ٤ / ٢٢٤، وابن الأثير، الكامل في التاريخ: ٢ / ٢١٨ -٢١٩.

(٢) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٢ / ٨٢ -٩٠.

رسول الله ﷺ على كتابة كتابه مع ما فيه من هداية الأُمة من الضلال؟

وقد أجاب رسول الله ﷺ عن هذا السؤال وبايجاز شديد يحمل في طياته الكثير من الأسى والحزن على هذه الأُمة التي فوتت على نفسها نعمة الهداية الكبرى التي همَّ رسول الله ﷺ أن ينص عليها.

ففي رواية ابن سعد الذي ذكرناها سابقاً: «وقال بعض من كان عنده إنّ نبي الله لَيهجُر! فقيل له - أي لرسول الله - ألا نأتيك بما طلبت؟ قال: أو بَعد ماذا؟»[1].

فرسول الله ﷺ كان يعلم أن لا فائدة للكتابة بعد تلك المخالفة وبعد الذي قيل في محضره، حيث ارتفع اللغط بين القوم وغمّوا رسول الله ﷺ - بحسب تعبير الرواية - فلو أصر وكتب لتكرر المشهد بعد وفاته وبضراوة أكثر، ولكثر لجاج البعض على حد الانقلاب على الإسلام كلّه، وليس هذا بمستبعد لمن تأمل في حوادث ما بعد وفاة رسول الله ﷺ!

يقول السيّد شرف الدين: «وإنما عدل عن ذلك لأنّ كلمتهم تلك التي فاجأوه بها اضطرته إلى العدول، إذ لم يبق بعدها أثر لكتابة الكتاب سوى الفتنة والاختلاف من بعده في أنه هل هجر فيما كتبه - والعياذ بالله - أو لم يهجر، كما اختلفوا في ذلك وأكثروا اللغط نصب عينيه، فلم يستن له يومئذ أكثر من قوله لهم: «قوموا» ولو أصرّ فكتب الكتاب للجّوا في قولهم هجر، ولأوغل أشياعهم في إثبات هجره - والعياذ بالله - فسطروا به أساطيرهم، وملأوا طواميرهم، راداً على ذلك الكتاب وعلى من يحتج به.

لهذا اقتضت حكمته البالغة أن يضرب ﷺ عن ذلك الكتاب صفحاً، لئلاّ يفتح هؤلاء المعارضون وأولياؤهم باباً إلى الطعن في النبوة - نعوذ بالله وبه

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٧٠.

نستجير - وقد رأى ﷺ أن علياً وأولياءه خاضعون لمضمون ذلك الكتاب، سواء عليهم أكتب أم لم يكتب، وغيرهم لا يعمل به ولا يعتبره لو كتب، فالحكمة والحال هذه توجب تركه، إذ لا أثر له بعد تلك المعارضة سوى الفتنة كما لا يخفى»[١].

وخلاصة الأمر في الكتاب الذي لم يكتب:

أولا: إنّ رسول الله ﷺ أراد أن يكتب لأُمته كتاباً لا تضل من بعده أبداً، إلاّ أن بعض من في المجلس تفوه بكلمات ردّدها بعض آخر، ونصت الروايات التاريخية على هذه الكلمات وعلى قائلها بعينه!

ثانياً: إنّ اللغط الذي حصل في محضر رسول الله ﷺ وما قيل من كلمات حينئذ، بالاضافة إلى مخالفته لصريح أمر رسول الله ﷺ لها لوازم منكرة كالطعن في صدق النبي ﷺ ونبوته، ونفي وجوب اتباع سننه.. وهي من اللوازم الخطيرة ولها آثار مدمرة في التشريع الإسلامي.

ثالثاً: حاول بعضهم أن يحرف القضية عن مسارها الحقيقي من خلال القول: بأنّ رسول الله ﷺ أراد أن يعهد لأبي بكر من بعده.. ولكنه لم يفعل! إلاّ أنّ ألفاظ كلمات رسول الله ﷺ والقرائن الحالية والمقالية، ومقارنتها بما قاله ﷺ في حديث الثقلين يكذب هذه الدعوى.

رابعاً: كل الدلائل والنصوص تشير إلى أنّ رسول الله ﷺ أراد تأكيد الوصية لعلي عليه السلام بالخلافة من بعده، وهذا ما فهمه عمر في ذلك المجلس وأفصح عنه في حواره مع ابن عباس، ولو فهم عمر غير ذلك لما صدر منه ما صدر!

خامساً: اقتضت حكمة رسول الله ﷺ وتقديره للأُمور أن لا يصر على كتابة

---

(١) شرف الدين، المراجعات، وتشييد المراجعات: ٤ / ٣٣٨ .

كتابه بعد الذي صدر من القوم، إذ لا فائدة في ذلك، وقد تستوجب فتنة عمياء تطال الإسلام وتعاليمه!

٢ – حوادث وفاة رسول الله ﷺ

أ – مرض النبي ﷺ :

نقل المؤرخون طرفاً من الروايات الحاكية لمرض رسول الله ﷺ وما قاله وفعله في أواخر أيام حياته الشريفة، نذكر بعضها ; ونتأمل في بعض مضامينها.

روى ابن سعد تحت عنوان: «ذكر ما قرب لرسول الله ﷺ من أحله» مجموعة من الروايات القيمة ننقل منها:

روي عن عائشة أنّها قالت: «كان رسول الله ﷺ في آخر عمره يكثر من قوله: سبحان الله وبحمده، استغفر الله وأتوب إليه! قالت: فقلتُ يا رسول الله إنّك تكثر من قول سبحان الله... ما لم تكن تفعله قبل اليوم؟ فقال: إنّ ربي كان اخبرني بعلامة في أُمتي فقال إذا رأيتها فسبّح بحمد ربّك واستغفره، فقد رأيتها: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾ إلى آخر السورة.

وعن ابن عباس قال: لمّا نزلت: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ﴾ دعا رسول الله ﷺ فاطمة فقال: إنّي نُعيت إليّ نفسي! قالت: فبكيتُ، فقال: لا تبكي فإنك أوّل أهلي بي لحوقاً فضحكت..».

إلاّ أنّ ابن سعد يعقد فصلا بعد ذلك تحت عنوان: «ذكر ما قال رسول الله ﷺ لفاطمة ابنته في مرضه، صلوات الله عليها وسلامه» وتحت هذا الفصل ذكر أربع روايات عن عائشة وأُمّ سلمة وأبي جعفر عليه السلام .

فروي عن عائشة قالت: كنت جالسة عند رسول الله ﷺ فجاءت فاطمة

تمشي كأن مِشيتها مشية رسول الله ﷺ ، فقال: مرحباً بابنتي! فأجلسها عن يمينه أو عن شماله، ثمّ أسرّ إليها شيئاً فبكت، ثمّ أسرّ إليها شيئاً فبكت، ثمّ أسرّ إليها فضحكت قالت - عائشة - قلت: ما رأيت ضحكاً أقرب إلى بُكاء، استخصّك رسول الله ﷺ بحديث ثمّ تبكين؟ أي شيء أسرَّ إليك رسول الله؟ قالت: ما كنتُ لأفشي سرّه! فلما قُبض سألتها، فقالت: قال إنّ جبرائيل كان يأتيني كلّ عام فيعارضني بالقرآن مرّة وإنه أتاني العام فعارضني مرّتين، ولا أظنّ إلاّ أجلي قد حَضر ونِعمَ السّلف أنا لك. وقال: أنتِ أوّل أهل بيتي لحاقاً بي، قالت: فبكيتُ لذلك، ثمّ قال: أما ترضين أن تكوني سيّدة نساء هذه الأُمة أو نساء العالمين؟ قالت: فضحكتُ.

وعن أُم سلمة - زوج النبي ﷺ - قالت: «لمّا حُضر رسول الله ﷺ ، دعا فاطمة فناجاها فبكت، ثمّ ناجاها فضحكت، فلم أسألها حتّى توفي رسول الله ﷺ ، فسألت فاطمة عن بكائها وضحكها فقالت: أخبرني ﷺ أنه يموت، ثمّ أخبرني أني سيّدة نساء أهل الجنة بعد مريم بنت عمران فلذلك ضحكت».

والملاحظ أن كلا الروايتين يتحدان من حيث المضمون إلاّ أن رواية عائشة أكثر تفصيلا من رواية أُم سلمة، وقد يكون المجلس الذي دعا فيه رسول الله ﷺ ابنته فاطمة عليها السلام وناجاها فيه، قد حضره كل من عائشة وأُم سلمة، إلاّ أن عائشة استعجلت في الاستفسار من فاطمة، وأُم سلمة أجلت ذلك إلى ما بعد وفاة رسول الله ﷺ .

ثمّ إنّ الرواية التي تنص على أنّ رسول الله ﷺ قد أخبر فاطمة أنها أوّل أهله لحوقاً به فضحكت لذلك، أكثر انسجاماً وملائمة مع الحالة التي دعا فيها رسول الله ﷺ ابنته وهي حالة المرض الذي توفي فيه.

إلاّ أنّ هذا لا ينبغي أن تنصَّ عليه الروايات الأُخرى التي تقول انه ﷺ قد أخبرها انها سيدة نساء هذه الأُمة، أو سيدة نساء العالمين، والتي أكّدتها عشرات

الروايات المروية في كتب الصحاح والسنن[١].

وروي عن أبي جعفر قال: «ما رؤيت فاطمة عليها السلام ضاحكة بعد رسول الله ﷺ، إلاّ أنّه قد تُمودي بطرفِ فيها»[٢].

وتحت عنوان: «ذكر الدنانير التي قسمها رسول الله ﷺ في مرضه الذي مات فيه، ذكر ابن سعد روايات فيها الكثير من العبر لمن أراد أن يعتبر، ويتخذ من سيرة رسول الله ﷺ مناراً له في سَيره إلى الله. روي عن أبي سلمة عن عائشة: أنّ رسول الله قال في وجعه الذي قُبض فيه: ما فَعلت الأذهب؟ فقلت: هي عندي يا رسول الله، قال: ائتيني بها، وهي بين السّبعة والخمسة، فجعلها في كفّه ثمّ قال: ما ظنّ محمّد بالله لو لقي الله وهذه عنده؟ انفقيها».

وروي عن سهل بن سعد قال: «كانت عند رسول الله ﷺ سبعة دنانير وَضعها عند عائشة، فلمّا كان في مرضه، قال: يا عائشة ابعثي بالذّهب إلى علي، ثمّ أُغمي على رسول الله ﷺ، وشغل عائشة ما به حتّى قال ذلك ثلاث مرّات، كلّ ذلك يُغمى على رسول الله ﷺ، ويشغل عائشة ما به، فبعثت - يعني بالذهب - إلى عليّ فتصدّق به، ثمّ أمسى رسول الله ﷺ في جديد الموت..»[٣].

وتذكر الروايات أن وحي السماء لم ينقطع عن رسول الله ﷺ إلى أواخر أيام حياته الشريفة، ففي رواية ابن سيرين قال: «كان جبريل يعرض القرآن على النبي ﷺ كلّ عام مرّة في رمضان، فلمّا كان العام الذي توفي فيه عرضه عليه مرّتين»[٤].

---

(١) انظر، ابن عساكر، تاريخ دمشق: ٣ / ٨٥ وما بعدها.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٤٦ و ٣٧٣.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٣٦٨ -٣٦٩.

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٣٤٧.

وفي رواية العلامة المجلسي أن جبرئيل قال لرسول الله ﷺ : «هذا آخر وطئي الأرض، إنما كنت حاجتي من الدنيا» وعلّق المجلسي على هذه الرواية بقوله: لعل المراد: آخر نزولي لتبليغ الرسالة، فلا ينافي الأخبار الدالة على نزوله بعد ذلك[١].

حقيقة دعوى تمريض النبي ﷺ ووفاته في بيت عائشة:

تذكر الروايات التاريخية أن المرض بدأ برسول الله ﷺ يوم الأربعاء فكان شكوه إلى أن قُبض ﷺ ثلاثة عشر يوماً.

وفي رواية الزهري عن عائشة، قالت: «بدأ برسول الله ﷺ ، شكوُهُ الذي توفي فيه وهو في بيت مَيمونة، فخرج في يومه ذلك حتّى دخل عليَّ، قالت: فقلت وا رأساه! فقال: وددت أن ذلك يكون وأنا حيّ فأُصلي عليك وأدفنك! قالت: فقلت غَيري، أو كأ نّك تحبّ ذلك؟ لكأني أراك في ذلك اليوم معرساً ببعض النساء! قالت: فقال رسول الله ﷺ : بل أنا وا رأساه! ثمّ رجع رسول الله إلى بيت ميمونة فاشتدّ وجعه».

وفي رواية مشابهة قالت عائشة: «بُدي برسول الله ﷺ في بيت ميمونة فدخل عليَّ رسول الله ﷺ وأنا أقول: وا رأساه! فقال لي: لو كان ذلك وأنا حيّ فاستغفر لك، وادعو لك، وأُكفّنك، وأدفنك! فقلت: وا ثكلاه! والله إنّك لتُحبّ موتي، ولو كان ذلك لظللت يومك مُعرساً ببعض أزواجك! فقال النبي: بَل أنا وا رأساه...»[٢].

والروايات كما نرى من الروايات التي تعكس لنا معاناة رسول الله ﷺ في بيته ومن بعض أزواجه، ولو كانت الرواية مروية من غير طريق السيّدة عائشة

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار: ٢٢ / ٥٠٥ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٥٢ -٣٥٣ و ٣٦٣ .

لشككنا في هذه السلوكية العجيبة اتجاه رسول الله ﷺ وهو في حال المرض!

ولا ندري ما الذي حدا بعائشة إلى التفوه بتلك الكلمات .! في الوقت الذي كان رسول الله ﷺ يمازحها بتلك الكلمات وتلك التمنيات التي يتمناها كل إنسان عند وفاته! وأي سعادة وتوفيق أكبر للإنسان من يكون رسول الله ﷺ هو الذي يتولى الاستغفار له، والدعاء له، وتجهيزه والصلاة عليه ودفنه.

هل كانت الغَيرة هي التي دفعت عائشة إلى قول ما قالت كما يقول الدكتور هيكل في كتابه[١]؟

أما أنها غلظة أخلاق وبذاءة لسان لها ما يشابهها في كلمات أُم المؤمنين عائشة وفي حياة رسول الله ﷺ وبعد وفاته كما هو مسطور في كتب التاريخ[٢].

وعلى ضوء هذا الحديث وأمثاله هل يمكن لنا تصديق الروايات التي سطرها المؤرخون في كتبهم حول تمريض رسول الله ﷺ في بيت عائشة! وإنه ﷺ مات بين سحر ونحر عائشة[٣]؟!

وأين كان عنه ﷺ أقرب الناس إليه مودة، علي وفاطمة عليهما السلام ؟

ثمّ إنّ هذه الروايات التي تدعي أن رسول الله ﷺ قضى وهو على صدر عائشة! معارضة بروايات صحيحة متواترة من طريق أهل البيت عليهم السلام والذين هم أعرف برسول الله ﷺ وشؤونه.

في نهج البلاغة يقول الإمام علي عليه السلام مخاطباً رسول الله ﷺ بعد وفاته: «فَلَقَدْ وَسَدْتُكَ في مَلْحُودَةِ قَبْرِكَ، وفَاضَتْ بَيْنَ نَحْرِي وَصَدْرِي نفسك، فَإنَّا لله

(١) هيكل، حياة محمد: ٤٩٨ .

(٢) للتوسع، انظر: أحاديث أُم المؤمنين عائشة للسيد العسكري .

(٣) انظر ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٦٥ -٣٦٦ .

وإنَّا إليهِ رَاجُعون».

وفي نص آخر قال عليه السلام: «ولَقَدْ قُبِضَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وآله وإنَّ رَأسُهُ لعَلَى صَدْري، ولَقَدْ وَلِيتُ غُسْلَهُ والملائكة أعواني..»[1].

وعقد ابن سعد في كتابه بابين عنوان الباب الأول منها: «ذكر من قال أن رسول الله لم يوصِ وإنه توفي في حجر عائشة» والباب الثاني بعنوان: «ذكر من قال توفّي رسول الله في حجر عليّ بن أبي طالب».

وروايات الباب الأول ينتهي سندها جميعاً إلى عائشة، أو أنها تحكي ما قالته عائشة، ففي رواية: «قيل لأُم المؤمنين عائشة أكان رسول الله صلى الله عليه وآله أوصى إلى عليّ؟ قالت: لقد كان رأسه في حجري... فلقد انخنث في حجري وما شعرت به، فمتى أوصى إلى عليّ؟».

وردد القوم مقولة عائشة في نفي الوصية، ففي رواية حماد عن إبراهيم قال: «قبض رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يوصِ، وقُبض وهو مستند إلى صدر عائشة».

وفي رواية أُخرى عن عائشة أيضاً قالت: «إنّ من نعمة الله عليَّ أنّ نبيّ الله مات بين سَحري ونحري وفي بيتي وفي دولتي لم أظلم فيه أحداً»[2].

وهنالك روايات أُخرى رواها ابن سعد عن عائشة وبنفس مضمون الروايات التي ذكرناها.

أما روايات الباب الثاني فإنها مروية عن علي، وابن عباس، وأُم سلمة، وعبد الله بن عمر، والشعبي، وعلي بن الحسين.. وسائر أئمة أهل البيت عليهم السلام.

روى ابن سعد عن محمد بن عمر، حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن

---

(١) نهج البلاغة، بشرح الشيخ محمد عبده: ٢ / ٣٤٦، و٢/٣٣٨ الخطبة ١٩٦ طبعة مؤسسة التاريخ العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ -٢٠٠٥م.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٧٩ -٣٨٠.

علي بن أبي طالب عن أبيه عن جدّه، قال: «قال رسول الله ﷺ في مرضه: «ادعوا لي أخي» قال: فدعي له علي فقال ﷺ: «ادنُ مني» فدنوت منه فاستند إليّ فلم يزل مستنداً إليّ وإنه ليكلمني حتّى أنّ بعض ريق النبي ﷺ ليصيبني ثمّ نزل برسول الله ﷺ، وثقل في حجري، فصحتُ يا عباس ادركني فإني هالك! فجاء العباس فكان جَهدهما جميعاً إن أضجعاه»[1].

وفي رواية محمد بن عمر... عن عليّ بن الحسين، قال: «قُبض رسول الله ﷺ ورأسه في حجر علي».

وفي رواية الشعبي، قال: «توفّي رسول الله ﷺ، ورأسه في حجر عليّ، وغسله عليّ والفضل محتضنه وأُسامة يناول الفضل الماء».

وفي رواية أبي غطفان، قال: «سألت ابن عباس، أرأيت رسول الله ﷺ توفّي ورأسه في حجر أحد؟ قال: توفي وهو لمستند إلى صدر عليّ. قلت: فإنّ عروة حدّثني عن عائشة أنها قالت توفي رسول الله ﷺ بين سحري ونحري! فقال ابن عباس: أتعقِلُ؟ والله لتوفّي رسول الله ﷺ وإنه لمستند إلى صدر علي، وهو الذي غسله وأخي الفضل بن عباس، وأبى أبي أن يحضر..».

وكانت مرجعية عمر بن الخطاب فيما يتعلق بشؤون النبي هو الإمام علي عليه السلام، ولايقول إلاّ: سلوا علياً، ولم يرجع أحداً إلى عائشة لتسأل عن شؤون النبي ﷺ[2]!

ففي رواية جابر بن عبد الله الأنصاري قال: «إن كعب الأحبار قام زمن عُمر فقال ونحن جلوس عند عمر أمير المؤمنين: ما كان آخر ما تكلّم به رسول

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٠ / ١٧٩ -١٨٢، والمتقي الهندي، كنز العمال: ٧ / ١٠٢، الحديث رقم ١٨٧٨٦ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٨٠ -٣٨١ .

الله ﷺ؟ فقال عمر: سَل علياً! قال: أين هو؟ قال: هو هنا، فسأله فقال علي: اسندته إلى صدري فوضع رأسه على منكبي فقال الصلاة الصلاة! فقال كعب: كذلك آخر عهد الأنبياء وبه أُمروا وعليه يبعثون. قال: فمن غسله يا أمير المؤمنين؟ - والخطاب لعمر - قال: سَل علياً؟ قال: فسأله، فقال: كنت أنا أُغسله وكان عباس جالساً، وكان أُسامة وشُقران يختلفان إليّ بالماء»[١].

ويروي الحاكم في المستدرك عن أُم سلمة - زوج النبي - أنها قالت: «والذي أحلف به، إن كان علي لأقرب الناس عهداً برسول الله ﷺ، عُدناه غداة وهو يقول: جاء علي؟ جاء علي؟ مراراً، فقالت فاطمة: كأ نّك بعثته في حاجة؟ قالت: فجاء بعد، فظننتُ أنّ له إليه حاجة، فخرجنا من البيت فقعدنا عند الباب.. قالت أُم سلمة: وكنت من أدناهم إلى الباب، فأكب عليه رسول الله ﷺ، وجعل يسارّه ويناجيه، ثمّ قُبض ﷺ من يومه ذلك، فكان عليّ أقرب الناس به عهداً»[٢].

وعن عبد الله بن عمر: «إنّ رسول الله ﷺ قال في مرضه: ادعوا لي أخي، فجاء أبو بكر فأعرض عنه، ثمّ قال: ادعوا لي أخي، فجاء عثمان فأعرض عنه، ثمّ دعي له علي، فستره بثوبه واكبّ عليه، فلمّا خرج من عنده قيل له: ما قال لك؟ قال: علّمني ألف باب، كل باب يفتح له ألف باب»[٣].

ويعلّق السيّد شرف الدين على هذه الأحاديث فيقول: «وعلى كلٍّ حال، فإنّ القول بوفاته ﷺ وهو في حجرها - أي عائشة - لم يسند إلاّ إليها، والقول

---

(١) تراجع هذه الروايات عند، ابن سعد الطبقات: ٢ / ٣٧٩ -٣٨١، والمتقي الهندي، كنز العمال، الحديث رقم: ٣٩٢ .

(٢) الحاكم النيسابوري، المستدرك: ٣ / ١٣٩، واعترف بصحة الحديث الذهبي في تلخيص المستدرك المطبوع معه .

(٣) المتقي الهندي، كنز العمال، والشيخ المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٥ -١٨٦ .

بوفاته - بأبي وأُمي - وهو في حجر عليٍّ مسند إلى كل من: علي، وابن عباس، وأُم سلمة، وعبد الله بن عمر، والشعبي، وعلي بن الحسين، وسائر أئمة أهل البيت، فهو أرجح سنداً، وأليق برسول الله ﷺ .

ثمّ قال: ولو لم يعارض حديث عائشة إلاّ حديث أُمّ سلمة وحده، لكان حديث أُم سلمة هو المقدّم، لوجوه كثيرة غير التي ذكرناها»[1].

ومهما يكن من أمر، فإنّ قضية تمريض رسول الله ﷺ عند السيدة عائشة، ومن ثمّ وفاته في بيتها - كما تدعيه في رواياتها - ليس له أساس من الصحة، وينفيه الواقع الموضوعي للقضية وملازمتها الاجتماعية، بالاضافة إلى الروايات الصحيحة المعارضة لها.

ب - وفاة النبي ﷺ :

اختلف المؤرخون في تحديد يوم وشهر وفاة النبي الأكرم ﷺ على أقوال:

في رواية الواقدي: «توفي رسول الله حين زاغت الشمس يوم الاثنين لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول» وأكد ابن سعد التاريخ نفسه في جملة من الروايات مروية عن محمد بن عمر، وينتهي سندها إلى الإمام علي عليه السلام ، والسيّدة عائشة، إلاّ أنّه يذكر في رواية محمد بن قيس: «إنّ رسول الله ﷺ اشتكى يوم الأربعاء لاحدى عشرة ليلة بقيت من صَفر سنة إحدى عشرة فاشتكى ثلاث عشرة ليلة، وتوفي يوم الاثنين لاثنتي عشرة مضت من ربيع الأول».

وذكر المحدث الكليني أنّ رسول الله «قبض لاثنتي عشرة مضت من شهر ربيع الأول».

وذكر ابن إسحاق: «إنّ رسول الله قبض يوم الاثنين» ولم يحدد الشهر الذي

---

(١) شرف الدين، المراجعات، المطبوع مع تشيد المراجعات: ٤ / ٢٠٠ .

توفي فيه.

وهنالك اختلاف أيضاً بين المؤرخين في اليوم الذي دفن فيه رسول الله!

ففي رواية ابن سعد عن علي عليه السلام : «توفّي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين ودُفن يوم الثلاثاء».

وفي رواية أُخرى قال الراوي: «توفي رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الاثنين فمكث يوم الاثنين والثلاثاء حتى دُفن يوم الأربعاء»(١).

وفي رواية أُخرى قال الراوي: «تُرك رسول الله صلى الله عليه وآله ، بعد وفاته يوماً وليلة حتّى رَبا قميصُه ورُئي في خُنصره انثناء».

وفي رواية القاسم بن محمد قال: «لم يُدفن رسول الله صلى الله عليه وآله حتى عُرف الموتُ فيه؛ في أظفاره اخضرت»(٢).

والروايتان الأخيرتان تثيران الاستغراب، إذ كيف يبقى رسول الله صلى الله عليه وآله ثلاثة أيام بلا دفن! مع ما ندب إليه الإسلام إلى الإسراع في دفن الميت، فكيف خالف المسلمون هذا المستحب في أمر نبيِّهم؟

ج - تجهيز النبي صلى الله عليه وآله ، «غسله، وكفنه، وتحنيطه، والصلاة عليه»:

ذكر المؤرخون أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله حين مات سُجي بثوب حِبرة، أو ببُرد حبرة، وتجمع روايات المؤرخين على أن الذي تولّى غسل النبي صلى الله عليه وآله هو الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام ، وبعض الروايات تُشرك معه غيره في هذا الأمر.

---

(١) الواقدي، المغازي: ٢ / ١١٢٠، وابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٨٥، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٥٢، والكليني، الكافي: ١ / ٤٣٩ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٨٥ -٣٨٦ .

ففي رواية: «غَسل رسول الله ﷺ عليّ بن أبي طالب، والفضل بن عباس، وأُسامة بن زيد، وكان عليّ يغسله، ويقول: «بأبي أنت وأُمي طِبت ميتاً وحياً»[١].

وفي رواية عن الإمام علي عليه السلام قال - الراوي - قال عليّ: أوصى النبي ﷺ الاّ يغسله أحد غيري، فإنّه لا يرى أحد عورتي إلاّ طمست عيناه، قال علي: فكان الفضل وأُسامة يناولاني الماء من وراء الستر وهما معصوبا العين. قال علي: فما تناولت عضواً إلاّ كأ نّما يقلّبه معي ثلاثون رجلا حتّى فرغت من غسله»[٢].

وفي رواية محمد بن عمر قال: «قال رسول الله ﷺ لعليّ بن أبي طالب في مرضه الذي توفّي فيه: اغسلني يا عليّ إذا متّ! فقال: يا رسول الله ما غسلتُ ميّتاً قطّ! فقال رسول الله ﷺ: إنك ستهيّأ أو تيسّر، قال علي: فغسلته فما آخذ عضواً إلاّ تبعني..»[٣].

وبعد أن غسل رسول الله ﷺ، كفن في ثلاثة أثواب بيض، أو في ثلاثة أثواب أحدهما حبرة. أو في ثلاثة أثواب برود يمانية، إزار ورداء ولفافة.. على اختلاف الروايات حتّى قال الراوي: ألا تعجب من اختلافهم علينا في كفن رسول الله ﷺ[٤]!

أما بالنسبة إلى حنوط رسول الله ﷺ فقد ذكرت الروايات، أنّ رسول الله ﷺ قد حُنّط، وفي رواية هارون بن سعد قال: «كان عند عليّ مسك فأوصى

---

(١) و (٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٨٨.

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٣٨٩، وقارن برواية الشيخ المفيد في الإرشاد: ٢ / ١٨٦.

(٤) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٩٠ -٣٩١.

أن يحنّط به، قال - الراوي - وقال عليّ: هو فضل حَنوط رسول الله ﷺ »[١].

وبعد الانتهاء من تجهيز رسول الله ﷺ جاء وقت الصلاة عليه قبل دفنه.

وروى الشيخ المفيد أنّ الإمام عليّاً عليه السلام كان أول من صلّى على رسول الله وحده بعد أن فرغ من غَسله وتجهيزه[٢].

وفي رواية ابن سعد، عن محمد بن عمر، عن عليّ، قال: «لمّا وضع رسول الله ﷺ على السرير قال علي: «ألا يقوم عليه أحد لعلّه يؤمّ؟ هو إمامكم حيّاً وميتاً» فكان يدخل الناس رَسَلا رَسَلا فيصلون عليه صَفاً صَفاً ليس لهم إمام ويكبّرون وعليّ قائم بحيال رسول الله ﷺ يقول: «سلام عليك أيّها النبيّ ورحمة الله وبركاته، اللهمّ إنّا نَشهد أن قد بلّغ ما أُنزل إليه ونصح لأُمته، وجاهد في سبيل الله حتّى أعزّ الله دينه، وتمّت كلمته، اللهمّ فاجعلنا ممّن يتّبع ما أنزل الله إليه وثبتنا بعده واجمع بيننا وبينه» فيقول الناس: آمين آمين، حتّى صلّى عليه الرجال ثمّ النساء ثمّ الصبيان»[٣].

د - الصحيح في تاريخ وفاة النبي ﷺ ويوم دفنه:

استشكل بعض المؤرخين في التاريخ الذي ذكره أكثر المؤرخين لوفاة رسول الله ﷺ وهو يوم الاثنين الثاني عشر من ربيع الأول، لأ نّه لا يتطابق مع ماذكره؛ من أنّه ﷺ عاش بعد حجه ثمانين يوماً!

قال السهيلي في تحديد زمن وفاته ﷺ: . . . ولا يصح أن يكون توفي ﷺ إلاّ في الثاني من الشهر، أي شهر ربيع الأول. . لإجماع المسلمين على أن وقفة

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٩٣ .

(٢) المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٨ .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٩٥ .

عرفة في حجة الوداع كانت يوم الجمعة، وهو التاسع من ذي الحجة، فدخل ذوالحجة يوم الخميس، فكان المحرم إما الجمعة وإما السبت، فإن كان الجمعة، فقد كان صفر إما السبت وإما الأحد، فإذا كان السبت، فقد كان ربيع الأحد أو الاثنين، وكيفما دارت الحال على هذا الحساب، فلم يكن الثاني عشر من ربيع يوم الاثنين بوجه!

ثمّ يقول: «وذكر الطبري عن ابن الكلبي وأبي مخنف أنّه توفي الثاني من ربيع الأول، وهذا القول وإن كان خلاف أهل الجمهور، فإنه لا يبعد إن كانت الثلاثة الأشهر التي قبله كلها من تسعة وعشرين»[١].

وحاول ابن كثير أن يجيب على إشكال السهيلي بعد أن قرر مضمونه، فقال: «وقد حاول جماعة الجواب عنه، ولا يمكن الجواب عنه إلاّ بمسلك واحد، وهو اختلاف المطالع، بأن يكون أهل مكة رأوا هلال ذي الحجة ليلة الخميس، وأما أهل المدينة فلم يروه إلاّ ليلة الجمعة».

ثمّ أخذ يذكر مؤيدات لهذا المسلك من قول عائشة، وأنس، حين يتعيّن خروج النبي إلى حجة الوداع يوم السبت لخمس بقين من ذي القعدة.

وقال: «فعلى هذا إنما رأى أهل المدينة هلال ذي الحجة ليلة الجمعة، وإذا كان أول ذي الحجة عند أهل المدينة الجمعة وحُسبت الشهور بعده كوامل يكون أول ربيع الأول يوم الخميس، فيكون ثاني عشر يوم الاثنين، والله العالم»[٢].

إلاّ أنّ في جواب ابن كثير تكلّف واضح، وكأنّه لم يقتنع بما قاله فأوكل ذلك إلى علم الله، وهو العالم بحقائق الأُمور.

---

(١) السهيلي، الروض الأنف: ٤ / ٢٧٠ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٥٠٩ .

والذي نعتقده أن السبب في هذا التخبط التاريخي في قضية مهمة تتعلق بوفاة الرسول الأكرمﷺ ورحيله من هذه الدنيا والتي ينبغي أن تضبط تاريخياً، وتوثق للأجيال القادمة، لتتوقف عندها وتستعرضها وتتزود منها ومن عطاء. تلك الحياة الجهادية الايمانية الرسالية، السبب في ذلك هو الاعراض عن الأقوال الأُخرى في المسألة، والموازنة بينها، للوصول إلى نتيجة هي أقرب للواقع، إن لم يكن هو الواقع بعينه.

يقول المحقق الاربلي معلقاً على هذا الاختلاف العجيب: «إنّ الاختلاف في يوم ولادتهﷺ سهلٌ، إذ لم يكونوا عارفين به وبما يكون منه، وكانوا أُميّين لا يعرفون ضبط مواليد أبنائهم، فأ مّا اختلافهم في موته فعجيب.. بل اختلافهم في موته أعجب.. إذ يوم موته يجب أن يكون معيّناً معلوماً»[1].

ومهما يكن من أمر فقد روى الشيخ المفيد (ت ٤١٣ هـ) في الإرشاد أن وفاة رسول اللهﷺ: «كان في يوم الاثنين لليلتين بقيتا من صفر سنة إحدى عشرة من هجرته وهو ابن ثلاث وستّين سنة»[2].

وهذا التاريخ الذي أجمعت كلمات أكثر علماء الإمامية عليه وما عدا الشيخ الكليني، يتوافق مع ما ذكر من أنّهﷺ توفي بعد حجة الوداع بثمانين، أو بواحد وثمانين يوماً، إذا كان مبدأ حساب الثمانين من يوم عرفة «فإن الحج عرفة» كما رووا.

فإذا فرضنا: «أن الأشهر كانت تامة، أو كان اثنان منهما تامين فالباقي من شهر ذي الحجة هو واحد وعشرون يوماً تضاف إلى تسعة وخمسين يوماً، فيصير المجموع ثمانين يوماً، وإذا حسبت الشهور كوامل كان المجموع إحدى وثمانين يوماً....

---

(١) الأربلي، كشف الغمة: ١ / ١٥.

(٢) المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٩.

يبقى أن هذا التحديد هل يتطابق مع يوم الاثنين أم لا؟ فليس بالأمر المهم، لأنّ ما ذكروه في تحديد يوم عرفة غير دقيق»[١].

أما بالنسبة إلى يوم دفنه، وما ذكروه من أنّه ﷺ قد أُخر دفنه إلى يومين أو ثلاثة.. ! فهو أمر مستبعد مع عدم وجود أي مبرر لهذا التأخير المخالف للسنة والمستحب المنصوص عليه في الاسراع بتجهيز الميت، ومع وجود أهل بيت الرسول ﷺ ، وحرصهم على التقيد بسنته ﷺ وما أمر به ولو على نحو الندب والاستحباب يكون الأمر أكثر استبعاداً مما ذكروه.

بالاضافة إلى ذلك فهنالك روايات تنص على أنّ رسول الله ﷺ قد جهز وصلّي عليه ودفن في نفس الليلة التي توفي في يومها.

ففي رواية يرويها ابن كثير، قال الراوي: «توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وغسل يوم الاثنين، ودفن يوم الثلاثاء».

وفي رواية الواقدي عن سهل بن سعد عن أبيه، قال: «توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودُفن ليلة الثلاثاء».

وهنالك روايات مروية عن ابن عباس، وأُم سلمة، وسعيد بن المسيب، وأبي جعفر الباقر عليه السلام تقول: «توفي رسول الله ﷺ يوم الاثنين، ودُفن ليلة الثلاثاء»[٢].

ومما يؤيد أنّ رسول الله ﷺ قد دُفن في الليلة التي تُوفي في يومها ما روي من أن أهل المدينة علموا بدفن النبي ﷺ من أصوات المساحي في ليلة الثلاثاء!

روى ابن سعد بسنده عن عائشة قالت: «ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى

---

(١) الصحيح من سيرة النبي ﷺ : ٣٢ / ٣٤٦ -٣٤٧ .

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٥٤٠ -٥٤١ .

سمعنا صوت المساحي ليلة الثلاثاء في السحر».

وفي رواية أُخرى عن ابن شهاب، قال: «توفّي رسول اللهﷺ حين زاغت الشمس يوم الاثنين، فشُغل الناس عن دفنه بشبّان الأنصار! فلم يدفن حتى كانت العَتمة، ولم يَله إلاّ أقاربه، ولقد سمعت بنو غنم صريف المساحي حين حُفر لرسول اللهﷺ وإنّهم لفي بيوتهم».

وفي رواية الزهري، قال: «دُفن رسول اللهﷺ ليلا، قال شيوخ من الأنصار في بني غنم: سمعنا صوت المساحي آخر الليل ليلة الثلاثاء».

وهنالك روايات أُخرى بنفس المضمون رواها ابن سعد في طبقاته[1].

هـ - أين دفن النبيﷺ:

روي عن رسول اللهﷺ قوله: «ما توفّى اللهُ نبياً قطّ إلاّ دُفن حيث تُقبض روحه».

وروي عنه أيضاً قوله: «ما مات نبيّ إلاّ دفن حيث يُقبض».

ويروي المؤرخون عن عكرمة عن ابن عباس، قال: «لمّا فرغ من جهاز رسول اللهﷺ يوم الثلاثاء وضع على سرير في بيته، وكان المسلمون قد اختلفوا في دفنه فقال قائل: أدفنوه في مسجده، وقال قائل: ادفنوه مع أصحابه في البقيع، وفي رواية: قال قائل منهم: ادفنوه عند المنبر، قال أبو بكر: سمعت رسول اللهﷺ يقول: ما مات نبيّ إلاّ دُفن حيثُ يقبض، فَرُفع فراش النبيﷺ الذي توفي عليه ثمّ حُفر له تحته».

وفي رواية القاسم بن عبد الرحمن قال: «قالت عائشة رأيتُ في حُجرتي

---

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٠١ -٤٠٢ .

ثلاثة أقمار، فأتيتُ أبا بكر فقال: ما أوّلتيها؟ قلت: أَوّلتها ولداً من رسول اللهﷺ ، سكت أبو بكر حتّى قُبض رسول اللهﷺ ، فأتاها فقال لها: خَيرُ أقمارك ذُهِب به! ثمّ كان أبو بكر وعمر دُفنوا جميعاً في بيتها».

ولهذا اشتهر بين المؤرخين أنّ رسول اللهﷺ دفن في بيت عائشة! ولهذا يروى: كانت عائشة تكشف قناعها حيث دفن أبوها مع رسول اللهﷺ ، فلمّا دُفن عمر تقنّعت ولم تطرح القناع[1].

إلاّ أنّ رواية الشيخ المفيد، وثقة الإسلام الكليني تختلف عما هو مشهور عند المؤرخين، قال المفيد: «وكان المسلمون في المسجد يخوضون فيمن يؤمّهم في الصلاة عليه وأين يُدفن؟! فخرج إليهم أمير المؤمنين - علي -عليه السلام فقال لهم: «إنّ رسول اللهﷺ إمامنا حيّاً وميتاً، فيدخل إليه فوجٌ فوجٌ منكم فيصلون عليه بغير إمام وينصرفون، وإنّ الله تعالى لم يقبض نبيّاً في مكان إلاّ وقد ارتضاه لرمسه فيه، وإني دافنه في حُجرته التي قُبض فيها» فسلّم القومُ لذلك ورضوا به».

وفي رواية الكليني عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن ابن أبي عمير، عن حماد عن الحلبي، عن أبي عبد الله عليه السلام ، قال: «أتى العباس أمير المؤمنين عليه السلام فقال: يا علي، إنّ الناس قد اجتمعوا أن يدفنوا رسول اللهﷺ في بقيع المصلّى، وأن يؤمهم رجل منهم. فخرج أمير المؤمنين عليه السلام إلى الناس فقال: أيها الناس، إنّ رسول اللهﷺ إمام حياً وميتاً، وقالﷺ : «إني ادفن في البقعة التي أُقبض فيها». ثمّ قام على الباب فصلّى عليه، ثمّ أمر الناس عشرة عشرة يصلّون عليه ثمّ يخرجون»[2].

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٣٦٥ -٣٦٦، وانظر قول ابن كثير في السيرة النبوية: ٤ / ٥٤١ .

(٢) المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٨، والكليني، الكافي: ١ / ٤٥١، وعنه في البحار: ٢٢ / ٥٣٩ -٥٤٠ .

ولا نريد أن ندخل في جدل طويل حول بيت عائشة هل كان شرقي المسجد أم غربيه؟ وهل كان بابه من جهة الشام أو من جهة القبلة؟ وهل كان لباب عائشة مصراع واحد أم مصراعين[١]!! فهو جدل عقيم وتطويل يخرج سيرة رسول الله ﷺ عن سياقها ويفرغها من محتواها!

فإذا أخذنا بعين الاعتبار الروايات التي تقول: «ما مات نبيّ إلاّ دفن حيث يُقبض، فرفُع فراش النبي ﷺ، الذي توفي عليه ثمّ حُفر له تحته». ورواية الشعبي حيث قال: «إنّما يلي الميّت أهله».

ورواية ابن شهاب إذ يقول: «وَليَ وَضعَ رسول الله في قبره هؤلاء الرّهطُ الذين غسلوه: العباس وعليّ والفضل وصالح مولاه، وخلّى أصحاب رسول الله ﷺ وأهله فولّوا إجْنَانَهُ» أو الرواية التي فيها: «ولم يلهِ إلاّ أقاربه»[٢].

ولو ضممنا إلى ذلك أنّ رسول الله ﷺ قد مُرّض في بيت فاطمة وعلي عليهما السلام وأنّه ﷺ مات في حجر علي عليه السلام كما أثبتنا ذلك سابقاً.

فمن المناسب أن تكون النتيجة أنّ رسول الله ﷺ قد دفن في الموضع الذي توفي فيه وهو بيت علي وفاطمة عليهما السلام وليس في بيت عائشة كما ما تدعي الرواية التاريخية!

ومما يؤيد أن الرسول ﷺ لم يدفن في بيت عائشة، قول عائشة نفسها حيث قالت: «ما علمنا بدفن رسول الله ﷺ حتى سمعنا صوت المساحي ليلة الثلاثاء في السّحر»[٣].

فكيف يكون النبي ﷺ قد دفن في بيتها - كما تقول الروايات - وهي لا

---

(١) انظر الصحيح من سيرة النبي٣: ٣٣ / ١١٩ وما بعدها .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٩٩ -٤٠١ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٤٠١ .

تعلم بذلك؟

ولهذا لم يخفِ ابن أبي الحديد المعتزلي تعجبه من هذه الرواية فقال: «فمن العجب كون عائشة وهو في بيتها لا تعلم بدفنه حتّى سمعت صوت المساحي، أتراها أين كانت؟!».

ثمّ أضاف: «وقد سألتُ عن هذا جماعة، فقالوا: لعلها كانت في بيت يجاور بيتها عندها نساء، كما جرت عادة أهل الميت، وتكون قد اعتزلت بيتها، وسكنت ذلك البيت لأنّ بيتها مملوء بالرجال من أهل رسول الله ﷺ وغيرهم من الصحابة، وهذا قريب»[1].

واشكال ابن أبي الحديد في محلّه، ولكن ما استقربه ليس بقريب، والأقرب والأنسب أن لا يكون وفاة الرسول ودفنه في بيتها، فكانت غائبة عن المشهد ولم تعلم به إلاّ مع صوت المساحي! هذا كلّه عن مكان دفن النبي ﷺ.

وأما كيفية دفنه ومن نزل في قبره، فقد ذكرت الروايات تفاصيل ذلك باسهاب، فقد ذكر ابن سعد، جملة من الروايات منها:

رواية الزهري عن علي بن الحسين عليه السلام قال: لُحد للنبي ﷺ، لحدٌ ونصب على لحده اللبن نصباً.

وفي رواية حمّاد عن إبراهيم: «أنّ رسول الله ﷺ أُلحد له قبره وأُدخل من قبل القبلة ولم يُسلّ سلا» وهنالك روايات أُخرى بنفس المضمون[2].

وذكر ابن سعد أسماء من دخل في قبر النبي ﷺ، ففي رواية الحمراني عن الحسن عليه السلام: «أنّ رسول الله، أدخلهُ القبر بنو عبد المطلب».

---

(١) ابن أبي الحديد، شرح نهج البلاغة: ١٣ / ٤٠.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٩٦ -٣٩٨.

وفي رواية الشعبي: «وإنّما يلي الميّت أهلُه».

وفي رواية محمد بن عمرو بن حزم قال: «سألته مَن نزل في حفرة النبيﷺ؟ قال: أهله، ونزل معهم رجلٌ من الأنصار.. أوس بن خوليّ» وليس في الرواية اسم الذي سأل!

وفي رواية عمر بن محمد، عن أبيه، عن علي بن الحسين، قال: «قال أوس بن خوليّ يا أبا حسن ننشدك الله ومكاننا في الإسلام، ألا أذنتَ لي أنزلُ في قبر نبيّناﷺ، فقال: انزل; فقلت - أي الراوي - لعلي بن حسين: وكم كانوا؟ قال: علي بن أبي طالب والفضل بن عبّاس وأوس بن خَولي»[1].

إلاّ أنّ بعض الروايات ذكرت أسماء أشخاص ليس لهم صلة بأهل بيت النبيﷺ من قبل، أُسامة بن زيد، وشقران، وصالح مولى الفضل، وعبد الرحمن بن عوف[2]!

ويروي الشيخ المفيد أنّ آخر الناس عهداً برسول اللهﷺ هو الإمام عليعليه السلام قال: «ونزل علي بن أبي طالبعليه السلام القبر فكشف عن وجه رسول اللهﷺ، ووضع خدّه على الأرض موجّهاً إلى القبلة على يمينه، ثمّ وضع عليه اللبن وهال عليه التراب»[3].

إلاّ أنّ المغيرة بن شعبة حاول أن ينسب هذه الفضيلة لنفسه، فادعى أنّه كان آخر الناس عهداً برسول اللهﷺ!

روى ابن سعد عمّن حدثه عن المغيرة بن شعبة «قال: - أي الراوي - كان - أي المغيرة - يحدّثنا هاهنا، يعني بالكوفة قال: أنا آخر الناس عَهداً بالنبيﷺ

---

(١) المصدر نفسه: ٢ / ٤٠٠.

(٢) المصدر نفسه: ٢ / ٣٩٩ -٤٠٠.

(٣) المفيد، الإرشاد: ٢ / ١٨٩.

لما دُفن النبيﷺ ، وخرج عليّ من القبر القيتُ خاتمي فقلتُ: يا أبا حسن خاتمي! قال: انزل فَخُذ خاتمك، فأخذت خاتمي ووضعت خاتمي على اللّبن ثمّ خرجتُ».

وفي رواية أُخرى: «لما وضع رسول اللهﷺ في لحده قال المغيرة بن شُعبة: إنه قد بقي من قبل رجليه شيء لو تصلحونه! قالوا: فادخل فأصلحه، فدخل فمسح قدميهﷺ ، ثمّ قال: اهيلوا عليَّ التراب! فأهالوا عليه التراب حتّى بلغ أنصاف ساقيه فخرج فجعل يقول: أنا أُحدثكم عهداً برسول اللهﷺ ».

وفي رواية أُخرى قال: « . . أُخرجوا حتّى أغلق الباب فإني أَحدثكم عهداً برسول اللهﷺ ، فقالوا: لَعمري! لئن كنتَ أردتها لقد أصبتها»[1].

إلاّ أنّ ما دعاه المغيرة ليس بصحيح، وقد كذبه الإمام عليعليه السلام فيما ادعاه، وكذبه ابن عباس! روى الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن الحارث، قال: «اعتمرت مع عليّ في زمان عمر أو زمان عثمان، فنزل على أُخته أُم هاني بنت أبي طالب، فلما فرغ من عُمرته رجع فسكبت له غسلا فاغتسل. فلما فرغ من غسله دخل عليه نفر من أهل العراق فقالوا: يا أبا الحسن جئناك نسألك عن أمر نحب أن تخبرنا عنه، قال: أظن المغيرة بن شعبة يحدثكم أنه كان أحدث الناس عهداً برسول اللهﷺ ، قالوا: أجل، عن ذلك جئنا نسألك. قال: كذب أحدث الناس، عهداً برسول اللهﷺ قُثَم بن عباس».

وقال ابن كثير معلّقاً على رواية المغيرة وقصة الخاتم المزعوم، فقال: «وهذا الذي ذُكر عن المغيرة بن شعبة لا يقتضي أنّه حصل له ما أمّله، فإنه قد يكون علي رضي الله عنه ، لم يمكنه من النزول في القبر، بل أمر غيره فناوله إياه، وعلى

(١) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٠٠ -٤٠١ .

ما تقدم يكون الذي أمره بمناولته له قُثَم بن عباس»[١].

وفي رواية ابن سعد عن علي بن عبد الله بن عباس قال: «قلتُ زعم المغيرة بن شعبة أنّه آخر الناس عهداً برسول الله ﷺ قال: كذب والله! أحدث النّاس عهداً برسول الله ﷺ، قُثم بن العباس..»[٢].

إلاّ أنّ هنالك روايات أُخرى يرويها ابن سعد أيضاً تنص على أنّ الإمام عليّاً عليه السلام قد منع المغيرة من النزول في قبر النبي ﷺ لتناول خاتمه!

ففي رواية محمد بن عمرو بن حزم: «أنّ المغيرة بن شعبة ألقى في قبر النبي ﷺ بعد أن خرجوا خاتمه لينزل فيه، فقال عليّ بن أبي طالب: إنّما ألقيتَ خاتمك لكي تنزل فيه فيقال نزل في قبر النبي ﷺ والذي نفسي بيده لا تنزل فيه أبداً! ومنعه».

وفي رواية أُخرى عن محمد بن عمر بن علي عن أبيه قال: «قال علي بن أبي طالب، لا يتحدث الناس أنك نزلت فيه، ولا يتحدث الناس أن خاتمك في قبر النبي ﷺ، ونزل عليّ وقد رأى مَوقعه فتناوله فدفعه إليه».

وفي رواية ثالثة عن أبي معشر عن بعض مشايخه قال: «لمّا خرج عليّ من القبر ألقى المغيرة خاتمه في القبر وقال لعليّ: خاتمي! فقال علي للحسن بن عليّ: ادخل فناوله خاتمه، ففعل»[٣].

وقال ابن الأثير الجزري معلّقاً على دعوى المغيرة بن شعبة: «وكان المغيرة يدّعي أنّه ألقى خاتمه في قبر رسول الله ﷺ فنزل ليأخذه، فكانَ آخرهم عهداً برسول الله ﷺ. ولم يصح ذلك ولم يحضر دفنه فضلا عن أن يكون آخرهم

---

(١) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٥٣٧.

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٠١، وابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٦٥.

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٠٠ -٤٠١.

عهداً به، وسئل علي عن قول المغيرة فقال: كذب..»[١].

٣ - كلمات الرثاء والعزاء بمصاب فقد النبي ﷺ

لقد كان مصاب المسلمين بفقد النبي ﷺ مصاب جلل، أنست كل مصيبة، وأظلمت الدنيا عليهم، وأصبح يوم فقده مضرب مثل فإذا بالغوا في يوم مصيبة قالوا: «إنه كيوم مات فيه رسول الله ﷺ».

يروى عن أنس وعن أبي سعيد الخدري قولهما: «لما كان اليوم الذي قدم فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كلّ شيء، فلما كان اليوم الذي مات فيه أظلم منها كلّ شيء».

وقال بعضهم: «وما فرغنا من دفنه حتّى أنكرنا قلوبنا»[٢].

وتصف لنا أم سلمة حال المسلمين عندما دفن رسول الله ﷺ في تلك الليلة فتقول: «.. فصحنا وصاح أهل المسجد، فارتجّت المدينةُ صيحة واحدة، وأذّن بلال بالفجر، فلما ذكر النبي ﷺ بكى وانتحب، فزادنا حُزناً، وعالج الناس الدخول إلى قبره فغلق دونهم، فيا لها من مصيبة ما أصبنا بعدها بمصيبة إلاّ هانت إذا ذكرنا مصيبتنا به ﷺ».

ومن الطبيعي أن يكون أهل بيته ﷺ أكثر الناس حزناً ومصيبة وحرقة وألماً على فقده ﷺ.

ولهذا رويت كلمات رثاء وتأبين وأبيات حزن، عن الإمام علي والزهراء عليهما السلام:

ومن كلمات الرثاء التي قالها أمير المؤمنين علي عليه السلام ما رواه الشريف

---

(١) ابن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١ / ٥٥.

(٢) ابن كثير، السيرة النبوية: ٤ / ٥٤٤ -٥٤٥.

الرضي في نهج البلاغة، قال: ومن كلام له عليه السلام قاله وهو يلي غسل رسول الله صلى الله عليه وآله وتجهيزه:

«بأَبي أَنْتَ وَأُمّي! لَقَدْ انْقَطَعَ بِمَوْتِكَ مَا لَمْ يَنْقَطِعْ بِمَوْتِ غَيْرِكَ مِنْ النُّبُوّةِ والأَنْبَاءِ وأَخْبَارِ السَّمَاءِ، خَصَّصْتَ حَتَّى صرْتَ مُسلِّياً عَمّن سِوَاكَ، وعَمّمْتَ حتَّى صَارَ النَّاسُ فِيكَ سَوَاءً، ولوْلا أَنَّكَ أَمَرْتَ بالصّبرِ، ونَهيتَ عَنِ الجَزَعِ، لأَنْفَدْنا عَلَيْكَ مَاء الشُّؤونِ، ولَكَانَ الدّاءُ مُمَاطِلاً، والكَمَدُ مُحَالِفاً، وقَلاّ لك»[1] ولكِنَّهُ مَا لا يُملَكُ رَدُّهُ، ولا يُستَطاعُ دَفعُهُ! بأبِي أَنْتَ وأُمّي! أُذكُرْنا عِندَ ربِّكَ، واجْعَلنا مِنْ بَالِكَ»[2]!

ويروى عن الإمام علي عليه السلام قال: لما رُمس رسول الله صلى الله عليه وآله جاءت فاطمة عليها السلام فوقفت على قبره وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعته على عينيها وبكت، وانشأت تقول:

ماذا على من شمَّ تربةَ أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا

صُبت عليَّ مصائب لو أنّها ... صبت على الأيام عُدنَ لياليا[3]

وأضاف بعض المؤرخين إلى هذين البيتين أبياتاً أُخرى بنفس الوزن والقافية، ونسبوها إلى الزهراء عليها السلام ولا نعلم مدى صحة هذه النسبة[4].

---

(١) الشؤون: منابع الدمع من الرأس، والكَمد ; الحزن، وقلاّ: أي مماطلة الداء ومحالفة الكمد قليلتان لك .

(٢) نهج البلاغة، الخطبة رقم: ٢٣٣، شرح: محمد عبده: ٢/ ٣٨٣ - ٣٨٤ .

(٣) ابن الصباغ المالكي، الفصول المهمة: ١ / ٢١٢ -٢١٣، تحقيق: جعفر الحسيني، طبعة المجمع العالمي لأهل البيت، الطبعة الأُولى، (١٤٢٧ هـ) .

(٤) انظر: الأمين -السيّد محسن، أعيان الشيعة: ١ / ٣٢٣، حقّقه وأخرجه: حسن الأمين، طبعة دار التعارف -بيروت، (د -ت) .

كما أنّ هنالك أبياتاً رثائية أُخرى ذكرها المؤرخون ونسبوها إليها عليها السلام[١].

ومن كلمات الرثاء التي نسبت إليها عليها السلام ما رواه زيد بن ثابت عن أنس قال: «لما ثقل النبي صلى الله عليه وآله ، جَعل يتغشاه الكَرب، فقالت فاطمة: واكربَ أبتاه! فقال لها النبي صلى الله عليه وآله : ليس على أبيك كربٌ بعد اليوم! فلما مات رسول الله صلى الله عليه وآله قالت فاطمة: يا أبتاه! أجاب ربّاً دعاه، يا أبتاه! جنةُ الفردوس مأواه، يا أبتاه! إلى جبريل نَنعاهُ، يا أبتاه! مِن ربّه ما أدناه! قال - الراوي -: فلمّا دُفن قالت فاطمة: يا أنس أطابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله صلى الله عليه وآله التراب؟»[٢].

وروي عن أبي جعفر عليه السلام قال: «ما رأيت فاطمة ضاحكةً بعد رسول الله صلى الله عليه وآله ، إلاّ أنّها قد تُمُودي في طرف فيها»[٣].

وهنالك أبيات شعرية كثيرة يرويها ابن سعد في طبقاته، وينسبها إلى: أروى بنت عبد المطلب، وعاتكة بنت عبد المطلب، وصفيّة بنت عبد المطلب، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب. . قال إنها قيلت في رثاء النبي صلى الله عليه وآله[٤]. ولا يسع مجال البحث لذكرها.

وروى ابن هشام عن أبي زيد الأنصاري مجموعة من قصائد الرثاء قالها حسان بن ثابت في مرثية الرسول صلى الله عليه وآله ، وهي من غرر قصائد الرثاء التي قالها هذا الشاعر[٥].

كما أن هنالك كلمات وقصائد رثاء قيلت في فقد رسول الله صلى الله عليه وآله تراجع في

---

(١) ابن سيد الناس، عيون الأثر: ٢ / ٤٠٩، وابن شهر آشوب، المناقب: ١ / ٢٤٢ و ٣ / ٣٦١ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٤٠٥ .

(٣) المصدر نفسه: ٢ / ٤٠٥ .

(٤) المصدر نفسه: ٢ / ٤١٢ -٤١٧ .

(٥) ابن هشام، السيرة النبوية: ٤ / ٦٦٦ -٦٧١ .

مظانها من كتب التاريخ والأدب ودواوين الشعراء.

وروى ابن سعد عن اللّيثي قال: حدّثونا عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: «لمّا توفي رسول اللهﷺ جاءت التعزية يسمعون حسّه ولا يرون شخصه قال: السلام عليكم أهل البيت ورحمة الله وبركاته، ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۖ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِۖ﴾[1] إنّ في الله عزاءً من كلّ مصيبة، وخلفاً من كلّ هالك، ودركاً من كلّ ما فات، فبالله فثقوا، وإيّاه فارجوا، إنما المصاب مَن حُرم الثواب، والسلام عليكم ورحمة الله، فقال عليعليه السلام: هل تدرون من هذا؟ هذا الخضرعليه السلام»[2].

وأخيراً فإنّ مصابنا بفقد نبينا لمن أعظم المصائب، ولا تدانيها أي مصيبة من مصائب الدنيا، وتهون عند هذه الرزيّة الكبرى، كلُّ رزايا الدنيا، وقد روي عنهﷺ قال: «إذا أُصيب أحدكم بمصيبة فليذكر مصيبته بي، فإنّها أعظم المصائب»[3]. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

٤ - الدروس والعبر

لقد توقفنا في هذا الدرس من دروس السيرة النبوية - والذي نحسبه الدرس الأخير منها - عند محطات مفصلية من تاريخ سيرة النبي الأكرمﷺ في أواخر أيام حياته الشريفة، وخُتم هذا الدرس بمقطع حزين تمثل في فقد نبينا حيث اختاره الله إلى جواره بعد أن أدى الأمانة وبلغ الرسالة.

وعندما نستعرض ما استعرضنا من أحداث في هذا الدرس، تتجلّى لنا بعض الدروس والعبر والعظات التي لابد من التأمل فيها والتزوّد منها.

---

(١) آل عمران: ١٨٥ .

(٢) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٨٦ -٣٨٧، والمتقي الهندي، كنز العمال: .

(٣) ابن سعد، الطبقات: ٢ / ٣٨٦ .

أولا: الامتحان الإيماني في جيش أُسامة:

لقد كان درساً إيمانياً وامتحاناً صعباً ذلك الذي مرّ به أصحاب رسول اللهﷺ الذين ندبهم للالتحاق بجيش أُسامة. إذ كان من بين هؤلاء من يرى في نفسه سابقته في الهجرة والجهاد والإيمان والإسلام، وكان يتطلع إلى تسنم القيادة والخلافة بعد رسول اللهﷺ ! وإذا به يرى نفسه تحت لواء شاب لم يتجاوز العشرين! وليس له أيّ تجربة قيادية سابقة.. فهل نجح هؤلاء في هذا الامتحان وهل آثروا أمر رسول اللهﷺ وتأكيداته على أهواءهم النفسية وكبريائهم فانقادوا لأمرهﷺ من دون تلكؤ أو اعتراض؟ واقع الأمر يحكي لنا عن كثير منهم وخاصة ذوي الشأن منهم غير ذلك، فمات رسول اللهﷺ وجيشه لم يذهب! ولو قدر لنا أن نعيش في ذلك المقطع الزمني، ونمرّ بهذا الامتحان، فهل كنا نؤثر الهدى على الهوى؟ وننقاد لأمر الله ورسوله متحلين بالصبر وقهر النفس وتهذيبها؟

ثانياً: ما أعظمه من كتاب، ولكنه لم يكتب:

لقد حرص رسول اللهﷺ على هداية قومه في سبيل انقاذهم من وهدة الجاهلية وأوراها، وملك بهم طريق الهدى والنور حتى أواخر أيام حياته، وأراد أن يكون مسك ختام الهداية، كتاباً فيه يتجلى الهدى، ويقترن بهدى الله من خلال كتابه، فيكونان قريني هداية لا يفترقان، «هلموا اكتب لكم كتاباً لا تضلوا بعده أبداً» ما أعظمها من نعمة، وما أعظمه من كتاب، وما أعظم من عزم على كتابته! «وأية فرصة غالية هذه يجب أن يقتنصها الحاضرون، لهم ولجيلهم وللأجيال اللاحقة حتّى الأبد؟ وأية نعمة كبرى هذه لا تعادلها نعمة! أما كان على المسلمين أن يستغلوها أعظم غنيمة فيسرعوا إلى تلبية هذا الطلب ليخلد لهم الهدى ما بقوا؟ فأي شيء كان يؤخرهم عن اقتناص هذه النعمة؟»[1].

(١) المظفر، السقيفة: ٨٢ .

وللأسف لم يكتب النبيﷺ كتابه، لأنه حال بينه وبين كتابته تلك الكلمات الجارحة، وذلك اللغط الذي ارتفع، وذلك النزاع الذي نشب، فكان من حق ابن عباس أن يبكي عند تذكرها حتى يخضب دمعه الحصباء ويحسبها رزية من رزايا الإسلام، وأي رزية هي؟

ثالثاً: الموقف السياسي، والتبريرات الواهية:

مما لا شك فيه أن ما قيل في ذلك المجلس الذي أراد فيه رسول اللهﷺ أن يكتب فيه كتابه، قد انطلق من موقف سياسي جريء من قبل قائله! «وجاء موقفه في وقته المناسب له قبل أن تفوت الفرصة»[1].

ولم يكن ذلك الموقف والكلمات التي قيلت فيه تنطلق من الشفقة على النبيﷺ ولا تمسكاً بكتاب الله! وإنما كان استباقاً لما كان معروفاً لديهم مسبقاً لما يريد رسول اللهﷺ أن يؤكد عليه من أمر الوصية والخلافة من بعده، والذي قاله في مناسبات كثيرة ولا زال صداها في غدير خم في آذانهم!

وهذا الموقف السياسي الجريء الذي أقدم عليه صاحبه قد سجّله التاريخ بوضوح ولا يمكن نكرانه أو التمويه عليه.

إلاّ أنّنا نجد من المؤرخين والمحدثين من يحاول أن يزور التاريخ ويشوه معالمه من خلال ايجاد المبررات أو قلب الحقائق.. أو الدفاع عن صاحب تلك المقالة، ولو على حساب تخطئة النبيﷺ في موقفه!

وذلك فلنعتبر بأحداث التاريخ، ولنتعامل بحذر مع ما سطره المؤرخون، كي لا تضيع علينا حقائق التاريخ، فنقع فريسة لما لفقه بعض الوضاعين والمزورين والمبررين.

---

(١) المصدر نفسه: ٨٤ -٨٥ .

رابعاً: حكمة رسول الله ﷺ في معالجة الأُمور:

إنّ قضية وقصة الكتاب الذي لم يكتب، في الوقت الذي كشفت لنا عن موقف سياسي مبيَّت، وجرأة سياسية في اغتنام الفرص المتاحة، ولو على حساب المبادئ! فإنها أعطتنا درساً بليغاً من دروس سيرة النبي ﷺ من خلال معالجته ﷺ لهذا الموقف وبحكمة بالغة الدقة! فلم يصر على كتابة كتابه لأنّ في إصراره على ذلك نتائج مستقبلية قد تطال الإسلام وأهله، وقد قدرّها رسول الله ﷺ جيداً. من خلال ما كان يعتلج نفوس البعض وتترجمها كلماتهم ولغطهم في مجلسه، «وليس بالبعيد إنه ﷺ امتنع عن التصريح شفاهاً أو كتابة بعد هذه القصة بالنص على خليفته لئلاّ يأخذ اللجاج بالبعض إلى الخروج على الإسلام، فتكون المصيبة أعظم على الإسلام والمسلمين»[1].

فكان في هذا الموقف النبوي الحكيم درس بليغ في معالجة أدق الأُمور وأكثرها حساسية.

خامساً: سنّة الموت، والشوق إلى لقاء الله:

الموت والحياة من سنن الله في خلقه، وكلّ مخلوق وإن كان طال به العمر لابد أن يواجه اليوم الذي يفارق فيه هذه الدنيا، وترتحل النفس إلى بارئها ومصورها ونافخ الروح فيها: (كُلُّ نَفْس ذَائِقَةُ الْمَوْتِ) ولا يستثنى من هذا الإطلاق ولا يخصص هذا العموم بفرد دون آخر مهما كانت مكانته ومنزلته عند الله ﷺ بما في ذلك الأنبياء والمرسلون.

وهذا المعنى هو ما أوضحته الآيات المباركة من كلام الله عزّ وجل مخاطباً خاتم رسله صلوات الله وسلامه عليه: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾[2] ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَٰلِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾

(١) المصدر نفسه: ٩١ .

(٢) الزمر: ٣٠ .

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾[١].

إلاّ أنّ الناس يتفاوتون في كيفية تعاملهم مع الموت! وبحسب درجاتهم الإيمانية ومستوى قربهم أو بعدهم عن الله سبحانه! فمنهم من يخاف الموت ويكرهه، ومنهم من يستقبل الموت، ومنهم من يشتاق إلى الموت، لأنّ فيه لقاء الله سبحانه. قال رسول الله ﷺ: «مَن أَحَبَّ لِقاءَ الله، أَحبَّ اللهُ لِقاءَهُ، وَمَنْ كَرِهَ لِقاءَ اللهِ كَرِهَ اللهُ لِقاءَهُ»[٢].

ألم يكن من اليسير على الله سبحانه - وهو القادر على كلِّ شيء - أن يجعل الخُلد في الدنيا لرسوله؟ ولكنه سبحانه اشتاق لرسوله، واشتاق الرسول للقاء ربه، اشتياق الحبيب للقاء حبيبه، وهل رأيت حبيباً يكره لقاء حبيبه؟ إن الحبيب يُحبُّ لقاءَ حبيبه.

وقد عبّر رسول الله ﷺ عن هذا الحبِّ والشوق الذي ملأ كيانه، بتلك الكلمات التي قالها عند سكرات الموت: «اللهم الرفيق الأعلى». «دنا الفراق والمنقلب إلى الله وإلى جَنّة المأوى وإلى سدرة المنتهى وإلى الرفيق الأعلى والكأس الأوفى والحظ والعيش المهنّى»[٣].

فسلام الله وصلواته على رسوله الأمين، وجزاه الله عنّا وعن المسلمين وعن الإنسانية جميعاً خير الجزاء، وأفضل الجزاء، وجعلنا الله من المتمسكين بسيرته وسنته وتعاليمه القيمة، ورزقنا الله شفاعته يوم الورود وحشرنا في زمرته ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾[٤].

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) الأنبياء: ٣٤ -٣٥ .

(٢) المتقي الهندي، كنز العمال، الحديث: ٤٢١٨٩ .

(٣) النبهاني، يوسف، الأنوار المحمدية من المواهب اللدنية: ٥٨٤ .

(٤) النساء: ٦٩ .

الأسئلة:

١ – ما هو المصير الذي انتهى إليه جيشِ أُسامة؟ وما هي أسباب ذلك؟
٢ – ماذا أراد رسول الله ﷺ أن يكتب لأُمته في الكتاب الذي لم يكتب؟
٣ – ما الذي حال دون رسول لله ﷺ وكتابة كتابه؟
٤ – لماذا لم يصرَّ رسول الله ﷺ على كتابة كتابه؟
٥ – ما هو الصحيح في قصة تمريض النبي ﷺ ؟ ومن قام بتمريضه؟
٦ – ما هو التاريخ الصحيح في وفاة النبي ﷺ ؟ ولماذا؟
٧ – من الذي قام بتجهيز النبي والصلاة عليه ودفنه؟
٨ – أين دفن النبي ﷺ ؟ ومن كان آخر عهد به؟
٩ – ما هي الدروس والعبر المستفادة من حادثتي جيش أُسامة والكتاب الذي لم يكتب؟

ملحق

نظم السيرة النبوية

قطوف دانية من ملحمة

«قوافل النور»

للشاعر الأديب العلاّمة السيّد حسين بركة الشامي[1]

---

(١) الشامي -حسين بركة، ملحمة قوافل النور في سيرة النبي وأهل بيته عليهم السلام ، قدَّم له بدراسة دلالية الدكتور: طارق نجم عبد اللّه، طبعة دار الإسلام، الطبعة الثانية، بغداد، (١٤٢٨ هـ-٢٠٠٧ م) .

العرب قبل الإسلام

بـذكـر أحـوالِ جـزيـرةِ الـعـرب ... تـرنـو إلـى نـور الـنـبـيّ الـمـرتـقـب
وحـيـثُ كـان الـرومُ فـي طـغـيـانِ ... والـفـرسُ فـي صـوامـع الـنـيـرانِ
والـعـربُ عـكّـفٌ عـلـى الأصـنـامِ ... فـي حـمـأة الـضـلالِ . . . والـحـرامِ
عـادتـهـم وأدُ الـبـنـاتِ جـهـلا ... مـسـتـسـهـلـيـن دفـنـهـا والـقـتـلا
الـخـمـرُ فـيـهـم والـربـا قـد شـاعـا ... بـجـهـلـهـم قـد ألـفـوا الـضـيـاعـا

❁ ❁ ❁

المولد المبارك

ثـمَّ بـدا نـور الـنـبـيِّ (احـمـدا) ... يـحـمـلُ لـلـنـاسِ مـشـاعـل الـهـدى
فـهـو بـشـيـرُ الـحـقِ والـنـذيـرُ ... لـم يـنـطـفـىء سـراجـهُ الـمـنـيـرُ
يُـعـرفُ بـاسـمِ الـصـادق الأمـيـنِ ... فـي كـلِّ مـوطـن وكـلِّ . . . حـيـنِ
وهـو (لابـراهـيـم) قـدمـاً يـنـتـسـب ... ثـم (لـهـاشـم وعـبـد الـمـطـلـب)
أشـرق مـن ضـيـائـه (حـراءُ) ... ونُـوّرت بـهـديـه الـصـحـراءُ
يـدعـو إلـى الـتـوحـيـد والـصـلاةِ ... فـانـهـار مـن صـداهُ عـرشُ (الـلاةِ)
وانـطـفـأ الـلـظـى بـنـار (كـسـرى) ... واضـطـرب الـروم بـأرض (بُـصـرى)
يـقـول لا إلـه إلاّ الـلـهُ ... الـهُـنـا لا تـعـبـدوا سـواهُ
مـصـدقـاً بـشـارةَ (الـتـوراةِ) ... ومـا حـوى (الانـجـيـلُ) مـن آيـاتِ

فقد دعا من (آلِ عبد المطلب) رجالَهم والكلُّ منهم مضطرب
يدعوهمُ لنصرة العقيده فهم وجوهُ أُسرة حميده

بدء الدعوة

لكنهم قد واجهوهُ بالغضب وكان في أولهم (أبو لهب)
مستهزأً بجمعهِ هذا العدد ملوّحاً لهُ بحبل من مسدْ
لكنما الأطيابُ منهم آمنوا والكلُّ منهم للنبي ضامنُ
أولُ من صدقهُ (عليُّ) الوارثُ الخليفةُ الوصيُّ
وزوجهُ (خديجةُ) الغنيّه البرّةُ الطاهرةُ الوفيّه
والصفوةُ الأبرارُ (آلُ ياسرِ) وكلُّ حرٍّ طاهر وصابرِ
كالثائرِ البرّ (أبي ذرٍّ) ومن لم ترتجف خطاه أيام المحن
وآخرون جُلّهم شبابُ بفضلهم قد نطق الكتابُ
وآمنت به جموعُ الضُعفا وبعضهم قد نصروهُ بالخفا
مثل أبي طالب شيخ البطحا في السر داوى للنبي جرحا
يقيه بالنفس وبالبنين ويكتم الايمان في يقين
فاشتدَّ من أعدائهِ العنادُ ونُصبت لذلك الأوتادُ
وعُذّبَ الصحبُ على الهجيرِ بالنار والقيودِ والصخورِ
لكنما الدعوةُ ظلت تسري بكل قوة وكلِّ . . . صبرِ
ينزلُ (جبرائيلُ) بالقرآنِ يفتحُ آفاقاً من المعاني
فحوصرت إذ ذاك (آلُ هاشمِ) (بالشِعبِ) رافضين كلَّ ظالمِ
مرّت ثلاث من سني القهرِ وذاك للرسول أقسى العُمرِ

موسومة بالحزن والعذاب إذ فقدوا جمعاً من الأصحابِ
فيها أبو طالب صبراً قد قضى وعندها ضاق على (طه) الفضا
وزوجه (خديجة) الكبيره وهي له الأهلون والعشيره
للّه صبرٌ لا يجاريه أحدْ تاريخُ (أحمد) به قد انفردْ

❁ ❁ ❁

الهجرة إلى الحبشة

حتى إذا ضاقت بلادُ (الحرمِ) بكلِّ مؤمن وكلِّ مسلمِ
هاجر بعضُ الصحبِ (للنجاشي) ميمّمين وجهةَ (الأحباشِ)
يقودُهم (جعفرٌ الطيارُ) البطلُ المجاهدُ المغوارُ
إذ لاحقتهم زمرةُ المعاصي يقدمهم من مكة (ابنُ العاصِ)
يريدُ أن يخادع النصارى من أجل أن يرجعَ بالأسارى
لكن موقفاً (لجعفرِ) الأبيّ قد انقذ الثلةَ من صحب النبيّ
ورابطت بقيةٌ مجاهده ظلّت على كفر قريش شاهده
تحتضنُ الرسولَ في اخلاصِ تطمعُ بالنجاةِ والخلاصِ
فحدثت حادثة (الاسراء) إذ عرجَ الرسولُ للسماء
من مكة أسرى لبيت (المقدسِ) أسرى بغير ناقة أو فرسِ
(بُراقهُ) تحملهُ إلى العُلى معجزةً منه ليؤمنَ الملا
فكذبوه حسداً وجهلا وقد سما قولا به وفعلا
وهكذا ظل يؤدّي دوره حتى أراد الله منه الهجره
فهاجر النبيُّ نحو (الطائفِ) يتبعه (زيدٌ) بقلب خائفِ
لمن أهلها أبوا أن يسمعوا قولا وأن يعترفوا أو يخشعوا

وامتدت الدعوةُ نحو (يثربِ) فصافحت اكفُها كفَّ النبيّ
وبايعته ثلة مقرَّبه في موسم الحجيج عند (العَقَبه)
فأرسل النبيُّ فيهم (مصعبا) معلماً وواعظاً . . مؤدبا
وهو فتىً من أُسرة منعّمه معروفة في (مكة المكرّمه)
فوطئوا للدعوةِ المجيده في بقعة صالحة جديده
فأصبحت مهاجرَ النبيِّ ومهبطاً للكلم العليِّ
من بعد أن ضاق عليه الموطنُ وحاصرتُهُ (مكةٌ) والمحنُ

❁ ❁ ❁

الهجرة إلى يثرب

فأزمع الهجرةَ والرحيلا ليثرب يبني هناك جيلا
وبات في فراشهِ (أخوهُ) خشيةَ أن يأتوا ويقتلوهُ
وذاك قمة الوفا والتضحيه أن يغدوَ الموتُ الرهيبُ أُمنيه
غادر في المساء (ثاني اثنين) من غير أن تراهُ أيُّ عينِ
وبعد لأي وصل (المدينه) فاستقبلته الصفوةُ الأمينه
يتبعهُ الإمام بالفواطم وهنَّ طاهراتُ (آلِ هاشم)
حيث بنى النبيُّ صرحَ الحقِّ بكلِّ ايمان وكلِّ صدقِ
فاتخذ المسجدَ للقياده والحكم والتوجيه والعباده
مستعذباً وعورةَ الطريقِ ساعياً للهدف الحقيقي
ورُفعَ الآذان للصلاةِ أُنشودةً في شفة الدعاةِ
أولُ من صاح به (بلالُ) ومن به قد ضجت الأغلالُ
بلُغة جميلةِ الألحانِ (فسينهُ) (كالشين) في المعاني

وشرعت هنالك العباده ... وفتحت أبوابها الشهادة
فاعلن الاخاءَ للأبرارِ ... بين المهاجرين والأنصارِ
كي يشحذ الايمانُ والأُخوه ... قلوبَهم بالحبّ والفتوّه
فأصبح الغنيُّ والفقيرُ ... في لدين والكبيرُ والصغيرُ
جميعُهم في أُسرةُ الإيمانِ ... في نسب من الاخاء ثانِ
وأذن الله لمن قد ظُلموا ... أن يَرفعوا سيوفهم ويقدموا

❁ ❁ ❁

معركة بدر

فبئرُ (بدر) كانت البدايه ... منطلقاً للفتح والهدايه
إذ أقبلت (قريشُ) في طغيانِ ... تريدُ أن تثأرَ للأوثانِ
فكانت المعركةُ العظيمه ... والعود بالنصرةِ والغنيمه
(حيدرة) كان فتاها البطلا ... كم فارس حولَ (القليب) جدّلا
تعينهُ ملائكُ السماء ... في ساعةِ العسرةِ والبلاء
فنزلت محكمةُ (الأنفالِ) ... ترسمُ دربَ النور للأجيالِ
(فبدرُ) كانت منهجَ المسيرِ ... لامة تصبو إلى التغييرِ
فمُنيتْ (قريشُ) بالهزيمه ... حاملةً أحقادها القديمه
تاركةً وراءها الاشلاءا ... تملأُ من دماءها الصحراءا
وخاطب الرسولُ تلك القتلى ... هل كان وعدُ الله فيكم عدلا؟
إني وجدتُ الوعدَ حقاً حقا ... إذ قال لي ربي قولا صدقا
وقال للأسرى تعالوا علّموا ... عشراً من الرجال حتى تسلموا
واندحرت (قريشُ) وهي باكيه ... حيث غدت في كلِ بيت ناعيه

معركة أُحد

ثمّ تجمّعت بعيدَ عامٍ ... للثأر من رسالة الإسلامِ
فحشّدت جموعها الغفيره ... تحسبُ هذي الجولةَ الأخيره
فكان ذيّاك اللقا في (أُحدِ) ... ما بين جمع جاحد ومهتدِ
إذ أمر الرسولُ بعضَ الصحبِ ... أن لا يغادروا مكان الحربِ
في جبل يكمن حوله العدى ... خوفاً على أُمته من الردى
لكنهم قد خالفوا (النبِّيا) ... وآثروا الأموالَ والحُلِّيا
من بعد أن لاح بريقُ النصرِ ... وأوشكت هزيمةٌ للكفرِ
إذ صال (خالدٌ) على جيشِ الهدى ... وصبَّ من أحقاده السودِ الردى
فصيحَ فيهم قُتلَ الرسولُ ... خديعةً صدّقها المخذولُ
لكنهُ وهو (ابنُ عبد المطلب) ... صاحَ بهم (أنا النبيُّ لا كذِب)
وحين فرَّ الصحبُ بانهزامِ ... وتُركَ الرسولُ دون حامِ
سوى جماعة من الأبطال ... قد ثبتوا في موقف الرجالِ
أولُهم (عليٌ) الشجاعُ ... ومن به يحتدمُ الصراعُ
وثلّة من أفضلِ الأخيارِ ... مثلُ (أبي دُجانةِ) الأنصاريّ
وجُرح النبيُّ في جبهتِهِ ... وسالت الدما على لحيته
واستشهد (الحمزةُ) في سبعينا ... من خيرةِ الرجال والبنينا
فاستعبر النبيُّ حزناً وبكى ... وهزّ دمعهُ السخينُ الفلكا
حيث دعا إلى البكا عليه ... فهو عظيمٌ قدرهُ لديه

وكان ذاك اليوم درساً قاسيا ... إذ عرفوا مطيعَهم والعاصيا
ورجع الرسولُ للمدينه ... يبني أُصولَ الدولةِ الرصينه
فشُرع الحلالُ والحرامُ ... والخمسُ والزكاةُ والصيامُ
حيث تقوَّت شوكةُ الإسلامِ ... واندحرت جحافلُ الظلامِ
وامتد نورُ الله بالهدايه ... بسورة محكمة وآيه
وانطلقَ الدعاةُ للآفاقِ ... بالرغم من أئمةِ النفاقِ

❁ ❁ ❁

معركة الخندق

إذ ذاك جاء الخبرُ الأكيدُ ... تجمّعت قريشُ واليهودُ
خلفهما الأعرابُ والأحلافُ ... والهمجُ الرعاع والجلافُ
يبغونَ هدمَ معقلِ الرساله ... بقتلهم (محمداً) وآله
فكان حفرُ (خندقَ) الأمانِ ... بفكرة عصماء من (سلمانِ)
عرّفهُ نبيُنا للأُمه ... (سلمانُ منّا أهلَ بيتِ الرحمه)
فوقعت معركةُ (الأحزابِ) ... مخيفةً لاشجع الأصحابِ
إلاّ علياً ابن (شيبِ الحمد) ... مشى (لعمر بن عبدِ ودِّ)
عاجله الضربَ بذي (الفقارِ) ... وهو لعمري عيبةُ الأسرارِ
فضربةٌ عند أبي (الحسينِ) ... قد عدلت عبادةَ الثقلينِ
فقيل لا سيفَ سوى السيفِ الجليّ ... في كفه (ولا فتى إلاّ عليّ)
وكانت اليهودُ في الحصونِ ... تؤججُ الأحقادَ بالضغونِ
بنو (قريظة) وآلُ (المصطلق) ... الفُ يهوديٍّ على الحقد انغلق
ثمّ استقرت دولةُ الإسلامِ ... وثبتت قواعدُ النظامِ

رغم جموع الغيّ والنفاقِ ... وزمرة اليهود والشقاقِ
فأصبح الرسولُ في دولتهِ ... مطبّقاً ما جاءَ في دعوتهِ
يعلمُ الناسَ هدى القرآنِ ... حيث استقامت روعةُ البنيانِ
وحين صار المسلمون قوه ... مسلحين بالهدى والدعوه
يحمل بعضُهم هموم بعضِ ... جناحُهم من رحمة في خفضِ
ورغم ما تحملوا من جوعهم ... تلتمع الخشيةُ من دموعهم
هم اروعُ الأمثالِ في الصفاتِ ... وهم حماةُ الدينِ والآياتِ
وهاجَ فيهم حبُهم للكعبه ... فراح بعضُهم يناجي ربه
يقول يا ربِّ أين الفتحُ ... وعدتنا متى يجيءُ الصبحُ

❁ ❁ ❁

صلح الحديبية

فقرر النبيُّ أن يحجّا ... في موسم رجَّ (الحجاز) رجّا
وقلبهُ يهفو لبيت الله ... لأنه أُنشودةُ الشفاهِ
فساق (هديهُ) أمام جحفله ... مكبراً مسبحاً في أوله
والصحب تحدو فيهم الآمالُ ... لكعبة يحضنها الجلالُ
قد فارقوها (ستةً) أعواما ... تنتظرُ الأزواج واليتامى
فوصلوا لواحةِ (الحديبيه) ... وكلُهم يرى الوصولَ أُمنيه
لكنهم قد مُنعوا المسيرا ... وعاد كل واحد كسيرا
هناك بايعت جموع البرره ... نبيّهم تحت ظلالِ الشجره
أن يفتدوه بالنفوسِ والولدْ ... فهو القريبُ والحبيبُ والبلدْ
فنزلت آيٌ من الرحمنِ ... وسُمّيت (ببيعة الرضوانِ)

وارتبكت قريشُ من هذا الخبر ... فأرسلت وفداً ليردعَ الخطر
يَقدمهم (سهيلٌ بنُ عمروِ) ... وهو حكيمٌ عارفٌ بالأمر
فكان الاتّفاقُ أن يعودوا ... وبعد عام تُرفعُ القيودُ
وعشرةٌ من السنين هدنه ... تعلّمَ الأصحابُ فيها السُنّه
أنكر بعضُ الصحب منهم (عمرُ) ... بأنهم بالوعدِ لم ينتصروا
فغضبَ النبيُّ ثمّ وضّحا ... بأنّهُ ما جاء حتى يفتحا
لكنّهُ طالبهم بالطاعه ... أن يذعنوا لموقفِ الجماعه
ورجعت صحابةُ الرسولِ ... يواجهون (ابن أبي سلول)
بالوعي والأناةِ والصلابه ... قد نهجت طريقَها الصحابه

❁ ❁ ❁

معركة خيبر

لكنما (اليهودُ) ظلت حاقده ... مغرورةً بجهلها معانده
حاصرها النبي عند (خيبرِ) ... في يوم عودةِ الحبيبِ (جعفرِ)
قال: غداً إني سأعطي (الرايه) ... إلى فتىً يُعرفُ بالهدايه
يكرُّ دائماً ولا يفرُّ ... في سيفه دوماً يلوحُ النصرُ
وهو يحبُّ الله والرسولا ... بحيث أضحى لهما خليلا
فسلّم (اللواءَ) للإمامِ ... مقتحماً معاقلَ الظلام
مقتلعاً بوابة الحقد الغبيِّ ... ومردياً بسيفه (لمرحبِ)
وقد تهاوت بعدهُ القلاعُ ... وانهزمت إذ ذاك (قينقاعُ)

❁ ❁ ❁

معركة مؤتة

وبعدها أرسلَ جيشاً آخرا ... قدم (زيداً) عندهُ (وجعفرا)
(وابنَ رواحة) لغزو الروم ... وهم ألدُّ زمرة الخصوم
فنزل الجيش على (معّانِ) ... مفكراً بكثرة (الرومانِ)
فأمر الرسولُ بالقتالِ ... فثبتَ الرجالُ كالجبالِ
حيث هوى (زيدُ)الشجاع القسورُ ... وبعده استشهدَ فيهم (جعفرُ)
(وابن رواحة) شهيداً قد مضى ... وفي جيوش الروم قد حل القضا
وفي المدينة النبيّ ينظرُ ... لما جرى عليهم ويُخبرُ
وانحاز بالراية بعدُ (خالدُ) ... والكلُّ في صبر غدا يجالدُ
وبعدها عادوا مع الجراحِ ... ينتظرون وثبةَ (البطاحِ)

رسائل النبي إلى الملوك

وأرسل الرسولَ بالمرسومِ ... لعرشِ فارس وعرشِ الروم
ومرسلٌ أيضاً إلى النجاشي ... رسالةً تحملُ للأحباشِ
ثمّ كتابه إلى (المقوّقسِ) ... و (حارثٌ) كان ببيت المقدسِ
ثمّ كتاب (المنذر بن ساوا) ... بـ (جيفر) كتابه تساوى
وأرسل الدعاة لليمامه ... لهوذة يعطونهُ علامه
بأن دين الله سوف يظهرُ ... وفي البقاع كلّها ينتشرُ

وخاطب النبيُّ كلَ واحدِ ... منهم بلهجةِ الرسولِ القائدِ
إن أسلموا لدعوتي سريعاً ... أو ترفضوا فتأثموا جميعا
وذاك دأبُ الدعوة المكرّمه ... ان تنشرَ الإسلام عبر الكلمه
والكلُّ قد أصغى ولكن (كسرى) ... قد مزّق الكتاب منه كفرا

❁ ❁ ❁

فتح مكة

امتدت الدعوةُ في الجزيره ... وهي نواة الأُمةِ الكبيره
والتزم الرسول بالمعاهده ... لكنما قريشُ ظلّت حاقده
فنقضت عهودُها عند الخفا ... وباغتت في الليلِ بعض الحلَفا
فهاجمت خزاعة الأبيه ... أهلَ الوفا والجودَ والحميه
وحين جاء (عمروٌ الخزاعي) ... إلى النبيّ بدم ملتاعِ
يقول في آبياته الأليمه ... يخاطبُ النبوة الكريمه
(لا همَّ إني ناشدٌ محمدا ... حلفَ أبينا وأبيكَ الا تلدا
ان قريشاً أخلفوكَ الموعدا ... ونقضوا ميثاقكَ المؤكدا
هم بيتونا بالوترِ هجدا ... وقتلونا ركعاً وسجدا)
فأقسمَ النبيُّ أن يردها ... لأنها خانت جهاراً عهدها
فحشّدَ الرجالَ نحو الفتحِ ... عشرةَ آلاف قبيلَ الصبحِ
قد ذُعرَ الشركُ غداة شاهدا ... جحافلا تمشي وراء (أحمدا)
وانهار صرحُ البغي والطغيان ... يوم أتى يحبو (أبو سفيانِ)
ويا لهُ من مشهد إذ دخلوا ... (لمكة) فانهار فيها (هُبلُ)
ثمّ هوت من بعده الأصنامُ ... وعمت الفرحة والسلامُ

ودخل النبيُّ في تواضع ... مطأطأ الرأس بقلب خاشعِ
مسبحاً بحمد رب البيتِ ... وخاطب القوم بأعلى صوتِ
اليومَ عزٌ لقريش يُبنى ... فالبيتُ صار للجميع أمنا
مبّيناً في ذاك شأن (المسجدِ) ... والجمعُ صاح باللسانِ واليدِ
لبّيك يا خيرَ الورى جميعا ... غرست في قلوبنا الربيعا
فقال بعد ذاك: يا قوم اسمعوا ... إذ عدت ما ترونني سأصنعُ
قالوا: أخٌ نعرفهُ كريما ... مصدّقاً برّاً بنا رحيما
قال: اذهبوا فأنتم طُلقا ... فقد عفوت عنكم ما سبقا
ودخلوا في دينه أفواجا ... وملأوا الأقطارَ والفجاجا
وبعدها توجه (النبيُّ) ... ليثرب وامرُهُ قويُّ

❁ ❁ ❁

معركة حنين

فاجتمعت (هوازنُ) الكفارِ ... لكي تكيدَ أُمةَ (المختارِ)
ومعها قد أطبق الأعرابُ ... ومشركون حلمهم سرابُ
يقودُهم (مالكٌ بن عوفِ) ... ومعه الأهلون دون خوفِ
ففاجأوا الرسول في (حُنينِ) ... بوثبة طبّقت الافقينِ
والمسلمون كثرةٌ في العددِ ... وليس فيهم حاجةٌ للمددِ
فأعجبتهم يوم ذاك الكثره ... وقد نسوا الرحمن عند الكرّه
فدارت الحربُ قبيلَ الفجرِ ... والجيشُ في غفلتهِ لا يدري
فانهزمَ الجمع من الأصحابِ ... وظل ذاك الجيشُ في اضطرابِ
الا النبيُّ وحده قد ثبتا ... وكان سيفهُ بعزم مصلتا

وثلةٌ من الصحابِ الأوفيا ... من خلصت نفوسهم من الريا
أولهم (عليّ) الكرّارُ ... مضحياً وسيفهُ بتّارُ
وآخرون منهم (العبّاسُ) ... يصيح يا للّه أين الناسُ؟
عودوا إلى النصرة يا رجالُ ... فأنكم فوارسٌ أبطالُ
وحيث شاهد الصحابُ (أحمدا) ... وصرخةً منه تطبّقُ المدى
وهو يكرُّ في صفوفِ الكفره ... ثمّ ينادي أينَ أهلُ (الشجره)؟
فرجعوا وباشروا القتالا ... وقد غدوا في ضربهم أبطالا
ولاح في الآفاق طيرُ النصرِ ... وانهزمت خوفاً جيوش الكفرِ
ونزلت آياتُ ربِّ النورِ ... تعاتبُ الصحبَ على الغرورِ
ووزّعت من بعدها الغنائمُ ... أسرى وخيلٌ حرة كرائمُ
فاعترض (الأنصارُ) في القضيّه ... رغم النفوس الحرّةِ الأبيّه
لكنما الرسولُ قد ارضاهمُ ... بخطبة عصماء قد أبكاهمُ
وذاك نهجُ الخلقِ الكريمِ ... ولفتة من قائد عظيمِ
ورجع الجيشُ إلى (المدينه) ... ليحرسوا أسوارَها الحصينه

❁ ❁ ❁

غزوة تبوك

ويستعدوا للقاء ثانيه ... عند (تبوك) للحشودِ الجانيه
حيث تجمعت فلولٌ جمّه ... شيطانها ينفثُ فيها سُمّه
من كلِّ كافر ومن (نصرانيّ) ... ومن منافق ومن شيطانِ
فعاجلَ الرسولُ ذاك الجمعا ... بخطة يريدُ منها الردعا
فأخبر الأُمةَ بالمسيرِ ... بقولة صريحةَ التعبيرِ

أن يتهيّئوا إلى (الأحلافِ) فجيشُهم ناف على الآلافِ
فنفر الصحبُ بكلّ عزمِ وهمّة صادقة وحزمِ
لكن بعض الضُعفا تخلفوا بحجج من بعدها تأسفوا
قالوا: بأنّ في البيوت (عوره) لذاك نحن لا نطيقُ النُصره
معذّرون يصنعون الحُججا اضحوا يعوّقون من قد خرجا
لم يسمع الجمعُ لهم كلاما ولم يعودوا بعدها كراما
فسار جيش الحقّ لا يبالي بمن تخلّفوا مع (العيال)
وخلّف النبيُّ في المدينه (حيدرةً) ونفسهُ حزينه
فقال: يا عليُّ أنت مني كمثل (هارون) تؤدّي عنّي
وسمع الناسُ (حديث المنزله) وأدركوا المعنى بغير مسأله
وانطلق الجيشُ برغم العُسره والكلُّ منهم ما لديه (تمره)
يخترق الصحراء في عناء دون مؤونة ودون ماء
لكنهم قد واصلوا الطريقا متخذينَ صبرهم رفيقا
حتى إذا ما وصلا (تبوكا) والكلّ منهم قد غدا منهوكا
ارتعب العدوُّ حين شاهدا جيشاً أتاهُ مؤمناً مسددا
فاستسلموا طوعاً وأدّوا (الجزيه) وظل (يوحنّا) يجرُّ خزيه
وقفلوا عوداً إلى ديارهم يواصلون الليلَ في نهارهم
في رحلة طويلةٍ وشُقّه بعيدة كثيرةِ المشقّه

❁ ❁ ❁

مسجد ضرار

فوجدوا بين الطريق مشهدا منافقين قد أقاموا مسجدا

أساسُهُ النفاقُ والمراءُ والكذبُ والتزويرُ والرياءُ
فرفضَ الرسولُ أن يُصلّيا في بقعة تلوّثت من الريا
فأمرَ الأصحابَ أن يدمّروا (قاعدةً) بناؤها مزوّرُ
فلتحرقوه (مسجدَ الضرارِ) فقد بنتهُ عصبةُ الأشرارِ

❁ ❁ ❁

الثلاثة الذين خُلفوا

ودخلوا (المدينةَ المنوّره) ففاجأتهم ثلةٌ معتذره
منهم ثلاثةٌ من الرجالِ يبكون والأكفُّ في الحبالِ
لكن عفا الله عن (الثلاثة) بعد الدعا وبعد الاستغاثه
وانهالت الوفودُ للمبايعه وكلها جاءت إليه طائعه
وأسلم الجميعُ في الحجازِ حيث (تبوكٌ) آخرُ المغازي
وأسلمت كلُ جزيرة العرب لكنما رحيلُ (أحمدَ) اقترب
خلال ذلك النبيُّ عاهدا بعضَ الملا وكان ذاك سائدا

❁ ❁ ❁

البراءة من المشركين

إذ نزلت (براءةُ) التوحيدِ في الحج بعد تلكم العهودِ
من كلّ مشرك وكل آثمِ وكلِ عهد جائر وظالمِ
فحملَ الآياتِ في ذاك (عليّ) دون (أبي بكر) بنصٍّ منزلِ
معناه لا يُبلّغُ الآياتِ الاكَ أو مثلُكَ في الصفاتِ

وامتثل الأمرَ الرسولُ الواثقُ ... وهو أمينٌ في البلاغ صادقُ
وانطلق الإمامُ حيث (الحرمُ) ... يبلّغُ الأمرَ وفيه يُعلِمُ
وقلبهُ الفتيُّ كالحديدِ ... لم يخش من لوم ومن وعيدِ
قد قرأ (التوبةَ) في وادي (منى) ... مهدداً للمشركين مُعلناً
أن لا يحجّوا بعد هذا العامِ ... لكعبةِ الإيمان والإسلامِ
وفرحَ الرسولُ بالذي جرى ... وراح يمدحُ الوصيَّ (حيدرا)

❁ ❁ ❁

حجةُ الوداع وبيعةُ الغدير

وبعد عام حج للوداع ... لكن احسَّ أن نعاه ناعِ
فوقفوا عند (غديرِ خمٍّ) ... يستمعون للنبيِّ الأُمّي
إذ نزلت محكمةُ القرآنِ ... تأمرُ بالتبليغ والبيانِ
(يا أيّها الرسولُ بلّغ ما نزل ... ولا تخف يعصمك الله الأجلّ)
فامتثل النبيُّ أمر الباري ... ثمّ دعا عليَّ بالأكوارِ
حيثُ ارتقاها قائلا: من أولى ... مني بكم مقولةً وفعلا
فضجَّ كلُّ الجمع: الله بنا ... أولى وبعده الرسولُ عندنا
فقال: من كنتُ أنا مولاهُ ... فذا عليّ في الورى مولاهُ
سوف يُعادي الله من عاداه ... وينصرُ الله الذي والاهُ
فهو وصيّ يحفظُ الأمانه ... إذ جمع الله به قرآنه
اليوم أكملتُ لكم دينكمُ ... وتمّت النعمةُ لي عليكُم
فصاح كلُّ الصحب قد رضينا ... إمامةً تحرسُ فينا الدينا
وبايعوا في (الجحفةِ) الوصيّا ... (أبا الحسينِ المرتضى عليا)

وبعضُهم (بخبخ) ثمّ أخفى ... أمراً وفي بيعتهِ ما وفّى
ما عرفوا حقيقة الولايه ... وهي التي في آلدين أسمى غايه
مبدؤها الطاعةُ للقياده ... لتُحفظ الوحدةُ والسياده
وهي امتدادٌ لخُطى النبوّه ... وعزمةٌ ونصرةٌ وقوّه
وافترق الحجيج للأوطانِ ... وابتعدت قوافلُ الركبانِ
ورجع الرسول يبني الأُمه ... بعد أداء تلكمُ المهمّه
لكي يسيرَ جيشهُ أمامهُ ... بحملة يقودُها (أُسامه)
وهو فتىً لم يبلغ العشرينا ... لكنه كان امرأً أمينا
قد لعنَ الرسولُ من تخلّفا ... عنه ومن أنكرهُ أو ارجفا
ورغم ذاك البعضُ ظلَّ محجما ... معتذراً مشكّكاً متّهما

❁ ❁ ❁

مرضُ النبيُ ووفاته

خلال ذلك النبيُّ اعتلا ... لكن سيف عزمه ما كلاّ
قد أثقلت عينيه منهُ (الحمّى) ... واصفرّ لونُه اذىً وهمّا
فصار يدعو (بداوة وكتف) ... لكن بعضَ صحبهِ كان أنف
وقال: إنما النبيُّ يهجرُ ... فحسبنا قرآننا والسِورُ
ويا لها من قولة خطيره ... قد مزقت أُمتنا الكبيره
وبعدها قال النبيُّ: قوموا ... عنّي فقد أُبطل ما أرومُ
والله لو أخذتم الكتابا ... لما غدوتم بعدهُ أحزابا
ولا انقلبتمُ على الأعقابِ ... بل كنتم من خيرة الأصحابِ
وظل في علّته يُعاني ... ويرمقُ الناسَ بقلب حانِ

ورأسهُ في حجرِ صنوه (عليّ) تحيطهُ ملائكُ الربِّ العليّ
وعندهُ سبطاه والزهراءُ وعمّه العباسُ والأبناءُ
وأُمهاتُ المؤمنين حولهُ يبكينَ منه مجدهُ وفضلهُ
وخلفَ بابه تجمّعَ الملا وأصبحَ الكلُّ هناك معولا
وصِيحَ فيهم قُبضَ الرسولُ وأُثكلت فاطمةُ البتولُ
وارتّجتِ الدنيا غداة ارتحلا (محمدٌ) للّهِ جلَّ وعلا
وقام في تجهيزه (الإمامُ) وأهلُ بيته له قيامُ
صلّى عليه الله والملائكُ فهو النبيُّ الطاهر المباركُ
ثمّ (عليّ) هو والعبّاسُ ثمّ توالت للصلاة الناسُ
ودُفن الرسولُ في حجرتهِ ونزل (الإمامُ) في حفرتهِ
وذاك في الثامنِ والعشرينِ في صفرِ المظفرِ الميمون
قد وقع القضاءُ فيه والقدر من هجرة النبيِّ في إحدى عشر
وانقطع الوحي عن النزولِ بعد غيابِ طلعةِ الرسولِ
فالحزن في كل القلوب خيّما والصيحة امتدّت لأعنانِ السما
لكنّما الرسالةُ الغرّاءُ باقيةٌ خالدةٌ . . . معطاءُ

المصادر والمراجع

أشرنا في هوامش هذه الدروس إلى المصادر والمراجع التي رجعنا إليها في تدوين البحث، مع ذكر مؤلّفيها وتاريخ طباعتها، ودور النشر التي تولّت طباعتها ونشرها، وفيما يلي فهرست جامع لهذه المصادر والمراجع بحسب أسماء مؤلفيها وسنيّ وفاتهم ومؤلفاتهم.

. القرآن الكريم

(حرف الألف)

الآصفي: محمد مهدي (معاصر)

١ - المدخل إلى دراسة نصّ الغدير، طبعة مركز الغدير للدراسات الإسلامية، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

الآلوسي: أبو الفضل شهاب الدين محمود أفندي البغدادي (ت ١٢٧٠ هـ)

٢ - تفسير روح المعاني والسبع المثاني، تحقيق: محمد أحمد الأمد، وعمر عبدالسلام، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م).

آل قاسم: عدنان

٣ - نهضة كربلاء والعزة الحسينية، طبعة دار المحجة البيضاء - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٩ هـ - ٢٠٠٨ م).

آيتي: د. محمّد إبراهيم

٤ - تاريخ نبي الإسلام (بالفارسية)، حقّقه: د. أبوالقاسم گرجي، طبعة منشورات جامعة طهران، (١٤٠٩ هـ).

ابن أبي الحديد: عز الدين بن هبة الله المعتزلي (ت ٦٥٦ هـ)

٥ - شرح نهج البلاغة، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، طبعة دار احياء الكتب العربية - القاهرة، ط. الأُولى، (١٣٧٨ هـ - ١٩٥٩ م).

ابن الأثير: عز الدين أبي الحسن علي بن محمد أبي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ)

٦ - الكامل في التاريخ، تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى المحققة، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٩ م).

٧ - أُسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: عادل الرفاعي، طبعة دار احياء التراث العربي، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م).

ابن الأثير: مجد الدين أبي السعادات المبارك بن محمد بن الأثير الجزري (ت ٦٠٦ هـ)

٨ - جامع الأُصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد السلام علوش، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

ابن أعثم: محمد أحمد الكوفي (ت ٣١٤ هـ)

٩ - الفتوح، تحقيق: علي شيري، طبعة دار الأضواء - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).

ابن إسحاق: محمد بن إسحاق بن سيار (ت ١٥١ هـ)

١٠ - كتاب المغازي والسِّير، المعروف بـ (سيرة ابن إسحاق)، جمع نصوصه وحقّقه وقدم له: سهيل زكار، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. الأُولى، (١٩٨٧ م).

ابن بكار: الزبير (ت ٢٥٦ هـ)

١١ - الأخبار الموفقيات، تحقيق: سامي مكي العاني، طبعة عالم الكتب، أُفست الشريف الرضي - قم، ط. الثانية، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).

ابن تيمية: تقي الدين أحمد بن عبد الحليم، (ت ٧٢٨ هـ)

١٢ - منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة مؤسسة قرطبة القاهرة، ط. الأُولى، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

ابن الجوزي: أبو الفرج عبد الرحمن بن علي (ت ٥١٧ هـ)

١٣ - الوفا بأحوال المصطفى، تحقيق: عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلميّة - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

ابن حجر: شهاب الدين أبوالفضل أحمد بن علي العسقلاني (ت ٨٥٢ هـ)

١٤ - الاصابة في تمييز الصحابة، مطبعة مصطفى محمد - القاهرة، (١٣٥٨ هـ - ١٩٣٩ م).

ابن حجر: شهاب الدين أحمد بن محمد بن علي الهيتمي (ت ٩٧٤ هـ)

١٥ - الصواعق المحرقة في الردّ عن أهل البدع والزندقة، تخريج وتعليق: عبد الوهاب عبد اللطيف، طبعة مكتبة القاهرة، ط. الثانية، (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

ابن حزم: أبومحمد علي بن أحمد (ت ٤٥٦ هـ)

١٦ - جمهرة أنساب العرب، تحقيق: عبد السلام هارون، طبعة دار المعارف - مصر، ط. السادسة، (د - ت).

١٧ - جوامع السيرة النبوية، راجعه وعلّق عليه: نايف العباس، طبعة دار ابن كثير - دمشق - بيروت، ط. الثانية، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

١٨ - الفصل في الملل والأهواء والنحل، طبعة المطبعة الأدبية - القاهرة، (١٣٢١ هـ).

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

١٩ - العبر وديوان المبتدأ والخبر الشهير بـ (تاريخ ابن خلدون)، طبعة دار الكتاب اللبناني، (١٩٥٧ م).

ابن خلكان: أبي العباس شمس الدين (ت ٦٨١ هـ)

٢٠ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: احسان عباس، طبعة دار الفكر - بيروت، (د - ت).

ابن سائب: هشام بن محمد الكلبي (ت٢٠٤ هـ)

٢١ - الأصنام، تحقيق: أحمد زكي باشا، طبعة القاهرة - مصر، (د - ت)

ابن سعد: أبو عبد الله محمد بن سعد الزهري (ت ٢٣٠ هـ)

٢٢ - الطبقات الكبرى المعروف بـ (طبقات الصحابة والتابعين والعلماء)، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، طبعة جديدة ومنقحة، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٦ م).

ابن سيد الناس، فتح الدين أبو الفتح محمّد (٧٣٤ هـ)

٢٣ - عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، ضبطه وشرحه وعلّق عليه: إبراهيم محمد رمضان، طبعة دار القلم - بيروت، (د - ت).

ابن شبَّه: أبو زيد عمر (٢٦٢ هـ)

٢٤ - تاريخ المدينة المنورة، تحقيق: فهيم محمد شلتوت، أُفست دار الفكر - قم، (١٤١٠ هـ).

ابن شهر آشوب: أبو جعفر رشيد الدين محمد بن علي السروي المازندراني (ت ٥٨٨ هـ)

٢٥ - مناقب آل أبي طالب، تحقيق: هاشم الرسولي المحلاتي، طبعة مؤسسة انتشارات علامة - قم، (د - ت).

ابن طلحة: كمال الدين محمد الشافعي

٢٦ - مطالب السؤول في مناقب آل الرسول، تحقيق: ماجد العطية، طبعة مؤسسة أُم القرى - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٠ هـ).

ابن عبد البر: الحافظ يوسف (٤٦٣ هـ)

٢٧ - الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: شوقي ضيف، طبعة المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

٢٨ - الإستيعاب في أسماء الأصحاب، طبعة جديدة منقحة، دار الفكر - بيروت، ط. الأُولى (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م).

ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٢٧ هـ)

٢٩ - العقد الفريد، شرحه وحققه: أحمد أمين وزميلاه، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، (١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦ م).

ابن عساكر: أبو القاسم علي بن الحسين بن هبة الله الشافعي (ت ٥٧١ هـ)

٣٠ - تاريخ دمشق الكبير، تحقيق: علي عاشور الجنوبي، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

ابن عقبة: أبو محمد موسى (ت ١٤١ هـ)

٣١ - المغازي النبوية، جمع وتحقيق ودراسة: حسين مرادي، طبعة منشورات ذوي القربى - قم، الطبعة الأُولى، (١٤٢٤ هـ).

ابن العنبري غيريغريوس الملطي (ت ٦٨٥ هـ)

٣٢ - تاريخ مختصر الدول، طبعة أُفست منابع الثقافة الإسلامية - قم، (د - ت).

ابن قيم الجوزية: أبي عبد الله شمس الدين محمد بن أبي بكر (ت ٧٥١ هـ)

٣٣ - زاد المعاد في هدي خير العباد، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

ابن كثير: أبو الفداء إسماعيل (ت ٧٧٤ هـ)

٣٤ - البداية والنهاية، تحقيق: مكتب تحقيق التراث، طبعة مؤسسة التاريخ الإسلامي ودار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت).

٣٥ - السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت).

٣٦ - تفسير القرآن العظيم، تحقيق: أحمد عبد السلام الزغبي، طبعة دار الأرقم - بيروت، (د - ت).

ابن النجار: أبو عبد الله محمد بن محمود البغدادي (ت ٦٤٣ هـ)

٣٧ - تاريخ المدينة المنورة المسمى الدرة الثمينة في تاريخ المدينة، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، طبعة القاهرة، (١٩٥٦ م)، وطبعة دار الزمان المدنية، ط. الأُولى، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

ابن هشام: أبو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ)

٣٨ - السيرة النبوية، حقّقه تحقيق: إبراهيم الابياري وآخرون، ط، مصر، (١٣٥٥ هـ).

ابن منظور: محمد بن مكرّم بن علي الأفريقي (ت ٧١١ هـ)

٣٩ - لسان العرب، تحقيق: علي شيري، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م).

أبو ريّة: محمود

٤٠ - أضواء على السنة المحمدية، أُفسيت نشر البطاء، ط. الخامسة، (د - ت).

أبو زهرة: محمد أحمد (ت ١٣٩٦ هـ)

٤١ - خاتم النبيين، طبعة المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، (د - ت).

أبو الفداء: عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود (ت ٧٣٢ هـ)

٤٢ - المختصر في تاريخ البشر المعروف بـ (تاريخ أبي الفداء)، تحقيق: محمود دوّيب، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧م).

الأحمدي الميانجي: علي (ت ١٤٢٣ هـ)

٤٣ - مكاتيب الرَّسول، طبعة دار الحديث - قم، ط. الأُولى، (١٩٩٨ م).

الأربلي: أبو الحسن علي بن عيسى بن أبي الفتح (ت ٦٩٢ هـ)

٤٤ - كشف الغمة في معرفة الأئمة، قدّم له: السيّد أحمد الحسيني، طبعة المكتبة الحيدرية - قم، (١٤٢٧ هـ).

الأزرقي: أبو الوليد محمد بن عبد الله (ت ٢٢٣ هـ)

٤٥ - أخبار مكة، تحقيق: رشيد صالح، طبعة دار الأندلس - بيروت، ط. الثالثة، (١٤٠٣ هـ - ١٩٨٣ م).

الإصفهاني: أبو الفرج علي بن الحسين (ت ٣٥٦ هـ)

٤٦ - الأغاني، تحقيق: عبد علي مهنّا، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م).

الأميني: عبد الحسين (ت ١٣٩٠ هـ)

٤٧ - الغدير في الكتاب والسنة والأدب، تحقيق وطباعة: مركز الغدير للدراسات والنشر - قم، ط. الأُولى، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م).

الأمين: محسن (ت ١٣٧١ هـ)

٤٨ - أعيان الشيعة، حققه وأخرجه: حسن الأمين، طبعة دار التعارف - بيروت، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٦ م).

أمين: أحمد (الدكتور) (ت ١٣٧٣ هـ)

٤٩ - فجر الإسلام، طبعة مكتبة النهضة العربية المصرية - القاهرة، (١٩٧٥ م).

أنيس: د. إبراهيم وآخرون

٥٠ - المعجم الوسيط، طبعة دار المعارف - القاهرة، ط. الثانية، (د - ت).

إيرفينغ: واشنطن (المستشرق)

٥١ - محمد وخلفاؤه، ترجمة ومقارنة د. هاني يحيى نصري، طبعة المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء - المغرب، ط. الأُولى، (١٩٩٩ م).

(حرف الباء)

باشميل: محمد أحمد

٥٢ - من معارك الإسلام الفاصلة (غزوة بدر الكبرى)، قدّم له: محمود شيت خطاب، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. السادسة، (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

البخاري: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة (ت ٢٥٦ هـ)

٥٣ - صحيح البخاري، طبعة دار الفكر - بيروت، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

بدوي: عبد الرحمن (الدكتور)

٥٤ - موسوعة المستشرقين، طبعة دار العلم للملايين - بيروت، ط. الثالثة، (١٩٩٣ م).

البروجردي: حسين بن علي بن أحمد الطباطبائي (ت ١٣٨٠ هـ)

٥٥ - جامع أحاديث الشيعة، جمع وتحقيق: إسماعيل المعزي، طبعة مؤسسة دار الكتاب - قم، (١٤١٣ هـ).

بروكلمان: كارل (ت ١٩٦٨ م)

٥٦ - تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة منير البعلبكي وزميله، طبعة دار العلم

للملايين - بيروت، ط. الثالثة عشرة، (١٩٩٨ م).

البلاذري: أبو الحسن أحمد بن يحيى (من أعلام القرن الثالث الهجري)

٥٧ - فتوح البلدان، تحقيق: رضوان محمد رضوان، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، (١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م).

٥٨ - أنساب الأشراف، تحقيق: محمد باقر المحمودي، طبعة مجمع احياء الثقافة الإسلامية - قم، ط. الثالثة، (١٤١٩ هـ).

البوطي: د. محمد سعيد رمضان (الدكتور)

٥٩ - فقه السيرة النبوية، طبعة دار الفكر المعاصر - بيروت، ط. العاشرة، (١٤١١ هـ - ١٩٩١ م).

البيهقي: أبو بكر أحمد بن الحسين (ت ٤٥٨ هـ)

٦٠ - دلائل النبوّة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، طبعة دار الكتب العلميّة - بيروت، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

٦١ - السنن الكبرى، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الثالثة، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

(حرف التاء)

التسخيري: محمد علي

٦٢ - نظرة سريعة إلى حياة نبي الإسلام، طبعة في طريق الحق - قم، (١٤٠٣ هـ).

تسين: آرثر كه تسين

٦٣ - ايران في عهد الساسانيين، ترجمة: يحيى الخشاب، طبعة دار النهضة العربية - بيروت، (د - ت).

(حرف الجيم)

الجاحظ: أبو عثمان عمرو بن بحر (ت ٢٥٥ هـ)

٦٤ - التاج في أخلاق الملوك، حقّقه: أحمد زكي باشا، طبعة القاهرة، ط. الأُولى، (١٩١٤ م).

٦٥ - البيان والتبيين، تحقيق: حسن السندوبي، طبعة المكتبة التجارية - مصر، ط. الأُولى، (١٣٤٥ هـ - ١٩٢٦ م).

(حرف الحاء)

الحائري: كاظم

٦٦ - أساس الحكومة الإسلامية، مطبعة النيل - بيروت، ط. الأُولى، (١٩٧٩ م).

الحاكم النيشابوري: أبو عبد الله محمد بن عبد الله الشافعي (ت ٤٠٥ هـ)

٦٧ - المستدرك على الصحيحين، طبعة أُفست دار المعرفة - بيروت، (د - ت).

الحر العاملي: محمد بن الحسن (ت ١١٠٤ هـ)

٦٨ - تفصيل وسائل الشيعة إلى أحكام الشريعة، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لاحياء التراث - قم، ط. الأُولى، (١٤٠٩ هـ).

حسن: إبراهيم حسن (الدكتور)

٦٩ - تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، طبعة دار الأندلس - بيروت، ط. السابعة، (١٩٦٤ م).

حسين: د. طه (ت ١٣٩٣ هـ)

٧٠ - على هامش السيرة، مجموعة مؤلفات طه حسين، طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط. الأُولى، (١٩٧٣ م).

٧١ - الفتنة الكبرى، علي وبنوه، المجموعة الكاملة، طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت، ط. الأُولى، (١٩٧٣ م).

الحسني: هاشم معروف (ت ١٤٠٤ هـ)

٧٢ - سيرة المصطفى نظرة جديدة، طبعة أُفست الشريف الرضي - قم، ط. الأُولى، (١٩٧٥ م).

الحكيم: محمد تقي (ت ١٤٢٣ هـ)

٧٣ - الأُصول العامة للفقه المقارن، أُفسيت مؤسسة آل البيت، ط. الثانية، (١٩٧٩ م).

الحكيم: محمد باقر (ت ١٤٢٤ هـ)

٧٤ - علوم القرآن، طبعة مجمع الفكر الإسلامي - قم، ط. الثالثة، (١٤١٧ هـ).

٧٥ - الإمامة وأهل البيت، طبعة المركز الإسلامي المعاصر - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

الحلبي: نور الدين علي بن إبراهيم (ت ٩٧٥ هـ)

٧٦ - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون، المعروف بـ (السيرة الحلبية)، تحقيق: عبدالله الخليلي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م).

الحموي: شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت (٦٢٦ هـ)

٧٧ - معجم البلدان، قدّم له: محمد بن الرَحمن المرعشلي، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت).

حميد الله: محمد

٧٨ - مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبعة دار النفائس - بيروت، ط. الخامسة، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

(حرف الخاء)

الخشني: أبو ذر بن محمد بن مسعود (ت ٦٠٤ هـ)

٧٩ - شرح السيرة النبوية، طبعة المكتبة الإسلامية - استنبول تركيا، (د - ت).

الخطيب البغدادي: أحمد بن علي (ت ٤٦٣ هـ)

٨٠ - تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

خطاب: محمود شيت

٨١ - الرسول القائد، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. الخامسة، (١٤٠٩ هـ).

الخضري بك: محمد

٨٢ - محاضرات تاريخ الأُمم الإسلامية، الدولة الأُموية، طبعة دار المعرفة -

بيروت، (د - ت).

خلّف الله: محمد أحمد

٨٣ - مفاهيم قرآنية، سلسلة عالم المعرفة، العدد (٧٩) - الكويت، (١٤٠٤ هـ).

خليل: عماد الدين (الدكتور)

٨٤ - دراسة في السيرة النبوية، طبعة الرسالة - بيروت، ط. الحادية عشر، (١٤٠٩ هـ).

٨٥ - التفسير الإسلامي للتاريخ، طبعة دار العلم للملايين - بيروت، (١٩٨٣ م).

الخنيزي: عبد الله

٨٦ - أبو طالب مؤمن قريش، طبعة منشورات دار مكتبة الحياة - بيروت، (١٩٦١ م).

(حرف الدال)

دحلان: أحمد بن زيني (ت ١٣٠٤ هـ)

٨٧ - السيرة النبوية والآثار المحمدية، تحقيق: محمد ناجي السويد، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت).

درمنغهم: إميل

٨٨ - حياة محمد، ترجمة: عادل زعيتر، طبعة المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط. الثانية، (١٩٨٨ م).

دويدار: أمين

٨٩ - صور من حياة الرَّسول، طبعة دار المعارف - مصر، ط. الرابعة، (د - ت).

الديار بكري: حسين بن محمد بن الحسن (٩٦٦ هـ)

٩٠ - تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس، طبعة دار صادر - بيروت، (د - ت).

جعفريان: رسول

٩١ - سيرة سيّد الأنبياء والمرسلين، ترجمة: علي هاشم، طبعة مجمع البحوث الإسلامية - مشهد، ط. الأُولى، (١٤٢٧ هـ).

(حرف الذال)

الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان (ت ٧٤٨ هـ)

٩٢ – تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: عمر التدمري، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت، ط. الثانية، (١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م).

٩٣ – سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، طبعة مؤسسة الرسالة، ط. العاشرة، (١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م).

(حرف الراء)

الراغب الإصفهاني: أبو القاسم الحسين بن محمد بن الفضل (ت ٤٢٥ هـ)

٩٤ – مفردات ألفاظ القرآن، تحقيق: صفوان عدنان داودي، طبعة دار القلم – دمشق، ط. الأُولى، (١٤١٢ هـ – ١٩٩٢ م).

رضا: محمد رشيد

٩٥ – الوحي المحمدي، طبعة دار المعارف – مصر، ط. الرابعة، (د – ت).

روّاس قلعه عي: محمد

٩٦ – قراءة سياسيّة للسِّيرة النبوية، طبعة دار النفائس – بيروت، ط. الثانية، (١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م).

(حرف الزاي)

الزحيلي، وهبة (الدكتور)

٩٧ – الفقه الإسلامي وأدلته، طبعة دار الفكر – دمشق، ط. الثالثة، (١٤٠٩ هـ – ١٩٨٩ م).

الزمخشري: أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمي، الملقب بـ (جار الله) (ت ٥٣٨ هـ).

٩٨ – تفسير الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، طبعة دار الكتاب العربي – بيروت، (د – ت).

الزين: سميع عاطف

٩٩ - صفات الداعية وكيفيّة حمل الدعوة، طبعة دار الكتاب اللبناني - بيروت، (د - ت).

(حرف السين)

السباعي: مصطفى

١٠٠ - السيرة النبوية دروس وعبر، طبعة المكتب الإسلامي - بيروت، (د - ت).

السبحاني: جعفر

١٠١ - سيد المرسلين، ترجمة: جعفر الهادي، طبعة جامعة المدرسين - قم، ط. الأُولى، (١٤١٢ هـ).

السمهودي: نور الدين علي بن أحمد (ت ٩١١ هـ)

١٠٢ - وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (د - ت).

السهيلي: أبوالقاسم عبد الرحمن بن أبي الحسن (ت ٥٨١ هـ)

١٠٣ - الروض الأنف في تفسير السيرة النبوية، طبعة دار الفكر - بيروت، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).

السيوطي: الحافظ جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين (ت ٩١١ هـ)

١٠٤ - الدر المنثور في التفسير بالمأثور، تحقيق: نجدت نجيب، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى المحققة، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(حرف الشين)

شاكر: مصطفى (الدكتور)

١٠٥ - التأريخ العربي والمؤرخون، طبعة دار العلم للملايين، ط. الثالثة، (١٩٨٣ م).

شرف الدين: عبد الحسين (١٣٧٧ هـ)

١٠٦ - النص والاجتهاد، تحقيق: مركز العلوم والثقافة الإسلامية، موسوعة الإمام

السيّد عبد الحسين شرف الدين، ط. الأُولى، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م).

١٠٧ - المراجعات، تحقيق: مركز العلوم والثقافة الإسلامية، موسوعة الإمام السيّد عبد الحسين شرف الدين، ط. الأُولى، (١٤٢٧ هـ - ٢٠٠٦ م).

شمس الدين: محمد مهدي (ت ١٤٢٢ هـ)

١٠٨ - حركة التاريخ عند الإمام علي، طبعة مكتب الاعلام الإسلامي - قم، (١٤٠٥ هـ).

الشنتاوي: أحمد وزملائه

١٠٩ - دائرة المعارف الإسلامية، طبعة دار المعرفة - بيروت، (د - ت).

الشهرستاني: أبو الفتح محمد بن عبد الكريم (ت ٥٤٨ هـ)

١١٠ - الملل والنحل، تحقيق: محمد سيد كيلاني، طبعة دار المعرفة، ط. الثانية، (١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م).

(حرف الصاد)

الصالحي الشامي: محمد بن يوسف (ت ٩٤٢ هـ)

١١١ - سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد، تحقيق: عبد الواحد وافي وزملاءه، طبعة المجلس الأعلس للشؤون الإسلامية - القاهرة، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

الصالح: صبحي الدكتور (ت ١٤٠٧ هـ)

١١٢ - نهج البلاغة، ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية، طبعة دار الهجرة - قم، (د - ت).

مباحث في علوم القرآن، طبعة دار العلم للملايين - بيروت، ط. الخامسة، (١٩٦٨ م).

الصدر: حسن (ت ١٣٥٤ هـ)

١١٣ - الشيعة وفنون الإسلام، طبعة دار المعلم - القاهرة، (١٩٧٦ م).

الصدر: محمد باقر (استشهد سنة ١٩٨٠ م)

١١٤ - المدرسة القرآنية، طبعة دار التعارف - بيروت، ط. الثانية، (١٩٨١ م).

الصدوق: محمد بن علي بن بابويه (ت ٣٨١ هـ)

١١٥ - الخصال، تحقيق: علي أكبر غفاري، طبعة جامعة المدرسين - قم، (د - ت).

الصنعاني: محمد بن إسماعيل المعروف بالأمير (ت ١١٨٢ هـ)

١١٦ - سبل السلام في شرح بلوغ المرام، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الرابعة، (١٩٦٠ م).

الصيمري: مجيد

١١٧ - في ظلال السيرة المطهّرة، المطبعة العلمية - قم، (١٤٠٠ هـ).

(حرف الطاء)

الطباطبائي: محمد حسين (ت ١٤٠٢ هـ)

١١٨ - الميزان في تفسير القرآن، طبعة منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات - بيروت، ط. الخامسة، (١٩٨٣ م).

١١٩ - المرأة في الإسلام، طبعة دار الغدير - بيروت، ط. الأُولى، (١٩٧٣ م).

الطبري: أبو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠ هـ)

١٢٠ - تاريخ الأُمم والملوك المعروف بـ (تاريخ الطبري)، تحقيق: محمد أبوالفضل إبراهيم، طبعة روائع التراث - بيروت، (د - ت).

١٢١ - تفسير جامع البيان عن تأويل آي القرآن، المعروف بـ (تفسير الطبري)، ضبط وتعليق: محمود شاكر، طبعة دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

الطبري: الحافظ محب الدين أحمد بن عبد الله (٦٩٤ هـ)

١٢٢ - ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى، طبعة دار المعرفة، بيروت (١٩٧٤).

الطبرسي: أمين الإسلام أبو علي الفضل بن الحسن (من أعلام القرن السادس الهجري)

١٢٣ - إعلام الورى بأعلام الهدى، تحقيق وطباعة مؤسسة آل البيت - قم، ط. الأُولى، (١٤١٦ هـ).

١٢٤ - مجمع البيان في تفسير القرآن، حققه وعلّق عليه لجنة من العلماء والمحققين، طبعة مؤسسة الأعلمي - بيروت، (١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م).

الطوسي: أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ)

١٢٥ - رجال الطوسي، طبعة المكتبة الحيدرية - النجف، (١٣٨٠ هـ - ١٩٦١ م).

١٢٦ - تلخيص الشافي في الإمامة، حقّقه وعلّق عليه السيّد حسين بحر العلوم، طبعة دار الكتب الإسلامية - قم، ط. الثالثة، (١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤ م).

(حرف العين)

العامري: عماد الدين يحيى (ت ٨٩٣ هـ)

١٢٧ - بهجة المحافل وبغية الأماثل في تلخيص المعجزات والسير والشمائل، بشرح: جمال الدين محمد الأشخر اليمني، طبعة دار صادر - بيروت، (د - ت).

عبده: محمد (ت ١٣٢٣ هـ)

١٢٨ - تفسير القرآن الكريم المشتهر باسم تفسير المنار، طبعة دار الفكر، أُفست الطبعة الثانية، (د - ت).

عبد الحميد: صائب

١٢٩ - ابن تيمية، حياته وعقائده، طبعة مركز الغدير للدراسات الإسلامية - قم، ط. الثانية، (١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م).

عثمان: محمد فتحي (الدكتور)

١٣٠ - المدخل إلى التاريخ الإسلامي، طبعة دار النفائس - بيروت.

العاملي: جعفر مرتضى

١٣١ - الصحيح من سيرة النبي الأعظم، طبعة دار الحديث - قم، ط. الأُولى، (١٤٢٦ هـ)، وطبعة جامعة المدرسين - قم، (١٤١٢ هـ)، وطبعة دار السيرة، (١٤٢٠ هـ).

العاملي: محمد بن علي الموسوي (ت ١٠٠٩ هـ)

١٣٢ - مدارك الأحكام في شرح شرائع الإسلام، طبعة مؤسسة آل البيت - مشهد، ط. الأُولى، (١٤١٠ هـ).

العسكري: مرتضى (ت ١٤٢٨ هـ)

١٣٣ - أحاديث أُم المؤمنين عائشة، طبعة المجمع العلمي الإسلامي، ط. الأُولى، (١٤١٨ هـ - ١٩٩٧ م).

العصفري: خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ)

١٣٤ - تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق: سهيل زكار، طبعة دار الفكر - بيروت، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٣ م).

العقّاد: عباس محمود (ت ١٩٦٤ م)

١٣٥ - عبقرية محمد، سلسلة عبقريات إسلامية، طبعة دار الفتوح - القاهرة، (د - ت).

١٣٦ - المرأة في القرآن، موسوعة إسلاميات العقاد - القاهرة، (د - ت).

العلوي: محمد بن عقيل بن عبد الله (ت ١٣٥٠ هـ)

١٣٧ - النصائح الكافية لمن يتولّى معاوية، طبعة دار الزهراء - بيروت، ط. الثانية، (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

علي: جواد الدكتور (ت ١٤٠٨ هـ)

١٣٨ - المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، أُفست منشورات شريف الرضي - قم، (د - ت).

١٣٩ - تاريخ العرب في الإسلام (السيرة النبوية)، أُفست منشورات الشريف الرضي، (١٤١٤ هـ).

العلي: صالح أحمد (الدكتور)

١٤٠ - دولة الرَّسول في المدينة، طبعة شركة المطبوعات للتوزيع والنشر - بيروت، ط. الأُولى، (٢٠٠١ م).

العياشي: أبو النصر محمد بن مسعود بن عياش السلمي السمرقندي (من علماء القرن الثالث الهجري)

١٤١ - كتاب التفسير الشهير بتفسير العياشي، تحقيق: السيّد هاشم الرسولي المحلاتي، طبعة المكتبة العلمية الإسلامية - طهران، (د - ت).

العيني: بدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد (ت ٨٥٥ هـ)

١٤٢ - عمدة القاري في شرح صحيح البخاري، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، ط. الأُولى المحققة، (١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٣ م).

(حرف الغين)

الغزالي: محمد

١٤٣ - فقه السيرة، خرّج أحاديث الكتاب وعلّق عليه: محمد ناصر الألباني، طبعة دار القلم - دمشق، ط. الرابعة، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٧ م).

غربال: شفيق

١٤٤ - الموسوعة العربية الميسرة باشراف: شفيق غربال، طبعة دار احياء التراث العربي - بيروت، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

الغضبان: منير (الدكتور)

١٤٥ - المنهج الحركي للسيرة النبوية، طبعة دار الوفاء - مصر، ط. العاشرة، (١٤١٩ هـ - ١٩٩٨ م).

(حرف الفاء)

الفخر الرازي: أبو عبد الله محمد بن عمر القرشي، (ت ٦٠٦ هـ)

١٤٦ - تفسير مفاتيح الغيب الشهير بـ(التفسير الكبير) و (تفسير الفخر الرازي)، طبعة المطبعة البهية - القاهرة، (د - ت).

فرات الكوفي: أبي القاسم فرات بن إبراهيم (من أعلام القرن الثالث)

١٤٧ - تفسير فرات الكوفي، تحقيق: محمد كاظم، طبعة وزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي - إيران، ط. الأُولى، (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م).

(حرف القاف)

القرطبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري (ت ٦٧١ هـ)

١٤٨ - تفسير القرطبي الشهير بـ (الجامع لأحكام القرآن)، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، (١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م).

القمي: علي بن إبراهيم (من أعلام القرن الثالث الهجري)

١٤٩ - تفسير القمي، تحقيق: محمد الصالحي، طبعة مكتبة ذوي القربى - قم، (١٤٢٨ هـ).

القندوزي: الحافظ سليمان بن إبراهيم (ت ١٢٩٤ هـ)

١٥٠ - ينابيع المودة، قدّم له وحقّقه: محمدمهدي الخرسان، طبعة المكتبة الحيدرى - قم، ط. السابعة، (١٣٨٤ هـ - ١٩٦٥ م).

(حرف الكاف)

الكلاعي: أبي الربيع سليمان بن موسى (ت ٦٣٤ هـ)

١٥١ - الاكتفاء بما تضمّنه من مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م).

الكليني: أبو جعفر محمد بن يعقوب بن إسحاق الرازي (ت ٣٢٨ هـ)

١٥٢ - الكافي، صحّحه وعلّق عليه: علي أكبر غفاري، طبعة دار الأضواء - بيروت، ط. الثالثة، (١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م).

الكوراني: علي

١٥٣ - آيات الغدير، طبعة مركز المصطفى - قم، ط. الثانية، (١٤٢٢ هـ).

(حرف اللام)

اللحام: حنان

١٥٤ - هدي السيرة النبوية، طبعة دار الفكر - دمشق، ط. الأُولى، (١٤٢٢ هـ - ٢٠٠١ م).

لجنة التأليف والنشر

١٥٥ - تاريخ الإسلام، اعداد لجنة تأليف الكتب الدراسية، المنظمة العالمية للحوزات والمدارس الإسلامية - قم.

(حرف الميم)

المباركفوري: صفي الدين

١٥٦ - الرحيق المختوم، طبعة دار الفكر - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٢ هـ - ١٩٩١ م).

المتقي الهندي: علاء الدين المتقي حسام الدين الهندي البرهان فوري (ت ٩٧٥ هـ)

١٥٧ - كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، ضبط وتصحيح: صفوة السقا وزميله، طبعة مؤسسة الرسالة، (١٤٠٩ هـ - ١٩٨٩ م).

المجلسي: محمد باقر (ت ١١١١ هـ)

١٥٨ - بحار الأنوار، تحقيق: جلال الدين الصغير وزملاءه، طبعة جديدة ومنقحة، إصدار دار التعارف للمطبوعات - بيروت، (١٤٢٣ هـ - ٢٠٠١ م).

المرتضى: علم الهدى الشريف علي بن الحسين (ت ٤٣٦ هـ)

١٥٩ - مجموعة رسائل الشريف المرتضى، تحقيق: أحمد الحسيني، إعداد مهدي الرجائي، طبعة دار القرآن - قم، (١٤٠٥ هـ).

١٦٠ - الشافي في الإمامة، حقّقه وعلّق عليه: السيّد عبد الزهرة الخطيب، راجعه: السيد فاضل الميلاني، طبعة مؤسسة الصادق - طهران، ط. الثانية، (١٤١٠ هـ).

المسعودي: أبو الحسن علي بن الحسين (ت ٣٤٦ هـ)

١٦١ - مروج الذهب ومعادن الجوهر، طبعة دار الأندلس - بيروت، ط. الأُولى، (١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م).

١٦٢ - التنبيه والإشراف، تحقيق: عبد الله إسماعيل الصّاوي، طبعة دار الصّاوي - القاهرة، (د - ت).

مسلم: أبو الحسين مسلم بن الحجّاج القشيري النيشابوري (ت ٢٦١ هـ)

١٦٣ - صحيح مسلم بشرح النووي، طبعة دار الكتاب العربي - بيروت، (١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م).

المظفر: محمد حسن (ت ١٣٧٥ هـ)

١٦٤ - دلائل الصدق لنهج الحق، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت لاحياء التراث - دمشق، ط. الأُولى، (١٤٢٢ هـ).

المظفر: محمد رضا (ت ١٣٨٣ هـ)

١٦٥ - السقيفة، طبعة أُفست مكتبة الزهراء - قم، (د - ت).

مغلطاي: الحافظ مغلطاي بن قليج (ت ٧٦٢ هـ)

١٦٦ - الاشارة إلى سيرة المصطفى وتاريخ مَن بعده من الخلفاء، الشهير بسيرة مغلطاي، تحقيق: محمد نظام الدين، طبعة دار القلم، ط. الأُولى، (١٤١٦ هـ - ١٩٩٦ م).

مغنية: محمد جواد (ت١٩٧٩م - ١٤٠٠هـ)

١٦٧ - تفسير الكاشف، طبعة دار العلم للملايين، ط. الثالثة، (١٩٨٠ م).

المفيد: أبو عبد الله محمد بن محمد بن النعمان (ت ٤١٣ هـ)

١٦٨ - الارشاد في معرفة حجج الله على العباد، تحقيق ونشر: مؤسسة آل البيت - قم، سلسلة مؤلفات الشيخ المفيد، طبعة دار المفيد - بيروت، ط. الثانية، (١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م).

المقدسي: المطهر بن طاهر (ت ٥٠٧ هـ)

١٦٩ - البدء والتاريخ، باشراف: المستشرق الفرنسي كلمان هور (باريس ١٩٠١ م)، طبعة مكتبة الثقافة الدينية - مصر، (د - ت).

المقريزي: تقي الدين أحمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ)

١٧٠ - امتاع الأسماع بما للنبي من الأحوال والأموال والحفدة والمتاع، تحقيق: محمد عبد الحميد النميسي، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، ط. الأُولى، (١٤٢٠ هـ - ١٩٩٩ م).

١٧١ - النزاع والتخاصم بين بني أُمية وبني هاشم، قدّم له: السيّد محمد بحر العلوم، طبعة مؤسسة أهل البيت - بيروت، (١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م).

مولانا: محمد علي

١٧٢ - محمد رسول الله، ترجمة: مصطفى فهمي، طبعة القاهرة، (١٩٤٥ م).

المنقري: نصر بن مزاحم (ت ٢١٢ هـ)

١٧٣ - وقعة صفين، تحقيق وشرح: عبد السلام هارون، أُفست طبعة مصر الثانية، (١٣٨٢ هـ).

الموسوي: هاشم

١٧٤ - سيرة محمّد رسول الله، اصدار منظّمة الإعلام الإسلامي - إيران، ط. الأُولى، (١٤٠٨ هـ).

الميلاني: علي الحسيني

١٧٥ - تشييد المراجعات وتفنيد المكابرات، طبعة مطبعة ياران - قم، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ).

(حرف النون)

النَّدوي: أبو الحسن علي الحسيني

١٧٦ - السيرة النبوية، طبعة دار ابن كثير - دمشق، ط. الثانية عشرة، (١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م).

(حرف الهاء)

هارت: مايكل

١٧٧ - المائة الأوائل، ترجمة: خالد أسعد وزميله، طبعة دار قتيبة - القاهرة، ط. الأُولى، (١٩٧٩ م).

الهاشمي: أحمد (ت ١٣٦٢ هـ)

١٧٨ - جواهر الأدب في أدبيات وانشاء لغة العرب، طبعة مكتبة السعادة - القاهرة، ط. السادسة والعشرون، (١٩٦٥ م).

الهمداني: الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت. بين سنة ٣٦٠ هـ)

١٧٩ - صفة جزيرة العرب، تحقيق: محمد بن علي الأكوع، طبعة مكتبة الارشاد - صنعاء، ط. الأُولى، (١٤١٠ هـ - ١٩٩٠ م).

هيكل: محمد حسين

١٨٠ - حياة محمد، طبعة مكتبة النهضة المصريّة - القاهرة، ط. الثالثة عشر، (١٩٦٨ م).

(حرف الواو)

الواحدي: أبي الحسن علي بن أحمد (ت ٤٦٨ هـ)

١٨١ - أسباب النزول، طبعة دار الكتب العلمية - بيروت، أُفست انتشارات الشريف الرضي - قم، (د - ت).

وجدي: محمد فريد

١٨٢ - دائرة المعارف القرن العشرين، طبعة دائرة المعارف - القاهرة، ط. الرابعة، (١٣٨٦ هـ - ١٩٦٧ م).

ولفنسون: اسرائيل

١٨٣ - تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، قدّم له: الدكتور طه حسين، طبعة دار ومكتبة بيبليون - لبنان، (٢٠٠٦ م).

(حرف الياء)

يحيى: لطفي عبد الوهاب (الدكتور)

١٨٤ - اليونان، مقدمة في التاريخ الحضاري، طبعة دار النهضة العربية - بيروت، (د - ت).

اليعقوبي: أبو يعقوب أحمد بن إسحاق بن واضح (ت ٢٨٤ هـ)

١٨٥ - تاريخ اليعقوبي، طبعة دار صادر - بيروت، (د - ت).

اليوسفي: محمد هادي الغروي

١٨٦ - موسوعة التاريخ الإسلامية، طبعة مجمع الفكر الإسلامي - قم، ط. الأُولى، (١٤١٧ هـ).

الفهرست

المقدمة ٥

الدرس الثامن والعشرون/ أحداث السنة التاسعة من الهجرة
غزوة تبوك «ق١»
(٧-٤٤)

١ - تاريخ الغزوة، وأسماؤها، وأسبابها ٩
٢ - أمر رسول الله ﷺ المسلمين بالتهيؤ للخروج ١٦
٣ - المنافقون ودورهم التخذيلي في هذه الغزوة ١٩
٤ - حثّ رسول الله ﷺ المسلمين على المشاركة في الغزوة والانفاق بالمال ٢٤
٥ - المتخلفون عن غزوة تبوك ٢٨
الصنف الأول: البكائون ٢٨
الصنف الثاني: المعذِّرون ٢٩
الصنف الثالث: المنافقون ٣١
الصنف الرابع: من أبطأت بهم النيّة ٣١
الصنف الخامس: المَعْذورون وقصة أبي ذرّ الغفاري ٣٢
٦ - أسباب بقاء علي بن أبي طالب في المدينة وارجاف المنافقين ٣٤
الأسئلة: ٤٤

الدرس التاسع والعشرون/ أحداث السنة التاسعة من الهجرة
غزوة تبوك «ق٢»
(٤٥-٩٢)

١ - من حوادث الطريق إلى تبوك ٤٧
٢ - رسول الله ﷺ في تبوك، وانسحاب جيش الروم ٥٣
٣ - رسول الله ﷺ يتخذ المساجد في تبوك ويعظ المسلمين فيها ٥٥

٤ - سرية خالد إلى الأكيدر، ومصالحة يُحَنَّة بن رؤبة ٥٨
٥ - من حوادث العودة إلى المدينة ٦١
الحادثة الأُولى: محاولة اغتيال رسول الله ﷺ ٦٢
الحادثة الثانية: هدم مسجد ضرار ٦٨
٦ - رسول الله ﷺ في المدينة، وقصة الثلاثة الذين خلفوا ٧١
٧ - ما نزل من القرآن في غزوة تبوك ٨٢
٨ - من آثار ونتائج غزوة تبوك ٨٤
٩ - الدروس والعبر المستفادة من غزوة تبوك ٨٧
الأسئلة: ٩٢

الدرس الثلاثون/ أحداث السنة التاسعة من الهجرة
عام الوفود، وقصة براءة
(٩٣-١٤٦)

١ - الواقع السياسي الجديد بعد غزوة تبوك ٩٥
٢ - وفود القبائل العربية الى المدينة ٩٦
٣ - نظرة عامة حول هذه الوفود ٩٩
٤ - من أهم وفود السنة التاسعة من الهجرة ١٠٥
٥ - من معطيات عام الوفود ١١٩
٦ - قصة براءة وحج السنة التاسعة ١٢٢
٧ - حوادث ووفيات ١٣٨
٨ - الدروس والعبر ١٤١
الأسئلة: ١٤٦

الدرس الحادي والثلاثون/ أحداث السنة العاشرة من الهجرة
تتابع الوفود وقصّة المباهلة
(١٤٧-٢١٢)

المدخل ١٤٩
١ - من آثار تبليغ براءة في موسم الحج ١٤٩
٢ - تتابع الوفود إلى المدينة ١٥٢
أولا: وفود السنة العاشرة من داخل الجزيرة وأطرافها ١٥٢
ثانياً: وفادات أهل اليمن في السنة العاشرة ١٥٩

٣ - وفد نصارى نجران، وقصة المباهلة ١٦٨
٤ - إشكاليات تاريخ المباهلة ١٨٥
٥ - من مداليل قصة المباهلة ١٩١
٦ - ارسال الأمراء وعمال الصدقات ١٩٧
٧ - ارسال الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام إلى اليمن ١٩٨
٨ - وفاة إبراهيم ابن النبي صلى الله عليه وآله ٢٠٣
٩ - الدروس والعبر ٢٠٦
الأسئلة: ٢١٢

الدرس الثاني والثلاثون/ أحداث السنة العاشرة من الهجرة
حجة الوداع
(٢١٥-٢٦٩)

١ - أهمية حجة الوداع واهدافها ٢١٥
٢ - تاريخ وعدد من خرج مع رسول الله في حجة الوداع ٢٢١
٣ - الامام علي عليه السلام يوافي رسول الله صلى الله عليه وآله في مكة ٢٣٠
٤ - مجمل مناسك حج رسول الله كما أداها في حجة الوداع ٢٣٣
٥ - من خطب رسول الله صلى الله عليه وآله في حجة الوداع ٢٤٧
٦ - من معطيات حجة الوداع ٢٥٨
٧ - الدروس والعبر ٢٦٥
الأسئلة: ٢٦٩

الدرس الثالث والثلاثون/ أحداث السنة العاشرة من الهجرة
بيعة الغدير
(٢٧١-٣٢٣)

المدخل ٢٧٣
١ - النص التاريخي لبيعة الغدير ٢٧٤
٢ - تواتر حديث الغدير ٢٧٧
٣ - دلالة نص الغدير ٢٨٢
٤ - ما نزل من القرآن في حديث الغدير ٢٩١
٥ - حديث الغدير في الشعر والأدب ٢٩٤
٦ - اشكاليات متأخرة أُثيرت حول حديث الغدير ٣٠١

٧ - من معطيات بيعة الغدير ٣١١
٨ - الدروس والعبر ٣١٤
الأسئلة: ٣٢٣

الدرس الرابع والثلاثون/ أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة
الإعداد لجيش أُسامة
(٣٢٥-٣٧٦)

١ - عودة رسول الله ﷺ إلى المدينة ٣٢٧
٢ - أوضاع الجزيرة العربية وأطرافها في أواخر حياة الرَّسول ٣٣١
٣ - الأوضاع السياسية في اليمن وظهور حركة المتنبئين ٣٣٢
٤ - تهديد الروم للدولة الإسلامية من حدودها الشمالية ٣٥٦
٥ - أسباب إعداد جيش أُسامة ٣٥٧
٦ - توجيهات واعتذارات واهية ٣٦٩
٧ - الدروس والعبر ٣٧٣
الأسئلة: ٣٧٦

الدرس الخامس والثلاثون/ أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة
جيشٌ لَمْ يَذْهَب، وكتابٌ لَمْ يُكتَب، والرَّسول يرحل
(٢٧٥-٤٥٢)

١ - حوادث ما قبل وفاة رسول الله ﷺ ٣٧٩
٢ - حوادث وفاة رسول الله ﷺ ٤٠٢
٣ - كلمات الرثاء والعزاء بمصاب فقد النبي ﷺ ٤٢٤
٤ - الدروس والعبر ٤٢٧

نظم السيرة النبوية/ قطوف دانية من ملحمة
قوافل النور: للشاعر الأديب العلاّمة السيّد حسين بركة الشامي
(٤٣٣-٤٥٢)

المصادر والمراجع ٤٥٣
الفهرست ٤٧٧